

المجموع الكامن المؤلفات الأمينة

عباس محمود

# العقيدة

الجديدة في

العقيدة في الأئمة الامية - ٢

يحتوي على

عقيدة الإمام علي  
الحسين أبو الشهداء  
فاطمة الزهراء والفاتحية  
أهل البيت



المجموعـة الكـاملـة لـمؤلفـات الأـستـاذ

عـبـاس سـعـود

# العقـد الـلـامـيـة

الـجـلـد الـلـاـنـي

الـعـقـد الـلـامـيـة - ٢

يـحتـوي عـلـى

عقبـرـة الإمام عـلـيـتـ  
الـحسـينـ أـبـو الشـهـادـةـ  
فـاطـمـةـ الـزـهـراءـ وـالـفـاطـمـيـونـ  
أـهـلـ الـبـيـتـ

دار الـكتـاب الـلـبـانـيـ - بـيرـوـتـ

جَمِيعُ الْمُصْنَوْقِ مَحْفَوظَةُ الْمُؤْلِفِ وَالنَّاشرِ  
دَارُ الْحِكْمَةِ الْبَلْسَانِيَّةِ  
بَرْقِيَّا : كَتَابَان - بَيْرُوْت  
صَبَّ : ٣١٧٦  
بَيْرُوْت - لَبَّان

الطبعَةُ الْأُولَى

١٩٧٤

عَبَاسُ حَمْود

الْعَقْلُ كَلَّا

عَبْرَةُ الْإِمَامِ عَلَيْهِ

دار الكتاب اللبناني - بيروت



مكتبة لسان العرب

## تقديم

في كل ناحية من نواحي النقوس الإنسانية ملتقي بسيرة علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ..

لأن هذه السيرة تخاطب الإنسان حيئماً اتجه إليه الخطاب البليغ من سير الأبطال والمعظماء ، وتشير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشري من ضروب العطف ومواقع العبرة والتأمل

في سيرة ابن أبي طالب ملتقي بالعاطفة المشبوبة والاحساس المتعلق إلى الرحمة والأكبار .. لأنه الشهيد أبو الشهداء ، يجري تاريخه وتاريخ أبنائه في سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة ، ويتراءون للمتابع من بعيد واحداً بعد واحد شيوخاً جلهم وقار الشيب ثم جلهم السيف الذي لا يرحم ، أو فتياناً عوجلوا وهم في نفرة العمر يحال بينهم وبين متاع الحياة ، بل يحال بينهم أحياناً وبين الزاد والماء ، وهم على حياض المنية جياع ظماء .. وأوشك الألم لمصرعهم أن يصبح ظواهر الكون بصبغتهم وصبغة دمائهم ، حتى قال شاعر فيلسوف كأبي العلاء لا يظن به التشيع بل ظلت باسلامه الظنو :

وعلى الأفق من دماء الشهيد ين علي ونجله شاهدان  
فهمَا في أواخر الليل فجرا ن ، وفي أولياته شفقان

وهذه غاية من امتراج العاطفة بتلك السيرة قلماً تبلنها في سير الشهداء غاية ، وكثيراً ما تعطش إليها سائر الأمم في قصص الفداء التي عمرت بها تواريخ الأديان ..

وقد سيرة ابن أبي طالب ملتقي بالخيال حيث تحقق الشاعرية الإنسانية

فِي الْأَجْوَاءِ أَوْ تَفُوسِ فِي الْأَغْوَارِ . فَهُوَ الشَّجَاعُ الَّذِي نَزَعَتْ بِهِ الشَّاعِرِيَّةُ  
الْإِنْسَانِيَّةُ مِنْزَعُ الْحَقِيقَةِ وَمِنْزَعُ التَّخْيِيلِ ، وَاشْتَرَكَ فِي تَعْظِيمِهِ شَهُودُ  
الْعِيَانِ وَعُشَاقُ الْأَعْجَابِ ... أَلَمْ يَحْارِبِ الْمَرْدَةُ فِي فَلَوَاتِهَا ؟ .. أَلَمْ يَخْلُقْ  
لَهُ الرَّوَاهَةُ أَنْدَادًا مِنَ الْمَنَاجِزِينَ وَالْمَبَارِزِينَ لَمْ يَخْلُقْهُمُ اللَّهُ ؟ .. أَلَمْ يَسْتَصْفِرْ  
عَلَيْهِ الْمَجْبُونُ الْفَالُولُونَ فِي الْجَبِّ أَنْ يَصْرُعَ مِنْ عِرْفَنَا مِنْ خَصْوَمِهِ فَأَنْشَأُوا  
لَهُ مِنْ الْخَصْوَمِ الْمَغْلُوبِينَ مِنْ لَمْ يَعْرِفُهُمْ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ ؟ .. أَلَمْ يَوْشِكَ مِنْ  
وَصْفَوْهُ وَوَصْفَوْهُ وَقَعَاتِهِ وَفَتَكَاهُ أَنْ يَلْحِقُهُ بِأَبْطَالِ الْأَسْاطِيرِ وَهُوَ هُوَ

### أَصْدِقُ الْأَبْطَالِ فِي أَصْدِقِ مَجَالٍ

وَتَلْتَقِي سِيرَتَهُ - عَلَيْهِ رَضْوَانُ اللَّهِ - بِالْفَكْرِ كَمَا تَلْتَقِي بِالْخِيَالِ  
وَالْمَاطِفَةِ ، لِأَنَّهُ صَاحِبُ آرَاءٍ فِي التَّصُوفِ وَالشَّرِيعَةِ وَالْأَخْلَاقِ سَبَقَتْ  
جَمِيعَ الْأَرَاءِ فِي الثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَلِأَنَّهُ أَحْجَى الْخَلْفَاءِ الرَّاشِدِينَ أَنْ  
يُعَدَّ مِنْ أَصْحَابِ الْمَذاهِبِ الْحَكِيمَةِ بَيْنَ حُكَمَاءِ الْعُصُورِ ، وَلِأَنَّهُ أُوتَىْ بِنَ  
الْذِكْرِ مَا هُوَ أَشَبَّ بِذِكْرِ الْبَاحِثِينَ مِنْهُ بِذِكْرِ السَّاسَةِ الْمُتَغَلِّبِينَ ،  
فَهُوَ الْذِكْرُ الَّذِي تَحْسَهُ فِي الْفَكْرَةِ وَالْخَاطِرَةِ قَبْلَ أَنْ تَحْسَهُ فِي تِبْيَاجِهِ  
الْمُمْلِ وَمَجْرِيِ الْأَمْرِ ..

وَلِلْلَّدُوقِ الْأَدِيبِ - أَوِ الْذُوقِ الْفَنِيِّ - مُلْتَقِيَّ بِسِيرَتِهِ كَمُلْتَقِيِّ الْفَكْرِ  
وَالْخِيَالِ وَالْمَاطِفَةِ ، لِأَنَّهُ رَضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَانَ أَدِيبًا بِلِفَالِ نَهْجَ مِنَ  
الْأَدَبِ وَالْبَلَاغَةِ يَقْتَدِي بِهِ الْمُقْتَدُونَ ، وَقَسْطَ مِنَ الذُّوقِ مُطَبَّوعٌ يَحْمِلُهُ  
الْمُتَذَوِّقُونَ ، وَإِنْ تَطَاولَتْ بَيْنَهُمْ السَّنُونَ . فَهُوَ الْحَكِيمُ الْأَدِيبُ ،  
وَالْخَطِيبُ الْمَبِينُ ، وَالْمَنْشِئُ الَّذِي يَتَصَلَّ إِنْشَاؤِهِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا اتَّصلَ آيَاتُ  
الْتَّأْثِيرِ وَالنَّاظِمِينَ ..

وَلِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ نَوَاحِيَهَا الْكَثِيرَةِ غَيْرُ نَوَاحِيِ الْعَطْفِ وَالْتَّخْيِيلِ  
وَالْتَّفْكِيرِ ، وَتَذَوُقُ الْحَسْنِ الْجَمِيلِ مِنَ التَّعْبِيرِ  
فَمِنْ نَوَاحِيَهَا الْكَثِيرَةِ نَاحِيَّةٌ لَمْ تَقْطُعْ قَطْ فِي زَمَنِ الْأَزْمَانِ ، وَهِيَ  
نَاحِيَّةُ الْخَلَافِ بَيْنَ الْطَّبَائِعِ وَالْأَذْهَانِ ، أَوْ نَاحِيَّةُ الْخَصْوَمَةِ النَّاشِيَّةِ أَبْدَا  
عَلَى رَأْيِ مِنَ الْأَرَاءِ ، أَوْ حَقِّ مِنَ الْحَقَوْقِ ، أَوْ وَطْنَ مِنَ الْأَوْطَانِ

فقد يفترق المقل والذوق بعض حين ، وقد يفترق الخيال والعاطفة بعض حين ، ولكن الذي لم يفترق قط ولا فحاله يفترق في حين من الأحيان خصم العقول وجدل الألسنة واختلاف المخالفين وتشييع التشيعين وإنها هنا للمجال الرغيب والمتلقى القريب في سيرة هذا الإمام الأوحد التي لا تشبهها سيرة في هذه الخاصة بين شتى الخواص ، وهو رضوان الله عليه قد قال في ذلك أوجز مقال حين قال :

« ليجنبني أقوام حتى يدخلوا النار في حبي ، ويفوضني أقوام حتى يدخلوا النار في بغضي » .. أو حين قال : « يهلك في رجالان : محب مفطر بما ليس في وبغض يحمله شأناني على أن يهبني » وصدق الإمام الكرييم في غلو الطرفين من محبيه ومن بغضيه . فقد بلغ من حب بعضهم إياه أن رفعوه إلى مرتبة الآلهة المعبودين ، وبلغ من كراهة بعضهم إياه أن حكموا عليه بالمرور من الدين : هنا الروافض الغلاة يعبدونه وينهاهم عن عبادته فلا يطيعون .. ويستسيهم فيصرون على الكفر أي إصرار ، ويأمر باحراقهم فيقولون لهم يساقون إلى الحفيرة الموددة : إنه الله وإنه هو الذي يذهب بالنار ! ..

وهناك الخوارج الغلاة يعلوون كفره ويطلبوه . منه التوبة إلى الله عن عصيانه .. ويسبوه على النساير كما سبه خصوصه الأمويون الذين خالفوهم في العقيدة ووافقوهم على السباب ..

ميدان من ميادين الملاحقة لم يتسع قط ميدان متسعه في تاريخ الأبطال المعرضين للحب والبغضاء : يقول إنسان : إله ، ويقول إنسان : كافر مطرود من رحمة الله ..

وناحية أخرى من نواحي النفس الكثيرة تلاقتها سيرة الإمام في أكثر من طريق : وتلك هي ناحية الشكوى والتمرد أو ناحية الشوق إلى التجديد والصلاح ..

فقد أصبح اسم علي علماً يلتف به كل مغصوب ، وصيحة ينادي بها كل طالب الاصفاف ، وقامت باسمه الدول بعد موته لاته لم تقم له دولة في

حياته . وجعل الفاضبون على كل مجتمع باغ ، وكل حكومة جائرة يلوذون بالدعوة الملعوبة لأنها السعادة المرادفة لكلمة الاصلاح ، أو لأنها النفس الذي يستروح اليه كل مكظوم .. فمن نازع في رأي ، ففي اسم علي شفاء لتواءز نفسه ، ومن ثار على ضيم ففي اسم علي حافر لثورته ومرضاة لنضبه ، ومن واجه التاريخ العربي بالعقل أو بالذوق أو بالخيال او بالعاطفة فهناك ملتقي بينه وبين علي في وجهه من وجوهه ، وعلى حالة من حالاته . وتلك هي المزبة التي انفرد بها تاريخ الامام بين تواريف الائمة الخلفاء ، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائع تخلقها الطبيعة الآدمية ان قصر في خلقها التاريخ والمؤرخون

وكل ملتقي من هذه الملتقيات يدع الكاتب في حذر ما يده من حذر ، لأن اشتباك العوامل النفسية يتزيد صعوبة الباحث عن نفس من النفوس ، ولا ينقصها أو يتول بها الى البساطة والوضوح ، وكلما قلت هذه العوامل وانحصرت في ناحية من النواحي سهل الخلوص الى مقطع الحق فيها . فالبطل الذى يلتقي بالفکر وحده أسهل من البطل الذى يلتقي بالفکر والعاطفة ، وان هذا الأسهل من الذى يلتقي بالفکر والعاطفة والخيال ، وكل أولئك أسهل من يلتقي في ألف سنة متواالية بدخولات النفوس جميعاً من طموح الى المثل العليا ، او حرص على الملاحة ، او شغف بالبلوغ او رياضة على التقوى ، مزيداً على الخيال والشعور والتفكير لهذا نعلم غير متددين في علمنا أن واجينا في « عبقرية الامام » مرسوم الغاية والطريق ، وهو واجب التبسيط والقصد الى الخطوة الوسطى ، وفي علمنا بهذا بعض التيسير ، وان لم يكن فيه كل التيسير .. فرجع « بعقرية الامام » الى الحقيقة الوسطى

فرجع من عشرين طريقاً الى بداية واحدة ، لأن الطريق الواحدة لا تؤدي اليها أقرب أداء . وحسبنا اننا عرفنا ضرورة الرجوع من كل هذه الطرق الى تلك البداية المقصودة فعلى برکة الله ..

عبدالله محمود العقاد

## صفاته

المشهور عن علي كرم الله وجهه انه كان أول هاشمي من أبوين هاشميين .. فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها في كثير من أعلامها المقدسين ، وهي في جملتها: النبل والأيد والشجاعة والمرءة والذكاء ، عدا المؤثر في سماتها الجسدية التي تلاقت أو تقارب في عدة من أولئك الأعلام

فهو ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف

وقيل ان اسمه الذي اختارته له أمه : حيدرة باسم أبيها أسد ، والحيدرة هو الأسد .. ثم غيره أبوه فسمّاه علياً وبه عرف واشتهر بعد ذلك ..

وكان علي أصغر أبناء أبيه ، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب ، وبين كل منهم وأخيه عشر سنين

قيل إن عقيلاً كان أحب هؤلاء الأخوة إلى أبيه ، فلما أصابه التقط قريشاً وأهاب رسول الله عليه السلام بعميه حمزة والعباس أن يحملوا ثقل أبي طالب في تلك الأزمة جاءوه وسائلوه أن يدفع إليهم ولده ليكتفوا أمرهم ، فقال : دعوا لي عقيلاً وخذلوا من شتم . فأخذ العباس طالباً، وأخذ حمزة جعفر، وأخذ النبي عليه السلام علياً كما هو مشهور . فعوضه بإثمار النبي بالعجب عن إثمار أبيه ، ولكنه عرف هذا الإثار في طفولته الأولى فكان سابقة باقية الأثر في نفسه على ما يledo من أطوار حياته التالية ، وجاءت لهذه السابقة لواحقها الكثيرة على نوقع واستعداد

فتعود أن يفوته الحق والتفضيل وهو يدرج في صباحه  
وربما صح من أوصاف علي<sup>ع</sup> في طفولته أنه كان طفلاً مبكر النماء  
سابقاً لأنداده في الفهم والقدرة ، لأنه أدرك في السادسة أو السابعة من  
عمره شيئاً من الدعوة النبوية التي يدق فهمها وتنبه لها على من كان  
في مثل هذه السن المبكرة . فكانت له مزايا التبشير في النماء كما كانت  
له أباءٌ ومتابعيه التي تلازم أكثر المبكرين ، ولا سيما المولودين منهم  
في شيخوخة الآباء ..

ونشأ رضي الله عنه رجلاً مكِّنَ البُيُانَ فِي الشَّبَابِ وَالْكَهُولَةِ ، حافظاً  
لتقويمه المكين حتى ناهزَ الستين ..

قال واصفوه وهو في تمام الرجولة انه كان رضي الله عنه ربعة أميل  
إلى القصر ، آدم - أي أسر - شديد الأدمة ، أصلع ميضم الرأس  
واللحية طويلاً ، ثقيل العينين في دفع وسعة ، حسن الوجه واضح  
الشاشة ، أغيد كأنما عنقه ابريق فضة ، عريض المنكبين لهما مشاش  
كمشاش (١) السبع الضاري لا يتبيّن عضده من ساعدده قد أدمجت  
ادماجاً . وكان أبجر - أي كبير البطن - يميل إلى السمنة في غير  
افراط ، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها ، ضخم عضلة الذراع دقيق  
مستدقها ، شلن الكفين ، يتکفاً في مشيته على نحو يقارب مشية النبي ،  
ويقدم في العرب فيقدم مهرولاً لا يلوي على شيء

وتدلّ أخباره - كما تدل صفاته - على قوّة جسدية بالغة في المكانة  
والصلابة على العوارض والآفات . فربما رفع الفارس بيده فجلد به  
الأرض غير جاهد ولا خافل ، ويمسك بذراع الرجل فكانه أمسك  
بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس ، و Ashton عنده أنه لم يصارع أحداً إلا  
صرعه ، ولم ييارز أحداً إلا قتلته ، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه  
لَا رجال ، ويحمل الباب الكبير يعني بقلبه الأشداء ، ويصبح الصيحة  
فتتحلّ لها قلوب الشجعان

---

(١) المشاش : راس المعلم

ومن مكانة تركيبه رضي الله عنه انه كان لا يالي الحر والبرد ، ولا يحفل الطوارئ الجوية في صيف ولا شتاء ، فكان يلبس ثياب الصيف في الشتاء وثياب الشتاء في الصيف ، وسئل في ذلك فقال : « اذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الى وأنا أرمد العين يوم خير فقلت : يا رسول الله ، اني أرمد العين . فقال : اللهم اذهب عنه الحر والبرد ، فما وجدت حررا ولا بريدا منذ يومئذ .. »

\* \* \*

ولا يفهم من هذا أنه رضوان الله عليه كان معدوم الحس بالحر والبرد بالغا ما بلغت بهما القساوة والإيذاء . فقد كان يرعد للبرد اذا اشتد ولم يتخذ له عدة من دثار يقيه . قال هرون بن عترة عن أبيه : دخلت على علي بالخورق وهو فصل شتاء وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين ، ان الله قد جعل لك ولأهلتك في هذا المال نصيا وأنت تفعل هذا بنفسك ؟ .. فقال : والله ما أرزؤكم شيئا ، وما هي الا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة

فليس هو انعدام حس بالصيف والشتاء . إنما هي مناعة قوية خصت بها بنيته ، لم يخص بها معظم الناس

وكان الى قوته البالغة ، شجاعا لا ينهض له أحد في ميدان مناجزة ؛ فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرنا من الأقران بالغا ما بلغ من الصولة ورعبه الصيت ، واجتراً وهو فتنى ناشيء على عمرو بن ود فارس الجزيرة العربية الذي كان يقوم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه ، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو مقنعا في الحديد ينادي جيش المسلمين : من يiarz .. فصاح علي : أنا له يابني الله .. قال النبي وبه اشفاقي عليه : انه عمرو . اجلس . ثم عاد عمرو ينادي : لا رجل ييرز .. وجعل يؤذن لهم قائلا : أين جتكم التي زعمتم انكم داخلوها ان قتلتم ؟ .. أفلاتبرزون التي رجالا ؟ .. فقام علي مرة بعد مرة وهو يقول : أنا له يارسول الله ، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة : اجلس . انه عمرو ، وهو يجيئه :

وإن كان عمراً .. حتى أذن له فتشي إليه فِرحاً بهذا الأذن المنوع كأنه  
الأذن بالخلاص .. ثم نظر إليه عمرو فاستصرفه وأتف أن يناجزه وأقبل  
يسأله : من أنت ؟ .. قال ولم يزد : أنا علي . قال : ابن عبد مناف ؟ ..  
قال : ابن أبي طالب . فأقبل عمرو عليه يقول : يا ابن أخي .. من أعمالك  
من هو أسن ، واني أكره أن أهريق دمك ، فقال له علي : لستني والله  
لا أكره أن أهريق دمك . فغضب عمرو وأهوى اليه سيفه كأن كما قال  
واصفوه كأنه شعلة نار ، واستقبل على الضربة بدرقه فقدّها السيف  
وأصاب رأسه ، ثم ضربه علي على جبل عائقه فسقط ونهض ، وسقط  
ونهض ، وثار النبار ، فما انجلى إلا عن عمرو صريراً وعلى يجار بالتكبير  
وكأنما كانت شجاعته هذه القضاء الحتم الذي لا يؤسى على مصابه ،  
لأنه أحجم الصائب ، وأقلها معابة لا يدفع . فكانت أخت عمرو بن ود  
تقول على سبيل التأسي بعد موته :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله  
بكيته أبداً ما دمت في الأبد  
لكن قاتله من لا نظير له  
وكان يدعى أبوه يحيى البلد

\* \* \*

فكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التي يشرف بها من يصيب بها  
ومن يصاب ..

ويزيدوها تشرفاً أنها ازدانت بأجمل الصفات التي تزيين شجاعة  
الشجعان الأقوباء .. فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك  
الصفات التي طبع عليها علي بغير كلفة ولا مجاهدة رأي . وهي التورع  
عن البغي ، والمرءومة مع الخصم قوياً أو ضعيفاً على السواء ، وسلامة  
الصدر من الضغط على العدو بعد الفراغ من القتال

فمن تورعه عن البغي ، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة ، انه لم يبدأ  
أحداً قط بقتال ولو مندوحة عنه ، وكان يقول لابنه الحسن : « لا تدعونَ

الى مبارزة . فان دعيت اليها فأجب . فان الداعي اليها باع والباقي  
مصروع » ..

وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه ، وقيل له انهم  
خارجون عليك فبادرهم قبل أن يادروك ، فقال : « لا أقاتلهم حتى  
يقاتلوني . وسيفعلون ! .. »

وكذلك فعل قبل وقعة الجمل ، وقبل وقعة صفين ، وقبل كل وقعة  
صغرت أو كبرت ووضح فيها عداء العدو أو غمض : يدعوهם الى السلم  
وينهى رجاله عن المبادأة بالشر ، فما رفع يده بالسيف قط الا وقد  
بسطها قبل ذلك للسلام

كان يعظ قوماً فبهرت عظته بعض الخوارج الذين يكفرون به فصالح  
معجياً اعجب بالكاره الذي لا يملك بغضه ولا اعجابه : قاتله الله كافرا  
ما أفقهه .. فوثب أتباعه ليقتلواه . فنهاهم عنه ، وهو يقول : إنما هو سب  
سب أو عفو عن ذنب

وقد رأينا أنه كان يقول لعمرو بن ود : اني لا اكره أن اهريق دمك ..  
ولكنه على هذا لم يرحب في اهراق دمه الا بعد يأس من إسلامه ومن  
تركه حرب المسلمين .. فعرض عليه أن يكتف عن القتال فائف ، وقال :  
اذن تتحدث العرب بفراري ، وناشده : يا عمرو . انك كنت تشاهد قومك  
الا يدعوك رجل من قريش الى خلتين الا أخذت منه احدهما . قال :  
أجل . قال : فاني أدعوك الى الاسلام او الى التزال . قال : ولم يا ابن  
أخي ؟ .. فواه ما أحب أن أقتلك .. فلم يكن له بد بعد ذلك من احدى  
اثنتين : أن يقتله أو يقتل على يديه

وعلى ما كان ينهي وبين معاوية وجنوده من اللدد في العداء لم يكن  
ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم الا بمقدار ما  
استحقوه في موقف الساعة : فاتفق في يوم صفين أن خرج من أصحاب  
المعاوية رجل يسمى كريز بن الصباح الحميري فصالح بين الصفين : من  
بيارز ؟ .. فخرج اليه رجل من أصحاب على فقتله . ووقف عليه ونادى :

من ييارز ؟ . فخرج اليه آخر فقتله وألقاه على الأول ، ثم نادى : من ييارز ؟ .. فخرج اليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبه ، ثم نادى رابعة : من ييارز ؟ .. فأحجم الناس ورجع من كان في الصف الأول الى الصف الذي يليه ، وخاف علي أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج الى ذلك الرجل المدل بشجاعته وبأسه فصرعه ثم نادى نداءه حتى أتم ثلاثة صنعوا بهم صنيعه بأصحابه ، ثم قال مسمعا الصنوف : يا أيها الناس . إن الله عز وجل يقول : « الشهور الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص » ، ولو لم تبدعوا ما بدأناكم .. ثم رجع الى مكانه

أما مروءته في هذا الباب فكانت أشد بين ذوى المروءة من شجاعته بين الشجعان . فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبرا أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا سترا أو يأخذوا مالا . وصلى في وقعة الجمل على القتل من أصحابه ومن أعدائه على السواء ، وظفر بعد الله بن الزير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألد أعدائه المؤلبين عليه فغدا عليهم ولم يتعقبهم بسوء ، وظفر بعمرو بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذى علة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوأته ابقاء لضربه .. وحال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة صفين وهم يقولون له : ولا قطرة حتى تموت عطشا .. فلما حمل عليهم وأجلهم عنه سوّغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده ، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات : أitem الله منك أولادك كما أقيمت أولادي . فلم يرد عليها شيئا ، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها . قال رجل أغضبه مقالها : يا أمير المؤمنين . أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع ؟ .. فاتهره وهو يقول : ويصح ؟ .. أنا أمرنا أن نكف عن النساء وهن مشرفات أفلأ نكف عنهن وهن مسلمات ؟ .. وانه لفي طريقه اذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة . ثم ودع السيدة عائشة أكرم وداع وسار في ركابها أميلا وأرسل معها من يخدمها ويحف بها . قيل

انه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمهن بالعمايم وقلدهن السيف .. فلما كانت بعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأفت وقالت : هتك سترى برجاله وجنده الذين وكلهم بي .. فلما وصلت الى المدينة ألقى النساء عمامهن وقلن لها : انما نعن نسوة وكانت هذه المروعة سته مع خصومه ، من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها ، ومن كان في حرمة عائشة رضي الله عنها ومن لم تكن له قط حرمة ، وهي أشد مروعة عرفت من مقاتل في وغير القتال .. وتعدلها في البيل والندرة سلامه صدره من الضعن على أعدى الناس له وأضرهم به وأشهرهم بالضعن عليه . فنهى أهله وصحبه أن يمثلوا بقتاله وأن يقتلوا أحدا غيره ، ورثى طلحة الذى خلع بيته وجمع الجموع لحربه رثاء مجزون يفيض كلامه بالألم والمؤنة ، وأوصى أتباعه الا يقاتلوا الخارج الذين شقوا صفوفه وأفسدوا عليه أمره وكانوا شرا عليه من معاوية وجنده ، لأنه رأهم مخلصين وإن كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرّين ..

\*\*\*

وتقتن بالشجاعة — ولا سيما شجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم — صفة لازمة لها متممة لعملها قلما تنفصل عنها وكأنها الشجاعة أشبه شيء بالنضج للماء ، أو بالاشتعاع للنور ، فلا تكون شجاعة الفروسية الا كانت معها تلك الصفة التي تشير إليها ، وهي صفة « الثقة » أو « الاعتزاز » أو الادراك بالبيبة والتهويل على الخصوم ولا سيما في مواقف النزال . وقد يسمىها بعض الناس زهوا وليس هي به ولا هي من معدهه وسمته ، وإن شابهته في بعض الملامح والألوان فالزهو المذموم فضول لا لزوم له ولا خير فيه ، وهو لون خاذع قد يوجد مع الضعف كما يوجد مع القوة ، وقد يدو على العجان كما يدو على الشجاع ..

أما هذا الاعتزاز الذى تشير إليه ، أو هذه الثقة التى تظهر لنا في

صورة الاعتزاز ، فهي جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستغنى عنه ولا يزال متصلًا بعمله في مواجهة خصمه ، وهو عرض للقوة يساعد الفارس في إرهاب عدوه وأضعاف عزيمته من يتصدى لحربه .. مثله هنا كمثل العروض التي تعمد إليها الجيوش لاعلان يأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والهجوم عليها . فهو كالشجاعة أداة ضرورية من أدوات القتال لا تنفصل عنها ، وليس كل ما فيها ضربا من الخيال يرضي به الشجاع غروره ويتيه به في غير حاجة إلى التي  
ولهذا تحسن الناس للقفر العسكري من قديم الزمن وعهدوه وتحذثروا به وتناقلوه ، فسمحوا للفارس — بل لهم أو جدوا عليه — أن يروغ من خصمه بالقفر المربع إذ يتقدم لنزاله . وأن يلاقيه وهو يشد الأشعار في ذكر وقعته والتوصيل بضرباته والاشادة بعزواته ، وعلموا أنهم — وقد احتاجوا إلى شجاعته — محتججون كذلك إلى فخره وحماسه وإيقاع الرعب في جنان قرنه ، فشاعت قصائد القفر والحماسة كما شاعت قصائد الحب والمناجاة ، وهي أحب القصائد إلى القلوب

\* \* \*

ومن تأمل هذه المادة في الطابع أنها تشاهد في جميع الأحياء نفحة وارتجلًا بغير استثناء ولا تعمد . فلا ترى حيا من الأحياء الناطقة أو المجماء يننزل قرنا له إلا حاول ما استطاع أن يهوله بتكبير حجمه واستطالة قدره واتساع نظره وتنقيش ريشه أو شعره ، ويقف الإنسان مثل هذا الموقف فيطيل قامته ويزداد صدره ويدق يده عليه ويقول بلسان حاله ما يقال باللسان ، فإذا هو القفر والحماسة وإذا هو عنوان الثقة والأقدام ..

هذه الصفة لازمة لفرسان الميدان ، ولا سيما فرسان المصور الأولى الذين يقفون للقتال وجهاً لوجه ، وينظر أحدهم إلى قرنه وهو يهجم عليه وكانت هذه الصفة من صفات على رضى الله عنه ، يفهمها من يريد أن يفهم ولا يفسق صدراً بفضله ، وينكرها من ينفس عليه فيسميها الزهو

أو يسمى الجفوة والخيلاء . قال له قيس بن سعد بعد عزله من ولاية مصر : إنك والله ما علمت لتنظر الخيلاء .. ومر الزبير بن العوام مع رسول الله في بني غنيم ، فرأى رسول الله علياً على مقربة منه فضحك له وضحك على يحييه . فقال الزبير : لا يدع ابن أبي طالب زهوه . قال رسول الله : انه ليس به زهو ، ولتقائه وأنت له ظالم ..

فليس هو بالزهو المكرود ، ولكنها الشجاعة التي يمتلك بها الشجاع والثقة التي تراءى مكتشوفة في صراحتها واستقامتها ، لأن أصحابها لم يتكلفوا مداراتها ولم يحسوا أنه يحتاج إلى مداراتها ، ولأنه لا يقصدوها ولا يتعمد ابداعها ..

\*\*\*

وقد كان مدار هذا الخلق في ابن أبي طالب على ثقة أصلية فيه لم تفارقه منذ حبساً ودرج ، وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال . فما منعه الطفولة الباكرة يوماً أن يعلم أنه شيء في هذه الدنيا وأنه قوة لها جوار يرکن إليه المستجير . ولقد كان في العاشرة أو نحوها يوم أحاط القرؤم القرشيون بالنبي عليه السلام ينذرونوه وينكرونه وهو يقلب عينيه في وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير .. لو كان بعلي أن يرتفع في مقام نجدة أو مقام عزيمة لارتفاع يومئذ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية إلى مقام الخشية والخشوع . ولكنه كان علياً في تلك السن الباكرة كما كان علياً وهو في الخمسين أو الستين .. فيما تردد وهم صامتون مستهزئون أن يصبح صيحة الوائل الغضوب : أنا نصيرك .. فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار ، وعلم القدر وحده في تلك اللحظة أن تأيد ذلك العلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القرؤم ..

على " هذا هو الذي نام في فراش النبي ليلة الهجرة ، وقد علم ما تأثر به مكة كلها من قتل الرائد على ذلك الفراش وعلى هذا هو الذي تصدى لعمرو بن ود مرة بعد مرة والنبي يجلسه

ويحدوه العاقبة التي حذرها فرسان العرب من غير تحذير ، يقول النبي :  
اجلس . انه عصرو . فيقول : وان كان عمرا .. كأنه لا يعرف من يخاف  
ولا يعرف كيف يخاف ، ولا يعرف الا الشجاعة التي هو ممتلىء بها واثق  
فيها في غير كلفة ولا اكتراث

وتسكت هذه الثقة فيه لطول مراس الفرسية التي هي كما أسلفنا  
جزء منها وأداة من أدواتها

وزادها تكينا حسد الحاسدين ولجاجة المنكرين ، وكلاهما خلائق أن  
يعتصم المرء منه بثقة لا تخذل ، وأتفقة لا تلين . فمن شواهد هذه الثقة  
بنفسه انه حملها من ميدان الشجاعة الى ميدان العلم والرأى حين كان  
يقول : « اسألوني قبل أن تفقدوني ، فوالذى نفسى بيده لا تسألونى في  
شيء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فتنة تهدى مائة وتضل مائة الا  
أبناءكم بناعقها وقادتها وسائحتها ، ومناخ ركبها ومحيط رحالها »

ومن شواهدها انه كان يقول والخارجون عليه يرجمونه بالمروق :  
« ما أعرف أحدا من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيري ، عبد الله قبل أن  
يعبد أحد من هذه الأمة تسع سبعين »

وزاده اتهام من حوله معتصما بالثقة بنفسه ، فلما عتب عليه خصومه  
طلحة والزبير أنه ترك مشورتهم قال : « نظرت الى كتاب الله وما وضع  
لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته . وما استن النبي صلى الله عليه وسلم  
فاقتدي به . فلم أحتج في ذلك الى رأيكما ولا رأى غيركما ، ولا وقع حكم  
جهله فأستشير كما واخوانى المسلمين ، ولو كان ذلك لم أرحب عنكما  
ولا عن غيركما ... »

وابدى هذه الخلقة منه أنه كان رضي الله عنه لا يتكلف ولا يحتال  
على أن يتائف . بل كان يقول : « شر الاخوان من تكلف له » ويقول :  
« اذا احترم المؤمن أخيه فقد فارقه » ، فكان الذين يتظرون منه  
الاصطناع والارضاء يخطئون ما انتظروه ، ولا سيما اذا هم انتظروه من  
أرزاق دعایاه وحقوقهم التي اؤتمن اليها . فيحسبون انها الجفوة البينة

وأنه الزهو المقصود وما هو بهذا ولا بذلك .. إنما هي شجاعة الفارس بلوازمها التي لا تفصل منها ، وإنما هو امتعاض المعموظ المسيء ظناً عن حوله يتراءى على سجيته في غير مداراة ولا رداء . فما كان يتكلف اظهار تلك الخلائق زهواً كما يسمونه أو جفوة كما يحسبونها ، بل كان قصاراً ألا يتتكلف الاختفاء ، فإذا التفت قاصداً إلى ما في نفسه فهو لا يقصد العجب ولا يرضاه ، بل ينهى عنه ويشتد في اجتنابه ، ويوصي من أحب : « إياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها » ... « وأعلم أن الاعجاب ضد الصواب ، وآفة الأئلاب »

نعم كان ملاك الأمر في أخلاق على عليه السلام أنه كان لا يتتكلف اظهار شيء ولا يتتكلف اختفاء شيء ولا يقبل التكليف حتى من مادحه ، فربما أفرط الرجل في الثناء عليه وهو متهم عنده فلا يدعه حتى يعلن له طويته ويقول له : « أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك »

\*\*\*

وكانت قلة التكليف هذه توافق منه خليقته الكبيرة من الشجاعة والبس والإمتلاء بالثقة والمنعة . وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء . كأنه يعني ما يصنع وهو لا يعنيه ، وإنما يعني منه على البديهة كما تجرب الأشياء من معادتها : كان مثلاً يخرج إلى مبارزته حاسر الرأس وبمارزوه مقنعون بالحديد . أفعجيب منه أن يخرج إليهم حاسر النفس وهم مقنعون بالحيلة والرداء ؟ .. وكان يغفل الخضاب أحياناً ويرسل الشيب ناصعاً وهو لا يحرم خضابه في غير ذلك من الأحيان . أفعجيب منه ، مع هذا ، أن يقل أكتراه لكل خضاب ساتراً ما ستر ، أو كاشفاً ما كشف ، من رأى وخليقة ؟

بل كانت قلة التكليف هذه توافق منه خليقة أخرى كالشجاعة في قوتها ورسوخها .. أو هي قريبة للشجاعة في نفس الفارس النبيل وقلما تفارقها ، وتعنى بها خليقة الصدق الصراح الذي يجتري به الرجل على الضر والبلاء كما يجتري به على المنفعة والنعماء . فما استطاع

أحد قط أن يحصى عليه كلمة خالق فيها الحق الصراح في سلمه وحربه ، وبين صحبه أو بين أعدائه ، ولعله كان أحوج إلى المصانعة بين النصراء مما كان بين الأعداء ، لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعنتوه بالخلاف . فما عدا منهم قول الصدق في شدة ولا رخاء ، حتى قال فيه أقرب الناس إليه : انه رجل يعرف من العرب شجاعتها ولكن لا يعرف خدعتها . وكان أبدا عند قوله : « علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك ، وألا يكون في حديثك فضل على علمك ، وأن تنقى الله في حديث غيرك » ..

\* \* \*

وصدق في تهواه ولعاته كما صدق في عمل عينه ومقالة لسانه . فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه في لذة دنيا أو سبب دولة ، وكان وهو أمير للمؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها ، وكان يختتم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير فيقول : « لا أحب أن يدخل بطني ما لا أعلم » .. قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أممية التي تتبعض عليها وتخلق له السينيات وتخفي ما توافر له من الحسنات : « أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب » . وقال سفيان : « ان عليا لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة » وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة إيشارا للخصاص التي يسكنها القراء . وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام . وروى النضر ابن منصور عن عقبة بن علقمة قال : « دخلت على علي عليه السلام فإذا بين يديه ابن حامض آذني حموضته وكسر يابسة . قلت : يا أمير المؤمنين ، أتأكل مثل هذا ؟ .. فقال لي : يا أبا الجنوب ، كان رسول الله يأكل أيس من هذا ويلبس أحسن من هذا — وأشار إلى ثيابه — فان لم آخذ بما آخذ به خفت ألا الحق به » ..

وعلى هذا الزهد الشديد كان على رضي الله عنه أبعد الناس من كرازة طبع وضيق حظيرة وجفاء عشرة ، بل كانت فيه سماحة يتبسط فيها حتى

يقال دعابة ، وروي عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال له : « الله أبوك لو لا دعابة فيك » واه قال ملن سأله في الاستخلاف : « ما أظن الا أن يلي أحد هذين الرجلين : علي أو عثمان . فان ولی عثمان فرجل فيه لين ، وان ولی علي ففيه دعابة ، وأخر به أن يحملهم على الطريق »

\* \* \*

وأعرق ابن العاص في وصف الدعابة فسمها « دعابة شديدة » وطبق يردها بين أهل الشام ليقبح بها في صلاح الامام للخلافة ، وإنما تقول ان ابن العاص أعرق في هذا الوصف ، وإن الدعابة المعيبة لم تكن قط من صفاته ، لأن تاريخ على " وأقواله ونواحده مع صحبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيها دليلا على خلق الدعابة فضلا عن الدليل على الإفراط فيه .. فان كان لهذا الوصف أثر أجاز لعمر بن الخطاب أن يذكره فربما كان مرجع ذلك أن عليا خلا من الشغل الشاغل سنين عدة ، فأعفاء الشغل الشاغل من صرامته وأسلمه حينا الى ساحتها وأحاديث صحبه ومربييه فحسبت هذه الدعة من الدعابة البريئة ثم بالغ فيها المبالغون ، ولم يثبتوها بقصة واحدة أو شاردة واحدة تحيز لهم ما تتلوه

وقد كانت للإمام صفات ومزايا فكرية تناصي المشهور المتقد عليه من صفاته التفسيرية ومزاياه الخلقية . فاتفق خصومه وأنصاره على بلاغته ، وانتفقا على علمه وفطنته ، وتفرقوا فيما عدا ذلك من رأيه في علاج الأمور ودهائه في سياسة الرجال

والحق الذي لا مراء فيه انه كان على نصيب من القطننة السافدة لا يذكره منصف ، واه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة في مشكلات الحكم والقضاء ، واه كان أشبه الخلفاء بالباحثين والمتقيين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير وعنه أخذ الحكماء الذين شرعوا علم الكلام قبل أن يتطرق اليه علم فارس أو علم يونان .. وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لخفايا الصدور ويشرحها في عظامه وخطبه شرح الأديب اللييب ..

إلى هنا متفق عليه لا يكثُر في الخلاف ، ثم يفترق الناس في رأيه  
وأين وإن لم يكونوا من الشائين المتخزين ، فيقول أنس انه كان على  
قسط وافر من الفهم والمشورة ، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقتضي به  
الساعة الحازمة ولا يت遁م بما يراه . ويقول أنس بل هو الاضطرار  
والتجزج يقيدهما ولا يقيدان أعداءه وانهم لدونه في الفطنة والسداد .  
وهو رضى الله عنه قد اعتذر لنفسه بشابه من هذا العذر حين قال :  
« ولله ما معاوية بأدھي مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولو لا كراهة العذر  
لکنت من أدھي الناس » ..

\*\*\*

أما مقطع الرأى بين الرأيين فنرجو أن نفصله في مواضعه من الفصول  
التالية مشفوعاً بتنا بآياته ، ولكننا نستطيع أن نجزم هنا بحقيقةتين تجملان  
ما نبسطه في مواضعه من الكتاب ، ولا نحسبهما تسعان لجدل طويل ،  
وهما أن أحدا لم يثبت قط أن العمل بالأراء الأخرى كان أجدى وأنجع  
في فض المشكلات من العمل برأى الإمام ، وإن أحدا لم يثبت قط أن  
خصوم الإمام كانوا يصرفون الأمور خيراً من تصريفه ، لو وضعوا في  
مواضعه وأصطلحت عليهم المتابعة التي أصطلحت عليه . وكلتا الحقيقةتين  
حرمة أن تضيّط لسان الميزان قبل أن يميل فيغلو به الميل هنا أو هناك  
هذه صفات تتنظم في نسق موصول : رجل شجاع لأنّه قوي ،  
وصادق لأنّه شجاع ، وزاهد مستقيم لأنّه صادق ، ومثار للخلاف لأنّه  
صادق لا يدور بصاحبه مع الرضا والبغضاء والقبول والنفور ،  
وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق إن الناس قد أثبتوا له في حياته  
أجمل صفاته المثلى ، فلم يختلفوا على شيء منها إلا الذي اصطدم  
بالمطامع وتفرق حوله الشبهات ، وما من رجل تعسف المطامع أسباب  
الطعن فيه ثم تنفذ منه إلى صميم

## مفتاح شخصيته

«آداب الفروسيّة» هي مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذي يغش  
منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج إلى تفسير  
وآداب الفروسيّة هي تلك الآداب التي تلخصها في كلمة واحدة  
وهي : النخوة ..

وقد كانت النخوة طبعاً في علىٰ فطر عليه ، وأدباً من آداب الأمرة  
الهاشمية نشأ فيه ، وعادة من عادات «الفروسيّة» العمليّة التي يتعودها  
كل فارس شجاع متغلب على الأقران ، وإن لم يطبع عليها وينشأ في  
حجرها . لأن للقلب في الشجاع افة تأبى عليه أن يسفى إلى ما يخجله  
ويشينه ، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلمها ، وقنعه أن يعمل في  
السر ما يزري به في العلانية

وهكذا كان على رضى الله عنه في جميع أحواله وأعماله : بلفت به  
نخوة الفروسيّة غايتها المثلث ، ولا سيما في معاملة الضعفاء من الرجال  
والنساء . فلم ينس الشرف قط ليغتصم الفرصة ، ولم يساوره الريب قط  
في الشرف ، والحق انهم قائلان دائمان كأنهما مودعان في طبائع الأشياء .  
فإذا صنع ما وجب عليه فلينس من شاءوا ما وجب عليهم ، وإن أفادوا  
كثيراً وباء هو بالخسار

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتم الفرصة السانحة بين يديه ،  
لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الرجل الشجاع الشريف ، ولم يرد أن  
يغلبه أو يقتضي منه كيما كان سبيلاً للقلب والقصاص ..  
قال بعض من شهدوا معركة صفين : لما قدمنا على معاوية وأهل الشام

بصفين وجدناهم قد نزلوا منزلا اختاروه مستويًا بساطا واسعا وأخذوا الشريعة - أى مورد الماء - فهى فى أيديهم .. وقد أجمعوا على أن ينبعوا الماء . ففرزنا إلى أمير المؤمنين فخبرناه بذلك فدعا صعصعة ابن صوحان فقال له : أئت معاوية وقل له أنا سرنا مسيرا هذا اليكم ونحن نكره قتالكم قبل الاعذار اليكم ، وإنك قدمت علينا خيلك ورجلك فقاتلتنا قبل أن تقاتلنا وبدأتنا ، ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتاج عليك ، وهذه أخرى قد فعلتموها اذ حلت بين الناس وبين الماء . والناس غير متدينين أو يشربوا فابعث الى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء ويكتفوا حتى تنظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له ... »

ثم قال راوي الخبر ما معناه ان معاوية سأله أصحابه فأشاروا عليه أن يتحول بين على وبين المورد غير حافل بدعته الى السلم ولا بدعته الى المقاومة في أمر الخلاف ، فأنفق معاوية مددًا الى حراس المورد يحمونه ويصدون من يقترب منه ، ثم كان بين العسكريين تراشق بالنبال فطعن بالرماح فضرب بالسيوف حتى اقتحم أصحاب علي طريق الماء وملكونه وهنا الفرصة الكبرى لو شاء على أن يهتلهما ، وأن يغلب أعداءه بالظمة كما أرادوا أن يغلوه به قبيل ساعة .. وقد جاء أصحابه يقولون : والله لا نستقيمهوه . فكانوا كأنه هو سفير معاوية وجنده إليهم يتشفع لهم ويستلين قلوبهم من أجدهم . وصاح بهم : « خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا الى عسكركم وخلوا عنهم ، فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم »

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة في حرب أهل البصرة ، فأبى أن يهتلهما وأغضب أعدائه انصافا لأعدائه ، لأنه نهاهم أن يسلبا المال ويستبيحو السبي وهو في رأيهم حلال . قالوا : أتراه يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم؟ .. فقال : « إنما القوم أمثالكم ، من صفح عنـا فهو منا ونحن منه ، ومن لعـنـه حتى يصاب قتالـه منـي على الصدر والحر »

و سن لهم ستة الفروسية أو ستة النخوة حين أوصاهم ألا يقتلو مدبراً  
ولا يجهزوا على جريح ولا يكتشفوا سترا ولا يدروا يدا إلى مال  
ومن الفرص التي أبْتَ عليه النخوة أن يهتبها فرصة عمرو بن العاص  
وهو ملقى على الأرض مكشوف السوأة لا يبالي أن يدفع عنه الموت  
ما حضره من وقاء . فصدق بوجهه عنه آقاً أن يصرع رجلا يغافل  
الموت هذه المخافة التي لا يرضها من منزلته في مجال صراع . ولو غير  
على أتيح له أن يقضي على عمرو لعلم أنه قاض على جرثومة عداء ودهاء  
فلم يبال أن يصييه حيث ظفر به ، ولا جناح عليه

\*\*\*

لقد كان رضاه من الآداب في الحرب والسلم رضا الفروسية العزيزة  
من جميع آدابها ومانوراتها  
فكان يعرف العدو عدوا حি�شا رفع السيف لقتاله .. ولكنه لا يعادى  
امرأة ولا رجلا موليا ولا جريحا عاجزا عن نضاله ولا ميتا ذهبت حياته  
ولو ذهبت في سبيل حرية .. بل لعله يذكر له ماضيه يومئذ فيقف على  
قبره ليشكه ويُرثيَه ويصلِّي عليه  
وهذه الفروسية هي التي بعْضَتَ اليه أن ينال أعداءه بالسباب وليس  
من دأب الفارس أن ينال أعداءه بغير المحسان  
فلما سمع قوما من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين  
قال لهم : « انى أكره أن تكونوا سبائين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم  
وذكرتم حاليكم كان أصوب في القول ، وأبلغ في العذر ، وقلتم مكان  
سبكم ايام : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات ينتنا وبينهم ،  
وأهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوي عن الغي  
والعدوان من لمح بـ »

وربما شذ عن ستة هذه في بعض الأحيان فإذا به لا يشد عنها إلا  
كما يشد الفرسان حين تغلبهم بوادر اللسان .. فتلدر بين رجال السيف  
من يسمع الكلمة المضبة فلا ينطق لسانه بكلمة عوراء يجري بها

غضبه الذي طبع على اباداته ولم يطبع على كمانه  
ومن قبيل هذا كلمات قالها على<sup>١</sup> في ابن العاص وفي معاوية وفي  
الأشعث بن قيس وغير هؤلاء . ولكنه لم يجعلها ديدنا له كما سبوا  
على المنابر وأشاعوا مذمته بين أهل الأمصار  
شغب عليه الأشعث بن قيس ومرد عليه الجندي وأفشي بين أنصاره  
افتنة وقاطعه مرة وهو يخطب على منبر الكوفة فأغضبوه وهاج غيظه  
فبدره بقوله : « عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين : حائث بن حائث ، منافق  
ابن كافر ، والله لقد أسرك الكفر مرة والاسلام أخرى ، فما فداك من  
واحدة منها مالك ولا حبيبك ، وإن امراً ولی على قومه السيف وساق  
إليهم الحتف لحرى أن يقتله الأقرب ولا يأمهن الأبعد »

\*\*\*

وطفق ابن العاص ينعته بين أهل الشام بالهزل والدعابة ويأمر بسبه  
على المنابر حتى وجب رده واحتضن زعمه . فقال رضي الله عنه في بعض  
خطبه : عجباً لابن النابعة !.. يزعم لأهل الشام إن في دعابة وانى امرؤ  
تلعابة : اعانس وامارس<sup>(١)</sup> .. لقد قال باطلًا ونطق آثماً . أما — وشر  
القول الكذب — انه ليقول فيكذب ، ويعد فيختلف ، ويسأل فيدخل ،  
ويخون العهد ويقطع الإل<sup>(٢)</sup> ، فإذا كان عند الحرب فأى زاجر وأمر  
هو ما لم تأخذ السيف مأخذها . فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته  
أن ينح القوم سبته . أما والله انى ليمعني من اللعب ذكر الموت . وانه  
ليمعني من قول الحق نسيان الآخرة، انه لم يباح معاوية حتى شرط أن  
يؤتى به أكتية ويرضخ له على ترك الدين رضيحة<sup>(٣)</sup>

وكذلك كان يجده معاوية وغيره بنظائر هذه الكلمات حين يجترئون  
عليه بما يغض من حقه ويقدح في دعوته . فلا يشذ عن ديدن الفرسان  
في روایة فكره ولا في بوادر لسانه ، ولكن الفلتات التي من هذا القبيل

(١) المناسبة : مشاربة الناس مزاها ومتنازلاه النساء

(٢) الا : القرابة والرحم

(٣) الآية : العطية . ومنتها الرضيحة مع قلة

شيء واتخاذ السباب صناعة دائمة وسلاحاً مشهوراً وسليلاً إلى القول  
الباطل شيء آخر ..

ولقد كانت للإمام رضي الله عنه شواغل أخرى غير الفروسيّة تجري  
في مجريها حيناً وتبدو غريبة عنها حيناً آخر في عرفه بعض الناقدين ،  
ومنها التفقه والنزوع إلى « التصوف » واستبطاط حقائق الأشياء

\* \* \*

فهذه في عرف بعض الناقدين ليست من مزاج الفروسيّة على ظاهر  
ما قدروه .. ولكن ما التصوف أو التجدد للحقيقة ؟ أليس هو في  
معدنه جهاداً في الحق أو جهاداً في الله ؟ .. أليست طبيعة المجهاد وطبيعة  
الفروسيّة من معدن واحد ؟ .. ألم نعهد في كل ملة وكل زمان قاتل من  
الناس يجاهدون لأنهم متدينون متطرفون ، أو يتدينون ويتطرسون  
لأنهم مجاهدون ؟ ..

فالإمام على رضي الله عنه فارس لا يخرجه من الفروسيّة فقه الدين  
بل هو أخرى أن يسلكه فيها . ولا يخرجه من الفروسيّة بعض المقال  
في خصومه بل هي بوادر الفرسان بعيتها ، ولا تزال آداب الفروسيّة  
بشتى عوارضها هي الفتاح الذي يدار في كل باب من أبواب هذه  
النفس فإذا هو منكشف للناظر عنا يليه



## إسلامه

وله على في داخل الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها ،  
فكأنما كان ميلاده ثمة ايدانا بمهد جديد للكعبة ولل العبادة فيها  
وكاد على أن يولد مسلما ..

بل لقد ولد مسلما على التحقيق اذا نظرنا الى ميلاد العقيدة  
والروح ، لأن فتح عينيه على الاسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام  
 فهو قد تربى في البيت الذي خرجت منه النسوة الاسلامية وعرف  
العبادة من صلاة النبي وزوجه الظاهر قبل أن يعرفها من صلاة أبيه  
وأمه ، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة وحبة أوتي من  
حبة التراب . فكان ابن عم محمد عليه السلام ورئيسه الذي شأ في بيته  
ونعم بعطائه وبره . وقد رأينا الغرباء يحبونه حبا ويتذمرون على آباءهم  
وزوادهم . فلا جرم يحبه هذا الحب من يجمعه به جد ، ويجمعه به بيت ،  
ويجمعه به جميل معروف : جميل أبي طالب يُؤديه محمد وجميل محمد  
يحيثه ابن أبي طالب ويأوي إليه ..

واختلفوا في سنته حين اسلامه من السابعة الى السادسة عشرة ، ولعله  
اسلم في نحو العاشرة لأنه كان ينافرها عند اعلان الدعوة المحمدية ،  
وكان النبي عليه السلام يتبعده في بيته عبادة الاسلام قبل الدعوة بفترة  
غير قصيرة ، وليس ما يمنع علينا أن ياتف تلك العبادة في طفولته الباكرة  
فالمجیب أنه يعود إلى أفتتها والرضا بها بعد أن بلغ السن التي يعرف  
فيها معنى الغضب لعبادة الآباء والأجداد

ولولا ألقه على لابن عمه وكافله لما قربته القرابة وحدها من الدين  
الذى دعى اليه ، فقد أصرَّ كثير من أقرباء النبي على الشرك زمناً طويلاً ،  
منهم عقيل أخوه وأحب اخوته الى أبيه . فحارب المسلمين في بدر ولم  
يسلم وقد وقع في أسر النبي وصحابه .. بل افتاده عمه العباس وخرج  
من الأسر وهو على دينه ، ثم أسلم بعد صلح الحديبية مع طائفة من  
الغرياء والأقرىء ..

\*\*\*

على ان الألقة بين ابني العم الكريمين قد أوشكـت أن تكون عائقـا  
لإسلام على في طفولـته الباكرة .. لأن النبي عليه السلام أبيـنـ أن ينتزعـ  
الطفل من دينـ أبيـهـ وأبـوهـ لاـ يـعـلمـ ،ـ وأـشـفـقـ أنـ يـكـونـ بـرـهـ بـعـهـ وبـابـنـ  
عـهـ سـبـيلاـ إـلـىـ التـفـرقـةـ بـيـنـ الـأـبـ وـابـنـ وـهـوـ لـاـ يـدـرـكـ مـاـ يـفـعـلـ ،ـ وـلـمـ يـشـأـ  
أـنـ يـعـوـدـ الطـفـلـ الصـغـيرـ أـنـ يـخـفـيـ سـراـ عـنـ أبيـهـ كـاـنـ يـخـدـعـ بـاخـفـائـهـ وـلـوـ  
فـيـ سـبـيلـ الـهـدـيـةـ وـالـتـحـيـرـ .ـ فـظـلـ هـذـاـ الـمـرـجـ الـكـرـيمـ عـائـقـاـ عـسـيرـاـ أـعـسـرـ مـاـ  
فـيـ أـنـ عـائـقـ اـخـتـيـارـ يـهـوـنـ مـعـ الـاضـطـرـارـ ،ـ أـوـ عـائـقـ حـيـرةـ تـقـلـ فـيـهاـ حـيـلةـ  
الـكـرـيمـ ..ـ حـتـىـ شـاعـ أـمـرـ الدـعـوـةـ الـحـمـدـيـةـ وـعـلـمـ بـهـ أـبـوـ طـالـبـ وـتـصـرـ  
ابـنـ أـخـيـهـ وـأـمـرـ عـلـيـاـ بـعـتـابـةـ اـبـنـ عـهـ وـتـضـرـهـ .ـ فـأـقـبـلـ الـفـلـامـ الـبـرـ بـأـيـهـ  
وـبـكـافـلـهـ اـقـبـالـاـ لـاـ تـلـجـلـجـ فـيـ عـلـىـ الـدـيـنـ الـجـدـيدـ

ومـلـاـ الـدـيـنـ الـجـدـيدـ قـلـبـاـ لـمـ يـنـازـعـ فـيـ مـنـازـعـ مـنـ عـقـيـدةـ سـابـقـةـ وـلـمـ  
يـخـالـطـهـ شـوبـ يـكـدرـ صـفـاءـ وـيـرـجـعـ بـهـ إـلـىـ عـقـيـلـهـ ..ـ فـبـحـقـ ماـ يـقـالـ إـنـ  
عـلـيـاـ كـاـنـ مـسـلـمـ الـخـالـصـ عـلـىـ سـجـيـتـهـ الـمـثـلـىـ ،ـ وـاـنـ الـدـيـنـ الـجـدـيدـ لـمـ يـعـرـفـ  
قـطـ أـصـدـقـ اـسـلـاـمـ مـنـهـ وـلـاـ أـعـقـنـ فـقـاـذـاـ فـيـ

كان المسلم حق المسلم في عبادته ، وفي علمه وعمله ، وفي قلبه وعقله ،  
حتى ليصح أن يقال: إنه طبع على الاسلام فلم تزده المعرفة إلا ما يزيد  
التعليم على الطابع ..

كان عابداً يشتهر العبادة لأنها رضاية ترضه وليس أمراً مكتوباً  
عليه .. وكان يرى في كهولته وكانت جبنته ثقنة بغير من ادمان السجود

وكان علىٰ موجة في الاسلام لا يجده عنها لغبية ولا تخشية ، فكلما زيتوا له الهوادة أبي « أن يداهون في دينه ويعطى الدين في أمره » وأثر الخير كما يراه على الخير كما يراه الناس ..

وكان دينه له ولعدوه ، بل له ولعدو دينه ، فما كان الحق عنده لمن يرضاه دون من يقلبه ، ولكنه كان الحق لـ كل من استحقه وإن بهته وأذاه ..

\*\*\*

وجد درعه عند رجل نصراني فأقبل به الى شريح - قاضيه - يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه ، وقال : إنها درعى ولم أبع ولم أهرب ، فسأل شريح النصراني : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ قال النصراني : ما الدرع الا درعي وما أمير المؤمنين عندي بـ كاذب ! .. فالتفتح شريح الى علىٰ يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بيته ؟ .. ففضحه علىٰ وقال : أصاب شريح . ما لي بيته ! .. فقضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى و « أمير المؤمنين » ينظر اليه ... الا ان النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد ان هذه أحكام أنياء .. أمير المؤمنين يديتني الى قاضيه يقضى عليه ! .. أشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين .. اتبعت الجيش وأنت متطلق الى صفين فخرجت من بعيرك الأورق .. فقال : أما إذ أسلمت فحي لك .. وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجندي بلاء في قتال الخوارج يوم النهروان

وأحسن الاسلام علمًا وفقها كما أحشهن عبادة وعملا .. فكانت فتاواه مرجحا للخلفاء والصحابية في عمود أبي بكر وعمر وعثمان ، وندرت مسألة من مسائل الشريعة لم يكن له رأي فيها يؤخذ به أو تنهض له الموجة بين أفضل الآراء ..

الا ان المزية التي امتاز بها علىٰ بين فقهاء الاسلام في عصره انه جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ، ولم يتصرّه على العبادة

واجراء الأحكام ، فاذا عرف في عصره اناس قهوا في الدين ليصححوا عباداته ويستبطوا منه أقضيته وأحكامه ، فقد امتاز علي" بالفقه الذي يراد به الفكر المحسن والدراسة الخالصة ، وأمعن فيه ليعوص في أعماقه على الحقيقة العلمية ، أو الحقيقة الفلسفية كما نسميها في هذه الايام

\* \* \*

ويصح أن يقال ان علياً ، رضي الله عنه ، أبو علم الكلام في الاسلام ، لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه كما قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة . فواصل بن عطاء كبرتهم تلميذ أبي هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوبه تلميذ علي" رضي الله عنه . وأما الأشعرية فانهم يتبعون الى أبي الحسن علي" بن أبي الحسن علي بن أبي بشر الأشعري وهو تلميذ أبي علي الجبائي ، وأبو علي الجبائي أحد مشايخ المعتزلة الذين علمهم واصل بن عطاء .. أما الفقه فاما الرازي أبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد، وجعفر بن محمد قرأ على أبيه، وهكذا يتبعي الأمر الى علي" رضي الله عنه . وقد قرأ مالك بن أنس على ربيعة الرأي ، وقرأ ربيعة على عكرمة ، وقرأ عكرمة على عبد الله ابن عباس، وقرأ عبد الله بن عباس على علي" رضي الله عنه . وقيل لابن عباس : أين علمك من علم ابن عمك ؟ .. فقال : كتبية قطرة من المطر الى البحر المحيط ..

\* \* \*

قال ابن أبي الحديد : « ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف . وقد عرفت ان أرباب هذا الفن في جميع بلاد الاسلام ، اليه يتبعون وعنه يقفون . وقد صرخ بذلك الشبلي والجنيدي وسري وأبو يزيد البسطامي وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم . ويكفيك دلالة على ذلك : الخرقة التي هي شعارهم الى اليوم ، وكونهم "يسندونها باسناد متصل اليه عليه السلام .. »

وقد جمع « نهج البلاغة » نماذج شتى من الكلمات التي تنسب اليه

ويصح أن تُحسب أصلًا «للعلم الالهي» أو لأسرار التصوف في صدر الإسلام قبل اشتغال المسلمين بفلسفة اليونان وحكمة الأمم الأجنبية . وربما وقع الشك في نسبة بعض الكلمات إلى عليٍّ رضي الله عنه لأنها تجمعت بعد عصره بزمن طويل وامتزج بها ما لا بد أن يمزجها من علوم القرن الثالث وما بعده .. ولكن شيئاً على هذا النهج لا بد أن يكون قد صدر منه حقاً حتى جاز أن يتصل النسب بينه وبين أمته التوحيد وعلم الكلام على النحو الذي توأرت به الأقوال ، وأجمله ابن أبي الحديد فيما تقدم ..

\*\*\*

ولنا أن نقول: إنه كان رضي الله عنه يتلمذ للقرآن الكريم ويستوحى نصاً في عرفان إسلامه وتقرير إيمانه . فكانت نظرته إلى الخلق والخلق نظرة قرآنية يتذكر ما شاء ابتكار التلميذ في الملكية عن الأستاذ ، فكلامه عن الطاووس والخفافيش والزرع والسعادب إنما هو الدرس القرآنى الذي وعاه من أمر الكتاب بالنظر في المخلوقات، ووصف الكتاب لطوائف منها كالنمل والنحل والطير والأجنحة في الأرحام . فهو تلميذ ربيه جلَّ وعلا في قوله عن الخفافيش : « من لطائف صفتة وعجبات حكمته ما أرانا من غواصين الملكة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ويسيطرها الليل القابض لكل حي ، وكيف غشيت أعينها عن أن تستند من الشخص المصيبة نوراً تهتدى به في مذاهبتها .. فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً . والنهار لها مسكنًا وقراراً ، وجعل لها أجنة من لحمها تخرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنها شظايا الآذان ، غير ذوات ريش ولا قصب .. تطير وولدها لاصق بها لاجيء إليها ، يقع إذا وقعت ، ويرتفع إذا ارتفعت ، لا يفارقها حتى تشتد أركانه ، ويحمله للنهوض جناحه ، ويعرف مذاهب عشه ومصالح نفسه ، فسبحان الباري ، لكل شيء على غير مثالٍ خلافٌ غيره »

ومثله قوله عن الطاووس : « ومن أعجبها خلقاً الطاووسُ الذي أقامه

في أحكم تعديل ونَصَّدَ الْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَفْسِيدٍ ، بِجَنَاحِ أَشْرَجِ قَصْبَهُ  
وَذَبْ أَطَالَ سَبَبَهُ ، إِذَا دَرَجَ إِلَى الْأَثْنَى نَشَرَهُ مِنْ طِيلَهُ ، وَسَماً بِهِ مَظَالِمَ  
عَلَى رَأْسِهِ .. وَقَدْ يَنْحُسِرُ مِنْ رِيشِهِ وَيَعْرَى مِنْ لِبَاسِهِ فَيَسْقُطُ تَرْسِيَهُ  
وَيَنْبَتِ تِبَاعًا ، فَيَنْجُحُ مِنْ قَصْبَةِ نَحْتَنَاتِ أُوراقِ الْأَغْصَانِ ، ثُمَّ يَتَلَاصِقُ  
ثَانِيَا حَتَّى يَعُودُ كَوْيِتَهُ قَبْلَ سَقْوَتِهِ لَا يَخْالِفُ سَالِفَ الْأَوَانَهُ وَلَا يَقْعُدُ  
لَوْزَ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ » ..

وَنَحْنُ لَا نَسْتَرْغُ بِإِبْتَادِهِ هَذَا النَّمْطُ مِنَ النَّظَرِ الْفَلَسْفِيِّ عَلَى نَحْوِهِ  
مِنَ الْأَنْحَاءِ فِي عَصْرِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . لَأَنَّهُ كَانَ عَهْدًا نَبَتَ  
فِيهِ أَصْوَلُ الْفَرَقِ الْإِسْلَامِيَّةِ جَمِيعًا مِنَ الْخُوارِجِ وَالشِّیعَةِ وَالْقَائِلِينَ  
بِالرَّجْعَةِ وَتَنَاسُخِ الْأَرْوَاحِ وَالْمُجَاهِدِينَ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَتَفْسِيرِهِ عَلَى  
شَتَّى الْمَذَاهِبِ .. فَأَقْرَبَ شَيْءٌ إِلَى الْمَعْقُولِ أَنْ يَكُونَ إِمامُ الْعَصْرِ كُلُّهُ  
قَدوَةً فِي الْاجْتِهَادِ وَالنَّظَرِ وَعِنْوَانًا لِلنَّوْازِعِ الَّتِي تَفَرَّقَتْ بَيْنَ أَهْلِ زَمَانِهِ  
وَتَعَيِّنَتْ صَادِقًا لِتَفْكِيرِهِ وَوَعِيِّهِ ، وَصَاحِبُ أَقْوَالِ مِنْ قَبْلِهِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ  
الَّتِي قَدَّمَنَا هَا وَأَنَّ لَمْ تَكُنْ هِيَ رِيَاها بِالنَّصْ وَالتَّفَصِيلِ ..

وَيَسْتَقِيمُ مَعَ هَذَا التَّقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ عَلَى سَجِيَّتِهِ مُؤْثِرًا  
لِلْاجْتِهَادِ مَا اسْتَطَاعَهُ ، مَعْرُضاً عَنِ التَّقْلِيدِ مَا اسْتَغْنَى عَنْهُ ، فَوَافَقَ  
الْخَلْقَاءِ مِنْ قَبْلِهِ فِي أُمُورٍ وَخَالَفُوهُمْ فِي أُمُورٍ ، وَابْنِي أَنَّ يَأْتِمُ بِعِلْمِهِمْ فِيمَا  
يَرَاهُ وَمَا لَا يَرَاهُ ، وَأَوْصَى أَبْنَهُ الْمُسْنَنَ وَقَدْ بَلَغَ الْسَّتِينَ فَقَالَ : « .. أَعْلَمُ  
يَابْنِي أَنْ أَحِبَّ مَا أَنْتَ آخَذَ بِهِ إِلَيَّ » مِنْ وصِيَّتِي تَحْوِي اللَّهُ وَالْاَقْصَارَ  
عَلَى مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالْأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الْأَوْلَوْنَ مِنْ آبَائِكَ  
وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ، فَانْهُمْ لَمْ يَدْعُوا أَنْ نَظَرُوا إِلَى أَنْقَسِهِمْ كَمَا  
أَنْتَ نَاظِرٌ وَفَكِرُوا كَمَا أَنْتَ مُفْكِرٌ .. فَانْ أَبْتَقْسِكَ أَنْ تَقْبِلَ ذَلِكَ دُونَ  
أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلِيَكُنْ طَلْبُكَ ذَلِكَ بِتَنْهُمْ وَتَعْلَمُ . لَا يَتَورَطُ الشَّبَهَاتُ ،  
وَعَقَّ الخَصْوَمَاتُ ، وَابْتَدَىءُ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالْاِسْتِعَانَةِ بِإِلَيْكَ ،  
وَالرَّغْبَةُ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ ، وَتَرَكَ كُلَّ شَائِبَةَ أَوْجَلَتِكَ فِي شَيْءَةِ أَوْ اسْلَمَتِكَ  
إِلَى ضَلَالَةِ ، فَانْ أَيَّقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ ، وَتَمْ رَأَيْكَ فَاجْتَمَعَ ، وَكَانَ

هك في ذلك هنّاً واحداً ، فانظر فيما فسرت لك .. »

وربما كانت هذه الوصية وحدها كافية للتعرف بإسلام عليٌّ كما ارتفاه لنفسه وارتفاه للقادرين عليه من أتباعه .. فاما هو إسلام المسلم « المطبوع » الذي يتذكر دينه لأنّه يعتمد فيه على وحي بصيرته وارتقال مزاجه ، وانما هو إسلام الحكيم المجتهد الذي يرجع في الحكمة والاجتهداد إلى رياضة النفس على ستة النّسَاك وتحصّن الفكر على ستة العلماء ، وانما هو إسلام الرجل الذي أتيح له أن يتلّمذ لربّه ، يتربي في حجر نبيه ، ويصبح إماماً للمقتدين من بعده ..



## عَصْرُ الْإِمَامَ

كانت الظاهرة الكبرى في عصر «عليٌّ» ظاهرة اجتماعية خاصة به دون عصور الخلفاء من قبله ، ولم تكن في حقيقتها ظاهرة سياسية أو حربية عسكرية ، على شدة القتال فيها وغزارة الدماء التي أريقت في حروبها ..

فصر أبي بكر كان هو العصر الذي نشأت فيه الدولة الإسلامية ،  
وعصر عمر كان هو العصر الذي تم في إنشاؤها ..

وعصر عثمان كان هو العصر الذي تكون فيه المجتمع الإسلامي بعد  
نشأة الدولة الجديدة . فبرز فيه نظام جديد على أساس الثروة المطلوبة  
من الأقطار المفتوحة ، وعلى أساس الولايات التي تولتها بعض الطبقات  
المرشحة للرئاسة من العلية وأشباهها ..

أما عصر عليٍّ فكان عصرًا عجيبةً بين ما تقدمه وجاء في أعقابه، أو هو  
لم يكن عجيبةً لأنَّه جرى على النحو الذي ينبغي أن يجري عليه ، فلم  
يثبت كلَّ ثبوتٍ ولم يضطرب كلَّ اضطرابٍ، لأنَّه كان بناءً جديداً في  
سبيل التمام ، ولم يكن بناءً متدااعياً فكلَّه هدم واندثار ، ولا بناءً قائماً  
مفروغاً منه فكلَّه رسوخ واستقرار

الآن العجيب فيه حقاً أنه انتهى ثبوته وأضطرابه قسمين  
اثنين متقابلين : في أحدهما كلَّ عوامل الرضا عن النظام الاجتماعي  
والرغبة في بقائه وتدعيمه ، وفي الآخر كلَّ عوامل التذمر من النظام  
الاجتماعي والتحفز لتفويضه وتحويله  
أحدهما ، وهو قسم الرضا عن النظام الاجتماعي ، كان قسم معاوية

ابن أبي سفيان في الشام وما جاورها  
والآخر ، وهو فسم النذر من النظام الاجتماعي ، كان قسم على  
ابن أبي طالب في الجزيرة العربية بجملة أنحائها

كانت الشام بمعنى من المعاني أرضاً أمومية في عهد الجاهلية، فلجأ إليها  
أميمة جدة الأمويين حين غلبه هاشم على الرعامة ، وقصد إليها أبناءه  
متجرجين أو مهاجرين إلى ما بعد قيام الدعوة الإسلامية

ثم قامت الدعوة الإسلامية فكان من نصيب يزيد بن أبي سفيان  
أن يتولى الإمارة والقيادة على الشام من قبل الخليفة أبي بكر الصديق ،  
وخلقه أخوه معاوية من قبل الخليفة عمر ، فلم يزل مقينا على إمارتها  
بضع عشرة سنة إلى مبايعة على بالخلافة بعد مقتل عثمان . فاتسع له من  
فسحة الوقت وفسحة الرخاء مجال ممتد لتأسيس السلطان الأموي الذي  
لا ينافيه متراء من حوله . ولم يزل منذ تولاهما عاماً على البقاء فيها  
واصطدام الأعوان المؤيدين له في حكمها . فلم يتوان في استرضاء رجال  
ينفعه رضاهم ، ولم يقصر رعايته على الشرفاء دون السواد من الأتباع  
والآجئين . بل كان يرضى كل من وسعه ارضاؤه ، وقد وسعت ثروة  
الشام كل صاحب حاجة مقيم عنده أو ساع إليه ..

واشتهرت عنه هذه الخصلة حتى قصده أقرب الناس إلى خصومه  
وأولادهم باجتنابه والتقية عليه .. ومنهم عقيل أخو على بن أبي طالب ،  
وبعد الله بن عمر بن الخطاب ، وبعد الله بن زمعة ، وعمرو بن العاص ،  
 وأناس من هذه الطبقة بين الشرفاء وذوى الأخطار

أراد عقيل من أخيه مالاً يجريه عليه من بيت المال فأباه عليه لأنّه ليس  
له بحق ، فتركه وأقبل على معاوية وهو يقول : « إنّ أخي خير لي في  
ديني ، ومعاوية خير لي في ديني » وقس على ذلك ما يصنعه الغرباء عن  
عليه والمقربون من معاوية بالنسبة والرجاء  
قد همه ارضاء السواد والعامّة ، كما همه ارضاء الشرفاء وذوى  
الأخطار .. « وبلغ من احكامه للسياسة واتقاده لها واجتذابه قلوب

خواصه وعوامه ان رجلا من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن صفين ، فتعلق به رجل من دمشق فقال : هذه ناقتي أخذت مني بصفين فارتفع أمرها الى معاوية وأقام الدمشقي خمسين رجلا بيته يشهدون أنها ناقته .. قضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير اليه . فقال السكري : أصلحك الله انه جمل وليس بناقة فقال معاوية : هذا حكم قد مضى . ودس الى الكوفى بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره فدفع اليه ضعفه وبره وأحسن اليه ، وقال له : « أبلغ علينا انى أقابلها بعائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل ! » ولقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له انه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الأربعاء وأغاروه رعوسهم عند القتال وحملوه بها <sup>(١)</sup>

فاذ كان في هذه القصص بعض المبالغة فهو مبالغة الفكاهة المولدة بتكبير الملامح ليراها من غفل عنها ، وليس ببالغة الحلق والافراء وما هي الا سنوات على هذه الوريرة حتى اجتمع له كل منتفع بالنظام الاجتماعي الجديد ، راغب في تدعيمه وواقيته من نذر الخطر والزوال وعلى قدر هذا الدأب الشديد في احتلال أسباب التسكين والتدعيم كان له دأب مثله في اتقاء أسباب التمرد ، والاخلال بالنظام ، كما نسميه في هذه الأيام ..

فما سمعت قط صيحة فتنة الا بادر اليها بما يسكنها ويردها الى طلب الاستقرار والدومان . فمن أجدى معه المال أسكنه باغدق المال عليه ، ومن كان من أهل الجد والاخلاص في العبادة والزهاده فهو محظى على اقصائه أو تقيه من الشام بحيلة يوافقه عليها شركاؤه في المصلحة ولا تعنيه حتى بعض الزهاد على هذا الترف الذى استفاض بين العلية والشرفاء فارتعدت عليهم صيحة أبي ذر الغفارى بالنکير ، وطق يطال الأغنياء بالانفاق في سبيل الله ، حتى ولع القراء بصيحته وشكى الأغنياء ما يلقونه . من نذيره أو بشيره : « وبشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها

(١) مروج النهب للمسعودي : الجزء الثاني

فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِكَاوِي مِنْ نَارٍ تَكُوِي بِهَا جِبَاهُمْ وَجِنُوَبُهُمْ وَظَهُورُهُمْ »  
فأشفق معاوية من مغبة هذه الصيحة وأرسل الى أبي ذر ألف دينار  
يسكته بها ان كان من يسكنهم الفتى عن الأغتراء ، فما طلع النهار حتى  
كانت الدنانير في أيدي الموزين الذين يلوذون بالداعية الأمين ويشكرون  
اليه . ثم صلى معاوية الصبح وأرسل الى الداعية رسوله الذي حمل اليه  
الدنانير يقول له : « أتَقْذِذْ جَسَدِي مِنْ عَذَابٍ مَعَاوِيَةً فَإِنَّهُ أَرْسَلْنِي إِلَيْكَ  
فَأَخْطَلَتْ بِكَ . قَبَّلَ لَهُ : يَا بَنِي ، قَلَ لَهُ : وَاللَّهِ مَا أَصْبَحَ عَنْدَنَا مِنْ دَنَانِيرِكَ  
دِينَار .. وَلَكِنْ أَخْرَجْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى نَجْعَمَهَا » .. فعلم معاوية أن الرشوة  
هنا لا تغنى عن القسوة . وكتب الى الخليفة أن أبا ذر أعرض به فلا طاقة  
له بالصبر عليه ، فأقام الاذن بنفي أبي ذر من الشام الى المدينة ، ثم ضاقت  
به المدينة أيضا فنفي منها الى قرية من أرباضها حيث لا يسمع له دعاء

\* \* \*

وصنع بعد الله بن سباء - صاحب القول برجعة النبي الى الدنيا  
ووصاية على " على الخلافة - مثل هذا الصنيع بعد أن داراه فأعياد ،  
فلم يشن منه ومن ترغيبه أو ترهيبه ضيقت عليه ثم أقصاه ..

والتفت الى من ساهم أهل الفتنة من طالب الاصلاح والتبديل  
فكتب في أمرهم الى الخليفة يقول : « اهْ قَدْمَ عَلَيْ أَقْوَامَ لَيْسَ لَهُمْ  
عُقُولٌ وَلَا أَدِيَانٌ . أَبْصِرُهُمُ الْعَدْلَ . لَا يَرِيدُونَ اللَّهَ بِشَئٍ وَلَا يَتَكَلَّمُونَ  
بِحَجَّةٍ . اَنَّا هُمُ الْفَتَنَةُ وَأَمْوَالُ اَهْلِ الدُّنْمَةِ ، وَاللَّهُ مُبْتَلِيهِمْ وَمُخْتَبِرِهِمْ ثُمَّ  
فَاضْحَمُهُمْ ، وَلَيْسُوا بِالَّذِينَ يَنْكُونُ أَحَدًا إِلَّا مِنْ غَيْرِهِمْ .. »

ثم أخرجهم من دمشق الى غيرها مستريحا منهم بالفني والاقصاء ،  
كانوا دمشق وحدها من بلاد المسلمين هي التي ينبغي لها أن تستريح

وهكذا تعاقبت السنون وكل سنة تزيد معاوية وفرة من أسباب  
الرضا والاستقرار وقلة من أسباب القلق والطموح الى التغيير ، حتى  
تحيزت له الشام عند مبايعة علي وفيها أعظم ما يتأتى في مثل ذلك المهد  
من دواعي السكينة واستدامة الحال ، وأقل ما يتاتى فيه من شواجر

## الفتنة والعصيان ..

أما على فقد شاءت المصادفات أن تتعكس الآية في حصته من الدولة الإسلامية أيا انعكاس . فأوشكت أن تتمد فيما دواعي الرضا والاستدامة ، وأوشكت أن تم فيها شواجر الفتنة وما نسيه اليوم بالأخلاق بالنظام ..

فكان التنافس عنده على أشده بين العاصمتين الحجازتين وبين الكوفة ، لا يرضى أهل المدينة بما يرضى أهل مكة ، ولا يرضى أهل الكوفة بما يرضى به هؤلاء وهؤلاء . حتى ضاق به المقام في المجاز وأوى إلى الكوفة مأوى « المستجير من الرمضاء بالنار »

\*\*\*

وكانت قبائل البدائية تنفس على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة ، وينظرون إليهم نظرتهم إلى القوي المستثاثر بجاه الدين والدنيا وقت الخلافة والسيطرة . وهي حالة كان أحجى بالولاية أن يخفوها ويتلطموا في اصلاحها أو تبدلها ما استطاعوا لها من اصلاح وتبدل ، ولكنهم على تقىض ذلك كانوا يباهون بها ويجهرون بحديثها حتى قال سعيد بن العاص والي الكوفة : « إنما السواد بستان لقرش ! » ..

وظهر هذا السخط من أثره قريش في خطب المتكلمين بلسان أهل البدائية حين نشب النزاع بين طلحة والزبير وأنصارهما وبين علي وأنصاره ، فقام في الجمع رجل من عبد القيس يقول :

« يا معاشر المهاجرين ! .. اتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لكم بذلك فضل .. » إلى أن قال يشير إلى خلافة أبي بكر : « ولم تستأمرنا في شيء من ذلك فجعل الله للMuslimين في إمارته بركة ، ثم مات واستخلف عليكم رجلاً فلم تشاورونا في ذلك : فرضينا وسلمنا . فلما توفي جعل أمركم إلى ستة تفرّق خاترتم عثمان ، وبایعتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم علينا من غير مشورة منا . فما الذي تقمت عليه فنقاتلها ؟ » ..

وهذا كلام دجل يدين بفضل المهاجرين ويقدمه في صدر مقاله ، فكيف بكلام الرجال من ينسون هذا الفضل أو تغليهم المنافسة على الشهادة به في معرض الخصومة ؟ .. ولعل النافذين بهذا الغيط كانوا يتربون الى بعض الصبر والتجاوز لو أنهم وجدوا من يشكون اليه فيحسن الاصناع والاعتراف لهم بالحق في دعواهم ، ولكنهم كانوا يشكون فيشور بهم المخالفون ويلجئونهم الى الصمت راغمين . فلما قال ذلك الرجل مقالته هموا بقتله ل ساعته لو لا أن حمه عشيرته وصحابه نم وثبوا عليه في العد فقتلوه وقتلوا معه قرابة سبعين

\*\*\*

وكان العبيد والموالى والأعراب المحرمون حاتقين متبرمين لا يرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمتهم الاسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة الاصناف . ولقد يكون معظم المتأمرين على قتل عثمان من هؤلاء العبيد والموالى والأعراب المحرمون . فلما طول على " بالاقتراض منهم لقتل عثمان قال : «..كيف أصنع بقوم يملكونا ولا نملكونهم ؟ .. ما هم هؤلاء قد ثارت معهم عبانكم وثبت اليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهلا ترون موضعًا لقدرة على شيء مما تريدون ؟ »

وقالت السيدة عائشة ، رضي الله عنها : « أيها الناس ! .. إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه ، وعييد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس .. والله لأصبع عثمان خير طلاق الأرض أمثالهم ..»

\*\*\*

وكان مع على " جميرة القراء والمخاوز وأصحاب النسخ والفقه والشريعة ، وهم خلق كثير يعانون بالألاف ويتفرقون في الموارض والبواقي ، ولا يزالون كأنبياء بنى اسرائيل منذرين متوعدين ساخطين على ترف المترفين ، منكرين لكل خلاف ولو يسير في اقامة أحكام الدين . لا يرضون عن الدنيا ولا عن رضي بها من طلبها ، ولا يستمعون الى أمر الا أن يكون في رأيهم وفaca حكم القرآن كما يفسرونه وحكم السنة

كما يعتقدونها . وظلما وقعا بين علىٰ وبين القتال لأنهم لا يستجيزونه أو عن الصلح والتحكيم لأنهم يجعلون القرآن عن قبوله .. فاذا كان أجناد معاوية يسعون الحق والباطل لأنهم لا يفرقون بينهما ولا يفرقوذ بين الجمل والنافقة فهو لاء الأجناد العارفون لا يسعون الا ما أجازوه واستوجبوا ، لأنهم خرجو في الأرض للتفرق بين الحلال والحرام والمعروف والمنكر . فلا يسعون على طاعة ولا يحاربون أو يسلون في جماعة . وهم أقرب الناس في ذلك العهد إلى الجبر بالذير والنداء بالتبديل والتغير ، والاصناء الى وحي الصمير قبل دعاء الامير

واجتمع مع علىٰ في الحجاز وال珂فة كل منافس على الخليفة متطلعين إليها ولو لم يجر بطلبها مخافة من شركائه الذين يزاحموه عليها ، فمنهم من كان يقول علىٰ : نباعتك على أنا شركاؤك ، ومنهم من كان يتطلع بقلة المشاورة له والمالأة بقوله ، ومنهم من كان يحارب عثمان ثم أصبح يحارب علياً باسم عثمان ، تحلا لذرائع الخلاف وكراهة لاستقرار الأمور ..

\* \* \*

وقد كان أبو بكر وعمر يسكنان كبار الصحابة بالحجاز ويحدزان منهم أن ينطلقوا في الأرض فيقبلوا على الدنيا ويشرجرون من الزرع ما يشجر بين طلابها . ثم يتصدّع شمل الأمة بالتشييع لهم عليهم والتفرق بين أنصارهم وأعدائهم ، وأوصى أبو بكر خليفته من بعده قائلاً :

« .. احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل أمرىء منهم نفسه ، وإن منهم لحيرة عند زلة واحد منهم فاياك أن تكونه ، واعلم أنهم لن يروا منك خاتفين ما خفت الله » ..

فلما صارت الخليفة إلى عثمان أهمل هذه السياسة الحكيمية وشق عليه أن يطيل جسمهم بالحجاز والهيئة عليهم بجواره ، فانطلقوا حيث ذهبوا بهم المذهب ، وكان منهم ما حذر أبو بكر حيث قال لمعبد الرحمن بن

عوف : « ورأيت الدنيا قد أقبلت .. حتى تخذلوا ستور الحرير ونضائد  
الديباج وحتى يالم أحدكم بالاضجاع على الصوف الأذربي (١) كما  
يالم أحدكم اذا نام على حشك السعدان »

\* \* \*

روى المسعودي انه « في أيام عثمان اقتتلت الصحابة الضياع والمآل ،  
فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف  
درهم ، وقيمة ضياعه بودى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف  
ابلا وخيلا كثيرة ، وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين  
الف دينار ، وخلف ألف فرس وألف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق  
ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك . وكان على مربوط  
عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ،  
وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا ، وخلف زيد بن  
ثابت من الذهب والنحضة ما كان يكسر بالفتوس غير ما خلف من الأموال  
والضياع . وبني الزبير داره بالبصرة وبنى أيضا بصر والكوفة  
والاسكندرية .. وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة  
وبنها بالجص والأجر والساج ، وبني سعد بن أبي وقاص داره بالقيق  
ورفع سكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلىها شرفات ، وبني المقداد  
داره بالمدينة وجعلها مخصوصة الظاهر والباطن ، وخلف يعلى بن منه  
خمسين ألف دينار وعقارات وغير ذلك ما قيمته ثلاثة وأربعين ألف درهم »

\* \* \*

هؤلاء أيضا أصبحوا في حصة على من الدولة الإسلامية عنصرا من  
أقوى عناصر القلق والتبرم والتفور من دوام الأمر للحكومة الجديدة ،  
خلافا لأمثالهم في معسكر معاوية

فالذى يغلب على أصحاب الثروات في كل مجتمع أنهم أنصار الحالة  
القائمة وأعداء الثورة والاضطراب السياسى أو الاجتماعى على

---

(١) منسوب الى افريبيان

الشخصيص ، ولكن هؤلاء الأغنياء خالفوا المعهود في مجتمع على فأصبحوا قادة السخط والشكوى وأعوان الثورة والتغيير ولو في سرائر القلوب كلما حيل بينهم وبين الظهور في الثورة بفعل محسوس . لأنهم عرفوا علينا من قبل ومن بعد فعلموا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ولن يليث أن يحاسبهم على ما جمعوه من المال أو يأخذ عليهم طريق المزيد عرفوا مذهبة في حساب الولاية ومذهبة في حساب الخلافة . فلما كان واليا لليمن أبي على بعض الصحابة أن يركبوا أبل الصدقة وقال لهم : إنما لكم منها سهم كما لل المسلمين ، ثم لام العامل الذي أذن لهم أن يركبواها في غيته وهو منصرف إلى الحج . وشاعت هذه القصة لأن أنسا شكوه إلى رسول الله عليه السلام ، فأنكر شكوكهم منه وقال : « لقد علمت أنه جيش في سبيل الله »

\*\*\*

ولما قام عثمان بالخلافة طال عتب على<sup>١</sup> عليه ، لأنه أباح للعمال والولاة ما ليس بآبه في رأيه ، ولقي بالعتاب كل صحابي من إخوانه جمع مالا واستهواه فتنة البذر والثراء وليس مذهبة واليا ولا مذهبة خليفة عريض أولئك الأغنياء الذين ذاقوا حلاوة الفتى وكرهوا أن يحرموه أو يحاسبوا عليه ولم يكن في وسع على<sup>٢</sup> أن يغض عنهم نظره ولو شاء ذلك ، وهو لا يشأه ولا يحله لنفسه وقد أنكره على غيره . لأنه اذا غض نظره لم يستطع أن يغض الانظار المفتوحة التي ثارت بعثمان وباعبت علياً بعده ليصنع غير ما صنعه عثمان وغير ما أثارهم عليه فلا دعاء الدنيا راضون مطعون ، ولا دعاء الدين راضون مطعون ، ولا الفقراء والجهلاء راضون مطعون ، وما منهم الا من هو قلق متوفز لا يسكن به سكن ولا يدوم به قرار وكل أولئك كانوا في حصة على<sup>٣</sup> من الدولة الإسلامية ، ولم يكن لعاوية في حصته شاجرة فتنة من هذه الشواجر بل كان له في موضع كل

واحدة منها دعامة تكين وتأيد  
وان هذه الشواجر على كثرتها وقوتها لفى غنى عن علة أخرى من  
علل العсад والشقاق تضاف اليها

ولكنها مع هذا لم تستوعب تلك العلل التي اصطلحت على حصة  
على من الدولة الإسلامية .. فقد أضيفت اليها علة أخرى ، بل أضيفت  
اليها أكثر العلل التي تبلي بها دولة أو حكومة . وهي اعتمادها في  
مواردها على غيرها ..

فكان موارد الشام في الشام نفسها من خراج أو انفال أو تجارة .  
أما موارد الحجاز فقد كانت بعيدة منه وان دخلت في طاعته وجنت إلى  
القائم بالأمر فيه . وكانت مصر والسودان من حصة على ، ولكنها لم ينتفع  
بمصر كثيراً لتعاقب الولاة فيها ، ولم يستفيد بالسودان كثيراً لتعاقب الفتن  
والغارات عليها .. وحسبك من هذا داعية قلق وباعت مخافة ومبطل  
أمان وطمأنينة ..

\*\*\*

وينبغي أن نذكر إن الحيلة في هذا التقسيم قليلة ، وان المحوادث هي  
التي اختارت لكل حصة من الحصتين زعيماً وأشبة الناس بها وأقربهم  
إلى ولادة أمرها و « كما تكونوا يول عليكم » .. ولا محل في هذه  
القاعدة لحيلة أو اختيار ..

فلم يكن أحد أشباه بقيادة المنافع المستبقة من معاوية ، ولم يكن  
أحد أشباه من على بقيادة الشكوى التي تطمح بأصحابها إلى التغير ..  
إن شكا الناس غلبة قريش ، فعلى كان يشكو منها ويظن الظنون  
بحقدتها عليه ونكر أنها لعنة ، ويقول في كتاب من كتبه إلى أخيه :  
« ... ودع عنك قريشاً وتركتهم في الصلال وتحولهم في الشقاق ،  
فإن قريشاً قد أجمعوا على حرب أخيك اجمعها على حرب رسول  
الله صلى الله عليه وسلم قبل اليوم ... »

وان جاءت صيحة الاصلاح والتغيير عن طريق الدين على مذهب

الحفظ والقراء والنساك فعلى " كان امام اهل العلم والقراءة ، وأحق من يتكلم بتفقيه أو تفسير وان جاءت من ضيم القراء فعلى " فقير ، أو من تهافت الولاة على المال فعلى " يغض هدا التهافت كما يغضه أضعف القراء ، عن زهد فيه لا عن قلة الوسائل اليه ..

فما شكا شاك قط الا وعلى " شريك له في شکواه ، وكيف ينجو رجل كهذا من قيادة الدولة التي قامت على التبرم بالحال والطموح الى التغيير؟.. وأية حيلة له الى جانب حيلة الحوادث وتوفيق المقادير؟..

\* \* \*

كان على " نموذج أصحابه الأعلى ، وكان معاوية نموذج أصحابه الأعلى . وكانا لأجل ذلك في موضع رشحتهما له الحوادث قسرا قبل أن يرشحا له بارادة مرشد

وما نحن بقادرين على وزن الرجلين ولا على المقابلة بينهما في الرأي والعمل ما لم تستحضر هذه الحقيقة أبدا ، وما لم تذكر أبدا ان أحدهما كان يعمل والحوادث حرب عليه ، وان الآخر كان يعمل والحوادث عدة في يديه ! ..



## البَيْعَة

بويع عليٌّ بالخلافة بعد حادثة من أقبح الحوادث الدامية في تاريخ الإسلام ، وهي مقتل الخليفة عثمان بن عفان في شیخوخته الواهنة ، بعد ان حصروه بين جدران داره ، وكاد يقتله الظمآن لو أمهله القتلة بضعة أيام ..

وأقبح ما كان في هذه الحادثة ، أنها بلاه لا يدفع وقضاء لا حيلة لأحد في إنقاذه لأن المسؤولين عنه كثيرون متفرقون في كل جانب يناصره أو يعاديه .. فإذا امتنع الأعداء لم يتمتع الأصدقاء ، وإذا بطل الشر الذي فيه اختيار لم يبطل الشر الذي لا اختيار فيه ، وربما كان حسن النية وسوء النية هنا صنوان متساوين . فمن الأعمال المؤسفة التي عجلت بالفاجعة أعمال كثيرة بدرت من عثمان نفسه ، أو لعله أقدم عليها بعد قصد ومراجعة ، وليس هي في تعجيلها ولا في سوء مغبتها بأهون من أعمال الأعداء ..

مضت السنون الأولى من خلافة عثمان على خير ما كان يرجى لها إذ تمضي في عهد خليفة ..

ثم تغيرت الأحوال فجأة من جانب الراعي ومن جانب الرعية ، لأسباب لم تكن طارئة ساعة ظهورها ، وإن ظهرت عواقبها طارئات وتتعدد الأسباب التي أوجبت ذلك التغير بعد السنوات الأولى ، ولكنها قد تنحصر في سببين اثنين جامعين لغيرهما من الأسباب العديدة ، وهما امعان الخليفة في الشیوخوخة ، واستمراره الأعوان لما نسموا به من لين الخليفة ولین الرغد والمتاع

٤ - بقريبة الإمام على

ونقد كتبت الأسفار المطولات في احصاء المأخذ على عثمان رضي الله عنه ، وكتبت الأسفار المطولات في تبرئة الخليفة من تلك المأخذ أو الاعتذار له بأحسن الأعذار وتقديرها على أحسن الوجوه ، لأن المسألة خرجت من عدد المسائل التاريخية ، وانتقلت إلى ميدان النزاع بين الأحوال والمذاهب وأقاويل الجدل والمجاج .. فجعلها الشيعيون وأهل السنة ذريعة إلى تأييد مذهب وانكار مذهب في الخلافة والخلافاء ، وراح الأولون يبالغون في الاتهام كما يبالغ الآخرون في الدفاع . ولا طائل هنا من شرح هذا وذلك ، ولا هو مما يقتضيه كلامنا الآن .. وإنما المرجع فيه إلى تاريخ عثمان ..

إلا أننا نجترئ هنا بالإشارة إلى التذمر الذي أثار الفتنة ، واللام بأسبابه عند أصحابه .. فمما لاشك فيه أنهم تذمروا لأسباب تشير لهم وإن طال الشك والجدل حول تنصيمهم من الخطأ والصواب

أهم هذه الأسباب ، أنه خالف بعض السنن التي اتبعها النبي عليه السلام في الأذان والصلوة ، وأنه أدنى أناسا من أقاربه كان رسول الله عليه السلام قد أقصاه عن المدينة .. فاستدعاهم إليه بعد استغلاقه وأغدق عليهم المتع والأموال وأنه أطلق العنان لأبناء أسرته في الولاية والعمالة ، ومنهم من اتهموه باقامة الصلاة وهو سكران ، وأنه منح سفيان بن حرب مائة ألف درهم ومنح الحارث بن الحكم زوج ابنته عائشة مائة ألف درهم من بيت المال ، وأنه توسع في بناء القصور ، وحرم بعض الصحابة ، وضرب بعضهم على مشهد من الملا ضرب اهانة وايجاج ..

ولم تقض سنوات على هذه الحال حتى كثر المترفون من جانب والمتربكون من جانب آخر ، وشاع بين الجانبين ما يشيع دائماً في أمثال هذه الأحوال من الملاحة والبغضاء والتزدد بالتهم واللجاجة ، واضافة الأوهام إلى الحقائق في خلق ذرائع الخلاف والشحنة

ويدل على خطر مسألة الثروة في هذه الفتنة ، أن الناس تألبوا على

ال الخليفة مرة .. فأرسل في طلب على " ليصرفهم عنه ، فلما قدم اليه استأذنه في اعطائهم بعض الرفد العاجل من بيت المال ، فأذن له .. فانصرفو عن زعماء الفتنة ، وهدوا الى حين ..

ثم توافد المذمرون من الولايات الى المدينة مجندين وغير مجندين .. وتولى زعامة المذمرين في بعض الأحيان جماعة من آجلاه الصحابة ، كتبوا صحيفه وقوعها وأشهدوا فيها المسلمين على مأخذ الخليفة .. فلما حملها عمار بن ياسر اليه ، غضب وزيره مروان بن الحكم ، وقال له : « ان هذا العبد الأسود قد جزاً عليك الناس .. وانك ان قتله نكلت به من وراءه » فضربوه حتى غشي عليه

وفي مرات أخرى ، كان الخليفة يصفع إلى هذه التكالبات ويندم على ما اجترحه أعنوانه بعلمه أو بغير علمه ، ثم يعلن التوبه الى رعاياه ، ويؤكد لهم الوعد باقصاء أولئك الأعوان والخلافهم في أعمالهم عن يرضي المسلمين ، ويرضي الله

ثم يغلبه أولئك الأعوان على مشيته ، فيقيهم حيث كانوا وعلى لهم فيما تعودوه من الترف والتسكية ، وعلى رأسهم مروان بن الحكم .. أبغض أولئك الأعوان الى المسلمين ، حتى من أهل الخليفة المقربين

وكان بعض الوفود يشكون ولاتهم ، فإذا عادوا الى بلادهم تلقاهم أولئك الولاة بالأذى وقتلوا بعضهم ضربا على ملا من الشاكين الذين يتظرون بالانتقام .. فيعود المضروبون الى الشكوى ، وينصرهم آجلاه الصحابة عند الخليفة ، ويسألونه أن يولى عليهم غير واليهم المسئ عليهم . فإذا توجه الوالي الجديد الى مكانه ، اذا في الطريق رسول يحمل خطابا للوالى المعزول ، يأمره فيه بقتل من يقدر اليه من حاملى الشكوى وحاملى كتاب الولاية ، ويقتره في مكانه !

حدث هذا مع وفدي مصر ، واختلفت الآقاويل في تأويله من متهم للخليفة ، ومتهم لمناقسيه على الخلافة ، ومتهم لوفد الشكوى الذى عثر بالخطاب ، ومتهم لمروان بن الحكم - عنصر السوء في هذه المأساة

كلها - وهو أولى الأقوال بالترجح والتصديق ، اذ كان أيسر شيء على مروان لو كان بريئا من هذه المكيدة أن يكشف حقيقتها بسؤال الغلام حامل الخطاب ، وفي كشف هذه الحقيقة ابراء له ، وتعزيز لسلطان الخليفة ، وفضيحة لأعدائه ، وادحاض لحججة الفتنة ، ودعوة الاثارة والتحريض .. ولكنه أهمل السؤال ، وقع من تبرئة نفسه بقذف التهمة على متهميه ..

\* \* \*

وظل الخليفة والثوار يشتبكون ويتجاذبون .. لا هم في حرب ، ولا هم في سلام ..  
وكلما تجاجزوا بعد اشتباك منذر بالشر ، زاد الخليفة ضعفا ، وزاد الثوار ضراوة ، وزاد التوجس بينهم استحالا واتسع مع التوجس مجال السعاية والارجاف بين الفريقين حتى بلغ الكتاب أجله ..  
وتوسط على " بين الخليفة والثوار ، فاستعملهم الخليفة ثلاثة أيام يرد فيها المظالم ويعزل العمال المكرهين  
فانتظر الثوار هذه الأيام الثلاثة تلبية لنصيحة على " ... ومنهم من يسىءظن ، ويرى ان الخليفة انا يستعملهم في انتشار المدد الذي طلبه من الأمصار ..

وانقضت الأيام الثلاثة على غير جدوى ..  
وتفاقمت الفتنة ، وأحاطت النائرون ببيت عثمان .. لا يقمعون في هذه الكرة الا أن يعتزل ، أو يسلمهم مروان بن الحكم ، أو يعزلوه عنوة  
وجاء في رواية « شداد بن أوس » ان عليا رضى الله عنه ، خرج من منزله يومئذ معتمدا بعمامة رسول الله مقلدا سيفه ، أمامة الحسن وعبد الله بن عمر في تقر من المهاجرين والأنصار حتى حملوا على الناس وفرقهم ، ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه على " .. وقال بعد تمهيد وجيز : « .. لا أرى القوم الا قاتلوك ، فمرنا فلتقاتل ». فقال الخليفة : « أنشد الله رجالا رأى الله حقا ، وأقر أن لم ي عليه حقا ، ان يهرق في

سببي ملء سجدة من دم أو يهريق دمه في » فأعاد على: القول ، فأعاد عليه هذا الجواب .. ثم خرج من عنده الى المسجد ، وحضرت الصلاة فنادوه : « يا آبا الحسن .. تقدم فصل بالناس » فقال : « لا أصلّى بكم والامام محصور ، ولكنني أصلّى وحدي » ثم صلّى وحده وانصرف الى منزله ، وترك ابنيه مع ابناء زمرة من الصحابة في حراسة دار الخليفة ، ليعلم الثوار أنهم متعدون على كل ذي خطر في الاسلام ان وصلوا الى الخليفة باعتداء .. عساهم ان علموا ذلك أن يتهيوا المركب ، فلا يتزعوا بالشر غاية متزعه

الا أن الثوار علموا أنهم مأخوذون بالانتظار مغلوبون بالطاولة فتسوروا الدار وولغوا في دم طهور لو هان على صاحبه آن تسفك الدماء في سبيله لعز عليهم آن يسفكونه

\*\*\*

ولالافتache في مقتل عثمان وعبرة هذا المقتل ، مكان غير هذا المكان ، وكتاب غير هذا الكتاب ..

فاما نحن في صدد الموقف الذي وقفه علي من هذه الجريمة ، وما ينم عليه هذا الموقف من خلقه ورأيه وسيرته وجهه .. وإنما يعني هنا آن نسأل : أكان عليه وزر في هذه الجريمة ..؟.. أكان في مقدوره عمل صالح يعلمه لانقاذ عثمان من هذا المصير ..

ونحن لا نسأل هذا السؤال لترجع في جوابه الى جدل المجادلين وأقاسيص المادحين والقادحين .. فقد سال في الخلاف على هذا السؤال دم غزير ومداد كثير ، وليس علينا نحن أن نزيد قطرة او قطرات على هذا البحر المسجور الذي لا رى فيه

ليس علينا هذا ، لأننا نستطيع أن نغيره الى حقيقة مائلة من يشاء أن يراها ، وفيها الغنى – ولو بعض الغنى – عن الاسهام في السؤال والجواب ..

فالحقيقة التي لا يطول فيها الريب ، آن علياً رضي الله عنه لم يكن

أقدر على اجتناب هذا المصير من معاوية أو من عثمان نفسه ، لو شاء عثمان أن يستمع إلى بعض الناصحين إليه

فقد كان معاوية والياً عزيزاً ، له جند يرسله إلى الخليفة فيحميء في الشدة الازمة وإن أباها ، وكان لمعاوية قبول عند عثمان لم يكن لعلي ولا لأحد من خلصائه ، وكان هو أقمن أن يميل بعثمان إلى الرضا بالحراسة أو الرضا بالرحلة إلى مكة أو الشام ، لو أراد

وكان في وسع عثمان أن يرحل إلى مكة ، وهي آمن له من المدينة ، أو يرحل إلى الشام وقد كانت مفتوحة له قبل أن تغلقها الفتنة ويمرد الثوار في العصيان ..

أما عليه فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيله العقل في تلك الأزمة المحفوفة بالمخاطر من كل جانب ..

كان عليه أن يكبح الفرس عن الجماح ، وكان عليه أن يرفع العقبات والمواجز من طريق الفرس .. كلما حيل بينها وبين الانطلاق

كان ناقداً لسياسة عثمان وبطانته التي حجبته عن قلوب رعاياه .. ناصحاً لل الخليفة باقصاء تلك البطانة ، وتبدل السياسة التي تزينها له وتغريه باتباعها وصم الآذان عن الناصحين له بالإقلال عنها

وكان مع هذا أول من يطالب بالغوث ، كلما هجم الثوار على تلك البطانة ، وهموا باقصائها عنوة من جوار الخليفة

كان الثوار يحسبونه أول مسئول عن السعي في الاصلاح ، وكان الخليفة يحسبه أول مسئول عن تهدئة الحال وكف أيدي الثوار ولم يكن في العالم الإسلامي كله رجل آخر يعاني مثل هذه المعضلة التي تلقاها من جانبيه كلما حاول الخلاص منها ، ولا خلاص !

وضاعف هذا الحرج الشديد الذي كان يلقاه في كل خطوة من خطواته ، انه لم يكن بموضع المخطوة والقبول عند الخليفة حينما وجّب لاصناعه إلى الرأي والعمل بالمشورة . وإنما كان مروان بن الحكم موضع المخطوة الأولى بين المقربين إليه .. لا ينبعو من إحدى جنאיاته التي كان

يجنيها على الحكومة والرعاية حتى يعود الى الخليفة فيوقع في روعه أنـ.  
عليـاً وآخوانه من جلة الصحابة هم الساعون بين الناس بالكيد له وتأليب  
الثائرين عليه ، وانه لا أمان له إلا أنـ يقع بهم ويعرض عنـهم .. ويلتـمسـ  
الأمان عند عشيرته وأقربائه ، ومن هـم أحـقـ الناس بـسلطـانـه وأصـدقـهمـ  
رغـبةـ في دوـامـه ..

فـيـ المؤـتمرـ الذـيـ جـمـعـهـ الخليـفةـ للـتشـاورـ فـيـ اـصلاحـ الـأـمـرـ وـقـعـ  
الـفتـنةـ ، لـمـ يـكـنـ عـلـيـ مـدـعـواـ ولاـ مـنـظـورـاـ إـلـيـ يـعـينـ الثـقـةـ وـالـمـوـدةـ ..ـ بلـ  
كانـ المـدـعـوـونـ إـلـىـ المؤـمـرـ مـنـ أـعـدـائـهـ وـالـكـارـهـيـنـ لـتـصـحـهـ ..ـ وـهـمـ مـعـاوـيـةـ  
وـعـمـرـوـ بـنـ العـاصـ وـعـبـدـ اللهـ بـنـ آـبـيـ سـرـجـ وـعـبـدـ اللهـ بـنـ عـامـرـ وـسـعـيـدـ بـنـ  
الـعـاصـ ، وـهـمـ فـيـ جـمـلـتـهـمـ أـولـئـكـ الـوـلاـةـ الـذـيـنـ شـكـاـهـمـ عـلـيـ وـجـمـهـرـةـ  
الـصـحـابـةـ ، وـبـرـمـتـ بـهـمـ صـدـورـ الـمـاهـجـرـيـنـ وـالـأـنـصـارـ

قالـ لـهـمـ عـثـمـانـ :ـ «ـ اـنـ لـكـلـ اـمـرـ وـزـرـاءـ وـنـصـحـاءـ ،ـ وـاـنـكـمـ وـزـرـائـيـ  
وـنـصـحـائـيـ وـأـهـلـ تـقـيـ .ـ وـقـدـ سـنـعـ النـاسـ مـاـ قـدـ رـأـيـتـ ،ـ وـطـلـبـواـ إـلـيـ أـنـ  
أـعـزـلـ عـمـالـيـ ،ـ وـأـنـ أـرـجـعـ عـنـ جـمـيـعـ مـاـ يـكـرـهـوـنـ إـلـىـ مـاـ يـحـبـوـنـ ..ـ  
فـاجـتـهـدـواـ رـأـيـكـمـ وـأـشـيـرـواـ عـلـيـ »ـ ..ـ

قالـ مـعـاوـيـةـ :ـ «ـ أـرـىـ لـكـ يـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ أـنـ تـرـمـ عـمـالـكـ عـلـىـ الـكـفـاـيـةـ  
لـمـ قـبـلـهـمـ ،ـ وـأـنـ ضـامـنـ لـكـ مـاـ قـبـلـيـ »ـ

رأـيـ رـجـلـ يـرـيدـ أـنـ يـحـفـظـ بـوـلـاتـهـ ،ـ وـلـاـ يـرـيدـ أـنـ يـغـضـبـ أـحـدـ مـنـ  
أـصـحـابـ الـوـلـاـيـاتـ فـيـ غـيرـ مـصـرـ ..ـ

وقـالـ عـبـدـ اللهـ بـنـ عـامـرـ :ـ «ـ رـأـيـ لـكـ يـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ أـنـ تـأـمـرـهـمـ بـجـهـادـ  
يـشـغـلـهـمـ عـنـكـ ،ـ وـأـنـ تـجـمـرـهـمـ فـيـ المـغـازـيـ حـتـىـ يـذـلـوـنـ لـكـ ..ـ فـلـاـ تـكـوـنـ  
هـمـةـ أـحـدـهـمـ إـلـاـ نـفـسـهـ ..ـ »ـ

رأـيـ رـجـلـ يـرـيدـ أـنـ يـشـغـلـ النـاسـ عـنـ الشـكـوـيـ وـلـاـ يـرـيدـ أـنـ يـرـيـلـهـاـ ،ـ  
ثـمـ هـوـ لـاـ يـيـالـيـ أـنـ يـخـلـقـ جـهـادـاـ تـسـفـكـ فـيـ الدـمـاءـ فـيـ غـيرـ جـهـادـ مـطـلـوبـ  
وـقـالـ عـبـدـ اللهـ بـنـ سـعـدـ :ـ «ـ رـأـيـ يـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ أـنـ النـاسـ أـهـلـ طـمـعـ ،ـ  
فـأـعـطـهـمـ مـنـ هـذـاـ مـالـ تـعـطـفـ عـلـيـكـ قـلـوبـهـمـ »ـ

رأى رجل يشتري الرضا بالرشوة ، ويستبقي ما في يديه منها  
وقال عمرو بن العاص ، وهو بين السخط على ولاته فاتها والطعم في  
ولاته يرجوها : « أرى أنت قد ركب الناس بما يكرهون ، فاعتزم أن  
تعدل .. فان أتيت ، فاعتزم أن تعتزل .. فان أتيت ، فاعتزم عزماً وأمض  
قدماً » ..

رأى رجل عينه على الخليفة وعينه على الثوار ، ولهذا بقي حتى تفرق  
المجتمعون .. ثم قال للخليفة حيث لا يسمعه أحد غيره : « والله يا أمير  
المؤمنين لأنك أعز عليّ من ذلك .. ولكنني قد علمت أن سيلغ الناس  
قول كل رجل منا ، فأردت أن يلهم قولي فيثروا بي .. فأقود اليك  
خيراً وأدفع عنك شرماً ... »

\*\*\*

وكان هؤلاء هم الوزراء والنصارء وأهل الثقة عند عثمان ، ومن  
ورائهم مروان بن الحكم يلزمهم ويكتفوا لهم أن يحجب النصاراء عنه ،  
وفي مقدمتهم عليٌّ وآخوانه .. ثم تفرق المؤمنون وقد رد عثمان كل  
عامل إلى عمله ، وأمره بالتصفيق على من قبله ..  
فكانت حيلة عليٍّ في تلك المعضلة العصبية جد قليلة ، وكان الحول  
الذي في يديه أقل من الحيلة

لا انه مع هذا قد صنع غاية ما يصنعه رجل معلم بالنقضين ،  
معصوب بالتبعين ، مسؤول عن الخليفة أمام الثوار ومسؤول عن الثوار  
 أمام الخليفة ..

جاءه الثوار مرة من مصر خاصة ، يتخطرون الخليفة إليه ويعرضون  
الخلافة عليه .. فلقيهم أسوأ لقاء ، وأنذرهم لكن عادوا إليها ليكونن  
جزاؤهم عنده وعند الخليفة القائم ، جراء العصاة الفسدين في الأرض

وجاءوه مرة أخرى وحاجتهم ناهضة ، ودليل التهمة التي يتمهون بها  
بطامة عثمان في أيديهم .. جاءوه بالخطاب الذي وجدوه في طريق مصر  
مع غلام عثمان ، يأمر عامله بقتلهم بعد أن وعدهم خيراً وأجابهم إلى

تولية العامل الذي يرضيهم . فلم تخدعه حجتهم الناهضة ، ولم يشأ أن يلي لهم في ثورتهم واحتاجتهم من جراء ذلك الخطاب المشكوك فيه . وجعلهم متهمين مسئولين بعد أن كانوا متهمين سائلين ، فقال لهم : « وما الذي جمعكم في طريق واحد ، وقد خرجتم من المدينة متفرقين كل منكم إلى وجهة ؟ .. »

\*\*\*

وكانت حيرة عليٌّ بين التقرير والابعاد ، أشد من حيرته بين الخليفة والثوار .. فكان يؤمر تارة ببارحة المدينة ليكف الناس عن الهاتف باسمه ، ويستدعي إليها تارة ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة . فلما تكرر ذلك ، قال لابن عباس الذي حمل إليه رسالة عثمان بالخروج إلى ماله في ينبع : « يا ابن عباس .. ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جملاً ناضحاً بالغرب - أي الدلو - أقبل وأدبر .. بعث إلىَّ أن أخرج ، ثم بعث إلىَّ أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث إلىَّ أن أخرج .. والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً » ..

ثم بلغ السيل الربئي ، كما قال عثمان رضي الله عنه ، فكتب إلى عليٍّ يذكر له ذلك ويقول : « إن أمر الناس ارتفع في شأنى فوق قدره .. وزعموا أنهم لا يرجعون دون دمي ، وطبع فيَّ من لا يدفع عن نفسه فان كنتُ مأكلولاً فكنْ خيراً أكلِّي .. والا فأدركني ولماً أمزقِّي فعاد عليٌّ ، وجهد في إفراز الخليفة جهده ، ولكنَّه كان يعالج داء استعصى دواؤه وابتلي به أطباؤه .. فكلهم يريد تغييرًا يأتي من قبل الغيب أو يأتي من قبل الآخرين ، ولا يغير شيئاً من عمله أو مستطاعه .. ولعل الخليفة لو شرع في التغيير المرجو يومئذ لماً أجدى عليه عظيم جدو ، لقوات أوانه وانطلاق الفتنة من أعنتها ، وامتناع التوفيق والصفاء بعد ما وفر في النفوس ولغطت به الأفواه .. وعدَ الخليفة وعدَ الآخر .. ليصلحن الأحوال ويدلن العمال .. وأنحاطت به بطاته كدأبها في أثر كل وعد من هذه الوعود ، تنهاه أن

ينجزه وتخيفه من طمع الناس فيه ، ان هو أنجز ما وعدهم حين توعدوه وكانت المرأة أصدق نظراً من الرجال في هذه الغاشية التي تضل فيها العقول .. فأشارت عليه امرأته السيدة نائلة باسترضاة عليٰ والاعراض عن هذه البطانة ، ولم يكن أيسر على بطاقة من اقنانه بضعف هذا الرأي بعد سماعه من امرأة ضعيفة . فكان مروان يقول له : « والله لاقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبية تخوف عليها » .. وكان هو يأذن له أن يخرج ليكلم الناس ، فلا يكلمهم الا بالزجر والاصرار .. كما قال لهم يوماً : « ما شأنكم قد اجتمعتم لأنكم جئتم لنهب . شاهت الوجوه .. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكتنا .. ارجعوا الى منازلكم ، فأنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا » اذن بطلت الرواية ، ولم يبق الا لحظة طيش لا يدرى كيف تبدأ ، ولا يُؤتى لأحد اذا هي بدأت أن يقف دون متهاها

\*\*\*

هجم الثوار على باب الخليفة ، فمنهم الحسن بن عليٰ وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفة من أبناء الصحابة ..

واجتلدوا فعنهم عثمان ، وقال لهم : « أتتم في حلٍ من نصرتي » وفتح الباب ليمنع للبلاد حوله .. ثم قام رجل من أسلم ينادى عثمان أن يعتزل ، فرمى كثير بن الصلت الكaldi باسمه فقتله ، فجنّ جنون الثوار يطلبون القاتل من عثمان ، وعثمان يأبى أن يسلمه ويقول لهم : « لم أكن لأقتل رجلاً نصري وأتتم تريدون قتلي .. » وعزٌ على الثوار أن يدخلوا من الباب الذى كان قد أغلق بعد فتحه ، فاقتربوا الدار من الدور التى حولها .. وأقدموا على فعلتهم النكراء بعد احجام كثير لو لم تقع الواقعة في هذه اللحظة الطائشة ، لوقعت في لحظة غيرها لا يدرى كيف تبدأ هي الأخرى .. فاما هي بادرة ولحدة من رجل واحد تسوق وراءها كل مجتمع حول الدار من المهاجرين أو المدافعين ، ولا أكثر

من البوادر بين ثوار لا يجمعهم رأى ، ومدافعين لا يضيّعهم عنان ..  
ونقل الخبر الى المسجد ، وفيه على جالس في نحو عشرة من المصلين ،  
فراعه منظر القادم وسأله : « ويحك ما وراءك ؟ » قال : « والله قد فرغ  
من الرجل » فصاح به : « تبا لكم آخر الدهر .. » وأسرع الى دار  
ال الخليفة المقتول .. فلطم الحسين ، وضرب الحسين : وشتم محمدًا بن طلحة  
وعبد الله بن الزبير وجعل يسائل ولديه : « كيف قتل أمير المؤمنين ،  
وأتما على الباب ؟ » فأجاب طلحة : « لا تقرب يا أبا الحسن ولا  
تشتم ولا تلعن ، لو دفع مروان ما قتل »

\*\*\*

قال سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه : « بقيت المدينة خمسة أيام  
بعد مقتل عثمان ، وأميرها الغافقي بن حرب ، يلمسون من يجتمعهم الى  
القيام بالأمر ، والمصريون يلحوذون على علىٰ وهو يهرب الى الحيطان (١) ،  
ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، والبصريون يطلبون طلحة فلا  
يجيئهم ، فقالوا فيما بينهم : لا نولى أحدا من هؤلاء الثلاثة . فمضوا  
الى سعد بن أبي وقاص فقالوا : إنك من أهل الشورى . فلم يقبل  
منهم ، ثم راحوا الى ابن عمر فأبى عليهم ، فحاروا في أمرهم . ثم  
قالوا : إن نحن رجعنا الى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف  
الناس في أمرهم ولم نسلم .. فرجعوا الى علىٰ فألحوا عليه ، وأخذ  
الأشرى بيده وبايده الناس .. وكلهم يقول : لا يصلح لها الا علىٰ .  
فلما كان يوم الجمعة وصعد على المنبر ، بايده من لم يبايعه بالأمس وكان  
أول من بايده طلحة بيده الشلاء ، فقال قائل : « أنا لله وانا اليه راجعون » ،  
ثم الزبير ، ثم قال الزبير : « أنا بايعت علياً واللنج على عنقى والسلام .. »  
وهذا الخبر على وجاته ، قد حصر لنا أسماء جميع المرشحين للخلافة  
بالمدينة عند مقتل عثمان .. وربما كان أشدهم طلباً لها طلحة والزبير ،  
اللذان أعلنا الحرب على علىٰ بعد ذلك .. فقد كانوا يهدان لها في حياة

(١) البساتين

عثمان ، ويحسبان أن قريشا قد أجمعوا أمرها إلا يتولاها هاشمي ، وأن علياً وشريكه أن يذاد عنها بعد عثمان كما ذيد عنها من قبله ، وكانت السيدة عائشة تؤثر أن تتول الخلافة إلى واحد من هذين .. أو إلى عبد الله بن الزبير ، لأن طلحة من قبيلة تميم والزبير زوج اختها أسماء ، وفي تأييد السيدة عائشة لواحد منهم مدعاهة أمل كبير في النجاح ..

على أن الرأي هنا لم يكن رأي قريش ، ولا رأي بنى هاشم .. فلو أن عثمان مات حتف نفسه ، ولم يذهب ضحية هذه الثورة لجاز أن تجتمع قریش فتعقد البيعة خليفة غير على بن أبي طالب ، وجاز أن يختلف بنو هاشم .. فلا يجتمع لهم رأي على رجل من رجالهم الثلاثة المرشحين للخلافة ، وهم : عقيل ، وعلى ، وابن عباس

\*\*\*

ولكنها الثورة الاجتماعية التي تتشد رجالها دون غيره ولا محيد لها عنه .. فإن ترددت أيام ، فذاك هو التردد العارض الذي يرد على المخاطر لا محالة ، قبل التوافق على رأي جازم .. ثم لا معدل للثورة عن الرجل الذي تتجه إليه وحده على الرغم منها ..

فطلحة والزبير ، كانا يشبهان عثمان في كثير مما أخذه عليه المترججون في الدين ، وقرد له الفقراء المحرمون .. كانوا يخوضان في المال ، ولا يفهمان الرهد والعلم على ستة الناقمين المتزمتين ، فإذا طلب الثائرون خليفة على شرطهم ووفاق رجائهم .. فما هم بواجدية في غير على بن أبي طالب ، وقد قال بحق : « إن العامة لم تبايعنى لسلطان غالب ولا لعرض حاضر » ولو شاء لقال عن الخاصة الذين لا يطمعون في الخلافة مقالته عن العامة في اقتيادهم إليه بغير رهبة ولا رغبة .. فقد كان أولئك الخاصة جميعا على رأى العامة في حكومة عثمان وبطاته ، وإن أخفى بعضهم لومه .. ولم يذهب بعضهم في اللوم مذهب الثوار في النزق وسفك الدماء ..

ونعتقد كما أسلفنا أن هذه الحقيقة هي أولى الحقائق بالتوكيد

والاستحضار ، كلما عرض أمر من أمور الخلاف والتردد في خلافة على رضى الله عنه .. فإذا هي فهمت على وجهها ، فكل ما عدتها مفهوم البواطن والظواهر منسق الموارد والمصادر .. وإذا هي لم تفهم على الوجه الأمثل أو تركت جانبا ، وبث الباحثون عن العلل والعواقب في غيرها فالعهد كله غامض مجھول ، والموازين كلها مختلة منقوصة سواء في تقدير الرجال أو تقدير الأعمال ، وجاز حينئذ أن يرمي على بالخطأ .. ولا خطأ عنده يصححه غيره في موضعه ، وإنما هو حكم الموقف الذي لا تحيط به .. وجاز كذلك أن ينحل خصومه فضل الصواب ولا صواب عندهم ، لأنهم مضطرون إلى ورود هذا المورد .. فكرروا فيه أو طرقوه اعتسافا بغير تفكير ..

\*\*\*

فلم تكن المسألة خلافا بين على ومعاوية على شيء واحد ، ينحصر فيه النزاع باتتصار هذا أو ذاك ولكنها كانت خلافا بين نظامين متقابلين وعلمين متنافسين : أحدهما يتمرد ولا يستقر ، والآخر يقبل الحكومة كما استجدها ويغسل فيها إلى البقاء والاستقرار ..

أو هي كانت صراعا بين الخلافة الدينية كما تمثلت في علي بن أبي طالب ، والدولة الدينية كما تمثلت في معاوية بن أبي سفيان وليس موضع الجسم فيها أن ينتصر على .. فيحكم في مكان معاوية ، أو ينتصر معاوية فيحكم في مكان على ، بل موضع الجسم فيها مبادئ الحكم كيف تكون إذا تغلب واحد منها على خصمه ؟ أت تكون مبادئ الخلافة الدينية أو مبادئ الدولة الدينية ؟.. أت تكون مبادئ الورع والزهد أو مبادئ الحياة على أساس الثروة الجديدة ، كما توزعت بين الأنصار وتفرقت بين المرأة والأجناد والأعوان ؟

ولو أن علينا ملك الشام ومصر والعراق والمحجاز ، وجرى في سياستها على ستة أصحابه من المفاظ القراء ومنكري البذخ والاسراف لبقيت

الشكلة حيث كانت ، ولم تغز هزيمة معاوية الا ريشما يتجرد للدولة  
منارع آخر يحاول الغلبة من حيث فشل ..  
ولو أن معاوية ملك المدينة الى جانب ملكه ، وجرى في سياستها على  
ستة الحفاظ والقراء لما أرضاهما ، ولا اتفاد له أحد من أشياعه ..  
فالحسن حق الحسن هنا ، إنما هو تعليب مبادئ الملك أو مبادئ الخلافة  
ولا حيلة لعلى ولا لمعاوية في علاج الأمر على غير هذا الوجه ، لو جهد  
له جهد الطاقة ..

\*\*\*

وقد كان الموقف بين الخلافة والملك ملتبساً مشابكاً في عهد عثمان :  
كان نصف ملك ونصف خلافة ، أو كان نصف زعامة دينية ونصف  
امارة دنيوية ..  
فوجب أولاً أن يتضح الموقف بينهما ، وأن يزول الالتباس عن فلق  
صرح ..

ووجب وقد زال الالتباس ، وتقابل الضدان اللذان لا يتفقان ، أن  
يبلغ الخلاف مداه .. ولن يزال قائمًا حتى تكتب النبلة لمبدأ من المبدأين  
وحكم من الحكمين ، وليس لعلى أو معاوية على التخصيص  
هذه هي العلة الكبرى التي تنطوي فيها جميع العلل الظاهرة ..  
وخلق بكل علة أخرى أن تكون تعلة موضوعة يستر صاحبها غير  
ما يبطن ، أو يخدع في زعمه وهو غافل عن معناه ..  
خذ لذلك مثلاً علة طلحة وأصحابه الذين ثاروا على عليٍّ ليطلبوا  
بعد عثمان ، وهم لم يدفعوا عنه في حياته بعض ما دفع عليٍّ عنه . وقد  
كان عثمان كثيراً ما يقول : « ويلي من طلحة .. أعطيته كذا وكذا ذهباً  
وهو يوم دمي .. اللهم لا تمنعه به ولقه عوقب بغيه » ..  
وساء ظن الناس بنتقمة طلحة على عثمان حتى حدث بعضهم أنه رآه  
يوم مقتله يرمي الدار ، ويقود بعض الثائرين الى الدور المجاورة ليهبطوا  
منها الى دار عثمان ، وهو حديث يفترى الى السند الوثيق ، ولكنه ينم

على ظن الناس بصداقه طلحة الخليفة المقتول  
وخذ لذلك مثلا حجة معاوية حين علل ثورته باتهام على في دم  
عثمان ، وعلل اتهامه على بتقصيره في القود من التأمين .. وهم ألوان  
يحملون السلاح ، وهو لم يسكن بعد الى سلطان يعينه على القود من  
هؤلاء الألوف المسلمين . فماذا صنع معاوية بقاتل عثمان حين صار  
الملك اليه ، ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذي من أجله ثار واستباح  
القتال ؟ انه اتبع عليا فيما صنع ، وأبى أن يذكر الثار المقيم المبعد ،  
وقد ذكروه به وألحووا في تذكيره . ولقد كان أول ما سمعه يوم زار  
المدينة ودخل بيت عثمان صيحة عائشة بنته وهي تبكي : « وا أبياه »  
فلم تزده هذه الصيحة المثيرة الا اصرارا على الاغضاء والاعفاء . وقال  
لها يعزّيها : « يا ابنة أخي .. ان الناس أعطونا طاعة وأعطيناهما أمانا ،  
وأظهرنا لهم حلما تحته غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل  
انسان سيفه وهو يرى مكان انصاره .. فان نكثنا بهم نكثوا بنا ، ولا  
ندرى أعلىنا تكون أم لنا ولأن تكوني بنت عم أمير المؤمنين خيرا من  
أن تكوني امرأة من عرض المسلمين .. »

\*\*\*

ولو كانت الثورة كلها من أجل عثمان لما انتهت بهذا التسلیم  
الهين .. ولكن عذر على في بداية المحنة أعظم حجة ، وأحق بالقبول ..  
أو خذ لذلك مثلا علة عمرو بن العاص ، وقد كان أول الناصحين  
لعثمان بالاعتزال ، بل كان عثمان يخطب لستر الناس ، وعمرو  
يصبح به من صفوف المسجد : « اتق الله يا عثمان ، فانك قد ركبت  
أمورا وركبناها معك .. قتب الى الله تب .. » ثم ترك عثمان في المدينة  
بين المؤمنين به ومضى الى فلسطين ، وسمع وهو يقول : « والله انى  
كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان »

فكل علة للثورة على خلافة على ، فهي تعلل موضوع يخدع به قائله  
أو يخدع به غيره .. الا تلك العلة التي طوت فيها جميع العلل ظاهرها

وخانها وصرحها ومكذوبها . وهى الخلاف بين مبادئ ، الخلافة الدينية ومبادئ الدولة الدينية ، وضرورة الفصل بين هاتين الخطتين .. وان كان في ظاهره فصلا بين رجالين ..

فلم يرجع بالخلافة ، كانت هذه البيعة ايدانا باقسام الحلقة بين الندين للصراع الأخير ، أو كانت ايدانا باصطدام المتسابقين الى غاية لا بد من بلوغها .. ولن تخطر على بال غاية لهذا السباق المحتوم غير انتهاء الخلافة أو انتهاء الملك على التحو الذي تهيأت له عناصر النظام الاجتماعي الجديد فاما انتهاء الملك في بدايته ، فقد كان بعيدا — بل كان عسيرا جدا في تلك الآونة — كما يسر انقطاع النار وهي تهب بالاشتعال ..

واما انتهاء الخلافة فهو الذى كان ، وهو الذى كان منظروا أنه يمكن ، ولن يكون غيره بمنظور .. فمن الفضول لوم على " على شيء من الأشياء التي أفضت الى هذه الخاتمة ، وهي محظومة ليس عنها خير ..

اذ لم يكن طبيعيا أن يصد الناس على سنة النبوة أكثر من جيل واحد ، تشب بعده الطيائمه الى فطرتها من نشأة الخلقة الأولى وقد يتافق كثيراً أن يغمرها جلال النبوة أو جلال الخلافة النبوية وهي في إلاب النضال واللحمة الدينية ، فتنسى المطامع وتسرى عن الم Razas و تستعدب الألم والغداء إلى مدى الطاقة الإنسانية ، ولكنها تبلغ مدى الطاقة الإنسانية بعد حين ، وتفتر عن التهوض من قمة الى قمة . فتركت آخر الأمر إلى الأرض السواء حيث لا حافر ولا مستهض الاعمار الطبيعية في مجاريها التي لا تشق عليها ، وان المصلحين ليرضون غاية الرضا اذا هي حفظت من اصلاحهم عند ذلك وازعاً يديها بعد ضلالة عبياء ، ويردعها بعد جماح مرید ، ويكشف من غلوائها ما كان من قبل منطلقاً بغیر عنان ..

وقد نظر النبي عليه السلام بعين الغيب الى هذا المصير فقال : « الخلافة ثلاثة وثلاثون عاما ثم يكون بعد ذلك الملك » .. وأبا باهتمام الفرق وتشعب الأهواء ، وكأنما كان ينظر الى ذلك بعينيه صلوات الله عليه

وابع على من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن يتبعها ، فلا نعرف سياسة أخرى أشار بها ناقدوه أو مؤرخوه ثم أقاموا الدليل على أنها خير من سياسته في صدق الرأي وأمان العاقبة ، أو أنها كانت كفيلة باجتناب المآزرق التي ساقه الحوادث إليها فمن اللحظة الأولى ، أخذ في تجسيد قوى الخلافة الدينية التي لا قوة له بغيرها ..

عزل الولاة الذين استباحوا الفنائين المحظورة ، وغرغوا بالدنيا ، وطemuوا وأطعموا رعاياهم في بيت مال المسلمين ، وأثاروا على عشان سخط السواد وسخط القهاء المترججين والحفاظ الغيورين على فضائل الدين ..

\* \* \*

ورد القضايا التي وزعتها بطانة عثمان بين المقربين وذوي الرحم ، فصرفتها عن وجوهها التي جعلت لها من اصلاح المرافق واغاثة المفترىن إليها على شرعة الانصاف والمساواة

ورجح إلى خطبة أبي بكر وعمر في تجنب الصحابة الطامحين إلى الامارة فتنية الولايات ، مخافة عليهم من غوايتها وابعادا لهم من دسائس الشيع والعصبيات .. فلما طالبه طلحة والزبير بولاية العراق واليمن ، قال لها : « بل تبقيان معى لأنس بكما » وسأل ابن عباس : « ماترى ؟ » فأشار بتولية الزبير البصرة وتولية طلحة الكوفة . قال على : « ويحك .. إن العراقيين بهما الرجال والأموال .. ومتى تملكا رقاب الناس يستميان المسفيه بالطبع ، ويضريان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعملا أحدا لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام ، ولو لا ما ظهر من عرضهما على الولاية لكان لى فيما رأى »

نعم ، إن هذه السياسة أغضبت منافسيه وطالبي المنفعة الدينية على يديه .. ولكن السياسة الأخرى كانت تغضب أنصاره ولا تضمن رضا المتأصبين ودوامهم على الرضا والوفاق بينهم في تأيده . وكانت تختلف

عفيفته التي يدين بها نفسه وأقرب الناس اليه ، وتخالف وعده وعقيدة الناس فيه .. ولن يكون مالكا غالبا بسياسة الملك على كل حال ، فان لم يكن خليفة فما هو بشيء ، وان كان خليفة وملكا فهي خطه عثمان التي لم تستقيم قط على وجه من وجهها ومصيرها معروف ، وان كان خليفة ولا اختيار له في ذلك فكل ما صنع فهو الحكمة لأحسن ما تراض له الحكمة ، وهو السداد لأقرب ما يتاح له السداد

\*\*\*

وعلم ان قريشا لا ينصرونه ، فنقل العاصمة من المدينة الى الكوفة .. لأن قريشا كانوا هاشمين وهم لا يتقدون على بيته ، وقد تركه أقربهم اليه ورحل الى معاوية طمعا في رفده ، أو كانوا أمويين وهم حزب معاوية وأهل عشيرته وبنته ، أو من تيم وهم حزب طلحه ، أو من عدى وهم يؤثرون عبد الله بن عمر بن الخطاب ، أو من قبائل أخرى ، وهم كما قال : « قد هربوا الى الاترة » .. فإذا أقام بينهم فهو مقيم بين أنساب لا ينقطع لهم طلب ولا يتضمن لهم ولا ..

ولم تمض أيام معدودة على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت صفوف الحجاز كله له أو عليه .. فكان معه جميع الشاكرين لأسباب دينية أو دنيوية ، وكان عليه جميع الولاة الذين اتفعوا في عهد عثمان ، وجميع الطامعين في الاتفاف بالولاية والأموال العامة .. وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه .. وعلى رأس هؤلاء طلحه والزبير ..

فحشدوا جموعهم الى البصرة ، وصحبتهم السيدة عائشة لأنها كانت ترغب في خلافة طلحه .. لقيها ابن عباس على مقربة من المدينة وهو أمير على الحج من قبل عثمان ، ولما زيل قائما بالخلافة ، فقالت له : « يا ابن عباس .. أشدك الله فانك قد أعطيت لسانا ازعيلا - أي ماضيا - أن تخذل عن هذا الرجل - تعنى عثمان - وأن تشکك فيه الناس فقد بانت لهم بصائرهم وأنهت ورفعت لهم المنار ، وتحلبو من البلدان لأمر قد

جم . وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخد على بيوت الأموال والغزائن مفاتيح .. فاز يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر رضي الله عنه » فأجابها ابن عباس : « يا أمه ! لو حدث ما فزع الناس الا الى صاحبنا » أى على فقالت : « أيها عنك .. انى لست أريد مكابرتك ولا مجادرتك »

فلما بُويع على فالمدينة ، لم تكن من أنصاره ولا مع الباقيين على الحيدة بينه وبين خصومه .. ولعلها لم تنس بعد نصيحته للنبي عليه السلام في مسألة الافك التي قيل انه أشار فيها بتطليقها ، فخرجت الى البصرة مع المطالبين بثار عثمان ، وكانت هنالك وقعة الجبل التي سميت بهذا الاسم لاحتدام القتال فيها حول جملها وهو دجها .. فاتصر على ، وقتل الزبير ، ومات طلحة بجرح أصابه في المعركة ، وحسم القتال بالصلح بين الفريقين في الحجاز وال العراق ..

على أن هذا النصر العاجل ، لم يخل من آفة تکدره وتندر بالمخاوف التي يوشك أن يلقاها على في حربه لخصومه الباقيين بعد موت طلحة والزبير .. وأقوام معاوية بن أبي سفيان صاحب الشام ..

فقد كشفت وقعة الجبل عن مصاعب القيادة في جيش من التمردين والمتذمرين .. فانهم يستحسنون في عقليتهم ، وهى فضيلة من فضائل الجيوش المقاتلة ، ولكنهم من جراء هذه الحماسة نفسها عرضة للعناد والننادي في اللدد واعجال قائهم عن انعام الروية وانتظار الفرصة المؤاتية ..

فقد كان على عيل - كدابه - الى مفاتحة الخارجين عليه في المهادة أو المصالحة ، وكان معه جماعة السبئية - أتباع عبد الله بن سبا - وهم أخلص الناس له وأغيرهم عليه ، ولكنهم لفطر غيرتهم ولددتهم في عداوتهم لم يقنعوا بما دون القضاء على خصومه ، ولم يقبلوا التوسط في الصلح دون الغلبة التي لا هوادة فيها .. فذهبوا القوم وأقدوا جذوة الحرب ، قبل أن يفرغ على من حديث المهادة والتقارب بينه وبين أصدقائه الذين خرجوا عليه ..

وكان هذه أولى العثرات الكبار التي أعنّتها بها حماسة المتمردين والمتذمرين في جيشه ، ولم تزل تعاقب وتقاوم عليه حتى منى بالعثرة التي لا تقال ..

وكان ذلك في وقعة صفين ..

فإنه نظر بعد غلبه في العراق ، فلم يجد أمامه خصما يقف في طريق الخلافة إلا جيش معاوية بالشام ، فعمد معه إلى خطته التي جرى عليها مع خصمه كافة حيث كانوا وكانت منزلتهم من لطاه والقوة ، ونعني بها خطة المسالمة والبقاء بالاقناع .. فطالت المراسلة منه إلى معاوية ، ومن معاوية إليه ، وفي مثل واحد منها ، ما يعني عن كثير ..

كتب إلى معاوية بعد وقعة الجمل ، وقد سبقته كتب كثيرة من المدينة..

« سلام عليك .. أما بعد ، فإن ييعتنى بالمدينة لزمنتك وأنت بالشام ، لأنك ياينى الذين بايعوا أبا يكر وعثمان على ما بويعوا عليه . فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسمثوه أماماً كان ذلك الله رضى ، وإن خرج عن أمرهم ردوه إلى ما خرج عنه ، فإن أبي قاتلوك على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساعت مصيرا . وإن طلحة والزبير يأيعانى ثم تقضا يعيمانها ، وكان تقضيمها كردهما ، فجاهدتنيا بعد ما أغدرت إليهما ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله ، وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمين ، فإن أحب الأمور إلى قبولك العافية ، وقد أكترت في قتلة عثمان ، فإن رجمت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمين .. ثم حاكت القوم إلى حملتك واياهم على كتاب الله . وأما تلك التي تريدها - يعني الخلافة - فهى خدعة الصبي عن اللبن . ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبراً قريش من دم عثمان ، وأعلم أنك من الظلقاء <sup>(١)</sup> الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون في الشورى وقد بعثت إليك والى من قبلك جريرا بن

<sup>(١)</sup> أطلق معاوية دايجه من الاسر يوم قتله

عبد الله ، وهو من أهل اليمان والهجرة .. فبایعه ، ولا قوة الا بالله »  
فرد عليه معاوية بما يلى :

« سلام عليك .. أما بعد ، فلعمرى لو بایعك الذين ذكرت وأنت  
برىء من دم عثمان ، لكتت كأبى بكر وعمر وعثمان . ولكنك أغرت  
بدم عثمان وخدلت الأنصار ، فأطاعتك لما هلك وقوى بك الضعيف . وقد  
أبى أهل الشام الا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان .. فاذ فعلت كانت  
شورى بين المسلمين . وإنما كان الحجازيون هم الحكم على الناس  
والحق فيهم ، فلما فارقوه كان الحكم على الناس أهل الشام ، ولعمرى  
ما حجتك على أهل الشام كحجتك على طلحة والزبير ، ان كانوا بایعاك  
فعلم أبا يعك أنا . فاما فضلك في الاسلام وقرباتك من رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فلست أدفعه » ..

\*\*\*

ومن رد معاوية هذا ، تبدو النية الواضحة في فتح أبواب الخلاف  
واحدا بعد واحد .. كلما أغلق باب منها بقى من ورائه باب مفتوح ،  
لا ينتهي الخلاف بإغلاقه

فتسليم قتلة عثمان لا يكفى ، لأن علياً نفسه متهم بالاغراء والتخديل ،  
وبراءة على من هذه التهمة لا تكفى لأن المرجع بعد ذلك الى الشورى  
والنظر في البيعة من جديد ..

вшورى الحجازيين وال العراقيين لا تكفى لأن الحق قد خرج منهم الى  
أهل الشام ، وهم الحكم على الناس .. لأنهم يحكمون لمعاوية  
ولا يحكمون لغيره ..

ومن ثم ، بطلت المحجج والرسائل كما تبطل كل حجة وكل رسالة عند  
ما يقال باللسان غير ما يجول في الصدور  
وزحف على من الكوفة الى صفين ، ووجد جيش معاوية على الماء ..  
فتحاد عنه بعد أن أبى عليه معاوية أن ينحيه بغير قتال ..  
وبناء العثرات من ثم في كل خطوة يخطوها للسلام أو لقتال ،

فلا يتحفز فريق من أنصاره للحرب حتى يثنىء فرق آخر يحررها ولا يقول بوجوها ، وتحاجز القوم نيفاً وثمانين فرعاً .. وتصالوا في وقفات شتى غامرت بها طائفة من هنا وطائفة من هنا ، وقلما اشتباك فيها الجيشان في وقعة جامدة حتى كانت وقعة الهرير ، وحاقت الهزيمة بجيش معاوية وقيل انه هم بالفرار .. وإذا بالمساحف ترفع على الحراب من قبل جيش الشام ، وإذا بالثورة الكبرى التي لا خطوة بعدها في طريق فلاح .. فان علياً نظر حوله ، فإذا بجشه يوشك أن يقتل فيما بينه زخاماً على القتال أو القاء السلاح ، وإن معاوية لنفي عن كفاح قوم لا يتذمرون على كفاحه .. فله منهم سيف مشرعة لنصرته ، شاءوا أو لم يشأوا ، وسيكتفونه مؤنة الحرب حتى يتذمرون عليهم على حربه ، وهيهات !

\*\*\*

ولو كانت آفة الطاعة في جيش على ، مقصورة على اجتهد القراء والحفظ ، وتعجل الغلة والمتربدين .. لكان في ذلك وحده ما يكفي لافساد التدبر واضطراب القيادة وتعذر القتال على أصوله .. اذ لا يستغنى القائد في ميدان الحرب ، ولا في ميدان السياسة ، عن الكتمان والمفاجأة وتحويل الخطط على حسب الطوارئ ، والمناسبات .. فإذا كان في كل عمل من أعماله عرضة لاجتهد أصحاب الفتاوي ، وكان أصحاب الفتاوي يفترقون عشرين وجهة في كل حركة من حركات الجيش ، فليست له خطة تكتم ولا خطة تنفذ . وليس عجيباً بعد ذلك ، أن ينجز في ميدان القتال شر هزيمة يبتلي بها مقاتل .. بل العجيب أن يتماسك فترة من الزمن - وإن قصرت - أمام جيش يشوقه في العدد ويرجع في أمره إلى قيادة موحدة ونية مجتمعه ومشيئة مطاعة ..

ولكن الآفة مع هذا ، لم تكن كلها في اجتهد الحفاظ وتعجل الغلة .. بل كان في الجيش أناس يخونون عهده ويشغبون عليه ، ويبدو من أعمالهم أنهم مستخرون لعدوه كارهون لاتصاله .. فان لم يكونوا كذلك ، فالامر الذي لا شك فيه انهم كانوا يعملون وهم عاملون - وغير

عاملين - شر ما يعمله الخائن الحبيب الذى يتعين الفرض للعناد والشقاوة ، وافشاء الخلل والخدلان فى أخرج الأوقات وأدھى من ذلك ، انه لم يكن قادرًا على ذجراهم والتکيل بهم .. لأن الجيش الذى يوجد فيه من يحرم حرب العدو ، لن يعدم أناسا يحرمون حرب النصر المقيم على ظاهر الطاعة ، وليس لك بيته قاطعة عليه ومثل من ذلك أيضًا ينفى عن أمثال كثيرة ، وهو مثل الأشعث بن قيس أكبر سادات كندة وأخلقهم أن ينصر حزبا على حزب ، لو خلصت نيته وبرئت شيمته من التقلب والغدر بأصحابه ..

طبع هذا الرجل الى الملک بعد موت النبي عليه السلام ، فدعى قومه أن يتوجهوا .. وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوصل في حصنه أيام ، ويس من الغلبة فاستسلم .. على أن يصن دمه وبقية دم عشرة من أخصائه ، ثم فتح الحصن فقتل كل من فيه ونجا بالشرة الذين اختارهم الى أبي بكر رضي الله عنه ، فقبل توبته وزوجه آخره أم فروة . فلما نشب الفتنة بين على " ومعاوية ، كان هو من حزب على يتطلع للفرصة السانحة

ثم زحف على " رضي الله عنه الى صفين ، فكان الأشعث أول المندفعين الى القتال حين سد أهل الشام طريق الماء ، وجاء علينا يقول : « يا أمير المؤمنين ! أئننا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيفونا ؟ .. ولتني الزحف اليه .. فوالله لا أرجع أو أموت » ولكنه عاد الى المسالمة ، بعد أن وضح النصر في ليلة الهرير ، فخطب في قومه من كندة قائلا :

« ... قد رأيت يا معاشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي ، وما قد فني فيه من العرب .. فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ ، فما رأيت مثل هذا اليوم قط .. ألا فليبلغ الشاهد القائب أنا إن توافقنا غدا انه لفتيت العرب وضيعت العرمات .. أما والله ما أقول هذه المقالة خوفا من الحرب ، ولكنى رجل مسن أخاف على النساء والذراري

غدا اذا فينا » ..

ثم ذهب الى على رضي الله عنه بعد رفع المصاحف ، فقال له : « ما أرى الناس الا قد رضوا وسرهم أن يجيروا القوم الى ما دعوه اليه من حكم القرآن .. فان شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد فنظرت ما يسأل » .. ولقى معاوية فسأله : « ياماواية .. لأى شىء رفعت هذه المصاحف ؟ »

قال : « لترجع نحن وأتمم الى أمر الله عز وجل في كتابه .. تبعثون منكم رجلا ترضون به ، وتبعث منا رجلا ، ثم تأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يسعوانه .. ثم تتبع ما اتفقا عليه »

فقال الأشعث : « هذا الحق ! »

وعاد الى على ينادي بالتحكيم ، ويختار له هو وأنصاره رجلا ينوب عن على ، وعلى لا يرضاه ..

\*\*\*

وكاد أنصار التحكيم قد تكاثروا واجترووا على أمير المؤمنين ، فلم يبالوا أن يجهوه بالقول السيئ منذرین متوعدين :

« يا على ! أجب الى كتاب الله عز وجل اذا دعيت اليه ، والا تدفعك برمتک الى القوم او تفعل كما فعلنا بابن عفان . انه عرض علينا آلة فصل بما في كتاب الله عز وجل فقبلناه .. والله لنتعلّشها او لنفعلّشها بلك »

وألحوا عليه أن يرد قائله الأستر النخعى من ساحة الحرب ، والا اعتزلوه أو قتلوه ..

قبل التحكيم وهو كاره ..

واختار أهل الشام عمرو بن العاص ، فقال الأشعث : « فانا رضينا بآبى موسى الأشعري »

قال على : « انه ليس لي بشقة .. قد فارقني وخذل الناس عنى ، ثم هرب منى حتى آمنته بعد أشهر ، ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك »

قالوا : « لا نريد الا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس الى واحد منكما يأدنى من الآخر .. »

قال : « فاني أجعل الأشتر »  
قال الأشتر — وهو ينفس على الأشتر مكانته وبلاه من قبل — :  
« وهل سر الأرض غير الأشتر؟ .. أو قال : وهل نحن إلا في حكم  
الأشتر ! » ..

فلما رأى اصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم قال : « فقد أبيتم  
الا أنا موسى؟ »

قالوا : « نعم ! »  
قال : « فاصنعوا ما بدا لكم ! »

\*\*\*

فهذا رجل من الزعماء المطاعين في جيش على ، لم يدع من وسعه  
 شيئاً لتغليب حزب معاوية على حزبه ، واستكثر عليه أن يكون الحكم  
الذى يختاره نصيراً له مؤمناً بحقه وصحة رأيه . ولا طائل في البحث  
عن هذا الخدلان الصريح ، أكان هو الطمع في الملك بعد فشل على أم  
النقيمة على الأشتر النخعي في مكانته وبلاه ، أم التواطؤ بينه وبين  
معاوية على منفعة مؤجلة ومكافأة موعودة .. فاما النية الخبيثة ظاهرة  
وان استترت العلة ، وأيا كانت العلة الخفية فقد صنع الرجل غاية ما  
استطاع لتفليب حزب معاوية وخذلان العزب الذي هو فيه

قال على يصف قسمته من الأنصار ، وقسمته من النوازل والمعثرات :  
« لو أحبني جبل لتهافت »

وقال يصف أنصاره : « أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة  
أهواهم ، كلامكم يوهى الصم الصلب ، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء ..  
ما عزّت دعوة من دعاكם ، ولا استراح قلب من قاساكم . أعاليل بأصاليل  
دفاع ذى الدين المطول .. أى دار بعد داركم تئمرون؟ .. ومع أى امام  
بعدى تقاتلون؟ .. المغورو والله من غرقوه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله  
بالسهم الأثيب ، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل <sup>(١)</sup> . أصبحت

(١) الأفوق هو السهم المكسور في موضع الور ، والتسلل الماري من التسلل

وأله لا أصدق قولكم ولا أطمئن في نصركم ، ولا أوعد العدو بكم ،  
ما بالكم .. ما دواؤكم .. ما طبئكم .. القوم رجال أمثالكم ، أقولا  
بغير علم .. وغفلة من غير ورع .. وطمعا في غير حق .. »

\*\*\*

وهي صيحة لا تصف الا بعض ما يعانيه من حيرة ، لا يخرج له منها  
في سياسة أصحابه . فاته لم يفرغ من التحكيم الذي أذعن له وهو  
كاره ، حتى فوجيء بطاقة أخرى من أنصاره يرمونه بالكفر لأنّه قبل  
ذلك التحكيم ، وزعموه قبولا للتحكيم في كلام الله وفي دماء المسلمين ،  
وهو عندهم كفر بواح ، أولئك هم الخوارج الذين حاربوه بالسلاح ،  
وكانوا يحرمون عليه حرب معاوية قبل ذاك !

ثم اجتمع الحكمان بدعوة الجندل التي وقع عليها الاختيار لتكون  
ومسطأ بين العراق والشام . ولم يكن قرار الحكمين خافيا على من عرفوا  
أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص فأن أبا موسى لم يكتتم قط أن  
السلامة في اجتناب الفريقين والتعود عن القتال ، فليس أيسر من اقناعه  
بخليع صاحبه وخليع معاوية على السواء . ثم يرجع الرأي الى عمرو  
بن العاص في اقرار هذا الخلل أو الاحتيال فيه بالحيلة التي ترضيه

الا ان الدهاء من العرب ، كانوا يتوقعون من عمرو بن العاص أن  
يحتال لنفسه حتى يفرغ وسعه قبل أن يحتال لصاحب الذي أثابه عنه  
ومن هؤلاء الدهاء المغيرة بن شعبة الذي اعتزل الفريقين من مطلع  
الستة الى يوم التحكيم ، فلما اجتمع الحكمان علم أنها الجولة الأخيرة  
في الصراع .. فخرج من عزلته ودنا ليستطلع الأمور ، على سبعة الدهاء:  
من أمثاله ، اذ يتسمون بالريح قبل هبوبها ، ولا يقلقون أنفسهم بهبها  
قبل آوانها .. فلقي أبا موسى وعمرو بن العاص ، ثم ذهب الى معاوية  
وهو مشغول بالال بطول الاجتماع بين الحكمين واضطراب الظنون فيما  
وراء هذا الابطاء المريب .. فقال له وهو يرى اشتغال باله : « قد أتيتك  
بخبر الرجلين .. »

قال معاوية : وما خبرهما ؟ ..

قال المغيرة : « انى خلوت بأبى موسى لأبلو ما عنده فقلت : ما تقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس فى بيته كراهية للدماء ؟ .. فقال : أولئك خيار الناس ، خفت ظهورهم من دماء اخوانهم وبطونهم من أموالهم . فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص ، فقلت : يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب ؟ .. فقال : أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقا ولم ينكروا باطلًا » ..

ثم عقب المغيرة قائلا : « أنا أحسب أبا موسى خالعا صاحبه وجعلها لرجل لم يشهد ، وأحسب هواه فى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذى عرفته ، وأحسبه سيطلها لنفسه أو لابنته عبد الله ، ولا أراه يظن انك أحق بهذا الأمر منه .. »

وقد أحبن المغيرة حزره نقل المحرف بالحرف في تقدير نية الرجلين ، فانهما ما اجتمعا هنئه حتى أقبل أبو موسى على عمرو يقول له : « يا عمرو ! .. هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله ؟ »

قال : « وما هو ؟ .. »

قال : « نولى عبد الله بن عمر ، فإنه لم يدخل في نفسه شيء من هذه الحروب .. »

فراغ عمرو قليلا يحاول أن يلقى في روع صاحبه انه يريد معاوية ، ثم عاد يسألة : فما يعنك من ابني عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته ؟ »

فأوشك أبو موسى أن يجيئه لولا انه قال : « ان ابنك رجل صدق ، ولكنك غمسه في هذه الحروب غمسا »

وتكرر بينهما هذا القول وأشباهه في كل لقاء ، وطفقا ييدنان منه ويعيدان اليه بعد كل جدال ، حتى وقر في خلد الأشعري ان خلح الزعيمين أمر لا مناص منه ولا اتفاق بينهما على غيره ، فتواعدا الى يوم يعلنان فيه هذا القرار ..

وتقىد أبو موسى فقال بعد تمهيد : « ... أهيا الناس ، اذا قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشעתها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو أن تخلي علىّا ومعاوية ، ونستقبل الأمة بهذا الأمر فيولوا منهم من أحبو عليهم ، وانى قد خلعت علىّا ومعاوية فاستقبلوا أمركم ولو لا عليكم من رأيتكم لهذا الأمر أهلا »

وتلاه عمرو فقال بعد تمهيد : « .. ان هذا قال ما سمعت وخلع صاحبه ، وأنا أظلم صاحبه كما خلمه ، وأثبت صاحبى معاوية ، فإنه ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه »  
ففضى أبو موسى ، وصاح به : « مالك لا وفقت الله غدرت وفجرت ، إنما مثلك مثل الكلب ان تحمل عليه ياهث أو تتركه ياهث .. »  
فابتسم عمرو ، وهو يقول : « إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا .. »  
كلب وحمار فيما حكما به على نفسهما غاضبين ، وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه ..

واتهت المأساة بهذه المهزلة ، أو اتهت المهزلة بهذه المأساة  
وبذ ان اجتماع الحكيمين لم يفض الى اتفاق بين الحكيمين ، فعاد الخلاف الى ما كان عليه ..

الا انه استشرى واحتمم بعد قصبة الحكيمين بما زاد عليه من فتنه  
الخوارج المنكرين للتحكيم  
فقد أجمعوا وأبرموا فيما بينهم « .. ان هذين الحكيمين قد حكما بغير ما أنزل الله ، وقد كثروا علينا حين رضوا بهما ، وحكموا الرجال في دينهم ونحن على الشخص من بين أظهرهم ، وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق »

وخرجوا وعلى يابي قتالهم حتى يأس من توبتهم ، ولقيهم بالجيش ، فاتر أن يلقاهم مناقضا قبل أن يلقاهم مقاتلا ، واقتصر عليهم أن يخربوا اليه رجلا منهم يرضونه ، يسأله ويجيبه ويتوب ان لزمته الحجة ويتوبوا ان لزمتهم . فأخرجوا اليه امامهم عبد الله بن الكوا

قال على : « ما الذى نقمت على بعد رضاكم بولايتي وجهادكم معى وطاعتكم لى ، فهلا برئتم منى يوم الجمل ؟ » ..  
قال ابن الكواه : « لم يكن هناك تحكيم »  
قال على : « يا ابن الكواه ويطك .. أنا أهدى أم رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ؟ »

قال ابن الكواه : « بل رسول الله صلى الله عليه وسلم »  
قال على : « فما سمعت قول الله عز وجل : « قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم » أكان الله يشك انهم هم الكاذبون .. »

قال : « إن ذلك احتجاج عليهم ، وأنت شكت في نفسك حين رضيت بالحكمين ، فنحن أخرى أذ نشك فيك »

قال : « وإن الله تعالى يقول : « فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه » ..

قال ابن الكواه : « ذلك أيضا احتجاج منه عليهم » . ثم قال بعد كلام طويل من قبله كلامه هذا : « إنك صادق في جميع قوله غير إنك كفرت حين حكمت الحكمين »

قال على : « ويطك يا ابن الكواه .. إنك حكمت أبا موسى وحكم معاوية عمرا » ..

قال ابن الكواه : « فان أبا موسى كان كافرا »

قال على : « متى كفر ؟ .. أحيانا بعثته أم حين حكم ؟ »

قال ابن الكواه : « بل حين حكم »

قال على : « أفلاترى إنك بعثته مسلما فكفر في قوله بعد أن بعثته .. أرأيت لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا من المسلمين إلى ناس من الكافرين ليدعوهم إلى الله (١) فدعاهم إلى غيره ، هل كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك شيء ؟ »

(١) وقد حدث هذا في مهد النبي عليه السلام إذ أوند نهادا الرجال ليهدى قوم مسلمة فانقلب هناك مبشرًا بدينه

قال : « لا »

قال : « ويحك .. فما كان على ان ضل أبو موسى ؟ أفيحل لكم بضلاله أبي موسى أن تضعوا سيفكم على عوائقكم فتغتصروا بها الناس ؟ »  
فعلم الخوارج ان صاحبهم ليس بمندٍ لعلى في مجال نقاش ، فكفؤوه عن الكلام لأنهم آمنوا بصدق على في حجته وقصده ، لو لا انهم قوم قهقرتهم حاجة العناد كما تقهرون أمثالهم من التهوسين الذين يجدون في المفى مع العناد لذلة يستمرئونها من الحق والمعرفة .. فمردوا على الشقاق ، وأصرروا على تكفير على وأصحابه ، وأن يعاملوهم في الحرب والسلم معاملة الكفار ..

\* \* \*

واستبقى على بعد هذا كله بقية للسلم والمراجعة .. فرفع في الساحة راية ضم إليها ألفي رجل ونادي : « من النجا إلى هذه الراية فهو آمن » ثم قال لأصحابه : « لا تبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم » فصاح الخوارج صيحتهم : « لا حكم الا لله وان كره المشركون » وهجموا هجمة رجل واحد .. وتلقاهم على وأصحابه لقاء من فقد صبره ووغر صدره . فيما هي الا ساعة حتى قتل معظم الخوارج ، وبقي منهم نحو أربعينأئمة أصيروا بجرح وعجزوا عن القتال ، فأمر بهم على فحملوا الى عشائرهم لينظروا من فيه رقم فيدر كوه بعلاج وأراد المسير الى الشام ليلتقي بها جيش معاوية ..

فتصدى له الأشعث بن قيس مرة أخرى ، كما تصدى له في كل فرصة ساحة للقلبة ، وقال له على مسمع من الناس : « يا أمير المؤمنين .. نهدت ببالنا ، وكلت سيفنا ، ووصلت أنسنة رماحتنا ، فارجع بنا الى مقرنا ل تستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا ، فإنه أوف لنا على عدونا »

\* \* \*

وتسلل الجندي من معسكرهم ، ولاذ من لاذ بالمدن القرية منهم ،

وأيقن على أن القوم مارقو من يده ، ولا طاعة له عليهم إذا دعاهم  
بعدها لقتال ..

أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه ، وأعانه طلاب المأفعى عامدين ،  
وأعانه الخوارج غير عامدين ، فحاربوا عليه ولم يحاربوه ، وطلبوه  
التوبة من على : ولم يطلبوها منه ، واستمر هو في انتهاز البعثة والسرايا  
إلى كل موضع آنس منه غرة وظن بزعيمائه موجدة أو سامة . فلم  
تنقض ستة حتى كانت معه مصر والمدينة ومكة ، وبقي على : في أرباض  
الكوفة يائساً منعزلاً عن الناس ، يتمنى الموت كما قال في بعض خطبه ،  
ويوجس شراً من أقرب المقربين إليه ، واتتهني بقبول المهادونه بينه وبين  
معاوية على أن تكون له العراق ولعاوية الشام ، ويكتفيا السيف عن  
هذه الأمة ، فلا نزاع ولا قتال ..

\* \* \*

وبقيت في كثافة الأقدار مصادفة من هذه المصادرات التي يخلي إليك  
وأنك تتعقبها ، أنها تجمعـت منذ الأبد ليـوـء على بـنـقـائـضـ المـوقـفـ كـلـهـ ،  
ويـفـرـ خـصـومـهـ بـتـوفـيـقـاتـ المـوقـفـ كـلـهـ .. فـشـاءـتـ هـذـهـ المـصادـفـةـ الـأـخـيـرـةـ  
أـنـ يـتـقـقـ ثـلـاثـةـ عـلـىـ قـتـلـ ثـلـاثـةـ ، فـيـذـهـبـ هـوـ وـحـدـهـ ضـحـيـةـ هـذـهـ الـمـكـيـدـةـ  
الـعـاجـلـةـ ، وـيـفـلـتـ زـمـيـلـاهـ فـيـهاـ : مـعـاوـيـةـ ، وـعـمـرـوـ بـنـ الـعـاصـ

اجتمع عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر  
التميمي ، وهم من ثلاثة الخوارج الموثورين ، فتذاكروا القتلى من  
رفاقهم وتذاكروا القتلى من المسلمين عامـةـ ، وألقوا وزر هذه الذئـاءـ كلـهاـ  
على ثلاثة من الكفار — أو أئـمةـ الضـلالـةـ فـرـأـيـهـ — وـهـمـ : عـلـىـ بـنـ أـبـىـ  
طالبـ ، وـمـعـاوـيـةـ بـنـ أـبـىـ سـفـيـانـ ، وـعـمـرـوـ بـنـ الـعـاصـ

فـقـالـ اـبـنـ مـلـجمـ : «ـ أـنـاـ أـكـيـكـمـ عـلـىـ بـنـ أـبـىـ طـالـبـ »

وـقـالـ الـبرـكـ : «ـ أـنـاـ أـكـيـكـمـ مـعـاوـيـةـ بـنـ أـبـىـ سـفـيـانـ ؟ـ »

وـقـالـ عـمـرـوـ بـنـ بـكـرـ : «ـ أـنـاـ أـكـيـكـمـ عـمـرـوـ بـنـ الـعـاصـ »

وـانـ ضـغـيـنـةـ الشـأـرـ لـخـافـرـ أـيـ حـافـرـ ..

وان تهوس العقيدة لمثير أى مثير ..  
وكان للمتآمرين الثلاثة قسط واف من هذين الحافظين ، يعني عن  
مزيد من التحرير على القتل والاتقام ..

ولكن المصادفة العجيبة هي التي شاعت أن تشحذ عزيمة ابن ملجم  
بحافر ثالث لعله يضى حين ينبو هذان الحفازان الماضيان ، وهو حافز  
من الفرام الظامي لا يرويه الا دم ذلك الشهيد الكريم  
فإن المرء قد ينبع ثأرة الحقد ، وقد يماري نفسه فيما تفرضه العقيدة ..  
ولكنه اذا كان عاشقا محبولا يستتجزه الوعد معشوق مسلط عليه ، فهو  
مسور زمامه في يدي غيره ، وليس في يديه

\*\*\*

وكان ابن ملجم يجب فتاة من تيم الرباب ، قتل أبوها وأخوها وبعض  
أقربائها في معركة الخوارج . وكانت توصف بالجمال الفائق والشकيمة  
القوية ، وتدين بذهب قومها فوق ما في جوانحها من لوعة الحزن على  
ذويها ، فلما خطبها ابن ملجم لم ترض به زوجا الا أن يشفى لوعتها .  
قال : « وما يشفيك ؟ » قالت : « ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة ، وقتل  
على بن أبي طالب »

قال : « أما قتل على فلا أراك ذكرته لي وأنت تريدينني .. »  
قالت : « بل أتمن غرته .. فإذا أصبت شفيت نفسك ونفسى وبهائك  
العيش معى ، وان قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها »  
وخرج الثلاثة متواعدين الى ليلة واحدة ، يقتل كل منهم صاحبه في  
ذلك الموعد ..

فأما عمرو بن العاص ، فقد اشتكت بطنه تلك الليلة فلم يخرج من  
بيته ، وأمر خارجة بن حداقة صاحب شرطته أن يصلّى بالناس . فضريبه  
عمرو بن بكر وهو يحسبه عمرا فقتله . فقال عمرو : أردتني وأراد الله  
خارجية ، وأمر بقتله ..  
واما معاوية فضريبه البرك بن عبد الله ، وقد خرج الغداة للصلوة

فوقعت الضربة على اليته .. وقيل ان الطعنة مسمومة لا يشفىها الا الكى بالنار أو شراب ينبع النسل . فجذع معاوية من النار ، ورضي اقطاع النسل ، وهو يقول : « فيزيد عبد الله ما تقر به عينى ، وامر بالرجل ققتل لحيه » ..

واما على ، فضربه ابن ملجم في جيشه بسيف مسموم ، وهو خارج للصلوة ، فمات بعد أيام وهو يحدى أولياء دمه من المثلثة ويقول لهم : « يابنى عبد المطلب .. لا ألقينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين ، قتل أمير المؤمنين .. الا لا يقتلن أحد الا قاتلى .. »  
« أنظر يا حسن ! إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة ..  
ولا تمثل بالرجل فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :  
إماكم والمثلثة ولو أنها بالكلب المكور

\*\*\*

وهذه خاتمة فاجحة ، نظر في كل فرض من فروضها فلا تخليها من المصادفة السيئة التي لا تلقى تبعتها على أحد بعينه  
فعمما يقل القائلون ان علياً أصيب لأنه كان لا يتقي أحداً ، ولا يخرج الى المسجد بحرس ، فالواقع ان المصادفة السيئة قائمة هناك تفرق في عشرات الحظ بينه وبين زميليه اللذين سيقا معه الى مكيدة واحدة .. فخرجا منها بحظين غير حظه ، فان ابن العاص لم ينج من القتل لأنه خرج الى المسجد محروساً ، ولكنه نجا لأنه لزم بيته في تلك الليلة ، ومات صاحب شرطه الذي خرج في مكانه . ولم ينج معاوية لأنه خرج محروساً ، ولكنه نجا لأنه أصيب وكانت اصابته غير قاتلة  
فهي المصادفة السيئة مهما تلتئم لها علة من علل التاريخ ، ترجع بما في آخر الأمر الى علل المصادفات التي لا تقبل التعليل  
وشيء آخر تصوره لنا هذه الخاتمة الفاجحة ، كما تصوره لنا البيعة كلها من قبل ابتدائنا الى ما بعد انتهاءها ..  
وذلك هو النسيج الانساني النابض الذي يتخلل حياة على " في لحمتها

وسداها ، وفي تفصيل أجزائها وجملة فحوهاها ، فما من حادثة من حوادث هذه الحياة النبيلة الا وهى معرض حافل للعواطف الانسانية برمتها ، تلقى فيه عوامل النخوة والشجاعة والوفاء والإيمان والسماحة ، وتشتبك فيه مطامع الناس وأشواؤهم وظواهرهم وخفاياهم .. ذلك الاشتباك الذى يخلقه الشعرااء خلقا في القصص والملاحم ، فلا يحکمونه بعض إحكام الواقع المليوس في سيرة الامام . وقد أسلفنا في صدر هذا الكتاب انها سيرة تلامس النفس الانسانية في شتى نواحيها : تلامسها من ناحية العقيدة كما تلامسها من ناحية العاطفة ، ومن ناحية الفكر كناحية الخيال ، ومن ناحية الترد كناحية الولاء . فإذا اتبعت السيرة بالخاتمة ، فـأى خيط من خيوط تلك الشبكة الانسانية التي تسجّلها القرائح لاقتناص الشعور وتقريب الخيال تفقد في هذه الخاتمة الفاجعة ؟ أى باعث من بواعث القصص الدامية بأحساسها ولواعجها لا يرتعد هنا ارتعادا في كل فصل من فصولها ومشهد من مشاهدتها ؟ يأس الكريم المغلوب وجراة المحتال الغالب ، وغرام المتهوس الجنون ، وأرريحة القتيل الموصى عن اعتدى عليه ، وحقد المرأة وخداع الجمال ، وزيف العقيدة ، واستواء الإيمان ، وفنون لا تحصى تجتمع من الشعور الموار ولهفة الدائمة في خاتمة حياة تسع ألف حياة ..

\*\*\*

وهذه مزية على<sup>٢</sup> بين خلفاء الاسلام قاطبة .. ينفرد بها لأنّه انفرد بمثال من النقوس ومثال من العوارض الفردية والاجتماعية تؤلّفه المصادرات في الأجيال الطوال ، ولا تحسن أن تولنه بشيئها في كل جيل ..  
تلك حياة حي .. وذلك مصرع شهيد ..

## سِيَاسَةٌ

تسري في صفحات التاريخ أحكام مرتجلة يتلقفها فم من فم ، ويتوارثها جيل عن جيل ، ويتخذها السامعون قضية مسلمة ، مفروغاً من بحثها والاستدلال عليها ، وهي في الواقع لم تعرّض قط على البحث والاستدلال ، ولم تجاوز أن تكون شبهة وافت ظواهر الأحوال ، ثم صقلتها الألسنة فعزّ عليها بعد صقلها أن تردها إلى الهجر والاهمال ..

كل أولئك من لغو الشعوب .. وللشعوب بداهة تصر دونها بداهة الغواصين من الأفراد ، ولكنها إذا لفت فشوطها في اللغو أوسع من شوط الفرد بأمد بعيد ..

من تلك الأحكام المرتجلة قولهم إن علياً بن أبي طالب رجل شجاع ، ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسة !

وقد شاع هذا الرأي في عصر على<sup>\*</sup> بين أصحابه ، كما شاع بين أعدائه ، وعزز القول به انه خالق الدهاء من العرب فيما أشاروا به عليه ، وانه لم ينجح بعد هذه المخالفة في معظم مساعيه ، فكان من الطبيعي أن يقال انه منى بالفشل لأنّه عمل بغير ما أشار به أصحابه الدهاء ، وانه هو لم يكن من أصحاب الخداع الناجحة في الحرب أو السياسة ..

وقد يكون كذلك او لا يكون ، فسرى بعد البحث في آرائه وآراء المشيرين عليه أي هذين القولين أدنى إلى الصواب ..

ولكن هل خطأ لأحد من ناقديه ، في عصره أو بعد عصره ، أن يسأل نفسه : أكان في وسم على<sup>\*</sup> أن يصنع غير ما صنع ؟ ..

وهل خطأ لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك : هب استطاع أن يصنع غير

ما صنع فما هي العاقبة؟.. وهل من المحقق انه كان يفضي بصنعيه الى عاقبة أسلم من العاقبة التي صار اليها؟ ..

لم نعرف أحدا من ناقديه ، خطر له أن يسأل عن هذا أو ذاك .. مع أن السؤال عن هذا وذاك هو السبيل الوحيد الى تحقيق الصواب والخطأ في رأيه ورأى مخالفيه ، سواء كانوا من الدهاء أو غير الدهاء ..

والذى يبدو لنا نحن من تقدير الواقع على وجوهها المختلفة ان العمل بغير الرأى الذى سيق اليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان مأموناً الخطير ، بل ربما كان الأمل فى نجاحه أضعف والخطر من اتباعه أعظم ، لو أنه وضع فى موضع العمل والإنجاز وخرج من حيز النصيحة والمشورة وهذه هي المسائل التى خالفه فيها الدهاء ، أو خالفه فيها تقدمة التاريخ الذين نظروا اليها من الشاطئ ، ولم ينظروا اليها نظرة الريان فى غمرة العاصف والأمواج ..

\*\*\*

فاللآخذ التى من هذا القبيل ، يمكن أن تحصر في المسائل التالية ،

وهي :

- ١ - عزل معاوية
- ٢ - معاملة طلحة والزبير
- ٣ - عزل قيس بن سعد من ولاية مصر
- ٤ - تسليم قتلة عثمان
- ٥ - قبول التحكيم
- ٦ - قبول الخلافة

وهي كلها على الأقل قابلة للخلاف والاحتجاج من كلا الطرفين ..  
فإن لم يكن خلاف وكان جزم قاطع .. فهو على ما نعتقد أقرب إلى رأى على وأبعد من آراء مخالفيه وناقديه ..  
قيل في مسألة معاوية إن علينا رضى الله عنه خالق فيها رأى المغيرة  
وابن عباس وزرداد بن حنظلة التميمي ، وهم جميعاً من المشهورين بالحنكة

وحسن التدبر ..

جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته فقال له : « إن لك حق الطاعة والنصححة ، وإن الرأى اليوم تحرز به ما في غد ، وإن الضياع اليوم قضي به ما في غد . أقرر معاوية على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم ، حتى إذا أتاك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت »

فأبى وقال : « لا أدهن في ديني ، ولا أعطى الدنيا في أمري »

قال المغيرة : « فان كنت أبىت على فاتزع من شئت واترك معاوية ، فان في معاوية جرأة ، وهو في أهل الشام يستمع له ولاته حجة في اياته .. اذ كان عمر قد ولاه الشام » ..

فقال على : « لا والله .. لا أستعمل معاوية يومين »

\*\*\*

ثم خرج المغيرة ودخل عليه ابن عباس فقال له ، لما علم برأي المغيرة :  
« اه نصحتك » ..

قال على : « ولم نصحتني ? »

قال : « لأنك تعلم ان معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فمتى شبتم لا يالوا بن ولی هذا الأمر ، ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شوري ، وهو قتل صاحبنا ، ويؤلبون عليك فيتقضى عليك أهل الشام وأهل العراق ..

ثم مضت الأيام ، وشاع بين أهل المدينة أن معاوية متقضى على الامام .. فبعثوا بزياد بن حنظلة التميمي يعلم ما عنده من أمر هذا الاتقاض ، وكان زiad من جلسائه

فقال له الامام : « تيسير »

قال زيد : « لأى شيء ؟ »

قال : « تفزو الشام »

فقال زيد : « الافاة والرفق أمثل ، واستشهد يقول الشاعر :  
ومن لم يصانع فـ أمور كثيرة يضرس بآنياب ويوطأ عنده

فممثل على :

متى تجتمع القلب الذكي وصارما     وأننا حيا تجتبتك المظالم »  
فخرج زياد الى الناس وهم يسألونه : « ما وراءك ؟ » فاجابهم :  
« هو السيف يا قوم ! » ..

\*\*\*

تلك آراء المشيرين من ذوى الحنكة ، وذلك ما عمل به الامام  
وارتضاه .. فأيهما على خطأ وأيهما على صواب ؟ ..  
سبيل العلم بذلك أن نعلم أولاً : هل كان الامام مستطيناً أن يقر  
معاوية في عمله بالشام ؟ ..  
وأن نعلم بعد هذا : هل كان اقراره أدنى الى السلامة والوفاق لو  
أنه استطاع ؟ ..

وعندنا ان الامام لم يكن مستطيناً أن يقر معاوية في عمله لسبعين :  
أولهما انه أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة ، وكان اقراره واقرار  
أمثاله من الولاة المستغلين أهم المأخذ على حكومة عثمان في رأي على  
ذوى الصلاح والاستقامة بين الصحابة ، وكثيراً ما اعتذر عثمان من  
اقرار معاوية بأنه من ولادة عمر بن الخطاب .. فكان على لا يقبل هذا  
العذر ولا يزال يقول له : « انه كان أخوئ لعمر بن الخطاب من غلامه  
« يرقأ » .. ولكنه بعد موت عمر لا يخاف »

فإذا أقره وقد ولى الخلافة ، فكيف يقع هذا الاقرار عند أشياعه ؟  
ألا يقولون انه طالب حكم لا يعنيه اذا وصل الى بغيته ما كان يقول  
وما سيقوله الناس ؟

واذا هو أعرض عن رأيه الأول ، فهل في وسعه أن يعرض عن آراء  
الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتفير الحال والخروج من حكم عثمان  
إلى حكم جديد ؟ ..

ان هؤلاء الثائرين أشفقوا من نية الصلح مع طلحة والزبير في وقعة  
الجمل ، فبدأوا بالهجوم قبل أن يؤمنوا به .. بل هجموا على أهل البصرة

وهم مأمورون بالهدنة والاتاه . فكيف تراهم يهدأون ويطيعون اذا علموا ان الولايات باقية على حالها ، وان الاستغلال الذى شكوا منه وبخطوا عليه لا تبدل فيه ؟ ..

وندع هذا وتزعم ان اقرار معاوية بحيلة من الخيل مستطاع .. فهل هو على هذا الرعم أسلم وأدنى الى الوفاق ؟

كلا .. على الأرجح ، بل على الرجحان الذى هو في حكم التحقيق .. لأن معاوية لم يعمل في الشام عمل وال يظل والا طول حياته ، ويقنع بهذا التصيّب ثم لا يتطاول الى ما ورائه ، ولكنّه عمل فيها عمل صاحب الدولة التي يؤسسها ويدعمها له ولابنائه من بعده .. فجمع الأقطاب من حوله ، واشتري الانصار بكل ثمن في يديه ، وأحاط نفسه بالقوة والثروة ، واستعد للبقاء الطويل ، وافتتاح الفرصة في حينها .. فـأى فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثاره ؟

وانما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها ، والا ضاع منه الملك وتعرض يوما من الأيام لضياع الولاية . وما كان مثل معاوية بالذى يفوته الخطر من عزله بعد استقرار الأمور ، ولو على احتمال بعيد .. فماذا تراه صانعا اذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلى وتبنته اياده من دم عثمان ؟

انما كان مقتل عثمان فرصة لفرض لا يقبل الارجاء ..

وإذا كان هذا موقف على ومعاوية عند مقتل عثمان ، فماذا كان على مستفيدا من اقراره في عمله وتعريف نفسه لنخب أنصاره ..

لقد كان معاوية أخرى أن يستفيد بهذا من على ، لأنّه كان يغمى به حسن الشهادة له وترتكيه عمله في الولاية ، وكان يغمى به أن يفسد الأمر على على" بين أنصاره ، فتعلو حجته من حيث تسقط حجة الامام ..

وأصدق ما يقال بعد عرض الموقف على هذا الوجه من ناحيته ان صواب الامام في مسألة معاوية كان أرجح من صواب مخالفيه .. فان لم تؤمن بهذا على التقدير والترجح ، فأقل ما يقال ان الصواب عنده . وعندهم سواء ..

والتقدير في مسألة طلحة والزبير أيسر من التقدير في مسألة معاوية  
وولاية عثمان على الأنصار :

لأن الرأي الذي عمل به الإمام معروف ، والآراء التي تختلف  
لا تعدد واحدا من ثلاثة : كلها أعمض عاقبة ، وأقل سلامة ، وأضعف  
ضمانا من رأيه الذي ارتضاه ..

فالرأي الأول أن يوليهما العراق واليمن أو البصرة والكوفة ، وكان  
عبد الله بن عباس على هذا الرأي فأنكره الإمام لأن « العراقين بهم  
الرجال والأموال ، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطعم  
ويضران الضعيف بالباء ، ويقويان على القوى بالسلطان .. » ثم ينقلان  
عليه أقوى مما كانا بغيرة ولاية ، وقد استفادا من اقامة الإمام لهما في  
الولاية تركية يلزمان بها الحجوة ، ويشيران بها أنصاره عليه

\*\*\*

والرأي الثاني أن يقع بينهما لفترقا ولا يتتقا على عمل ، وهو  
لا ينبع في الواقعية بينهما إلا باعطاء أحدهما وحرمان الآخر .. فمن  
أعطاه لا يضمن انتقامته مع الغرة السانحة ، ومن حرمه لا يأمن أن يهرب  
إلى الآثرة كما هرب غيره ، فيذهب إلى الشام ليسأوم معاوية ، أو يبقى  
في المدينة على ضعفية مستوررة ..

على أنهما لم يكونا قط متفقين حتى في مسیرهما من مكة إلى البصرة ،  
فوقع الخلاف في عسكريهما على من يصلى بالناس ، ولو لا سعي السيدة  
عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من الطريق خصمين متنافسين ..

ولم تطل المحنـة بهما متفقين أو مختلفين ، فانهـما بعد أيام قليلـة ،  
وخرج الإمام من حربيـما أقوى وأمنعـما كان قبل هذه الفتـنة ، ولو  
بقيـا على السـلم المـدخول لما اتفـقـ بهـما بعض اتفـاعـهـ بهذهـ المـزـعةـ العـاجـلةـ  
والرأـيـ الثالثـ أنـ يـعتـقـلـهـماـ أـسـيرـينـ ،ـ وـلاـ يـبـيـحـ لـهـماـ الـخـروـجـ منـ  
المـدـنـةـ إـلـىـ مـكـةـ حـيـنـ سـلـاـهـ الـاذـنـ بـالـمـسـيرـ إـلـيـهـ ،ـ ثـمـ خـرـجـ مـنـهـاـ إـلـىـ  
الـبـصـرـةـ لـيـشـنـاـ الـغـارـةـ عـلـيـهـ ..

والواقع ان الامام قد استраб بما نوياه حين سأله الاذن بالسفر الى  
مكة .. فقال لها : « ما العمرة تريدان ، وانما تريдан الفدرة ! »

ولكته لم يجسهما ، لأن جسمها لن يتنفس عن جسم غيرهما من  
المشكوك فيهم . وقد تركه عبد الله بن عمر ولم يستأذنه في السفر ،  
وتسلى الى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أذ يتسللوا  
حيث شاءوا ، ولو انه جسمهم جسمها لما تنسى له ذلك بغير سلطان قاهر ،  
وهو في ابتداء حكمه لما يظفر بشيء من ذلك السلطان ، وأغلب الظن ان  
سود الناس كانوا يعطون عليهم وينقون جسمهم قبل آذ ثبت له البينة  
بوزرهم . وما أكثر المترججين في عسكر الامام من جسم الأربعاء بغية  
برهان ؟ .. لقد كان هؤلاء خلقاء آذ ينصر وهم عليه وقد كانوا ينصرونه  
عليهم ، وخير له مع طلحة والزبير وأمثالهما آذ يعلنوا عصيانهم فيغلبهم من  
آن يكتسوا فيغلبوا ويشكروا بعض أنصاره في عدله وحسن مجامعته لهم

\*\*\*

وعلى هذا كله ، حاسنوه ولم يصارحوه بعده .. لم يكن الجيش  
الذى خرج من مكة الى البصرة يائس من الخروج اليها اذا لم يصبحه  
طلحة والزبير فقد كانت « العثمانية » في مكة حزباً موفور العدد والمال ..  
فهي مسألة تلتبس فيها الطرائق ، ولا يسعنا آذ نجزم بطريقه منها أسلم  
ولا أضمن عاقبة من الطريقه التي سلكها الامام وخرج منها غالباً على  
لحجاز وال العراق ، وما كان وشيكاً آذ يغلب عليهم لو بقي معه طلحة  
والزبير على فرض من جميع الفروض التي قدمناها ..  
أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر ، فهى غلطة من غلطات الامام  
يقل الخلاف فيها ..

لأن قيساً بن سعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر وحمايتها ،  
وكان كفؤاً لمعاوية وعمرو بن العاص في الدباء والمداورة ، فعزله الامام  
لأنه شرك فيه .. وشك فيه لأن معاوية أشاع مدحه بين أهل الشام ،  
وذعم انه من حزبه والمؤتمرين في السر بأمره

وكان أصحاب على يحرضونه على عزله ، وهو يستهمهم ويراجع رأيه فيه حتى اجتmet الشبهات لدنه .. فعزله وهو غير واثق من التهمة ، ولكنه كذلك غير واثق من البراءة

وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضئيلة ، فان قيسا بن سعد لم يدخل مصر الا بعد أن مر بجماعة من حزب معاوية ، فأجازوه ولم يحاربوه وهو في سبعة فرق لا يحمونه من بطشهم ، فحسبوه حين أجازوه من العثمانية الهاريين الى مصر من دولة على في الحجاز ..

ولما بايع المصريون علياً على يديه ، بقى العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون ، وقالوا له : « أمهلنا حتى يتبيّن لنا الأمر » فأمهلهم وتركهم وادعى حيث طاب لهم المقام بجوار الاسكتدرية

\*\*\*

ثم أغراه معاوية بعناصره والخروج على الامام ، فكتب اليه كلاما لا الى الرفض ولا الى القبول ، ويصبح من سمع بهذا الكلام أن يحسبه مراوغة معاوية أو يحسبه متربقا لساعة الفصل بين الخصمين .. اذ كان ختام كتابه اليه : « ... أما متابعتك فانتظر فيها ، وليس هذا مما يسرع اليه وأنا كاف عنك فلا يأتيك شيء من قبل تكرهه ، حتى نرى وترى » ثم اشتدى في وعيده حين أفرده معاوية فقال : « أما قولك اني مالء عليك مصر خيلا ورجالا ، فوالله ان لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهتم اليك اذلك لذو جد والسلام .. »

وأراد الامام أن يستيقن من الخصومة بين قيس ومعاوية ، فأمر قيسا أن يحارب المخالفين عن البيعة .. فلم يفعل وكتب اليه : « ... متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوكم ، وهم الآن معذلون والرأي تركهم »

فتعاظم شك الامام وأصحابه ، وكثر المشيرون عليه بعزل قيس واستقدامه الى المدينة .. فعزله واستقدمه ، وتبيّن بعد ذلك انه أشار بالرأي الصواب ، وان ترك المخالفين عن البيعة في عزلتهم خير من التعجيل بهم ، لأنهم هزموا محددا بن أبي بكر والى مصر الجديد ، وجزعوا

عليه من كان يصانعه ويواهيه ..

غلطة لاريب فيها ..

وان كان جائزًا مع هذا ألا يهزموا قيسا ، لو كان حاربهم ، كما هزموا  
خلفه الذى لا يعدله في الحزم والخبرة

ولكتنا نبالغ على كل حال ، اذا علقنا بها الجرائر التى أصابت الامام  
من بعدها ، وزعمتنا انه تقاعده عن اصلاحها في حينها ، كما تصلح  
الفلطات التى يساق اليها الساسة .. فانما هي غلطة من تلکم الغلطات التي  
تضير والحوادث مولية .. وقلما تضير أو تتعز على الاصلاح والحوادث  
مؤاتية . وقد عرف الامام خطأه فقال لصحابه : « ان مصر لا يصلح لها  
الا أحد رجلين هذا الذى عزلناه والاشتر » وأنفذ الاشتير الى مصر  
ليعيدها الى طاعته فمات في الطريق ..

\*\*\*

والاقوال في موت الاشتير هذه الميالة الباغنة كثيرة ، منها انه مات غيلة  
وان معاوية أغري به من دس له السم في عسل .. شريه وهو على حدود  
مصر قضى نحبه ، وروى ان معاوية قال حين بلغه موته : « ان الله  
جنودا من العسل » ..

فإن صحت الرواية ، واعتقد من اعتقد أنها من دلائل السياسة  
القوية عند معاوية .. فيما لا شك فيه ان موت الاشتير ، لم يكن من  
دلائل السياسة الضعيفة عند الامام ، وانه لا لوم على سياسته في  
اغتياله ، ان كان فيه سبب ثاء على سياسة الفيلة عند من يصدونها  
ومن عجائب هذه القصة ان معاوية ندم على تقرب قيس من جوار  
على ، وقال : « لو أمدته عائنة ألف لكانوا أهون على من قيس »  
لأنه قد ينفعه وهو قريب منه بالمشورة عليه في عامه أمره ، ولا ينحصر  
تفعه له في سياسة مصر وحدها ..

ولكن الذى حذر معاوية لم يكن ، والذى حذر على كان ..  
وإذا ولت الحوادث ، فقد ينفع الخطأ وقد يضر الصواب ..

ثم تأتي مسألة القصاص من قتلة عثمان التي كانت أطول المسائل جدلاً بين الإمام وخصومه ، فإذا هي أقصرها جدلاً من براءة المقصود من الهوى وخلوص الرغبة في الحقيقة ..

فقد طالبوه بالقود ولم يبايعوه ، مع أن القود لا يكون إلا من ولى الأمر المعترف له باقامة الحدود

وطالبوه به ولم يعرفوا من القاتلة ، ومن هو الذي يؤخذ بدم عثمان من القبائل أو الأفراد ..

وأعتبروه بهذا الطلب لأنهم علموا أنه لا يستطيع قبل أن تثوب السكينة إلى عاصمة الدولة ، وأغفوا أنفسهم منه — وهم ولاة الدم كما يقولون — يوم قبضوا على عذان الحكم وثبتت السكينة إلى جميع الأمصار

\*\*\*

وقد تحدث الإمام مرة في أمر القود من قتلة عثمان ، فإذا بجيش يبلغ عشرة آلاف يشروعن الرماح ويجهرون بأنهم « كلهم قتلة عثمان » فمن شاء القود فليأخذنه منهم أجمعين

وكان الإمام يقول لمن طالبوه منه اقامة الحدود : « إنني لست أجهل ما تعلمون ، ولكنني كيف أصنع بقوم يملكونا ولا غلوكهم ، ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم آغاربكم ، وهم يبنكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعًا لقدرة على شيء مما تريدون؟..»

ومن قوله لهم : « .. إن هذا الأمر أمر جاهليه ، وإن لهؤلاء القوم مادة ، وإن الناس من هذا الأمر الذي تطلبون على أمور : فرقه ترى ما ترون ، وفرقه ترى ما لا ترون ، وفرقه لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدأ الناس وتتعال القلوب مواقعها ، وتوخذ الحقوق فاهدعوا عنى ، وانقلروا ماذا يأتيكم ثم عودوا »

ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق إلى الثأر له ، والقصاص من العادين عليه ، لتد كان هذا أقرب الطرق إلى ما أرادوا .. يقولون ولـي الأمر حتى يقوى على اقامة الحدود ، ثم يحاسبونه بحكم

الشريعة حساب انصاف ..

الا أنهم طلبوا ما لا يجحب ، وما لم يكن من حقهم أن يتطلبوه ، وليس بينهم أطفى ولا أطفى من السيدة عائشة رضي الله عنها . وقد روى عنها أنها قالت لما أخبرت بيعة علي " وهي خارجة من مكة : « لست هذه انتطبقت على هذه ان تم الأمر لعلى » تشير الى السماء والأرض .. ثم عادت الى مكة وهي تقول : « قتل والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبين بدمه » ..

فقيل لها : « ولم ؟ .. والله ان أول من أثار الناس عليه لأنت .. ولقد كنت تقولين : اقتلوا « نعملا » فقد كفر »

قالت : « انهم استتابوه ثم قتلوا ، وقد قلت وقالوا ، وقولي اليوم خير من قولى الأول »

وناهيك بالسيدة عائشة في فضلها ومكانتها وتقواها ، فقل ما شئت في المطالبين غيرها بهذا المطلب الذي لا يجحب والرضا ، أو الارضاء ، مستحيل حين يكون الطلب من هذا القبيل

\* \* \*

أما الذين لاموه لقبوله التحكيم ؛ فيغيل علينا من عجلتهم الى اللوم انهم كانوا أول من يلزمه ويفرط في لومه لو انه رفض التحكيم وأصر على رفضه ، لأنه لم يقبل التحكيم ولو مندوحة عنه .. ولكن قبله بعد احجام جنوده عن الحرب ، ووشك القتال في عسكرهم خلافاً بين من يقبلونه ويرتضونه

وقبله بعد أن حجز الحفاظ والقراء نيفاً وعانياً فزعه للقتال لشکمهم في وجوبه وذهب بعضهم الى تحريره وبعد أن توعدوه بقتلة كفتلة عثمان ، وأهاطوا به يلحون عليه في استدعاء الأشتر النخعي الذي كان يلاحق أعداءه مستحصداً في ساحة الحرب على أمل في النصر القريب ..

والموরخون الذين صويبوا رأيه في التحكيم وخطئوه في قبول أبي موسى الأشعري ، على علمه بضعفه وتردداته ، ينسون أن آبا موسى كان مفروضاً

عليه ، كما فرض عليه التحكيم في لحظة واحدة .. ونسون ما هو أهم من ذلك ، وهو أن العاقبة متشابهة سواء قاتل عنه أبو موسى الأشعري أو ناب عنه الأشتر أو عبد الله بن عباس .. فان عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر على إثناين في الخلافة ، وقصيرى ما هنالك ان الحكمين سيقتربان على تأييد كل منهما لصاحب وترجمة الأمور الى مثل ما رجحت اليه . وان توهם بعضهم ان الأشتر أو ابن عباس كان قدريا على تحويل ابن العاص عن رأيه ، والجنوح به الى حزب الامام ، بعد مساومته التي ساومها في حزب معاوية .. فليس ذلك على التحقيق بقمع معاوية أن يستكين ويستسلم ، وحوله المؤيدون والمرتقبون للمطامع واللبادات يعزز عليهم اخلاقهم كما يعزز عليه اخلاقه

\*\*\*

وما أسهل المخرج الشرعى الذى يلوذ به معاوية فيقبله منه أصحابه ويتبعونه على نقض حكم الحكمين المتقددين؟ .. لقد كان النبي عليه السلام يقول عن عمار بن ياسر انه « قاتله الفتنة الباغية » فلما قاتله جند معاوية ، وخافت الفتنة بينهم أن تلزمهم سبة البغي بشعاذه للحديث الشرف .. قال قائل منهم : أنا قاتله من جاء به الى الحرب .. فشاع بينهم هذا التفسير العجيب ، وقبلوه جميعا غير مستثنى منهم رجل واحد .. أفلوا يقبلون تفسيرا مثله اذا تحول ابن العاص ، وأفتقى الحكمان بخلع معاوية وبمبايعة الامام ؟

فليس في أيدي المؤرخين الناقدين اذن حل أصوب من الحل الذي أذعن له الامام على كره منه ، سواء أذعن له وهو عالم بخطته أو أذعن له وهو ينسوي بيته وبين غيره في عقباه

ويقى انتقال الخلافة من البداية ، وهو خطة ترد على الخاطر حال هذه المعضلات التي واجهها الامام ، ولم يكن عسيرا عليه أن يتوقعها بعد مقتل عثمان وشيوخ الفتنة والشقاق بين الأنصار كلها .. وشيوخها قبل ذلك بين جنده الذي يمول عليه

ولكنها خطة سلبية لا يتعين بها رأى ولا عمل ، ولا ترتبط بها تجربة ولا فشل .. وكل ما هنالك من أسباب ترجيحها أنها أسلم للأمام وآمن لسريره وأهداً لباله ، وهو أمر مشكوك فيه .. على ما في طلب السلامية بين هذه الزعازع من اثرة ، قلنا يرتفعها الشجاع الباسل أو الحكيم العامل ..

فمن السخف أن يخطر على البال ان رجلا كعلى بن أبي طالب ، يترك وادعا في سريه بين هذه الزعازع التي تحيط بالدولة الإسلامية في عصره ..

ان تركه الثوار وأغفوه من الحكم ، لم يتركه أصحاب السلطان ولم يغفوه من الدسينة والايذاء ، لاعتقادهم انه باب من أبواب الخطر الدائم ، وانه ما عاش فهو علم منصوب ينفع اليه كل ساخط وكل مصلح وكل مخالف على الدين أو على الدنيا . وقد قيل ان ابنه الحسن مات مسموما في عهد معاوية خوفا من لياذ الناس به ورجعتم اليه . وقيل مثل ذلك عن عبد الله بن خالد بن الوليد .. وما أعظم البوء في المكانة والحساب بينهما وبين الامام عند أصحاب المخاوف وأصحاب الآمال

\* \* \*

ولعلنا نقارب هذه الحقيقة من ناحية أخرى ، اذا رجعنا الى أقوال أبطال الميدان نفسه في علل النصر والهزيمة ، وفيما يقال عن مزية كل منهم على خصمه أو مزية خصمه عليه فعلى يسمع ما يقال عن شجاعته ورجحان معاوية عليه في الدهاء ، فيقول : « ... والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يضر ويتجبر ، ولو لا كراهية الفدر لكتت من أدهى الناس .. »

أو يقول : « ولكنه لا رأى لم لا يطاع »  
ويعلم ما أصابه في بيته بما أجمله لابتاعه حين قال لهم : « .. لم تكن بيعتم اي اي فلتة ، وليس أمرى وأمركم واحدا .. انى أريدكم الله ، وأتتم تریدوتى لأنفسكم »  
ومعاوية يذكر الخصال التي أعين بها على على<sup>2</sup> ، فيقول : « انه كان

رجل لا يكتم سرا وكتت كتوما لسرى ، وكان يسعى حتى يفاجئه الأمر مفاجأة وكتت أبادر إلى ذلك ، وكان في أخت جند وأشدهم خلافا . وكتت أحب إلى قريش منه ، فنلت ما شئت ..

وعمر بن العاص يقول عن عدة النجاح في طلب الخلافة : « انه لا يصلح لهذا الأمر الا رجل له ضرمان ، يأكل بأحد هما ويطعم بالأخر» وهذه هي أسباب النصر والهزيمة على حقيقتها ، الا انها تظل ناقصة ما لم تقرنها بحقيقة أخرى ، وهي ان هزيمة معاوية كانت مرجحة — بل مؤكدة — لو انه وضع في موضع على ، وابتلى بالأسباب التي ابتلى بها فالبلاء كله انا كان في خبث الأجناد وشدة خلافهم ، ولهذا كان سر على يعرف وسر معاوية يكتمن .. لأن معاوية يطاع ونيته في صدره ، وعلى لا يطاع الا اذا سئل عن نيته وما يحل منها او يحرم في رأي اتباعه . وكذلك كانت تفاجئه المحوادث لأنه كان يروي فيها ما يروي ، ولا ينفي من رويته الا الذي ينساق اليه هو وأتباعه آخر المطاف بحكم الضرورة المعاذية ، وقد بطل الجدل وبطل من قبله التدبير ..

\*\*\*

ولو أن معاوية كتب عليه أن يحارب جندا مطينا بجند عصاه ، لما طمع في حظ أوافق من حظ على في ذلك الصراع المتفاوت بين الخصمين .. ولو استعان بكل ما أعين به من رشوة الأنصار وكيد الخصوم ، بل لمله كأن يتحقق حيث أفلح قوله على قدر ما ينتهي من فارق في الشجاعة والسابقة الدينية ، وكذلك قال الإمام : « اذ لبني أمية مرودا يمرون فيه ولو قد اختلفوا فيما بينهم ثم كادتهم الضياع لغليتهم »

على أننا نود أن نقف عند الحد المأمون في تعليل النصر والهزيمة ، ولا نعدوه إلى ما وراءه .. فليس من قصدنا أن نصف عليا بقوة الدعاء وسعة الحيلة ، ولكننا قصدنا أن نبرئه من عجز الرأي وضعف التدبير ، لأن أسباب الهزيمة موفورة بغير هذا السبب الذي لا دليل عليه .. فقوام الفصل بين الطرفين ، انه لا دليل لدينا من المحوادث على عجز

رأى ولا قوة دهاء .. ولو كانت قوة الدهاء صفة غالبة فيه لظهرت على صورة من الصور ، وان قامت الحوادث عائقاً بينها وبين التجاوز .. فان الدهاء لا يخفى أن تكون المعضلة التي يعالجها محظوظة الفشل مقرونه بالخذلان ..

ومما لا شك فيه ، أن علينا أشار بالرأي في مواقف كثيرة فأصاب المشورة ، وانه وصف أنسا فدل على خبرة الرجال وما يغلب عليهم من الطباع والخصال ، وانه أخذ بالحزم في توقع الحوادث واستطلاع الأمور ولكنك لزم الكفاية في ذلك ، ولم يتخطاها الى الأمد الذي يسلكه بين الدهاء الموسومين بفرط الدهاء ..

\*\*\*

فمن مشوراته الصائبة ، انه نهى عمر رضي الله عنه أن يخرج لحرب الروم والقرس بنفسه ، فقال له : « ائنك متى تسر الى هذا العدو بنفسك فتلقيهم فتكتب ، لاتكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم.. ليس بعده مرجع يرجعون اليه ، فابعد اليهم رجالا مجريا .. فان أظهره الله فذاك ما تحب ، وان تكون الأخرى كنت ردة للناس ومثابة للمسلمين »

ومن وصفه للرجال وأساليب تناولهم ، قوله لابن عباس وقد أرسله الى طلحة والزبير : « لا تلقين طلحة ، فانك ان تلقه تلقه كالثور عاقصا - أى لا ويا - قوله يركب الصعب ويقول هو الذلول ، ولكن الق زبير فإنه ألين عريكة فقل له : « يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق .. فما عدا مما بدا ? »

ومن حزمه انه كان يبث عيونه وجواسيسه في الشرق والغرب ليطلعه على أخبار أعدائه وأعوانه ، وانه كان اذا وجبت الحرب بادر بالخروج ولم يأته التردد والابطاء بعد ذلك الا من خلاف جنده

ومن معرفته للجماهير انه وصفهم أوجز وصف حين قال انهم أتباع كل ناعق ، وانهم « هم الذين اذا اجتمعوا ضربوا واذا تفرقوا فتعوا » .. لأنهم اذا تفرقوا رجعوا أصحاب المعن الى مهنتهم فاتفع بهم الناس ..

فهذا قسط من الرأى الصائب ، كاف لمهمة الحكم لو تصدى به الإمام للخلافة .. والعصر عصر خلافة وليس بعصر دولة دينية مضطربة في دور تأسيسها وتلقيق أجزائها ..

بل هو قسط كاف لمهمة الحكم في الدولة الدينية ، لو تو لاها بعد استقرارها والفراغ من مكائد تأسيسها .. كما جاء عمر بن عبد العزيز في صلاحه وتقواه بعد الملوك الأولين من بنى أمية .. ولكن قسط من الرأى لا يسلك صاحبه بين أساطين الدهاء الذين يكيدون بالرأى وبالعمل النافذ على السواء ..

\* \* \*

ونعود بعد هذا ، فنقول انه لم يخسر كثيرا بما فاته من الدهاء .. ولم يكن ليربح كثيرا لو استوفى منه أوفي نصيب ، لأنه لابد من ملك أو خلافة ..

ولن يكون ملكا بأدوات خليفة ، ولا خليفة بأدوات ملك ، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلا يريد العصر والمصر يريد ، لأنه عصر ملك تهيأت له الدواعي الاجتماعية ، وتهيأ له الرجل بخلائقه ونياته ومساعدة أمثاله ..

ولم يكن معاوية زاهدا في الخلافة على محمد أبي بكر أو عمر أو عثمان ، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه  
فلمما جاء عصر الملك ، طلب الملك والملك يطلب ..  
وقد يعا قال أبوه للعباس عم النبي ، وقد رأى جيش المسلمين في فتح  
مكة : « لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما »

فهو الملك ، أو هو جاء الدنيا ، الذي تطلع اليه من نشأته الأولى في بيته .. وانتظر ثم انتظر حتى لقاء على قدر ، فوضع في موضعه وقام به الموضع كما قام به ، ونجحا معا على التوافق والرقاء ..  
وحين وجب أن يقع الفصل بين الملك والخلافة ، وجب أن يكون علي على رأس فريق الخلافة .

وحين وجب أن يقع الفصل بين أصحاب المذاهب الراغبين في دوام  
النفع ، وبين أصحاب المبادئ والظلالات الراغبين في التبدل  
والإصلاح وجب أن يكون علىٰ على رأس هذا الفريق دون ذلك الفريق  
وحين وجب هذا وذلك وجوبا لا حيلة فيه للمتغول ، ولا اختيار فيه  
للمختار ، وجب أن تصير خلافة علىٰ إلى ما صارت إليه ، كائناً ما كان  
خطره من الدهاء والخدعة ، وكائناً ما كان طريقه الذي ارتضاه هو أو  
أشار به الشيرون عليه

\*\*\*

وقد يحسن بالمؤرخ بعد الموازنة بين عدة الخلافة وعدة الملك في صراع  
علىٰ ومعاوية ، أن يذكر عدة أخرى لم تظهر في هذا الصراع ، وقد  
ظهرت في مآذق شتى من أخرج مآذق التاريخ ، واعتمد عليها أبطاله  
الكبار كثيراً في تأسيس الدول وقمع الثورات ، فاختصروا الطريق  
وأراحوا أنفسهم من عناء طويل ، ونزيد بها عدة البطش العاجل والمباغة  
لتسامة كلما تأثبتت العقد وتسرت لحيلة ووجب الخلاص السريع ..  
فقد علمنا مثلاً أن الأشعث بن قيس كان يعترض الإمام في كل خطوة  
من خطوات النصر ، وينقل عليه باللجاجة والعتت في مواقف مكرية  
تضيق بها الصدور ..

ولم يكن الأشعث بن قيس بالوحيد في هذا الباب ، بل كان له شركاء  
من الخارج وغير الخارج ، يظهرون بالعن特 في غير موضعه وينهبون  
به وراء حده ، وربما بلغوا من الضرر في معسكر الإمام فوق مبلغ  
الأشعث بن قيس ، على عظم الفارق بين سلطانهم وسلطانه  
ألا يخطر على البال هنا ، أن ضربة من الضربات القاضية كانت تنجع  
في هذا الفت المكرب حيث لا تنجع العقوبة الشرعية أو الأحابيل  
السياسية ؟ ..

ماذا لو أن الإمام جرد سيفه بين أولئك المشاغبين ، وأطاح برأس  
الأشعث بن قيس قبل أن يفتق أحد إلى نفسه ، ثم ولّ على الفور من

يقوم مقامه في رئاسة قوم ويكتفل لهم الطاعة بينهم لأمره؟.. أكان بعيداً  
أن تفعل الرهبة فعلها ، فيسكن المشاغب ، ويهاب المطابول ، ويجتمع  
المترقب ، ويقل الخلاف بعد ذلك على الامام وعلى الرؤساء عامة؟  
لم يكن ذلك بعيد ..  
لكله كذلك لم يكن بالمحقق ، ولا بالمؤمن ..

فهي مجازفة ذات حدين ، تصيب بأحد هما وقد تصيب بهما معاً .. وقد  
يكون الحد الذي تصيب به هو الحد الذي من قبل الضارب دون الحد  
الذي من قبل المضروب ..

وكل ما تقيدنا إياه هذه الملاحظة العابرة على التحقيق ، إن الامام  
رضي الله عنه لم يكن من أصحاب هذه الملكة التي اتصف بها بعض  
أبطال القلاقل في أيام الفصل بين عهدين متداربين . فكانت له ضرورة  
الشجاع ، ولم تكن له ضرورة المغامر أو المقامر ..

ولم يضرب بالسيف قط ، كأنه يقذف بالقداح إما إلى الكسب وإما  
إلى الخسارة .. وإنما كان يضرب به ضرب الجندي الذي يتمنى الغلب  
بقوته وقوته لياته ، ولا يتمنى من جولات السهام وفلاتات الغيب ..  
على اتنا — وقد سجلنا هذه الملاحظة — ففرض أنه رضي الله عنه كان  
من أصحاب تلك الملكة التي عرف بها بعض المغامرين في أوقات الفصل  
بين العهود ..

وتفرض أنه عمد إليها ، فنفعته في عسكره وطوعت له الجند وأراحه  
من شعب الخارجين عليه والمشعرين بالإراء والفتاوي من يمينه وشماله  
فهذا عسى أن يغير هذا كله من طبيعة الموقف الذي أجملناه؟ . وكيف  
يكون المخرج بين سياسة الملك ، كما يطلبها العصر ، وسياسة الخلافة  
كما تطلبها البقية الباقيه من آداب الفترة النبوية؟

أيسوس الامام دولته ملكاً دنيوياً أم يسوسها خليفة نبوة؟  
أيفرق الأموال على رءوس القوم وقاده الجندي وطلاب الترف أم  
يلزمهم عيشة النساك والشظف والجهاد؟

وإذا حرمهم وتألبوا عليه مع خصمه ، فهو القاتل اذن بطال العصر  
ومقتضياته ودعاعيه أم هم الغالبون ؟

وإذا أعطاهم ليذخروا بذخ الملك الدنيوي وهو وحده بينهم الناسك  
المجتهد على سنته النبوة ، أفيستقيم له هذا الدور العجيب وهو في  
جوهره متناقض لا يستقيم ..

فالسياسة التي اتبعها الإمام هي السياسة التي كانت مقدمة له مفتوحة  
بين يديه ، وهي السياسة التي لم يكن لها مجيد عنها ، ولم يكن له أمل  
في النجاح ان حاد عنها الى غيرها .. سواء عليه اتفق جنده بضررية من  
الضريرات القاضية أم لم يتلقوا على ذأبهم الذي رأيناه ، سواء لأن  
طلاب الدولة الدينية أم صد على سنته النبوة والخلافة النبوية

\* \* \*

ومهما يكن من حكم الناقدين في سياسة الإمام ، فمن الجور الشديد  
أن يطالب بدفع شيء لا سبيل الى دفعه ، وأن يحاسب على مصير الخلافة  
وهي متيبة لا محالة الى ما انتهت اليه ..  
ومن الجور الشديد ، أن يلقى عليه اللوم لأنه باء بشهادة الخلافة ،  
ولا بد لها من شهيد ..

وقد تجمعت له أعباء التناقض والمناققات التي نشأت من قبله ، ولم  
يكدر يسلم منها خليفة من الخلفاء بعد النبي صلوات الله عليه ..

أحسن بها الصديق ، فمات وهو ينحي على الصحابة ويحذرهم بوادر  
الترف الذي استناموا اليه ..

وأحسن بها الفاروق وأقتلت كاهله ، وهو الكاهل الضليع بأفصح  
الأعباء .. فضاق ذرعا بالحياة ، وطفق يقول في سنة وفاته : « اللهم كبرت  
سني وضعفت قوتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني اليك غير مضيع ولا  
مفرط .. اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك »

وأحسن بها عثمان ، فيما فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكرين  
متناجرين ، لا يرجع أحدهما الا بالغلبة على نده وضده ..

وكتب على ذلك أن يتلقى الدولة الإسلامية بين هذين العسكريين . فلا في مقدوره أن يجمعهما إلى عسكر واحد ، ولا في مقدوره أن يختار منها عسكر الملك ، ولا أن يختار عسكر الخلافة الدينية فتظل على يديه خلافة دينية بعد أوانها ..

وما لم يكن في مقدوره لم يكن في مقدور غيره ، وانه لانصاف قليل أن نعرف له هذه المعاذير الصادقة ، وهو الذى باه وحده بتلك التفاصيل والأعباء ..

\*\*\*

وقد تقدت سياسة على لغوات الخلافة منه قبل البيعة . كما تقدت سياساته لغوات الخلافة منه بعد البيعة ، وأخصى عليه بعض المؤرخين انه تأخر نيفاً وعشرين سنة .. فلم يخلف النبي ، ولم يخلف أبا بكر ؛ ولم يخلف عمر .. كأنه كان مستطيناً أن يخلف أحداً منهم بعمل من جهته وسعى من تدبيره ، فأعياد السعي والتدمير ..

ومقطع الفصل في هذا أن نرجع إلى الواقع الذى حالت بينه وبين الخلافة قبل وصولها إليه ، لنعلم منها العائق الذى كان في أيدي الحوادث والعائق الذى كان في يديه ، أو كانت له قدرة معقولة عليه فعما لا شك فيه ان الإمام أنكر اجحافاً أصابه في تخطييه باليبيعة الى غيره بعد وفاة ابن عمه صلوات الله عليه ، وأنه كان يرى ان قرباته من النبي مزية ترشحه للخلافة بعده لأنها فرع من النبوة على اعتقاده ، وهم شجرة النبوة ومحظ الرسالة ، كما قال ...

ومما لا شك فيه ، ان شعوره هذا طباعي في النفس الإنسانية كيما كان خطأ من الزهد والقناعة ، لأن تخطييه - مع هذه المزية التي ترشحه للبيعة - يشبه أن يكون قدحاً في مزاياه الأخرى ، من علم وشجاعة وسابقة جهاد وعفة عن الطامع ، أو يشبه أن يكون كراهة له ومتلاوة على الفض من قدره ، ولم يزل من غرائز النقوس أن يسوعها القدح فيها والحط من مزاياها ومواجهتها بالنفرة والكرابة ..

الا ان الخلافة الاسلامية ، مسألة عالمية لا توزن بميزان واحد ، ولا يؤتمن فيها برأى واحد ولا بحق واحد . وقد يضحي في سبيلها بالعظيم والعظماء ، اذا تعارضت الحقوق ونشعبت الآراء ..  
ويشاء القدر أن تكون المزية الأولى في ميزان على<sup>٢</sup> هي العائق الأول في سائر الموازين ، ومنها ميزان النبي صلوات الله عليه ..

فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبيات في قريش ، وفي القبائل العربية عامة ، لعلمه بخطر هذه العصبية على الدعوة الجديدة ، وكراهته أن يصور الاسلام للعرب كأنه سيادة هاشمية توارثها عصبة هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين . وقد رضى في سبيل هذا القصد الحكيم ، أن يجعل بيت أبي سفيان صنواً للكعبة في أمان اللاجئين إليه ، وأصر إلى أبي سفيان ونذب ابنه معاوية لكتابته له بين النخبة المختارة من كتابيه ، وربما حسن لديه أن تتول الخلافة إلى على<sup>٣</sup> بعده اذا شاء المسلمون ذلك ، ولكن على<sup>٤</sup> أن تكون خلافته اختياراً مرضياً كاختيار غيره من أنصاره وأصحابه ، ويستوى منهم القريب والبعيد

\* \* \*

ولم تكن الحكمة النبوية هي وحدها التي تأبى اثار العصبيات وتصوير الاسلام للعرب وللناس عامة في صورة السيادة الهاشمية ، بل كانت الدعوة كلها في صميم أصولها تأبى هذا الذي أبته الحكمة النبوية وتتجنبه غاية ما في وسعتها اجتنابه .. لأن الدعوة الاسلامية دعوة عالمية ، تشمل الأمم كافة من عرب إلى عجم ومن مشرق إلى مغرب ، و تقوم في أساسها على المساواة بين الناس ورد المفاضلة بينهم إلى الأعمال والأخلاق دون الأحساب والأعراق . فليس من المقبول أن تسود العالم كله أسرة هاشمية ، ولا من المقبول أن يبني الأساس على المساواة ، وأن يقام الحكم على هذا التفضيل ..

وان أحق الناس أن يقطن إلى هذه الحكمة لهم أولئك الغلاة الذين زعموا أن وراثة الخلافة فيبني هاشم حكم من أحكام الله وضرورة من

ضرورات الدين ..

فلو أنها كانت حكما من أحكام الله ، لكان أعجب شيء أن يموت النبي عليه السلام وليس له عقب من الذكور ، وأن يختتم القرآن وليس فيه نص صريح على خلافة أحد من آل البيت ..

ولو أنها كانت ضرورة من ضرورات الدين ، أو ضرورات القضاء ، لتفتت في الدنيا كما ينفذ القضاء المبرم ، وحيطت كل خلافة تنازعها كما تحيط كل بدعة تناقض السنن الكونية ..

فلا النصوص الصريحة ، ولا دلالة الحوادث على الارادة الالهية ، مما يؤيد أقوال ثلاثة عن ترجيح الخلافة بالترابة ، أو حصر الخلافة في الأسرة الهاشمية ..

وهذا هو العائق الأول الذي حال بين على<sup>٢</sup> وبين الخلافة ولا قدرة له عليه ، وقد لحظه العرب ولحظته قريش خاصة ، وذكره الفاروق حين قال : « إن قريشا اختارت نفسها فأبانت أن تجمعبني هاشم بين النبوة والخلافة » ..

\* \* \*

ويرى بعض المؤرخين ، أن قريشا كانت تحقد على الإمام وتحييه عن الخلافة لملة أخرى تفترن بهذه العصبية التي أوقعت التنافس بين بيتهما وبين بنى هاشم ، فقد بطش الإمام بنفر من جلة البيوت القرشية في حروب المسلمين والشركين ، وقتل من أعلام بنى أمية وحدهم عتبة بن ربيعة جد معاوية ، والوليد بن عتبة خاله وحنظلة أخيه ، وجميعهم من قتلاه في يوم بدر .. عدا من قتلهم في الواقع والغزوات الأخرى ، فحفظ أقاربهم له هذه الترات بعد دخولهم في الإسلام ، وزادهم حقدا أنهم لا يملكون الثأر منه لقتلاهم من الكفار . وكانت حاله بعد تلك المدة كما قال ابن أبي الحديد : « ... كأنها حاله لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمه ، من اظهار ما في النفوس وهيجان ما في القلوب ، حتى الأخلاف من قريش والأحداث والفتیان الذين لم يشهدوا وقائمه وفتكاته في

أسلافهم وآبائهم ، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله»  
وقد علم الامام هذا من قريش ، عندما يتس من موتها وابتلى  
بالصريح والدخيل من كيدها ، فقال : « .. ما لى ولقريش ؟ .. أما والله  
لقد قتلتهم كافرين ولاقتلتهم مفتونين .. والله لا يُبَرِّئ الباطل حتى يظهر  
الحق من خاصرته .. فقل لقريش ، فلتُفْسِحْ ضجيجها »

\* \* \*

ولو أن قريشا وادعته في سرها وجهرها ، ووقفت بينه وبين منافيه  
على الخلافة لا تصدأ عنها ولا تدفعهم إليها ، لقد كانت تلك عقبة أى  
عقبة ..

فاما وهى تحاربه بعصبيتها وتحاربه بتحولها ، فتلك هي العقبة التي  
لا يذللها الا بحزب أقوى من حزب قريش بعد وفاة النبي صلوات الله  
عليه ، ولم يكن حزب قط أقوى يومئذ من قريش في أرجاء الدولة  
الإسلامية يأسراها ..

ولقد سبق الامام الى الخلافة ثلاثة من شيوخ الصحابة هم : أبو بكر  
وعمر وعثمان ..

فإذا نظرنا الى عائق العصبية الذي قدمناه ، فلا نرى شيئاً أقرب الى  
طبائع الأمور من سبق هؤلاء الثلاثة بأعيانهم الى ولاية الخلافة بعد النبي  
عليه السلام ، لأنهم أقرب الناس أن يختارهم المسلمون بعد خروج  
العصبية الهاشمية من مجال الترجيح والترشيح ..

فليس أقرب الى طبائع الأمور في بلاد عربية إسلامية من اتجاه الأنظار  
إلى مشيخة الإسلام في السن والوجهة وال سابقة الدينية ، لاختيار  
الخلافة من بينها على السنة التي لم تتغير قط في تاريخ العرب  
الأقدمين ، ولم يغيرها الإسلام بحكم العادة ولا بحكم الدين  
ولم يكن الامام عند وفاة النبي من مشيخة الصحابة التي تتول إليها  
الرئاسة بدأهه بين ذوى الأسنان ، من مارسوا الشورى والزعامه في  
حياته عليه السلام .. لاإ أنه كان يومئذ قى يجاوز الثلاثين بقليل . وكان

أبو بكر وعمر وعثمان قد لبשו في جوار النبي بعض عشرة سنة قبل ظهور على في الحياة العامة ، وهم يشيرون على النبي ويخدمون الدين ويجمعون الأنصار ويدان لهم بالتوقير والولاء ..

والعائق الذي قام بين على وبين الخلافة هو في طريق هؤلاء الثلاثة السابقين تمهيد وتقرير ..

ونعني به عائق العصبية الهاشمية ..

لأن قريشا لا تنفس على بنى تميم ، ولا بنى عدى ، ولا بنى أمية ، في رئاسة عثمان خاصة .. كما تنفس على بنى هاشم ، اذ تجتمع لهم النبوة والخلافة ..

\*\*\*

والامام نفسه لم يفته أن يدرك هذا بثاقب نظره ، حين قال وقد تجاوزته الخلافة للمرة الثالثة بعد موت الفاروق : « ان الناس ينظرون إلى قريش ، وقريش تنظر إلى بيتها فتقول : « ان ولی عليکم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدا .. وما كانت في غيرها من قريش تداولتموها بينکم » واذا اجتمع هذا العائق الى عائق السن والتوقير للمشيخة المقدمة ، فهما مبعدان للامام عن الخلافة بقدر ما يقربان سواه ..

نعم ان فارق السن قد تقارب بعد موت الفاروق ، وبلغ الامام الخامسة والأربعين ، وسبقت له في المشورة سوابق مأثورات .. فأصبح الفارق بينه وبين من يكبرونه مزية تعين على العمل والجهاد وتنفي مظنة الضعف والتواكل . ولكن الذي كسبه بهذه المزية خسره بازدياد المطامع الدنيوية ويأس الرؤساء من الوف والنعمة على يديه ، واعتقاد الطامعين أنهم أقرب إلى بعض الأمل في لين عثمان وتقدير سنّته منهم إلى أمل من الآمال في شدة الامام وعسر حسابه ..

وبقيت الجفوة بينه وبين قريش على حالها ، لم يكفلها تقادم العهد كما قال ابن أبي الحديد ..

وعلى هذه الجفوة في القبيلة كلها ، دخلت في الأمر دخلة البواث

الشخصية التي لا يسلم منها عمل من أعمال بني الإنسان في زمن من الأزمان .. فقد اجتمع رهط الشورى الذين ندبهم الفاروق لاختيار الخليفة من بعده ، فتقدم بينهم عبد الرحمن بن عوف فخلع نفسه من الأمر كله ليتاح له أن يستشير الناس باسمهم ويعلن البيعة على عهدهم . وقيل انه أنس مع الزبير وسعد بن أبي وقاص ميلاً موقوتاً إلى علىٰ وانحرافاً موقوتاً عن عثمان ، فسارع إلى المنبر وبأيام عثمان وجراه الحاضرون مخافة الفتنة والشقاوة ..

وكان عبد الرحمن بن عوف صهراً لعثمان ، لأنه زوج أخته لأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط

\* \* \*

ويقضي الحق أن يقال في هذا المقام إن بيعة عثمان قد تمت باتفاق بين المسلمين لم ينقضه خلاف معدود ، فليست كلمة عبد الرحمن بن عوف هي التي خذلت علياً وقدمت عثمان عليه ، اذ لو كانت هناك مغایبة شديدة بين حزبين متكافئين لما استقامت البيعة لعثمان بكلمة من عبد الرحمن بن عوف .. وهو وأحد من خمسة أو ستة اذا أشركنا معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ..

ثم بويح الإمام بعد مقتل عثمان ، فهل تحولت قريش عن جفوتها ، أو نظرت إلى السياسة الهاشمية نظرة غير نظرتها ؟

كلا ..

بل جاءت البيعة في المدينة ، يوم خفت فيها صوت قريش ، وهبطت سمعة حكامها ، ويوم أصبحت البيعة ثورة على قريش ، تنكر عليها الاثرة بالملك والاثرة بالفنائيم والأ懋صال .. ويوم اقسم المجتمع الإسلامي قسميه اللذين التبسا وتدخلاً حيناً حتى فصلتهما الحوادث فصلها الخامس في خلافة عثمان : قسم يزيد الرجمة إلى الخلافة والأداب النبوية ، وقسم يزيد المضي في الملك والدولة الدينية ..

فأى القسمين ، كان قسم على " كائنا ما كان سعيه واجتهاده ؟ .. وأية سياسة كانت تعينه على مشكلة الخلافة منذ بدايتها بعد وفاة النبي الى خاتمتها الفاجع بعد مقتل عثمان ؟

كل سياسة له لم تكن تجيد به عن الخاتمة المحتومة أقل حميد

وكل ما كان من تدبير لحوادث أو من تدبيره ، فهو على هذا المتنقى الذي يتلاحق عنده الاسراع والابطاء ..

وعلى هذا يتبعى أن نرجع الى علة غير سياسة على " لتعليل العوائق التي قامت دون مبايعتها بالخلافة قبل الصديق والفاروق وعثمان .. فهو غير مسئول عن نظرة العصبية التى نظرت بها قريش الى السيادة الهاشمية ..

وهو غير مسئول عن سنته التى تأخرت به عن مشيخة الصحابة من ذوى السابقة في الجماد والزعامه والاصالة بين ذوى الأسنان والأخطار .. وهو غير مسئول عن الصفة العالمية التى جعلت تأسيس الاسلام على أسرة واحدة في العالم كله أمرا ملحوظا بالتوجس والاحجام منذ اللحظة الأولى ..

نعم قد يسأل الامام عن علاقته بالناس وقدرته على تألفهم بالأمال والجمالات ، ليأسوا اليه ويرفعوا حجاب الجفوة بينهم وبينه ، ويؤثروه على غيره بالخلافة ، أملا في بره واطئتنا الى حفاوته ووده وقد يرد على بعض الخواطر ، ان سياسة الدولة الدينية أو سياسة الارضاء بالمنافع والوعود ، كانت أجدى عليه من آداب الخلافة الدينية وأخلق بتمكينه أولا وأخرا بين قريش وقبائل العرب عامة ..

فهذا في رأيهما مأخذ يرجع الى شخصه وأعماله ، ويسأل عنه كما يسأل الانسان عن عمله وتصريف اراداته وفكره . ولا يجوز أن نرجع به الى حكم لحوادث القاهرة ، وسلطان المصادفات التي لا قبل له بتبدلها ولكن الواقع ان هذه السياسة - سياسة المنافع الدينية - لم تكن لتجديه شيئا بعد وفاة النبي ، ولا بعد مقتل عثمان ..

فبعد النبي عليه السلام ، لم تكن ذخائر الفتوح قد استفاضت في الأيدي وأنشأت في المجتمع الإسلامي طبقة مسموعة الصوت تعرص عليها وتستزيدها ..

فالذى يناضل في سبيل الحكم بسلاح هذه المنافع ، إنما كان يناضل بسلاح غير موجود .. بل كان يناضل سلاحاً ماضياً ينهزم أمامه لا محالة وهو سلاح الحماسة الدينية التي غلت في ضرباتها الأولى كل سلاح

أما بعد مقتل عثمان ، فأبعد الأمور عن التخييل أن يغلب على معاوية في سوق المنافع الدينية ، لأن معاوية قد أحب لها أهبيه قبل عشرين سنة ، وجمع لها أنصاره وكتز لها كتوزه في بلاد وادعة بين جند مطیع ولو توافرت لعله مادة هذه السياسة ، لما توافر له أعوانها والمساعدون عليها .. فليس أقل تفاصيلاً في هذا المضمار من أعوانه الذين ثاروا على سياسة المنافع وباءوا من أجلها بدم خليفة ، واجتمعوا على التمرد قاصدين أو غير قاصدين .. فلا يديرون أنفسهم إلى نهج كنهج معاوية ولو أرادوه وأغلبظن أن علياً كان يخسر بهذه السياسة أولئك الذين أحبوه ، ولا يربح بها أولئك الذين أبغضوه ..

فقد حببته آداب الخلافة إلى كل طبقة تكره استغلال الحكم ، ولا مطعم لها فيه .. فكل بلاد خلت من عصبة المرشحين للحكم ، فقد كانت من جزءه وشييعته بغير استثناء ، فكان من حزبه شعب اليمن ومصر وفارس والراق ، ونشأت في اليمن – وقد عهدت حكمه قليلاً – تلك الطائفة السبئية التي غلت في جهه حتى ارتفعت به إلى مرتبة التقديس ، وانتشرت في مصر وفارس بدور تلك الشيعة الفاطمية والإمامية التي ظلت كامنة في تربتها حتى أخرجت شطاؤها بعد أجيال ، وشنت الشام لأنها كانت في يد معاوية ، وشنئت أطراف من العراق أول الأمر لأنها كانت في يد طلحه والزبير ، ولم يشذ عن هذه القاعدة بلد من البلدان الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها .. فلو لا أن سواد الناس لا يعلمون بغير عصبة من القادة ، وان العصب من القادة كانوا كلما وجدوا في بقعة من

البقاع وجد معهم النفع والاستغلال . لقد كانت محبة أولئك السواد  
أتفع له من عصب معاوية أجمعين ..

فأغلب الظن - كما أسلفنا - إن علياً كان يخسر هؤلاء باتباعه  
سياسة الدولة الدينية ؛ ولا يكسب العصب التي ناصبه العداء ،  
وأيقنت أنه حائل بينها وبين ما طمحت اليه من الصولة والثراء ..

وهذا على تقدير المقدرين ان علياً يؤخذ لاجتنابه هذه السياسة ،  
وانه لو اتبعها لكانت أجدى عليه ..

وليست هي أجدى عليه لو اتبعها ، ولا هو على اجتنابها علوم ..

وتفضي بنا هذه التقديرات جميعاً الى نتيجة واضحة للخصها في  
كلمات وجزة ، ونعتقد أنها أعدل الأقوال في وصف تلك السياسة التي  
كثرت فيها مطارات النقد والدفاع ..

فسياسة عليٌ لم تورطه في غلطات كان يسهل عليه اجتنابها باتباع  
سياسة أخرى ..

وهي كذلك لم تبلغه مآرب مستعصية ، كان يعز عليه بلوغها في  
موضعه الذي وضع فيه وعلى سيراه الذي جرى عليه ..

فليست هي علة فشل متزع ، ولا علة نجاح متزع ، أو هي لا  
 تستدعي الفشل من حيث لم يخلق ، ولا تستدعي النجاح من حيث لم  
يسلس له قياد ..

ورأينا في سياسته فهما وعلماً ، ولكننا لم نر فيها الحيلة العملية التي  
هي الى الغريرة أقرب منها الى الذكاء ..

فكان نعم الخليفة ، لو صادف أوان الخلافة ..

وكان نعم الملك لو جاء بعد توطيد الملك واستغناه عن المساومة  
والاسراف ..

ولكنه لم يأت في أوان خلافة ولا في أوان ملك موطن ، فحصل  
أباء التقىضين ، وأخفق حيث ينبغي أن يتحقق أو حيث يعيشه أن ينجح ..  
وذلك آية الشهيد ..

## حُكُومَتُهُ

كانت الدولة الاسلامية الناشئة على شفا الخطر في ابان الفتنة الداخلية بين علي و معاوية .. ولكنها وقفت منه لأن عوامل الامان الذي يحيط بها كانت أقوى من عوامل الخطر الذي يهددها .. وتتلخص عوامل الامان في وقائين اثنين :

أحد هما ، ان الاسلام كان دعوة طبيعية تلقاها العالم وهو مستعد لها متاريخ اليها ، فرسخت دعائه وامتنعت حدوده بعد آعوام قليلة من ظهوره ، وسكن اليه الناس مؤمنين بذوام ظنه وشمول عدله ، سواء منهم من دخل فيه ومن أوى الى حكمه وهو باق على اعتقاده ..

وثانيهما ، ان أعداء الاسلام كانوا في شاغل عنهم بما أصابهم من الوهن وأحدق بهم من المخاوف ، وربما صر في الفتنة الاسلامية يومئذ ما يصبح في كثير من الطوارق التاريخية الكبرى ، وهي أنها لن تكون شرعا عصيا في جميع عواقبها ، ولا تخلو من الخير على غير قصد من ذويها .. فان هذه الفتنة قد أغرت أعداء الاسلام بالانتظار ، وأوقعت في روعهم انهم غنثون عن التحفز والوثوب الذي يشق عليهم جهده ، وهم في تلك المطالة من الجهد والاعياء .. ففكت دولته الروم بجهمات ضعيفة تلقاها معاوية بالجلد والاناء ، وألمني القوم عنه ببعض الأثارات والتوافال .. فتراجعوا متربصين الى أن يقضى الخلاف بين المسلمين قضاءه ، وهم وادعون مكفيون شر القتال .. فكان هذا الانتظار الخادع جانيا من جواب الخير في الفتنة الاسلامية التي فاضت يومئذ بالشرور

وعلى هذا اقضت أيام علىٰ ، وليس للحكومة الاسلامية سياسة خارجية ت hubs من سياسة الفتوح ، أو سياسة الدفاع ، أو سياسة المفاوضة والاستطلاع ..

وكل ما يدور الكلام عليه عن حكومة علىٰ ، فهو من قبيل سياسة الحكم بينه وبين رعاياه ، أو هو السياسة الداخلية كما نسميتها في العصر الحديث ..

\* \* \*

ومن اليسير أن نعرف سياسة الامام بينه وبين رعاياه ، بغير حاجة إلى الاطالة في التعريف وسرد الأمثال ..

لأنها سياسة الرجل الذي شاء القدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية في نضالها الأخير مع الدولة الدينية

فنجن تأخذ ما شئنا من طريقين متقابلين ، فإذا طريق علىٰ هي طريق الخلافة المنزهة ، حين تقابل الدولة الدينية مقابلة الخصم للخصم أو التقيض للتقيض ، أو هي أقرب الطريقين إلى المساواة وأدنها إلى رعاية الضعفاء .. فالناس في الحقوق سواء ..

لا محاباة لقوى ولا اجحاف بضعف ، وقد عمد إلى القطائع التي وزعت قبله على المقربين والرؤساء ، فاتتزعها من القابضين عليها وردها إلى مال المسلمين لتوزيعها بين من يستحقونها على سنته المساواة ، وقال : « والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء لرددته ، فان في العدل سعة .. ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق »  
وفرض الرفق بالرعاية على كل وال ، فلا ارهاق ولا استغلال ولو كانت الحكومة هي صاحبة الحق في المال

فمن وصاياه المكررة لولاته : « انصفوا الناس من أفسركم واصبروا لحوائجهم فانهم خزان الرعية .. ولا تحسسوا أحدا عن حاجته ولا

تجبوه عن طلبه ، ولا تبعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف .  
ولا دابة يتعلمون عليها ، ولا عبدا ، ولا تصرن أحدا سوطا لكان درهم » .

ومن وصاياه في تحصيل الخراج والصدقات : « .. امض اليهم بالسکينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسليم عليهم ، ولا تخدج بالتحية لهم ، ثم تقول : عباد الله . أرسلني إليكم ولی الله وخليفته لأخذ منكم حق الله في أموركم ، فهل الله في أموركم حق فتوذوه الى ولته ؟ .. فان قال قائل : لا ، فلا تراجعه .. وان أنعم لك منعم ، فانطلق معه من غير أن تخيفه وتتوعده أو تعصمه أو ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فان كان له ماشية أو ابل فلا تدخلها الا باذنه ، فان أكثرها له .. فاذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول مسلط عليه ولا عنف به .. ولا تفرن بهيمة ولا تفزعها ، ولا تسوء صاحبها فيها ، وأصدع المال صدعين ، ثم خيره ، فاذا اختار فلا تعرضن لما اختاره ، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء حق الله في ماله .. فاقبض حق الله منه ، فان استقالك فاقله .. »

وكان دستوره في تحصيل الضرائب المفروضة على الناس ، ان النظر في عماره الأرض أبلغ من النظر في استجلاب الضريبة ، فكان يكتب الى واليه : « تقد أمر الخراج بما يصلح أهله .. فان في صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم الا بهم .. لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله وليكن نظرك في عماره الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك الا بالعمارة ، ومن جلب الخراج بغير عماره أخرب البلاد وأهلك العياد ، ولم يستقم أمره الا قليلا ، وإنما يؤتى خراب الأرض من اعواز أهلهما ، وإنما يعوز أهلهما اسراف الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة اتفاقهم بالعبر .. »

اما دستوره في الولاة والعمال ، فخلاصته ما كتب به الى الأشتر النخعي يقول له : « انظر في أمور عمالك ، فاستعملهم اختبارا ولا تولهم محاباة واثرة .. فانهم جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياة من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الاسلام ، فانهم

أكثر أخلاقا وأصح اعراضا وأقل في المطامع اسرافا ، وأبلغ في عوائب الأمور نظرا .. ثم أسبغ عليهم الأرزاق ، فان ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو ثلموا أماتك ، ثم تفقد أعمالهم وابث العيون من أهل الصدق والعيون عليهم .. فان تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعاية »

وعلى هذه العناية باستطلاع أحوال الولاة والعمال ، كان ينهى أشد النهى عن كشف ملائكة الناس ، أو كما كان يقول في وصية ولاته : « ول يكن أبعد رعيتك منك وأشناهم عندك أطلبهم لملائكة الناس .. فان في الناس عيوبا ، والوالى أحق من سترها .. فلا تكشفن عما غاب عنك منها ، فاما عليك تطهير ما ظهر لك »

وكان ينهى عن بطانةسوء مع حثه على اتخاذ العيون والجواسيس ، فقال في وصيته لـ محمد بن أبي بكر : « لا تدخلن في مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ، ولا جيانا يضعفك عن الأمور ، ولا حريضا يزين لك الشره بالجور .. فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله .. ان شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرا ، ومن شركهم في الآثام فلا يكون لك بطانة ، فانهم أعواز الأئمة وآخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف ، منن له مثل آرائهم وتقاذفهم ... وليس عليه مثل آثارهم وأوزارهم » ..

ولم ينكر قط شيئا من سياسة التولية ، ثم صنع مثله في عهده ، على كثرة الاغراء حوله باصطدام التقى والمداراة والهودادة قليلا مع الأقرباء وذوى الأخطار ..

ومن زعم غير ذلك ، من ناقديه في عصره أو بعد عصره ، فاما هو آخذ في المقارنة بالأشكال والمحروف دون البواطن والغايات ..

اذ كان مما قيل مثلا ان علياً أقام عبد الله بن عباس على البصرة ، وعيid الله بن العباس على اليمين ، ومحمد بن أبي بكر ابن زوجته على

مصر .. وهم أقرباؤه وخاصة أهله ، فهو أذن يصنع ما أنكره على حكومة عثمان من ايات الأقرباء بالولايات واقصاء الآخرين عنها .. ولكنها كما قلنا مقارنة بالأشكال والمحروف دون المواطن والغایات ، لأن المقارنة الصحيحة بين العلين تسفر عن فارق بعيد كالفارق بين التقىض والنقيض ..

فبنو هاشم لم يكن لهم متسع لعمل أو ولادة في غير حكومة الامام ، ولم يكن للامام معتمد على غيرهم بعد آن حربته قريش ، وشاعت الفرقة والشغب بين أعوانه من أبناء الأنصار ..

وهم مع هذا لم يؤثروا بالولايات كلها ، ولم يؤثروا بالذى خصمون منها ليستغلوه ويجمعوا الثراء من غنائه وأرزاقه .. بل كانوا يحاسبون على ما في أيديهم أسر حساب ، وكانوا لتضييقه عليهم في المراقبة يتركون ولاياتهم ويستقلون منها ، كما فعل ابن عباس حين هجر البصرة الى مكة ..

وقد بلغ من حسابه للولاية انه كان يحاسبهم على حضور الولائم التى لا يجعل بهم حضورها .. فكتب الى عثمان بن حنيف الانصارى عامله على البصرة : « أما بعد يا ابن حنيف ، فقد بلغنى ان رجالا من فتية أهل البصرة دعاك الى مأدبة .. فأسرعت اليها تستطاب لك الألوان وتقلل اليك الجفان .. وما ظلتت انك تجib الى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو ، فانظر الى ما تقضمه من هذا المقدم .. فما اشتبه عليك علمه فالقطه وما أيقنت بطيب وجهه فتل منه »

واستكثر على شريح قاضيه أن يبني دارا بثمانين دينارا ، وهو يرزق خمسمائة درهم .. ومحاسب على أقل من هذا من هو أقل من شريح أمانة في القضاء وحرجا في الدين ..

فلو آن الامام اختص أقرباء بالولايات التي يحاسبون عليها هذا الحساب ، لما كان في المتخصصه ايهم مستبيح حق ولا مستبيح مال .. فكيف وهو لا يختصهم الا بالقليل منها ، ولا يختصهم ولو مندوحة

عنهم ، أو يختصهم وهم دون غيرهم في القدرة والأمانة ؟  
فالمقارنة هنا مقارنة أشكال وحروف ، وكل ما توحى إلى الناقد بها  
أنه يذكر الأقرباء هنا والأقرباء هناك ..  
وقد اقسمت طريق الخلافة ، وطريق الدولة الدينية في كل أمر من  
الأمور على عهد الإمام ولم تقسم في مسألة الولاية أو مسألة الاستعمال وكفى  
وأكبر ما يذكر من اقسام الطريقين في عهده قيام الفكرة العالمية الى  
جانب العصبية بالقبيلة أو بالوحدة الوطنية ..  
فالدولة الدينية تشد ازرها بالعصبية الجنسية ، والخلافة الدينية  
تشد ازرها بالأخاء بين الشعوب وبطلان الفوارق بين الأجناس ..  
وقد كانت القبيلة من أنصار الإمام ، تقاتل القبيلة من أنصار معاوية  
في سبيل الرأى والعقيدة ..  
وكان أنصار الإمام أبداً من الفرس والمغاربة والمصريين أكثر من  
أنصاره بين قريش خاصة ، وبين بنى هاشم على الأخص ، وبين قبائل  
العرب على التعميم ..  
وهذا الامتزاج بين الفكرة العالمية وبين إمامية على أو خلافته ، هو  
أقطع الأدلة على الوحدة بين أوانه وأوان الخلافة .. فاذا ذهب هذا  
وجب أن يذهب ذاك ، أيا كانت السياسة المتواحة ، وبالغاً ما بلغ نصيتها  
من السداد والصواب ..  
ولنا أن نعمم هذا الحكم الانساني في كل شأن من شؤون الحكومة ،  
قضى به على في عهده أو عهود الخلفاء من قبله ..  
فالروح الانساني هو قوام الحكومة الإمامية ، كما ينبغي أن يكون ،  
وهو قوامها كما كانت على يديه جهد الطاقة الادمية .. وهي طاقة لها  
ما لها من حدود ..  
جيء إلى عمر بن الخطاب بامرأة زانية يشتبه في حملها ، فاستقتى  
الإمام .. فأفتقى بوجوب البقاء عليها حتى تضع جنينها ، وقال له : « إن  
كان لك سلطان عليها ، فلا سلطان لك على ما في بطنها »

واترتع امرأة من أيدي الموكلين باقامة الحد عليها .. وسأله عمر فقال : « أما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يكبر ، وعن المبتلى حتى يعقل ؟ » قال : « بلى » قال : « فهذه مبتلاة بني فلان .. فعلمه أناها وهو بها » قال عمر : « لا أدرى » قال : « وأنا لا أدرى » فترك رجمها للشاك في عقلها ..

وأتى عمر بامرأة أجهدها العطش ، فمررت على راع فاستسقته .. فأبى أن يسقيها الا أن تكنته من نفسها .. ففعلت ، فشاور الناس في رجمها ، فقال على<sup>٢</sup> : « هذه مضطرة الى ذلك .. فخل<sup>٣</sup> سيلها »

وهذه أمثلة قليلة من أمثلة كثيرة في التفاصص وتفسيير الشريعة .. الا انه قد حاد عن هذه السنة في أمر واحد خالقه فيه بعض فقهاء عصره ، ومنهم ابن عمه عبد الله بن عباس

وذلك هو احراق الروافض الذين عبدوه ووصفوه بصفات الآلة ، وأبوا أن يتوبوا عن ضلالتهم مرة بعد مرة ، وقيل انهم أصرروا على عنادهم وهم يعرقون .. فانخذلوا من تعذيبه لهم بالنار دليلا على أنه هو الاله المعبد .. اذ لا يعذب بالنار الا الله

فيؤلاء المفسدون المفتونون ، قد استحقوا عقوبة الموت بقضاء الشريعة وقضاء الدولة التي لا يقوم لها نظام على هذه الضلاله .. ولكن الاحراق بالنار صرامة لا توجها ضرورة العقاب ، وليس في اجتنابها خطر على الشريعة ، ولا على النظام ..

اما شفيع الامام في هذه الصرامة انه كان هو المستهدف لتلك الضلاله ، وهو مظنة الريمة في الهوادة فيها .. فهو ينزعه عدله عن كل ظن حيث تظن بالهوادة جميع الظنوـن ، وقد أحرق الذين ألهـوه .. ونهى عن قتال المخوارج الذين حكموا بـكفره ، الا أن يفسدوا في الأرض أو يهدـوا بالعدوان على بـرئـه . وفي هذا الانصاف بين مؤلهـوه ومـكـفرـيه شفاعة من تلك الصرامة في العـقـاب

وكان الامام يذكر أبدا في حكومته ان الحقوق العامة لها شأن لا ينسى مع حقوق الأفراد ..

ومن ذلك ما نقله الطبرى عن بعض الأسانيد ، حيث قال : « رأيت عليه السلام خارجا من همدان ، فرأى قتيلين يقتتلان فرق بينهما .. ثم مضى فسمع صوتا : ياغوثر بالله فخرج يحضر نحوه حتى سمعت خرق نعله ، وهو يقول : « أتاك الغوث .. » فإذا رجل يلازم رجلا ، فقال : « يا أمير المؤمنين .. بعثت هذا ثوبا بتسعة دراهم وشرطت عليه ألا يعطيوني مغنوza ولا مقطوعa ، فأتيته بهذه الدرة ليبدلها لي فأبى فلزمته فلطمni » فقال : « ابدلها » ثم قال : « بينتك على اللطمة » فأقام بالبيضة .. قال : « دونك فاقتص » قال : « انى قد عفوت يا أمير المؤمنين » قال : « انا أردت أن أحاطط في حقك » .. ثم ضرب الرجل تسعة درات ، وقال : « هذا حق السلطان »

وكان يكرر هذا الحكم في كل ما شابهه من أمثال هذا العدوان ، وهو أشبه المذاهب بذهب الحكومات العصرية في القصاص ويقال الكثير عن مناهج الامام في الحكومة وسياسة الرعية مما يعني فيه هذا الاجمال عن التوسيع في التفصيل ..

ولكن الذى لا ينسى في سياق الكلام عن الامامة والدعوة العالمية ، انه رضى الله عنه كان أول من خرج بالعاصمة من المدينة الى أرض غير أرض الحجاز ، وهو الحجازى سليل الحجازيين ..

وقد اختار الكوفة ، فكانت أوفى عاصمة للامامة العالمية في تلك المرحلة من مراحل الدولة الاسلامية ..

لأنها كانت ملتقى الشعوب من جميع الأجناس ، وكانت مشابة التجارة بين الهند وفارس واليمن وال伊拉克 والشام ، وكانت العاصمة الثقافية التي ترعرعت فيها مدارس الكتابة واللغة القراءات والأنساب والأفانين الشعرية والروايات .. فهي أليق العواصم في ذلك العصر بحكومة امام ، وما زالت الامامة لاحقة بعلى ومحيطة به حيث تحول وحيث أقام ..

## البَيْهِيُّ وَالإِمَامُ وَالصَّحَابَةُ

أحاديث النبي عليه السلام في فضل علىٰ ومحبته متواترة في كتب الحديث المشهورة .. منها ما انفرد به ، وهو حديث الخيمة الذي رواه الصديق رضى الله عنه حيث قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خيم خيمة ، وهو متوكئ على قوس عريضة ، وفي الخيمة على وفاطمة والحسن والحسين ، فقال : مبشر المسلمين .. أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة ، حرب لمن حاربهم ، ولنى لمن والاهم ، لا يحبهم الا سعيد الجد طيب المولد ، ولا يبغضهم الا شقى الجد ردى الولادة » ومنها ما اشترك فيه وغيره ، وهو الذى روتة السيدة عائشة حيث سئلت : « أى الناس أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .. قالت : فاطمة ! .. فقيل : من الرجال ؟ .. قالت : زوجها .. إن كان ما علمت صواما قواما »

وقد روی حديث في هذا المعنى ، حيث سئل رسول الله عن أحب الناس اليه ، فقال : « من النساء عائشة ، ومن الرجال أبوها » ولا تناقض بين الحديثين ، اذ كانت السيدة عائشة هي التي تروي الحديث الأول ، وتخرج من كلامها كما يخرج المتكلم من عموم كلامه ، أو كانت تروي عن أقرباء النبي من لحمه ودمه ، فتقول ما تعلم عن غيرها وهذا نموذجان من الأحاديث النبوية في فضل علىٰ ومحبته ومتزنته عند الله ونبيه ، وهي تعد بالعشرات وأصحاب المذاهب يختلفون في تأويل هذه الأحاديث ، وفي آسانيدها ، ويوجهونها حيث اتجهوا من التشيع للإمام أو التشيع عليه .. وهو شرح طويل لا يهمنا منه هنا أن تصر فيه فريقا على فريق ، أو نرجح مذهبيا

على مذهب .. اذ ليس فهم الامام موقوفا على تغليب أى الفريقين وتعزز أى المذهبين ، وفهم الامام على حقيقته النفسية والتاريخية هو كل ما تعنيه ..

فيهما يختلف الرواة في تأويل الأحاديث ، فالذى يسعك أن تجزم به من وراء اختلافهم ، ان علياً كان من أحب الناس إلى النبي ، ان لم يكن أحبهم إليه على الأطلاق ..

لقد كان النبي عليه السلام ينفر بالحب كل من أحاط به من الغرباء والأقربين .. فأى عجب أى ، يخص بالحب من بينهم إنسانا ، كان ابن عمه الذى كفله وحماه ، وكان ربيه الذى أوشك أن يتباشه ، وكان زوج ابنته العزيزة عنده ، وكان بديله في الفراش ليلة الهجرة التي هم المشركون فيها بقتل من يبيت في فراشه . وكان نصيره الذى أبلى أحسن البلاء في جميع غزواته ، وتلميذه الذى علم من فقه الدين ما لم يعلمه ناشئ في سنته ؟ ..

حب النبي لهذا الإنسان حقيقة لا حاجة بها إلى تأويل الرواة ولا إلى تفسير النصوص ، لأنها حقيقة طبيعية ، أو حقيقة بدائية قائمة من وراء كل خلاف ..

ومما لا خلاف فيه كذلك ، انه عليه السلام كان لا يكتفى بحبه أيام .. بل كان يسره ويرضيه أن يحبه إلى الناس ، وكان يسوؤه ويفضله أن يسمع من يكرهه ويجهوه ..

بعث رسول الله علياً في سرية ليقبض الخمس ، فاصططفى منه سبية ، واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك إلى رسول الله . وكان المسلمون اذا قدموا من سفر بدعوا بالرسول ، فسلموا عليه وأبلغوه ما عندهم ، ثم انصرفوا إلى رحالهم.. فقام أحد الأربعة وحدث الرسول بما رأى فأعرض عنه ، وظن أصحابه أنه لم يسمعه .. فتناوبوا الحديث واحدا بعد واحد في معنى كلامه . فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه فقال : « ما تريدون من على؟ .. ما تريدون

من على؟ .. ما تريدون من على؟ .. على مني وأنا منه وهو ولی كل  
مؤمن بعدي» وقال لأحدهم في روايات أخرى : «أتبعض علياً؟» قال :  
«نعم !» قال : «لا تبغضه ، فان له في الحسن أكثر من ذلك ، أى أكثر  
من السيبة التي اصطفها .. لا تبغضه ، وان كنت تحبه فازداد له حبا »

\*\*\*

وبعث رسول الله عليه الى اليمن ، فسألة جماعة من أتباعه أن يركبهم  
ابل الصدقة ليريحوا ابلهم ، فأبى.. فشكوه الى رسول الله بعد رجوعهم .  
وتولى شكایته سعد بن مالك بن الشهيد ، فقال : «يا رسول الله ..  
لقينا من على من الغلظة وسوء الصحبة والتضيق ..» ومضى يعدد  
ما لقيه ، حتى اذا كان في وسط كلامه ضرب رسول الله على فخدنه ،  
و هتف به : «يا سعد بن مالك بن الشهيد ، بعض قولك لأخيك على؟  
فوالله لقد علمت انه جيش في سبيل الله »

وشكا بعض الناس مثل هذه الشكوى ، فقام رسول الله فيهم خطيبا  
يقول لهم : «أيها الناس .. لا تشکوا علياً ، فوالله انه جيش في  
ذات الله » ..

ويلوح لنا أن النبي عليه السلام كان يحب علياً ويحبه الى الناس ،  
ليمهد له سبيل الخلافة في وقت من الأوقات ، ولكن على أن يختاره  
الناس طواعية وحبا .. لا أن يكون اختياره من حقوق العصبية  
الهاشمية ، فإنه عليه السلام قد اتقى هذه العصبية جهد اتقائه ، ولم  
يحدّر خطرا على الدين أشد من حذر أن يحسبها الناس سبيلا الى  
الملك والدولة في بنى هاشم ، وقد حرم نفسه الشرفة حظوظ الدنيا  
وأقصى معظم بنى هاشم عن الولاية والعمالة لينفي هذه الظاهرة .. ويدع  
الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأي والمشيئة ..  
فالترم في التمهيد لعلى وسائل ملموحة لا تتعذر التدريب والكتفالة  
إلى التقديم والوكالة ، أرسله في سرية إلى فدك لغزو قبيلة بنى سعد  
اليهودية ، وأرسله الى اليمن للدعوة الى الاسلام ، وأرسله الى مني

ليقرأ على الناس سورة براءة ، ويبين لهم حكم الدين في حج المشركين  
وزيارة بيت الله ، وأقامه على المدينة حين خرج المسلمين إلى غزوة  
تبوك .. ولم يفته مع هذا كله أن يلمح الجفوة بينه وبين الناس ، وأن  
يكله إلى السن تعاملها مع الأيام ، ويكلهم في شأنه إلى ما ارتفعوه ،  
عسى أن تنسح الفرصة لمزيد من الألفة بينهم وبينه ..  
هذه فيما نعتقد أصح علاقة يتخللها العقل ، وتتبين عنها الحوادث  
بين النبي وابن عمه العظيم ..

\*\*\*

وربما كانت أصح العلاقات المعقولة لأنها هي وحدتها العلاقة المكننة  
المأومة ، وكل ما عدتها فهو بعيد من الامكان بعده من الأمان  
 فهو يحبه ويهد له وينظر إلى غده ، ويسره أن يحبه الناس كما  
أحبه ، وأن يحبين الحين الذي يكلون فيه أمرورهم إليه ..  
وكل ما عدا ذلك ، فليس بالمكان وليس بالمعقول ..  
ليس بالمكان أن يكره له التقديم والكرامة ..  
وليس بالمكان أن يحبهما له ، وينسى في سبيل هذا الحب حكمته  
الصالحة للدين والخلافة ..

وإذا كان قد رأى الحكم في استخلافه ، فليس بالمكان أن يرى ذلك  
ثم لا يجهر به في مرض الوفاة أو بعد حجة الوداع ..  
وإذا كان قد جهر به ، فليس بالمكان أن يتائب أصحابه على كسان  
وصيته وعصيان أمره . إنهم لا يريدون ذلك مخلصين ، وإنهم إن أرادوا  
لا يستطيعونه بين جماعة المسلمين ، وإنهم إن استطاعوه لا يخفى شأنه  
ببرهان مبين ، ولو بعد حين ..  
فكل أولئك ليس بالمكان ، وليس بالمعقول ..  
وانما المكن والمقول هو الذي كان ، وهو الحب والإيثار ، والتهديد  
لآوانه ، حتى يقبله المسلمون ويتهموا له الزمان  
أما العلاقة بين على وسائل الصحابة من الخلافة وغير الخلفاء ، فهي

علاقة الرمالة المرعية والتنافس الذى يشوب الى الصبر والتجلمل والتقيه..  
فليس فيما لدينا من الأخبار واللاماح ما يدل على ألفة حميمة بينه  
وين أحد من الصحابة المشهورين ، وليس فيها كذلك ما يدل على عداوة  
وبغضاء .. بل ليس في أخباره جميعاً ما يدل على طبيعة تحقد على  
الناس ، وان دلت أحياناً على طبيعة يحقد الناس عليها ويفرطون

فمن المعلوم أن علياً كان يرى انه أحق بالخلافة من سابقيه ، وانه  
لم يزل مدفوعاً عن حقه هذا منذ انتقل النبي عليه السلام الى الرفيق  
الأعلى . واحتاج المهاجرون على الأنصار في أمر الخلافة بالقرابة منه  
صلوات الله عليه . قال : « ولما احتاج المهاجرون على الأنصار يوم  
السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فلجموا <sup>(١)</sup> عليهم .. فان يكن  
الفوج به فالحق لنا دونكم ، وان بغireه فالأنصار على دعواهم »  
كذلك كان رأيه في الخلافة يوم بوييع بها الصديق ، ثم بوييع بها  
الفاروق ، ثم بوييع بها عثمان ..

وجاءت قضية الارث بعد قضية الخلافة في أوائل عهد الصديق ،  
فاعدت الفرجة بين القلوب ، وأطالت العزلة بين الأصحاب .. وخلاصة  
هذه القضية ، ان فاطمة والبناس رضي الله عنهم طلبوا ميراثهما في أرض  
فدرك وسهم خير ، فذكر لهما الصديق حديث النبي عن ارث الأنبياء ،  
ونصه في روایته : « نحن معاشر الأنبياء ، لا نورث .. ما تركناه فهو  
صدقه .. إنما يأكل آل محمد من هذا المال »

فضضبت فاطمة ، ولم تكلمه حتى ماتت .. ودفنتها على ليل ، ولم يؤذن  
بها أباً بكر .. وقيل ان علياً تخلف عن اليمعة ستة أشهر الى ما بعد  
وفاتها . ثم أرسل الى أبي بكر أن اتنا ولا يأتنا معك أحد .. وتلقاه  
وعنده بنو هاشم ، فقال : « انه لم يعننا من أن نباعيك يا أباً بكر  
انكار لفضيلتك . ولا تقasse عليك بغير ساقه الله اليك ، ولكننا كنا  
نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددم به علينا »

<sup>(١)</sup> فلجموا : اي انتصروا عليهم ..

ومع هذا اليقين الراسخ عنده في حقه وحق غيره ، نرجع إلى سيرته وأحاديثه .. فترى ولا ريب أنها أقل ما تشعر به النفس الإنسانية في هذه الحالة من النفرة والنفقة ، ولا نجد في خطبه ومساجلاته التي ذكر فيها الخلفاء السابقين كلمة تستغرب من مثله ، أو يتجاوز بها حد الحجة التي تنهض بحقه .. بل الغريب أنه لزم هذا المد ولم يجاوزه إلى جمحة غضب تفلت معها بوادر اللسان ، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق من لائمه..!

\*\*\*

وقد أعاد أسلافه الثلاثة برأيه وعمله ، وحاملاهم مجاملة الكريم بسلوكه ومقاله . ولم يدر منه قط ما ينم على كراهية وضعف مكتوم .. ولكنـه كان يألف أن يذكر هذه الكراهيـة إذا رمى بها كما يألف العزيـز الـكـريم . وفي ذلك يقول من خطاب إلى معاوية : « ذكرت ابطائـي عن الخـلفـاء وحسـدـي إـيـاهـمـ وـالـبغـيـ عـلـيـهـمـ ، فـأـمـاـ الـبغـيـ فـعـادـ اللهـ أـنـ يـكـونـ ، وـأـمـاـ الـكـراـهـيـةـ لـهـمـ فـوـالـلهـ مـاـ أـعـذـرـ لـلـنـاسـ مـنـ ذـلـكـ »

وأولى أن يقال إن دلائل وفائه في حياتهم ، وبعد ذهابهم ، كانت أظهرـهـ من دلائلـ جـفـائـهـ . فإـنـهـ اـحـقـنـ اـبـنـ أـبـيـ بـكـرـ مـحـمـدـاـ وـكـفـلـهـ بـالـرـعـاـيـةـ وـرـشـحـهـ للـلوـلـيـةـ ، حـتـىـ حـسـبـ عـلـيـهـ وـانـطـلـقـتـ الـأـلـسـنـةـ بـاتـقـادـهـ مـنـ أـجـلـهـ ، وـقـدـ سـمـيـ ثـلـاثـةـ مـنـ أـبـنـائـهـ بـأـسـمـاءـ الـخـلـفـاءـ الـذـيـنـ سـبـقـوـهـ ، وـهـمـ : أـبـوـ بـكـرـ ، وـعـبـرـ ، وـعـثـمـانـ ..

ويختـلـيـ بـجـدـاـ مـنـ يـتـخـذـ فـتوـاهـ فـيـ مـقـتـلـ الـهـرـمـانـ دـلـيـلـاـ عـلـىـ كـراـهـيـتـهـ لـعـمرـ أـوـ تـقـمـةـ مـنـهـ فـيـ أـبـنـائـهـ .. فـقـدـ أـسـرـعـ عـيـدـ اللـهـ بـنـ عـمـ الـهـرـمـانـ ، فـقـتـلـهـ اـنـتـقـامـاـ لـأـيـهـ ، وـلـمـ يـتـنـظـرـ حـكـمـ وـلـىـ الـأـمـرـ فـيـهـ وـلـاـ أـنـ تـقـومـ الـبـيـنةـ الـقـاطـعـةـ عـلـيـهـ . فـلـمـ اـسـتـقـىـ فـيـ هـذـهـ الـقـضـيـةـ أـفـتـىـ بـالـقـصـاصـ مـنـهـ ، وـلـمـ يـغـيـرـ رـأـيـهـ حـيـنـ تـغـيـرـ رـأـيـ عـشـمـانـ ، فـأـعـفـاهـ مـنـ جـرـيـةـ عـمـلـهـ .. لـأـنـهـ هوـ الرـأـيـ الـذـيـ اـسـمـدـهـ مـنـ حـكـمـ الشـرـعـةـ كـمـاـ اـعـتـقـدـهـ وـتـحرـاهـ ، وـبـهـذـاـ الرـأـيـ دـانـ قـاتـلـهـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ مـلـجمـ ، فـأـوـصـىـ وـكـرـرـ الـوـصـاـيـةـ أـلـاـ يـقـتـلـوـ أـحـدـاـ غـيـرـهـ لـمـظـنـةـ الـشـارـكـةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ رـفـقـائـهـ فـيـ التـآـمـرـ عـلـيـهـ

وانك لن تجد انساناً أعرف بالعهد ، ولا أصون له من يتذكرة في  
حومة الحرب ، ويرى ان التذكرة به يتزع السلاح من الأيدي ، ويعد  
بالخصمين المتاجزين الى الصفاء والأخاء ..  
فما حارب على<sup>٢</sup> عدوا له سابقة مودة به الا أن يذكره بتلك السابقة ،  
ويستجده بالصدقة الأولى فيه على العداوة الحاضرة ..  
ومن ذلك موقعه مع الزبير وطلحة في وقعة الجمل ، وهما ملحان في  
حربه وانكار بيته ..  
فخرج حاسرا لا يحتسي بدرع ولا سلاح ، ونادى :

يا زبير ، اخرج الى<sup>٣</sup> .. فخرج اليه شاكا في السلاح ، وسمعت  
السيدة عائشة فصاحت : وا حرباه ! .. اذ كان خصم على<sup>٤</sup> مقضيا عليه  
بالموت كائنا ما كان حظه من الشجاعة والخبرة بالنصال  
فلما تقابل على<sup>٥</sup> والزبير اعتقا ، وعاد على يسأله : « ويحك يا زبير  
ما الذي أخرجتك ؟ .. »

قال : « دم عثمان »

قال : « قتل الله أولاًنا بدم عثمان »  
وجعل يذكره عهوده وعهود رسول الله ، ومنها مقالة النبي : « والله  
ستقاتله وأنت له ظالم »  
فاستغفر الزبير وقال : « لو ذكرتها ما خرجت »

\*\*\*

ولما وقف على<sup>٦</sup> على جثة طلحة بكى أحر بقاء ، وجعل يمسح التراب  
عن وجهه وهو يقول : « عزيز على<sup>٧</sup> أن أراك أباً محمد مجنداً تحت نجوم  
السماء » وتعني لو قبضه الله قبل هذا اليوم بعشرين سنة ..  
والمودة عند فارس كعلى<sup>٨</sup> عهد محفوظ وموثق مذكور ، ان فاتها ان  
تكون حنان قلب أو ألفة شعور  
ويخيل اليها انه لم يرزق قط صدقة الالفاء الذين يرعاهم ويرعونه  
لأنه يحبه ويحبونه ، ولكنه عامل الناس وعاملوه على ستة العهود ودين

الفروسيّة ، فلم تزل بينه وبينهم لباعة الى سلاح مغمد أو سلاح مشهور  
ومثل على لا يرزق صدقة الالقاء ، لأنّه من أصحاب المزايا التي  
تغري بالمنافسة أو بالحسد ولا تحبّها المنافع ولا المساعدة والمداراة  
 فهو شجاع ، عالم ، بلين ، ذكي ، موصول النسب بأعرق الارومات ..  
فإن لم يحصد هذا ، فمن يحصد ..  
وان حسد ، فما الذي يفل من غرب حاسديه ؟ .. وما الذي يفه  
بهم الى القصد في عدائه والتأليب عليه ؟ ..

\*\*\*

انهم يستبعدون يومه في الامارة والسلطان ، وإذا استقربوا يومه في  
الامارة والسلطان فلا مطعم لهم في النفع على يديه وهو قوام بالقسط  
على الأموال والحقوق ، فتصيّه اذن منهم نصيب المحسود الذي لا رجاء  
له في هؤادة من حاسديه ، وليس أحقد من الناس على صاحب عظمة لم  
يطمعوا في نفعه ولم يزالوا على طمع في النفع من خصومه ، وبليته بهم  
أكبر وأدهى حين لا يصطنع الدهان ولا يعمد معهم الى الحتل والروغان ..  
وعلى انه لو داهنهم وراوغمهم لما اغتروا له ذنب العظمة التي لا تحبّها  
حماية من طمع أو نكایة ، أو كما قال الحكيم الغربي : « ان نسى انه  
أسد لم يتّسوا أنهم كلاب »  
وهكذا فرضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغربية في ديارها  
وبيـن آلـها وأنصـارـها ..

فالعلاقة بينه وبين كرام الصحابة ، كانت علاقة الزمالـة التي ينوب  
فيها الواجب مناب الالفة ..  
والعلاقة بينه وبين الخصوم ، كانت علاقة حسد غير مكفوف ، وبغض  
غير مكتوم ..  
والعلاقة بينه وبين سواد العامة ، كانت علاقة غرباء يجهلونه ولا  
ينقدون الى لبابه ، وإن قاربه اناس معجبين ، وباعده اناس نافرين ..  
وذلك أيضا آية الشهيد ..

## نَفَافِهِ

السنة الخلق أقلام الحق ..  
كلمة سائفة ليس أصدق منها إذ صدق ، وهي صدق في كثير من  
الأحيان ..

ونحن نعلم صدقها الأصيل حين نسمع الكلمة من هذه الكلمات التي  
ينقلها لسان عن لسان ويتلقاها جيل عن جيل ، فيخيل اليها انها خاطر  
عاشر يسمع ويستلمح ويشفع له القدم .. فنقبله كرامته له كما نقبل الشين  
والث أحياناً من وقار المشيب ، ولكنه بعد كل هذا لا يثبت على النقد  
ولا يصبر على مراجعة العلم والقياس ، ثم نعرضه اتفاقاً على العلم  
والقياس .. فإذا به قد احتمل من النقد العسير، ما ليست تحتمله آراء  
العلماء وقضايا الحكماء ، وإذا بالخطأ في هذه القولة الشائعة أو في هذا

اللقب المرتجل أقل من كل خطأ يحصل على كلام مخلوق ..  
من هذه الألقاب الشائعة ، لقب الامام الذي اختص به على " بين جميع  
الخلفاء الراشدين ، والذى يطلق اذا أطلق فلا ينصرف الى أحد غيره ،  
بين جميع الأئمة الذين وسموا بهذه السنة من سابقيه ولاحقيه ..

ولم وليس هو بفرد في الامامة بجملة معانيها ؟ ..  
ألم يكن الصديق اماماً كعلى ؟ .. ألم يكن الفاروق اماماً كعلى ؟ ..  
ألم يكن عثمان اماماً كعلى ؟ .. ألم يكونوا خلفاء راشدين اذا قصدت  
خلافة الراشدة بعد النبوة ؟ ..  
بلى كانوا أئمة مثله ، وسبقوه في الامامة ..

ولكن الامامة يومئذ كانت وحدها في ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك ، ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الامامة ليناضل به علم الدولة الدينية ، ولا أذ يتحيز بمسكر يقابلها عسكر ، وصفة تناوئها صفة ، ولا أذ يصبح رمزا للخلافة يقترن بها ولا يقترن بشيء غيرها .. فكلهم امام حيث لا اشتباه ولا التباس ، ولكن الامام بغير تعقيب ولا تذليل هو الامام كلما وقع الاشتباه والالتباس ..

وذلك هو على: بن أبي طالب ، كما لقبه الناس وجرب لقبه على الآلسنة .. فرقه به الطفل وهو يسمع أماديه المنغومة في الطرقات ، بغير حاجة الى تسمية أو تعريف ..

\* \* \*

وخاصية أخرى من خواص الامامة ، ينفرد بها على: ولا يجاريه فيها امام غيره ، وهي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الاسلامية منذ وجدت في صدر الاسلام ، فهو منشىء هذه الفرق أو قطبها الذي تدور عليه . وندرت فرقه في الاسلام لم يكن على: معلما لها منذ نشأتها ، أو لم يكن موضوعا لها ومحورا لباحثها ، تقول فيه وترد على قائلين وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشريعة ، وعلماء الأدب والبلاغة .. فهو أستاذ هؤلاء جميعا بالسند الموصول ..

أما الفرق التي جعلته موضوعا لها ومحورا لباحثها ، فحسبك أن تذكر الخوارج والروافض والشيعة والناسرين وأهل السنة ، فتكون قد ذكرت جميع الفرق الاسلامية بلا استثناء أو باستثناء جد يسير وهذا تشتبك الفروع وتتأشب الأفاني ، فترى الفرقة الواحدة مزبجا من التصوف والسياسة ، كالباطنية على اختلافها .. وقد تراهى بها الفروع حتى تصل الى القائلين بمذهب الباب أو مذهب البهاء ، وهم طرف مقطوع أو موصول ، من بعض تلك الأصول .. فالامام أحق لقب به ، وهو أحق الأئمة بلقب الامام ! ..

ولقد كانت له آية من آيات الشهداء في كثير من صفاته ، وكثير من معارض حياته ، وطوارئ أوقاته ..  
وكانت له في الإمامة آية أخرى من هذه الآيات ..  
فآية الشهداء أفهم يخسون حقهم في الحياة ، ثم يعطون فوق حقوقهم بعد الممات ..

أو هم يعرضون لنا عجائب الدنيا في اقبالها وادبارها ، كما قال الإمام رضي الله عنه : « انها اذا أدبرت عن انسان سلبته محسن نفسه ، و اذا أقبلت عليه أغارته محسن غيره »

وكذلك اتفق للإمام في صفة الإمامة ، كما اتفق له في معظم الصفات ..  
فقل : أن سمعنا بعلم من العلوم الإسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب إليه ، وقل : أن تحدث الناس بفضل لم ينحلوه إيه ، وقل : أن توجه الثناء بالعلم إلى أحد من الأوائل الا كانت له مساهمة فيه ..  
نحلوه ديوانا من الشعر فيه عشرات من القصائد ، وليس بينها إلا عشرات من الأبيات تصح نسبتها إليه ..

ونحلوه علما سموه علم « الجفر » وزعموا انه علم النجوم والازياح  
الذى يكشف عن حوادث الغيب الى آخر الزمان  
ونحلوه مقامات تخلو من أشیع الحروف في الكلمات وهو حرف  
الالف ، ولا يعقل أن تظهر أشباه هذه المقامات قبل عصر الصناعة في أيام العباسين وما تلاها ..

ونحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالا لم تعرف ، ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الاغريقية با لها من غرائب النحت والاشتقاق وبعض ما نحلوه يزيده قدرها ويرفعه شأنها ، الا تصح نسبته اليه !! ..  
وبعض ما بقى له غير مشكوك فيه ولا مختلف عليه .. كاف لتعظيم قدره واثبات امامته في عصره ، وبعد عصره  
وعندنا انه رضي الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه ، وكان قد له للشعراء تقد علیم بصیر ، یعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف

وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب ، ومن بصره بوجوه المقابلة  
يبيّن لهم انه سئل : « من أشعر الناس ؟ » قال : « ان القوم لم يجرروا في  
حلقة تعرف الغاية عند قصبتها .. فان كان ولا بد فملك الضليل »

وهذا فيما نعتقد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب «المدارس»  
والأغراض الشعرية بين العرب . فلا تكون المقابلة الا بين أشياء وأمثال  
ولا يكون التعميم بالفضيل الا على التغليب

لكنه رضى الله عنه لم يرزق ملكة الاجادة في شعره ، والنبي عليه  
السلام يرى ذلك حيث سأله أن يأذن لعله في هجاء المشركين فقال :  
« ليس بذلك » .. وأحالهم الى حسان بن ثابت ، وندب له من يصره  
بثاب القوم ..

وكل شعره الذي رجحت نسبته اليه من قبيل هذه الآيات التي  
وصف بها قيلة همدان في وقعة صفين :

ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا فوارسها حمر النحور دوام  
وأعرض قع في السماء كأنه عجاجة دجن ملبس بقتام  
ونادي ابن هند في الكلام وحيير وكثدة في لحم وحي جذام  
تيمنت همدان الذين هم هم  
فجاوبني من خيل همدان عصبة  
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها  
وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام  
فلو كنت رضوانا على باب جنة  
لقلت لهمدان : ادخلوا بسلام

أو من قبيل هذه الآيات :

محمد النبي أخي وصهرى وحمزة سيد الشهداء عمي  
وجعفر الذي يمسي ويضحي يطير مع الملائكة ابن أمى  
وبنت محمد سكنى وعرسى منوط لحمها بدمى ولحمى  
وسبطاً أَحْمَدَ ولدَى منها فَأَيْكُمْ لَهُ سَهْمٌ كَسْهِمِي

سبقتكم الى الاسلام طرا صغيرا ما بلفت لوان حلمي  
وصليت الصلاة و كنت فردا فمن ذا يدعى يوما كيومى  
وقد نظم شعرا ولا ريب ، كما يدل سؤالهم النبى عليه السلام أن  
يأذن له في هجاء من هجائهم ، ولم ينسب اليه شعر .. صح أو لم يصح ،  
أجود مما قدمناه . وليس فيه ما يسلكه بين المجددين من الشعراء ، أو  
يلحق بطبقته بين الكتاب والخطباء ..

\*\*\*

أما كتاب المفتر أو علم المفتر ، فالقول الفصل فيه أقرب من القول  
الفصل في جميع ما نحلوه وأضافوا إليه .. فمثل على في تقواه وفضله ،  
لا يستغل بعلم مزعوم هو السحر القديم بعيته ، وليس هو مما يليق  
ببورعه ولا ذكائه . وقد نهى وشدد النهى عن تعلم التحوم واستطلاع  
الغيب بامثال هذه العلوم ، ومن المحقق الذى لا خلجة فيه من الشك  
عندنا أن النبوءات التى جاءت في نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف  
وقتها الزنج وغارات التمار وما إليها ، هي من مدخل الكلام عليه ..  
ومما أضافه النساخ إلى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير  
أو طويل ..

ولا نجزم مثل هذا الجزم في أمر المقامات التي خلت من بعض  
المحروف ، لأن العقل لا يمنعها قطعا كما يمنع استطلاع الغيب الفصل من  
ازياح التحوم ، ولكننا نستبعد جدا أن تكون هذه المقامات من كلام  
الإمام لاختلاف الأسلوب واختلاف الزمن ، وحاجة النسبة هنا إلى  
سند أقوى من السند الميس لنا بكثير  
وكذلك نستبعد انه قال لكاتبه ليظهر علمه بغرب اللغة : « الصق  
روانفك بالجبوب وخذ المزبر بشنائرك واجعل خنورتيك الى قيملى  
حتى لا أتفى نفحة الا أودعتها بحاطة چلجلاتك »  
أى « الصق معدك بالأرض وخذ القلم بما بين أصابعك واجعل عينيك  
إلى وجهي حتى لا ألفظ بلحظة الا وعيتها في سواد قلبك »

فان الولع باظهار العلم بالغريب بدعة لم تعرف في صدر الاسلام ،  
ولم يلتفت الناس الى ادعائها إلا بعد استعجمان العرب وندرة العارفين .  
بفصيح العربية وغيرها على السواء

ومثل هذا ، ما نسبوه اليه حيث زعموا انه قال : « ماتر بعلبت قط »  
أى ما شربت اللبن يوم الأربعاء ، و « ما تسبت سكت قط » أى ما أكلت  
السمك يوم السبت « وما تسر ولقت قط » أى ما ليست السراويل  
قائما .. الى أشياء هذه المختارات التي تستغرب لفظا ومعنى واعتقادا  
من رجل كلاما في صدر الاسلام

\*\*\*

الا اتنا نسقطها جميعا ، فلا نسقط بها فضلا ترجح به موازين  
الامام في حساب الثقافة .. بل نحسبها فضلا — ان شئنا — ونسقطها  
فيقى له بعدها السهم الراجح في تلك الموازين ..  
تبقى له الهدایة الأولى في التوحيد الاسلامي ، والقضاء الاسلامي ،  
والفقه الاسلامي ، وعلم النحو العربي ، وفن الكتابة العربية .. مما  
يجوز لنا أن نسميه أساسا صالحا لموسوعة المعارف الاسلامية في جميع  
العصور ، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الاسلامية كلها في  
الصدر الأول من الاسلام ..

وتبقى له مع هذا فرائد الحكمة التي تسجل له في ثقافة الأمة  
الاسلامية ، على تبيان العصور ..

فهي كتاب نهج البلاغة ، فيض من آيات التوحيد والحكمة الالهية  
تسع به دراسة كل مشتغل بالعقائد وأصول التألهي وحكمة التوحيد  
وربما تشکك الباحث في نسبة بعضها الى الامام لغبته الصيغة الفلسفية  
عليها وامتزاجها بالآراء والمصطلحات التي اقتبست بعد ذلك من ترجمة  
الكتب الاغريقية والأجنبية ، ولاسيما الكلام على الانسداد والطبائع  
والعدم والحدود والصفات والمواصفات ، ولكن الذى يقرؤه الباحث  
ولا يشك في نسبته الى الامام او في جواز نسبته اليه ، قسط واف  
لتحقيق رأى القائلين بسبق الامام في مضمار علم الكلام ، واعترافه

المعترفين له بالأستاذية الرشيدة لكل من لحق به من أصحاب الآراء والمقولات . وهو على جملته خير ما يعرف به المؤمن ربه وبنزه به الخالق في كماله ، ومن أمثلته قوله : « الحمد لله الذي لم يسبق له حال حالا ، فيكون أولا قبل أن يكون آخرا ، ويكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل ، وكل عزيز غيره ذليل ، وكل قوى غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك ، وكل عالم غيره متعلم ، وكل قادر غيره يقدر ويعجز ، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ، ويصم كثيرها ، وينذهب عنها ما بعد عنها ، وكل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان ولطيف الأجسام ، وكل ظاهر غيره باطن ، وكل باطن غيره ظاهر ، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطانه ولا تخوف من عوائق زمان ، ولا استعانته على من شاور ، ولا شريك مكاثر ، ولا ضد منافر ، ولكن خلاق مربوبون وعباد داخرون - أى ضارعون - لم يحلل في الأشياء فيقال هو فيها كائن ، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن ، لم يؤوده خلق ما ابتدأ ولا تدبر ما ذرأ ، ولا وقف به عجز عما خلق ، ولا ولبت عليه شبهة فيما مضى وقدر ، بل قضاء متنـ، وعلم محكم وأمر مبرم .. »

أما القضاء والفقـه ، فالمشهور عنه انه كان أقضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقـه والشريعة .. أو لم يكن بينهم من هو أقضى منه وأفقه وأقدر على اخراج الأحكـام من القرآن والحديث والعرف المأثور . وكاد عمر بن الخطاب يقول كلما استعظم مسألة من مسائل القضاـء العـويسـة ، قضـية ولا أبا حـسن لها : لأنـه كانـ في هـذه المسـائل يتجاوز التـفسـير إلى التشـريع ، كلـما وجب الاجـتمـاد بالرأـي الصـائب والـقياس الصـحيح ..

وفي أخبارـه ، ما يدلـ على علمـه بأدواتـ الفـقه كـعلمـه بنـصوصـه وأـحكـامـه .. ومن هـذه أدواتـ علمـ الحـسابـ الذـى كانتـ مـعرفـتهـ بهـ أكثرـ منـ مـعرفـةـ فـقيـهـ يتـصرـفـ فيـ مـعـضـلاتـ الـموـارـيثـ ، لأنـهـ كانـ سـرعـ الفـطـنةـ إـلىـ حـيلـهـ التيـ كانتـ تـعدـ فيـ ذـلـكـ الزـمـنـ الفـازـاـ تـكـدـ فيـ حلـهاـ العـقـولـ ، فيـقالـ أنـ اـمـرـأـ جـاءـتـ إـلـيـهـ وـشـكـتـ إـلـيـهـ أـنـ أـخـاـهـ مـاتـ عنـ سـمـائـةـ دـيـنـارـ ، وـلـمـ

يُقسم لها من ميراثه غير دينار واحد .. فقال لها : لعله ترك زوجة  
وابنتين وأما واتني عشر أخا وأنت ؟ .. فكان كما قال  
وسئل يوماً في أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوبن وابنتين .  
فأجاب من فوره : صار ثناها تسعاً . وسميت هذه الفريضة بالفريضة  
المنبرية ، لأنَّه أفتى بها وهو على منبر الكوفة ..  
وفي هذه الإجابات ، دليل على الذكاء وسرعة البدائية .. فضلاً عن  
الدلالة الظاهرة على العلم بالموارد والحساب ..  
وإذا قيل في قضائه انه لم يكن أقضى منه بين أهل زمانه ، صبح أنَّ  
يقال في علم النحو انه لم يكن أحد أوفر سهماً في إنشاء هذا العلم من  
سمه . وقد تواتر أنَّ آباً الأسود الدؤلي شكا إليه شيوخ اللحن على  
السنة العرب ، فقال له : أكتب ما أملأ عليك .. ثمَّ أملأه أصولاً عنها :  
انَّ كلام العرب يتراكب من اسم و فعل و حرف ، فالاسم ما أنشأ عن المسوء ،  
والفعل ما أنشأ عن حركة المسوء ، والحرف ما أنشأ عن معنى ليس باسم  
ولا فعل .. وإنَّ الأشياء ثلاثة : ظاهر ، ومضر ، وشَيْءٌ ليس بظاهر ولا  
مضر .. وإنَّما تتفاوت العلامة في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضر ..  
يعنى اسم الاشارة على قول بعض النحاة ، ثمَّ قال لأبي الأسود : انْعِ  
هذا النحو يا آباً الأسود .. فعرفَ العلم باسم النحو من يومها  
وهذه رواية تخالفها روايات شتى تستند إلى المقابلة بين اللغات  
الأخرى في اشتياق أصولها التحوية ، ولا سيما السريانية واليونانية ..  
ولكن الروايات العربية لا تنتهي بما إلى مصدر أرجح من هذا المصدر ،  
وغيرها من الروايات الأجنبية والفرض العلمية لا يمنع عقلاً أن يكون  
الإمام أول من استنبط الأصول الأولى لعلم النحو العربي من مذكرة  
العلماء بهذه الأصول بين أبناء الأمم التي تغشى الكوفة وحواضر  
العراق والشام ، وهم هنالك غير قليل ، ولا سيما السريان الدين  
سبقوا إلى تدوين نحوهم ، وفيه مشابهة كبيرة ل نحو اللغة العربية  
وليس الإمام على أول من كتب الرسائل ، وألقى العظات ، وأطاله

## الخطب على المنابر في الأمة الإسلامية ..

ولكنه ولا ريب أول من عالج هذه الفنون معاجلة أديب ، وأول من أضفى عليها صبغة الائتاء الذي يقتدى به في الأساليب .. لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون لغتهم صياغة مبلغين لا صياغة منشئين ، ويقصدون إلى أداء ما أرادوه ولا يقصدون إلى فن الأداء وصناعة التعبير ، ولكن الإمام علياً تعلم الكتابة صغيراً ودرس الكلام البليغ من روایات الألسن وتدوين الأوراق ، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى إلى طور التفنن والتجميل.. فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع ، هو فيما نرى أول أساليب الائتاء الفني في اللغة العربية ، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من قدوته وسياقه ، وتأتي له بسلبياته الأدبية أن يأخذ من فحولة البداهة ومن تهذيب الحضارة ، ومن أنماط التفكير الجديد الذي أبدعه المعرفة الدينية والثقافة الإسلامية .. فديوانه الذي سمي « فتح البلاغة » أحق ديوان بهذه التسمية بين كتب العربية ، واشتماله على جزء مشكوك فيه لا يمنع اشتتماله على جزء صحيح النسبة إليه صحيح الدلالة على أسلوبه ، وربما كانت دلالة الأخلاق والمزاج فيه أقوى وأقرب إلى الاقناع من دلالة الأسانيد التاريخية ، لأن طابع « الشخصية العلوية » فيه ظاهر من وراء السطور ومن ثنياً العروض ، يوحى إليك حيشما وعيته أنك تسمع الإمام ولا تسمع أحداً غير الإمام ، ويعز عليك أن تلمع فيه غرابة بين صاحب التاريخ وصاحب الكلام ..

على إنا نبالغ ما نبالغ في تمجييص المتحول وغير المتحول من أقوال الإمام ومن فنون ثقافته العامة ، ثم تبفي لنا بقية تسمح لنا – بل توجب علينا – أن نسأل : كيف يتسعى العلم بهذا لأى كاذ من الناس في مثل ذلك الزمان ؟ ..

والسؤال لابد منه ، ولا نظن قارئاً من قراء تاريخ الإمام لم يخطر هذا السؤال بياله ولم يرد على لسانه

ولكن لابد معه من تصحيح الباعث عليه لتصحيح الجواب عنه بعد ذلك ..

فالباعث عليه أتنا بالغ في تجريد البداوة العربية من الصلات المعقولة بالثقافة العالمية ، سواء كانت من ثقافة العلم والدرس أو ثقافة التوارث والتلقين ..

لكن البداوة العربية لم تكن في الواقع ممزوجة عن ثقافة الأمم المحيطة بها تلك العزلة التي تخطر لنا للوهلة الأولى ، فقد كانت على اتصال بعوائد الهند وفارس والروم ، وكانت للمعارف الإنسانية أشعتها التي تخلل الجزيرة انعرية من قديم العصور

وحسينا من أمثلة ذلك ، مثال واحد في معسكر الامام نفسه يعني عن الأمثلة من قبيله ..

وذلك هو مثال عبد الله بن سبا المشهور بابن السوداء ، وهو يهودي ابن زنجية مولود في بلاد اليمن ، ومذهبة الذي اشتهر به هو مذهب الرجعة الذي يجمع فيه بين قول اليهود بظهور المندى من أبناء داود ، وقول أهل الهند بظهور الاله الذي يتقمص جسم انسان ، وقول النصارى بظهور المسيح ، وقول أهل فارس بتقديس الأوصياء من أقرباء الملوك والأمراء ..

فهذه عقيدة لا تظهر من رجل يعني من أهل الجزيرة ، اذا تخيلنا أن الجزيرة في حضارتها أو ب Daoتها بمعزل عن ثقافات الهند والفرس والروم وبين إسرائيل ، وأن الأمة العربية تخلو من أساس سمعوا بالعقائد والفلسفات من طريق القدوة الدينية ، أو طريق المحاكاة الاجتماعية ، أو طريق الدراسة والسماع ..

وقد كانت عاصمة الامام في الكوفة .. وكانت مثابة الفادين والرائجين من أبناء الحضارات المعروفة في العالم بأسره ، ومن المسلمين الذين عاشوا بها أو بعوارها أساس كانوا ينظرون في كتب الفرس ويسيرون بحركتها كما جاء في سيرة عمر بن الخطاب ، ومنهم من كان

ينظر في النجوم على طريقة الفرس والروم ، وحضر بعض مؤلءات الامام  
أن يسير الى حرب الخوارج في طالع كوكب من الكواكب المنحوسة ،  
فقال له : « أتزعم أنك تهدي الى الساعة التي من سار فيها صرف  
عنه السوء ؟ .. فمن صدق بهذا فقد كذب القرآن ، واستغنى عن  
الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه » ..

\*\*\*

ثم أقبل على الناس بالنصائح والموعظة ، فائلاً : « ايكم وتعلم النجوم ،  
الا ما يهتدى به في بر أو بحر .. فانها تدعو الى الكهانة ، والنجوم  
الakahen ، والakahen كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر في النار ! »  
وقد لبث على بن أبي طالب زهاء ثلاثين سنة منقطعاً او يكاد ينقطع  
عن جهاد الحكم والسياسة ، متفرغاً او يكاد يتفرغ لفنون البحث  
والدراسة .. يتأمل كل ما سمع ، ويراجع كل ما قرأ ، ويعرف كل ما  
يعرف ، من يلقاه ، ويستطلع أنباءه وأراءه وقضايايه .. فمهما يكن  
فضط الثقافة العالمية قليلاً في بلاد الاسلام على تلك الأيام .. فقيه ولا  
رب إلئاه للعقل اليقظان وال بصيرة الوعية أذن تفهم ما قد فهمه الامام ،  
وأن يثبت ما أثبته نهج البلاغة من الخواطر والأحكام ..  
على أن هذه الفنون من الثقافة — أو جلتها — إنما تعظم بالقياس الى  
عصرها والجهود التي بذلت في بدايتها  
فحصة الامام من علم النحو — مثلاً — عظيمة لأن الابتداء بها أصعب  
من تحصيل المجلدات الضخام التي دونها النحاة بعد تقدم العلم وتکاثر  
الناظرين فيه ..

\*\*\*

وهكذا يقال في الحساب والمسائل العلمية التي من قبيله ، فلا يجوز  
لنا أن تقيسها بمقاييس العصر المعاصر .. وهي في ابتدائها أصعب جداً  
منها في أطوارها التي لحقت بها بعد غائبتها واستفاضة البحث فيها ..  
أما فن الثقافة الذي يقاس بمقاييس كل زمان ، فاذًا هو عظيم في جميع

هذه المقايس ، قليل الفوارق بين البدائيات منه والنهائيات ، فذلك هو  
فن الكلم الجامعه أو فرائد الحكمة التي قلنا آنفا أنها تسجل له في ثقافة  
الأمم عامة كما تسجل له في ثقافة الأمة الإسلامية ، على تبادل المصور  
فالكلم الجوامع التي رویت للإمام طراز لا يفوقه طراز في حكمة  
السلوك على أسلوب الأمثال السائرة

وقد قال النبي عليه السلام : « علماء أمتي كأنبياء بنى إسرائيل »  
فهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون على الإمام على في حكمته  
التي تقارب بحكم أولئك الأنبياء ..  
فهي من طراز الحكم المؤثرة عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل السائر  
وهو سليمان بن داود

\*\*\*

ويزيد عليها أنها أبدع في التعبير ، وأوفر نصيبا من ذوق الجمال ،  
كقوله مثلا : « نفس المرء خطاه إلى أجله » .. أو قوله : « من يعط باليد  
القصيرة يعط باليد الطويلة » .. أو قوله : « المرء محبوب تحت لسانه »  
أو قوله : « الحلم عشرية » .. أو قوله : « من لازم عوده كفت أغصانه »  
أو قوله : « كل وعاء يضيق بما جعل فيه الا وعاء العلم فانه يتسع » الى  
أشبه هذه التعبيرات الحسان التي تحرر فيها أي مزاياها أفضل وأقوم :  
صدق المعنى ، أو بلاغة الأداء ، أو جودة الصناعة ..

وبعض أقواله ينفع بدلائل « الشخصية » التي تلازم صاحب الفن  
للأصيل ، فتلبس معانيه لباسا من خوالج نفسه وأحداث زمانه ، كما  
قال : « صواب الرأى بالدول . يقبل باقبالها وينذهب بذها بها » أو كما  
قال : « ما أكثر العبر وأقل الاعتبار » .. أو كما قال : « شاركوا  
الذى أقبل عليه الرزق فانه أخلق للفنى وأجدى باقبال الحظ عليه » ..  
أو كما قال : « اذا هبت امرا فقع فيه ، فان شدة توقيه اعظم مما  
نخاف منه » .. أو كما قال : « لا يقيم أمر الله سبحانه الا من لا  
بصائر ولا يشارع ولا يتبع المطاعم » ..

وله عدا هذه الحكم التي تلونت باللوان نفسه أو الوان زمانه ، حكم  
كثيرة تصدر من كل قائل يقدر عليها ، وتنفذ الى كل سامع يفطن لها  
كقوله : « كل معدود منقض وكل متوقع آت » أو قوله : « اذا كررت  
القدرة قلت الشهوة » أو قوله : « أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك  
عليه » .. أو قوله : « من نصب نفسه للناس اماما ، فليبدأ بتعليم نفسه  
قبل تعليم غيره .. ول يكن تأدبيه بسيرته قبل تأدبيه بفساته ، ومعلم نفسه  
ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم » أو قوله : « الفقيه  
كل الفقيه من لم يقسط الناس من رحمة الله ولم يوئسهم من روح الله ،  
ولم يؤمنهم من مكر الله » .. أو قوله : « قيمة كل امرىء ما يحسنه »  
أو قوله : « العاقل هو الذى يضع الشيء مواضعه » أو قوله : « الصابر  
صبران : « صبر على ما تكره ، وصبر على ما تحب » أو قوله : « من  
ملك استثار » أو قوله : « الناس أعداء ما جهلوا » .. أو قوله :  
« القرابة الى المودة أحوج من المودة الى القرابة » ..

\*\*\*

وله في المواقف المرتجلة كلمات هي أشبه الكلمات بأسلوب الحكمة  
السائلة .. فلما خرج وحده لبعض المهام التي تردد فيها أنصاره ، قالوا  
له يشieren إلى أعدائه : « يا أمير المؤمنين نحن نشكككم » فقال :  
« ما تشكوتني أشككم فشكيف تشكوتني غيركم ؟ .. إن كانت الرعايا  
قبلت شيكو حيف رعاتها ، واتى اليوم لأشيكو حيف رعيتي ، لأننى  
المقود وهم القادة ، أو الموزوع وهم الوزعة »  
ورثي محمدا بن أبي بكر حين بلغه مقتله على أيدي أصحاب معاوية  
قال : « إن حزنا علينا قدر سرورهم به ، إلا أنهم تقصوا بغيضا  
ونقصنا حبيبا » ..

فكل نعط من آمطر كلامه ، شاهد له بالملائكة الملوية في قدرة  
الوعي وقدرة التعبير .. فهو ولا شك من أبناء آدم الذين علموا  
الأسماء وأتوا الحكمة ، وفصل الخطاب  
وقد أخطأ « موير » Muir المؤرخ الانجليزى حين قال : إن عليا

حكيم كسليمان ، وهو مثله حكمته لغيره .. يعني أنه ينصح الناس ولا يتسع بالنصيحة ، فان «موير» أحبى أن يفرق بين عمل الإنسان ينصحه وبين انتفاعه بتصحه . ولا شك أن علياً كان من العاملين بما يقولون ومن المتصححين بما ينصح به الناس . أما أنه يتسع بحكمته ، فالطبيب لا يقدر في علمه أنه قد أعياد علاج نفسه بطبه .. فقد يكون الأخلاق من استعفاء الداء لا من صحة الدواء

\* \* \*

ولا يفوتنا أن بعض هذه النصائح ، قد نسب إلى قالة من الأوائل غير الامام رضى الله عنه ، وهذا يستطرد بنا مرة أخرى إلى الصحيح والمنقول من كلام الامام الذي جمعه الشريف الرضي في «نهج البلاغة» وفرغ من جمعه بعد مقتله بزهاء أربعة قرون ، وهو يبحث يخرج بنا من موضوع هذا الكتاب إلى دراسة أدبية ليست من أغراضنا الخاصة في التعريف بعيقرية الامام .. فحسبنا أن أسلوب الامام معروف في بعض ما ثبت له من رسائله وخطبته ، وإن طاب هذا الأسلوب شائعاً في الكتاب لا تقدح فيه كلمة ظاهرة التلقي هنا أو كلمة ظاهرة الاقحام هناك ، أو كلمات يقع فيها الالتباس لاختلاف الصناعة أو اختلاف التفكير . فتحن لا تخطئ أن نرى في هذه الخطب والرسائل والأمثال وحدة تتصل حيناً ، وتقطع حيناً ، كالوحدة التي نراها بغير انقطاع في كتب الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد .. وهذه الوحدة وحدتها معنية لنا في تبيان ثقافة الامام ، أو تذوق أسلوبه الذي لا تخطيء فيهمرة جزالة البدائية وصقل الحاضرة وحسن البداهة وامتزاج الصناعة بالطبع الذي لا تتكلف فيه ..

ولا يتم القول في ثقافة الامام على رضى الله عنه ، ما لم تتممه بالقول في نصيبيه من الثقافة العسكرية أو فن الحرب ، الذي هو مضماره الأول ومتانش شهرته التي تبرز فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة ، وكفاءة المثابل قبل كل كفاءة ..

فجملة ما يقال في هذا الصدد ، أن فن الامام العسكري هو فن

البطل المغوار الذى يناضل الأفراد وينفع الجيش الذى هو فيه بقدوة الشجاعة وأذكاء الحماسة وتعزيز الثقة بين صفوفه ، وانه يعرف كيف يكون الهجوم حيث يجب الهجوم ، وكيف يحتال على عدوه بما يخلع قلبه ويقتله في عضده .. ومن حيله المشهورة في توهين عزم عدوه ، انه أمر بعمر الجمل في الورقة المعروفة باسمه ، لأنه كان علم القوم الذين كانوا يتلقون به ويشتتون بشوته ..

وهذا كله فن البطل المغوار الذى يفرق العسكريون بينه وبين خطط القيادة وفنون التعبئة وتحريك الجيوش ..

\*\*\*

ولم يرد لنا من آباء الامام في هذا الباب ما نحكم به على قيادته العسكرية بهذا الاعتبار ..

نعم .. انه كان يقسم جيشه الى ميمنة وميسرة وقلب وطليعة ومؤخرة ، وأشباه ذلك من التقسيمات التي جرى عليها في وقعة صفين على التخصيص ..

وكانت له وصاياه المحفوظة في تسيير الجيوش وتأديب الجنود ومعاملتهم لسكان البلاد ، ومنها قوله : « اذا نزلتم بعده أو نزل بكم ، فليكن مسركم من قبل الاشراف وسفاح الجبال ، أو أثناء الأنهر ، فيما يكون لكم رداءً ودونكم رداءً ، ولتكن مقاتلكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رباء في صياصي الجبال ومناكب الهضاب ، ثلاثة يأتكم العدو من مكان خفافة أو أمن ، واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة طلائهم ، واياكم والترق فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً ، وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كثة - أي محطة بكم - ولا تذوقوا النوم إلا غراراً أو مضمضة » ..

ومنها قوله : « ولا تسر أول الليل ، فاذ الله جعله سكناً وقدره مقاماً لا ظلتنا » ومنها قوله للولاة : « انى سيرت جنوداً هي مارة بكم ان شاء الله ، وقد أوصيتهم بما يجب الله عليهم من كف الأذى وصرف

الشذى ، وأنا أبرأ اليكم والى ذمتك من معرة الجيش الا من جوعة  
المضرر لا يجد عنها مذهبها الى شبعه ، فتكلوا من تناول منهم شيئاً ظلماً  
عن ظلمهم ، وكروا أيدي سفهائكم عن مضارتهم والتعرض لهم .. »  
وهذه وما هو من قبيلها ، مناهج موروثة أو أدب هو أقرب الى  
نظام الادارة منه الى خطط التعبئة وقيادة الميدان ..

وعلى كونه قد اتبع هذه التقسيمات والمناهج في وقعة صفين ، لم تكن  
الوقعة كلها الا مناوشات هجوم ودفاع بين طوائف متفرقة في أوقات  
متباعدة .. كأنها ضرب آخر من ضروب فن الحرب على طريقة الفارس  
المتassel والبطل المفرد في موقف المبارزة أو في غمار الصفوف

\* \* \*

وخلصة ذلك كله ، ان ثقافة الامام هي ثقافة العلم المفرد والقيمة  
العالية بين الجماهير في كل مقام ..

وانها هي ثقافة الفارس المجاهد في سبيل الله ، يداول بين القلم  
والسيف ، ويتشابه في jihad بأسه وتقواه .. لأنه بالباس زاهد في الدنيا  
مقبل على الله ، وبالقوى زاهد في الدنيا مقبل على الله ..  
 فهو فارس يتلاقى في الشجاعة دينه ودنياه ، وهو عالم يتلاقى في  
الدين والدنيا بحثه ونجواه ..

## في بيته

خلاصة رأى الامام في المرأة أنها « شر كلها .. وشر ما فيها انه لابد منها » ..

كان يرى لها فضائل خاصة تليق بها غير الفضائل التي تليق بالرجال وتحمده منه .. « فخيار خصال النساء شرار خصال الرجال .. الزهو ، والجبن ، والبخل .. فإذا كانت المرأة مزهوة لم تتمكن من نفسها ، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها وما يعلمها ، وإذا كانت جبارة فرقت من كل شيء يعرض لها » ..

والامام صائر الى رأيه هذا في المرأة من كلتا طرفيه ، وهما طريق الحكيم الذي ينظر اليها على سنته الحكمة القديمة ، وطريق العابد الذي ينظر اليها على سنته العبادة في جميع المصور .. ولكنه لا رأي الحكيم ولا حسن العابد قد حجبه قط عن فطرته الغالية عليه ، وهي فطرة الغارس المطبوع على آداب الفروسية ، ومنها التلطف بالمرأة والصفح عن عدوانها .. فما انتقم قط من امرأة لأنها أساءت اليه ، ولا غفل قط عن الوصية بها في موطن يستدعي هذه الوصية . ومن أمثلة وصاياه في هذا المعنى خطبته بين جنوده قبل لقاء العدو بصفين ، حيث يقول :

« لا تهيجوا النساء بأذى وان شتنن أعراضكم وسببن أمراءكم ، فإنهن ضعيفات القوى والأنس والقول ، ان كذا لئوم بالكتف عنهن وانهن لشركات ، وان كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالغير - اي المجر - او المراوة فيغير بها وعقبه من بعده .. وقد كانت ميوله نحو المرأة قوية ، كما يظهر من غير حادث واحد ..

ومن ذلك صبية النبي التي استولى عليها وبنى بها ساعتها ، وجعلها قسمه من الخمس قبل تقسيمه .. فرأى بعض أصحابه في ذلك ما شكوه إلى النبي عليه السلام من أجله ، وربما كان هذا سبب تحذيره منها في الغزوات خيفة على الجيش من شواغلها ، فكان يقول لسراياه وجيوشه إذا شيعها : « اعزبوا عن النساء ما استطعتم » ويوصي في أمثال هذه المواطن باجتنابها ..

الا أنه كان يرى على ما يظهر أن امرأة تغنى عن سائر النساء ، فلم يعرف له هوى لأمرأة خاصة من نسائه غير الهوى الذي اختص به السيدة فاطمة رضي الله عنها كرامة منزلتها عنده ومتزانتها عند أبيها ، وهو غير الهوى الذي تبعه المرأة بغيريات جنسها

كان جالسا في أصحابه ، فمررت بهم امرأة جميلة ، فرمأها القوم بأبصارهم .. فقال رضي الله عنه : « ان أبصار هذه الفحول طوامح ، وإن ذلك سبب هياجها .. فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه قليلا من أهلها ، فانما هي امرأة كامرأة »

وعلى الجملة ، يمكن أن يقال ان آراء الامام في المرأة هي خلاصة الحكمة القديعة كلها في شأن النساء ..

فهن شر لا بد منه باتفاق آراء الأقدمين ، سواء منهم حكماء الهند واليونان أو الحكماء الذين نظروا إلى المرأة بعين الدين من أبناءبني إسرائيل وأباء الكنيسة المسيحية وأئمة الإسلام

لأنهم كانوا جيئما ي Mizjognha بالشمومات التي تشيرها عamideh أو غير عamideh ، ويقولون عليها تبعة الشرور التي تنجم عنها عكيدتها أو على الرغم منها ، ولم تغير هذه النظرة بعض التغير إلا في الأزمنة الحديثة التي نظرت في استقلال التبعات على أساس « الحرية الشخصية » .. فحاسبت المرأة بما تجنيه ، وأوشكت أن تبالغ في تبرئتها من جنائاتها

فمن السهو عن المقيقة ، أن تخذ آراء الأقدمين في المرأة دليلا على تصريحهم من الفبطة أو السكينة في حياتهم اليسيرة .. لأننا خلقاء أن

نحسبهم جميعاً من الأشقياء المعدين في بيوتهم ، وهو ما تأباه البداهة وتأباه أبناء التاريخ عن كثير من الأزواج والزوجات النابهات

وليس من اللازم في حياة الإمام خاصة ، أن يستمد آرائه في المرأة من حياته البيتية .. فقد كانت تجارية في الحياة العامة مددًا لا ينقد لهذه الآراء التي شاعت بين الأقدمين حتى أوشكت ألا تحتاج إلى تجربة مكررة ، وشاءت المقادير أن تنقض حياة الإمام على وللمرأة يد في القضاء عليها ، فكانت حياته الغالية مهرا لقطام التي قال فيها ابن أبي مياس المرادي :

ولم أر مهرا ساقه ذو ساحة كمهرا قطام من فصيح وأعجم  
ثلاثة آلاف وعبد وقينة بضرب على بالحسام المسم  
فلا مهر أعلى من على وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم  
والذى يجزم به مؤرخ الإمام أن حياته البيتية خلت من شكاوة لم  
يألها الأزواج في زمانه ، وإنها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة  
الزوجية بين أمثاله ..

عاش مع فاطمة رضى الله عنها ، لا يقرن بها زوجة أخرى .. حتى ماتت بعد موت النبي عليه السلام بستة أشهر .. وهي رعاية لها ورعاية لمقام أبيها لاشك فيها ، فقد كان النبي عليه السلام كما جاء في الآخر يغار لبناته غيرة شديدة ، وروى عنه انه قال وهو على المنبر مرة : « ان بنى هشام ابن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم على بن أبي طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، الا أن يريد على بن أبي طالب أن يطلق ابنته وينكح ابنته .. فإنها بضعة مني يريني ما رايتها ويؤذني ما آذتها » ورعاها كان من وفائه لها غضبه لغضبها ، فأحجم عن مبايعة أبي بكر إلى ما بعد وفاتها على بعض الروايات ، وهجره كما هجرته مدة حياتها . وقد ولدت له أشهر أبناءه وبناته : الحسن ، والحسين ، ومحسن ، وأم كلثوم ، وزينب ، وماتت ولم تبلغ الثلاثين وتزوج بعدها تسعة نساء رزق منها أبناء وبنات يختلف في عددهم

المؤرخون ، ويؤخذ من احصائهم في « الرياض النصرة » للمحب الطبرى انه رضى الله عنه وافر لحظ من الذرية ، بقى منهم بعده كثيرون وكان على ما يفهم من خلائقه ، ومن سيرته وأخباره ، أبا سمحا يستريح الأبناء الى عطفه ، ويجترئون على مساجلته الرأى في أخطر ما ينويه من الأحداث الجسام

لما توجه طلحة والزبير نحو العراق ، ومعهما السيدة عائشة رضى الله عنها ، جاءه ابنه لحسن بعد صلاة الصبح فقال له : « قد أمرتكم فعصيتي ، فقتلتم غداً بعصبية لا ناصر لك فيها » فسأله : « وما الذي أمرتني فعصيتك ؟ » قال : « أمرتكم يوم أحبط بعشان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فقتل ولست بها ، ثم أمرتكم يوم قتل آل تبایع حتى تأتیك وقود العرب وبیعة أهل كل مصر .. فانهم لن يقطعوا أمراً دونك فأیست .. ثم أمرتكم حين فعل هذان الرجلان ما فعلـاً أن تجلسـ في بيتك حتى يصطـلـ .. فـانـ كانـ القـсадـ كانـ علىـ يـدـيـ غيرـكـ ، فـعصـيـتـيـ فـيـ ذـلـكـ كـلـهـ ! » ..

فلم يأنف أن يساجلـهـ الرـأـىـ ليـقـنـعـهـ ، وجـعلـ يـقـولـ لهـ : « أـىـ بـنـىـ ! .. أـمـاـ قـولـكـ لوـ خـرـجـتـ مـنـ الـمـدـيـنـةـ حـيـنـ أـحـيـطـ بـعـشـانـ فـوـالـلـهـ لـقـدـ أـحـيـطـ بـنـاـ كـمـاـ أـحـيـطـ بـهـ ، وـأـمـاـ قـولـكـ لـاـ تـبـایـعـ حـتـىـ تـأـتـىـ بـیـعـةـ الـأـمـصـارـ فـانـ الـأـمـرـ أـمـرـ أـهـلـ الـمـدـيـنـةـ وـكـرـهـتـاـ أـنـ يـضـيـعـ هـذـاـ الـأـمـرـ ، وـأـمـاـ قـولـكـ حـيـنـ خـرـجـ طـلـحـةـ وـالـزـبـيرـ فـانـ ذـلـكـ كـانـ وـهـنـاـ عـلـىـ أـهـلـ الـاسـلـامـ .. وـأـمـاـ قـولـكـ : اـجـلـسـ فـيـ بـيـتـكـ فـكـيـفـ لـىـ بـاـ قـدـ لـزـمـنـيـ ؟ .. وـمـنـ تـرـيدـنـيـ ؟ .. أـتـرـيدـ أـنـ أـكـوـنـ مـثـلـ الضـبـعـ التـيـ يـحـاطـ بـهـ وـيـقـالـ : دـبـابـ دـبـابـ .. لـيـسـ هـنـاـ حـتـىـ يـعـلـ عـرـقـيـاـهاـ ثـمـ تـخـرـجـ .. وـاـذـاـ لـمـ أـنـظـرـ فـيـماـ لـزـمـنـيـ مـنـ الـأـمـرـ وـيـعـنـيـنـيـ ، فـمـنـ يـنـظـرـ فـيـهـ ؟ .. فـكـفـ عـنـكـ أـىـ بـنـىـ »

وهـذـهـ مـعـاـلـةـ «ـ أـخـوـةـ »ـ تـسـتـغـرـبـ فـيـ الـأـجيـالـ الـمـاضـيـةـ الـتـيـ كـانـ لـلـأـبـوـةـ فـيـهـ عـلـىـ الـبـنـيـنـ سـيـادـةـ تـقـرـبـ مـنـ سـيـادـةـ الـمـوـلـىـ عـلـىـ الرـقـيقـ ، وـلـاـ يـنـقضـهـ أـنـ لـطـمـ لـحـسـنـ يـوـمـ لـأـنـهـ ظـنـ بـهـ تـقـصـيـرـاـ فـيـ الدـافـعـ عـنـ عـشـانـ .. فـتـلـكـ

سورة الغضب في موقف من أندر المواقف التي لا يقاس عليها في سائر الأحوال ..

وكان رضى الله عنه ، يزهيه أن يحيط به أبناؤه في محفل الروع ومشاهد الرخيف .. فيخرج إليها وهم حافدون به عن يمينه وشماله ، ومنهم من يحمل اللواء بين يديه ، وذلك زهو الشجاع الفخور بأشباله الشجعان ..

واشتهر بالعطف على صغارهم ، كما اشتهر بعوده كبارهم .. فكان أحب شيء إليه أن يداعبهم أو يرى من يداعبونهم ، وكانت له طفلة ذكية ولدتها له زوجة من بنى كلب يخرج بها إلى المسجد ويسره أن يسألها أصحابه : من أخوالك ؟ .. فتجيب : « وه .. وه » محاكاً لعواء الكلاب ..

وكان يقول : « إن للوالد على الولد حقا ، وإن للولد على الوالد حقا .. فحق الوالد على الولد أن يطيعه في كل شيء إلا في معصية الله سبحانه ، وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلمه القرآن » ..

ومن احسان التسمية ، انه هم بتسمية ابنه حربا لأنه يرشحه للجهاد وهو أشرف صناعاته ، لو لا أن رسول الله سماه الحسن ، وهو أحسن .. فجرى على هذا الاختيار في تسمية أخيه الحسين والمحسن . وأتم حق أبياته في احسان أسمائهم ، فاختار لهم أسماء النبي وأسلاقه من الخلفاء :

أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، أما معيشته في بيته بين زوجاته وأبنائه ، فمعيشة الزهد والكفاف .. وأوجز ما يقال فيها انه كان يتყى له أن يطعن لنفسه ، وأن يأكل الخنزير الذى يكسره على ركبته ، وأن يلبيس الرداء الذى يوعد فيه ، وإن أحدا من رعاياه لم يمت عن فصيبي أقل من النصيب الذى مات عنه وهو خليفة المسلمين .. وكان الخليفة يوم كانت الخلافة تناقض ملك الدنيا .. فكان بيته قيسض القصر الذى تعرض الدنيا المملوكة بين أركانه وزواجه ..

## صورة محملة

من كلمات الامام التي لم يقلها أحد غيره كلمته في خطاب الدنيا حيث يقول : « يا دنيا غرى غيري .. غرى غيري ! »  
وانها لأكثر من كلمة ، وأكثر من دعاء ..  
انها لسان قدر ، وعنوان حياة ..

فقد خلق الامام ، وفي كل خلقة من خلائقه الكبار اجراء على الدنيا ، على ضرب من ضروب الاجراء  
خلق شجاعا بالغا في الشجاعة ، وزاهدا بَيْنَ الزهد ، ودارسا مجا للحقيقة الدينية يتحرّها حيث اهتدى اليها ..  
والشجاع جرى على الدنيا لأنّه لا يبالي الحياة ..  
والزاهد جرى على الدنيا لأنّه لا يبالي العيّم ..  
وطالب الحقيقة جرى على الدنيا لأنّها طريق عنده الى غاية من ورائها ..

فأى مصير لهذا الرجل غير الشهادة في زمن لم يعرف بطاريء من الطوارئ ، كما عرف بالاقبال على الدنيا ؟ ..

صام الناس قبله عن الدنيا ، ثم أقبلوا على الدنيا العريضة بعذاقيرها ..

هدأت حماسة الدعوة النبيّة ، وثبتت الطبائع الى مألوفها الذي اشرجت عليه ، وتدفقت الاموال من الأمسار المفتوحة على نحو لم تعهده الجزيرة العربية قط في تاريخها القديم ..

وأقبل الناس على الدنيا ، بل هرولوا الى الدنيا ..

وإذا بخلية جرىء عليها زاهد فيها ، يقف لهم في طرفيها  
ويصد هم عنها ..  
يصد ماذا؟ ..

يصد الطوفان ، وهو مندفع من وراء السدود ..  
يصد الطبيعة الإنسانية ، وهي منطلقة من عقال التقوى ..  
يصد ما لا سبيل إلى صده بحال ..

فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سريره .. فأن الإنسان قد يعيش  
عيشة الشهداء ، ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء ..  
وقد لزمه آية الشهادة في كل قسمة كتبت له ، وكل حركة سعى إليها  
أو سمعت إليه ..

فمن آيات الشهادة أن يساق إلى الخلافة ، ولا حيلة له في اجتنابها ..  
ومن آيات الشهادة أن يساق إليها في ساعة الفصل بينها وبين الملك ،  
وتقوم الحوايل كلها بينه وبينها قبل الأوان ..

ومن آيات الشهادة أن يساق إليها ، ولا حيلة له في تحقيق أغراضها  
ولا في الخروج من مآزقها ..

ومن آيات الشهادة أن يتلى بآياته أشد من بلته بأعدائه ، ولا  
حيلة في تبديل أولئك الأنصار ..

ومن آيات الشهادة ألا تغره الدنيا ، وقد غرت حوله كل إنسان ..  
 فهو شهيد ، شهيد ، شهيد ..

خرج إلى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه ، وخرج منها والشهادة  
مكتوبة على ذلك الجبين بضريره حسام ..

وصورته المجلدة لا تشق على مصور ولا على متفرس ، لأنها صورة  
المجاهد في سبيل الله بيده وقلبه وعقله ، أو صورة الشهيد ..

وكل امتحان لقدرته أو لعمل من أعماله ، ينبغي أن ينزع عن مخنته  
القدر التي لا يغلبها غالب ..

وقد كان له رأى عالم ، وفطنة حكيم ، ومشورة مدبر .. ولكتنا إذا

قلنا انه أخفق في العمل لأنه لم يغلب القدر ، فذلك تكليف بما لا يطاق  
وانما يقول انه أخفق في العمل وغسله ، ولعله لو تولى الخلافة قبلها  
أو تولى الملك بعدها لما ظهر منه ذلك الاخفاق ..

\* \* \*

وحق لا شك فيه انه أخفق حيث يشرفه اخفاقه ، وحيث يحقق  
الآخرون لو نصبتهم الأقدار في مثل مكانه ..

ومات وقد حل مشكلة الخلافة بلسانه ، وهو الى اليوم موضع الخلاف  
عليها وعليه بين أصحاب المذهب وأصحاب الأقوال في التاريخ ..

فقد كان يود لو أن رسول الله استخلفه من بعده ، ولكنه لم يطلب  
إليه ذلك .. ولا رأى من الحكمة أن يطلب إليه . قال علي بن عباس ورسول  
الله في مرض الوفاة : « اذهب إلى رسول الله ، فسله فيمن يكون هذا  
الأمر .. فإن كان فيما علمنا ذلك ، وإن كان في غيرنا أمر به فأوصي بنا؟ ..  
قال : « والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لايعطينها الناس أبدا ..  
واله لا أسألها رسول الله أبدا » ..

وأمن الإمام بحكمة الرسول ليجان حبة وتصديق ، ولكنه لم يفارق  
الدنيا حتى كان قد آمن بها ليجان تعليم وتطبيق . فلما سأله : « أنباع  
الحسن؟ » قال : « لا آمركم ولا أنهاكم » فأنصف الذين سبقوه ولم  
يفرضوا على الناس استخلافه ، لأنهم رأوا في موقعه منها مثل ما رأوه  
في موقف الحسن ابنه ، على حكم سواء ..

\* \* \*

أى ختام أشبه بهذا الشهيد المنصف من هذا الختام ..  
لقد ولد كما علمنا في الكعبة ، وضرب كما علمنا في المسجد .. فـأية  
بداية ونهاية أشبه بالحياة التي بينهما من تلك البداية وتلك النهاية ! ..

عَبَاسُ حَمْوَد

# الْعَقْلَانِ

الْمُسَيْنُ بْنُ أَبْو الشَّهَادَاء

دار الكتاب اللبناني - بيروت



## مقدمة

يسري أن أقدم إلى حضرات القراء هذه الطبعة من كتاب « أبي الشهداء » ويعظم رجائي أن يصل إلى أيدي كثيرة غير التي وصل إليها في طبعاته السابقة ، وأن يتحقق له من عموم الرسالة بهذه المثابة مما يتمناه كل مؤلف لكل كتاب يريد به رسالة من الرسائل

ليس من عـ.ـتي أن أطلع فيكتبي بعد الفراغ من طبعها ، ويتحقق أن تمضي السنوات دون أن ألقى عليها نظرة لغير مراجعة عاجلة ، فإذا حدث بعد ذلك أن أنظر فيها لتقديمها إلى طبعة جديدة ، أمكنني أنأشعر بها شعور القارئ الذي يطلع عليها لأول مرة ، بعد أن شعرت بها شعور المؤلف الذي امتلاها وأدارها في نفسه عدة مرات . وقد استغرب منها أموراً كالتى يستغرب بها القراء الذين يحكمون على موضوعاتها حكم « الأجانب الغرباء » ..

عجبـاً ! .. إن مشكلة الحياة الكبرى لم تتغير منذ ألف وثلاثمائة سنة ، ولم تزل الحرب على أشدتها بين خدام أنفسهم وخدام العقائد والأمثلة العليا ، ولم يزل الشهداء يصلونـنا ناراً حامية من عبيد البطون والأكباد ، ولم يزل « داؤنا العياء » كما قال أبو العلاء ! ..

كان هذا شعوري بكتاب « أبي الشهداء » حين قرأته من جديد لتقديمه إلى هذه الطبعة : مسكنة هذه الإنسانية ! .. لا تزال في عطش شديد إلى دماء الشهداء ، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الآثرة والأثانية ونسيان المصلحة الخالدة في سبيل المصلحة الزائلة ، أو لعل العطش الشديد إلى دماء الشهداء يزداد في هذا الزمن خاصة دون سائر الأزمـنة الغابرة ، لأنـه الزـمن الذي وجدـتـ فيه الوحدـة الإنسـانية ونـجـودـاً مـأـديـاً فـعلـياً وأـصـبـحـ زـاماً لـهـاـ أنـ تـوـجـدـ فـيـ الضـمـيرـ وـفـيـ الـروحـ كـماـ وـجـدـتـ فـيـ الـغـرـيـطـةـ الـجـفـافـيـةـ وـفـيـ بـرـامـجـ السـفـنـ وـالـطـائـرـاتـ

الوحدة الإنسانية اليوم حقيقة واقعية عملية ، ولكنها حقيقة واقعية  
عملية في كل شيء إلا في ضمير الإنسان وروح الإنسان  
حقيقة واقعية في اشتباك المصالح التجارية ، وفي اتصال الأخبار بين  
كل ناحية من الكورة الأرضية وناحية أخرى ..  
حقيقة واقعية في أعصاب الكرة الأرضية إذا صحت هذا التعبير ،  
فلا يضطرب عصب من أعصابها في أقصى الشرق حتى تتداعى له سائر  
الأعصاب في أقصى المغرب وفي أقصى الشمال والجنوب  
حقيقة واقعية في كل شيء إلا في ضمير الإنسان وفي روح الإنسان ،  
وهذا هو المهم والأهم إذا أردت للإنسانية وحدة صحيحة صالحة  
جدية بالدوار ..

ولن توجد هذه الوحدة إلا إذا وجد الشهداء في سبيلها . فأنتم بقدم  
«أبي الشهداء» من جديد الى ضمائر فريق كبير من بنى الإنسان ،  
لعلهم يقدمون رسالته خطوة واحدة أو خطوات في سبيل اليقين والعمل  
الحالصن لوجه الحق والكمال  
تفاعل أو لا تفاعل .. تشاءم أو لا تشاءم ..

ليست هذه هي المسألة ، وإنما المسألة هي أن طريق التفاؤل معروف  
وطريق الشذوذ معروف ، فلا تتحقق مصلحة الإنسانية إلا إذا عمل لها  
كل فرد من أفرادها ، وهات الشهادة من أجلها على خدامها ، وقدم  
الصروف من يقدم على الاستشهاد ومن ورائه من يؤمن بالشهادة والشهداء  
لا عزة ولا نصيحة ، ولكنها حقيقة تقرر كما تقرر الحقائق الرياضية .  
فلا بقاء للإنسانية بغير العمل لها ، ولا عمل لها إن لم ينس الفرد مصلحته ،  
بل حياته في سبيلها ..

لا بقاء للإنسانية بغير الاستشهاد ..

وفي هذه الآونة التي تتردد فيها هذه الحقيقة في كل زاوية من زوايا  
الأرض لنفت نحن أبناء العربية الى ذكرى شهيدها الأكبر فخني  
الرؤوس اجلالا «أبي الشهداء» ..

عباس محمود العقاد

## طبائع الناس

يتناوب طبائع الناس مزاجان متقابلان : مزاج يعمل أعماله للأريجية والنخوة ، ومزاج يعمل أعماله للمنفعة والفنمية والمزاجان لا ينفصلان كل الانفصال ..

فقد تفترن الأريجية بالمنفعة ، وتفترن المنفعة بالأريجية ، ولكنهما اذا اصطدموا — ولا سيما في الأعمال الكبيرة — لم يسر عليك أن تفصل المزاجين وتعزل العسكريين . فهذا للأريجية حتى يجب المنفعة ويخفيفها ، وهذا للمنفعة حتى يجب الأريجية ويخفيفها .. أو كذلك يتراوغان

وأصحاب المطالب الكبرى في التاريخ يعتمدون على هذا المزاج كما يعتمدون على ذاك .. فمنهم من يتسلل الى الناس بما فيهم من الجشع والخسة وقرب المأخذ وسهولة المسعى ، ومنهم من يتسلل الى الناس بما فيهم من طموح الى التبل والتجلدة وركوب المخاطر ونسيان الصغار في سبيل العظام ..

ولكل منها سبيله الى النعوس وأمله في التجا糊 على حسب الأوقات والبيئات ..

الا أن الأريجية أخلد من المنفعة بسنة من سنن الخلق التي لا تتبدل مع الأوقات والبيئات ..

لأن منفعة الإنسان وجدت لفرد من الأفراد ..

أما الأريجية التي يتجاوز بها الإنسان منفعته فقد وجدت للأمة كلها أو للنوع الإنساني كله . ومن ثم يكتب لها الدوام اذا اصطدمت بمتافع هذا الفرد أو ذاك ..

ولقد يبدو من ظواهر الأمور أن الأمر على خلاف ما يقول ، لأن الحريص على منفعته يبلغها ويضي قدمها اليها ، فينال المنفعة التي لا يطالها

صاحب الأريحة لأنه يتركها اذا اصطدمت بما هو أجل منها

وهذا صحيح مشهود لا مراء فيه ..

ولكن النجاح في الحركات التاريخية لن يسمى نجاحا اذا هو لم يتجاوز حياة فرد أو طائفة من الأفراد . فإذا قيل ان حركة من الحركات التاريخية قد نجحت ، فمغزى ذلك بداعه أن الأفراد القائين بها يذهبون وهي الباقية بعد ذهابهم .. ومن هنا يصح أن يقال ان الأريحة أبقى وأنجح اذا هي اصطدمت بالمنفعة الفردية ، لأن ذهاب الفرد هنا أمر مفروغ منه بعد كل حساب ، سواء أكان حساب الأريحيين أم حساب المتعين وأصحاب الأريحة اذن أبعد نظرا من دهاء الطامعين والتهازيين للفرص والمغانم العاجلة . لأنهم خلقوا بفطرتهم على حساب أمغار تتجاوز حساب عمرهم التصير . فهم — شعروا أو لم يشعروا — بعيدو النظر الى عواقب الأمور ، وان خيل الى أناس أنهم ظائزون متهمجون

\*\*\*

اما موقف المؤرخين في العطف على حركات التاريخ فهو على ما نرى موقف مزاج من هذين المزاجين ، وليس بوقف سهل من سبل البحث او مذهب من مذاهب التفكير ..

فالذين يجنحون بعراجمهم الى المنفعة يفهمون أعدار المتعين وينكرون ملامتهم على نأقديهم ..

والذين يجنحون بعراجمهم الى الأريحة يفهمون دوافع التخوة ويحسبونها عذرا لأصحابها أقوى من غواية المنافع والأرزاق الا أن الصواب هنا ظاهر جد الظهور لمن يريد أن يراه : الصواب أن العطف على جانب المنفعة عبث لا معنى له ولا حكمة فيه ..

وان العطف على جانب الأريحة واجب يخشى على الناس من تركه واهماله ، اذ كان تركه مناقضا لصييم الفطرة التي من أجلها فطر الناس على الاعجاب بكل ما يستحق الاعجاب

فليس يخشى على الناس يوماً أن يتتسوا منافعهم ويقتصرن في خدمة أنفسهم ، سواء عطف عليها المؤرخون أو أعرضوا عنها ساخرین منكرين ولكنهم يخسرون الأريحية اذا فقدوها وفقدوا الاعجاب بها والتعلم ايتها ، وهي التي خلقت ليعجب بها الناس . لأن حرص الإنسان على منفعته لا يغيبهم في حياتهم العامة أو في حياتهم الباقية . أما الأريحية التي بتجاوزها بها الإنسان نفسه في سبيل معنى من المعانى أو مثل عال من الأمثلة العليا ، فهى الخلقة النافعة للتنوع الانساني بأسره ، وان جاز اختلافهم في كل معنى وفي كل مثل عال ..

### صراع بين الأريحية والمنفعة

في ماضي الشرق وحاضره كثير من الحركات التاريخية التي وقع الصدام فيها بين الأريحية والمنفعة على أكثر من غرض واحد ..

ولكتنا لا نحسبنا مهتمين الى نموذج لهذا الصدام أوضح في المبادىء وأهدى الى النتائج وأبين عن خصائص المزاجين معاً من النموذج الذي عرضه لنا التاريخ في النزاع بين الطالبين والأمويين ، ولا سيما النزاع بينهما على عهد الحسين بن علي ، ويزيد بن معاوية

قلنا في كتابنا « عبقرية الامام » ما فحواه: ان الكفاح بين علي ومعاوية ، لم يكن كفاحاً بين رجلين أو بين عقليين وحيلتين .. ولكنه كان على الحقيقة كفاحاً بين الامامة الدينية والدولة الدنيوية ، وان الأيام كانت أيام دولة دنيوية فغلب الداعون الى هذه الدولة من حزب معاوية ، ولم يغلب الداعون الى الامامة من حزب الامام

ولو حاول معاوية ما حاوله علي لأخفق وما أفلح ، ولو أراد علي أن يسلك غير مسلكه لما أفاده ذلك شيئاً عند محبيه ولا عند بغضيه

فإذا جاز لأحد أن يشك في هذا الرأي ، وأن يرجع بنجاح معاوية الى شيء من مزاياه الشخصية فذلك غير جائز في الخلاف بين الحسين ويزيد . وكل ما يجوز هنا أن يقال: ان أنصار الدولة الدينية غلبوا أنصار الامامة

على سنة الخلفاء الراشدين ، لأن مطالب الامامة غير مطالب الزمان  
ما من أحد قط يزعم أن الصراع هنا كان صراعاً بين رجلاً أو بين عقليين  
وحيلتين . وإنما هو الصراع بين الامامة والملك الدنيوي ، أو بين الأرياحية  
والمنفعة في جولتهما الأولى ، ولم يكن لزيد قط فضل كبير أو صغير  
بما قد بلغه من الفوز والغلبة ..

\*\*\*

بل لا يمكن أن يتصل أحد هنا بما يتعلّل به أنصار المنافع عامة من  
« تقريره للنظام وحفظه للأمن العام » .. فأن يزيد لم يكن له فضل قط  
في قيام الدولة كما قامت على عهده وبعد عهده . وإنما كانت الدولة  
تتسلّك برغبة الراغبين في بقائها لا بقدرة الأمير المشرف عليها . وقد  
حدث بعد موت يزيد أن بويع ابنه معاوية الثاني بالشام — وكان من  
الراهدين في الحكم — فنادى الناس إلى صلاة جامعة ، وقال لهم : « أَمَّا  
بعد فاني قد ضفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين  
استخلفه أبو بكر ذا أجدہ ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم  
أجدتهم ، فأتمت أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم » ثم أوى إلى بيته  
ومضت شؤون الدولة على حالها حتى مات بعد ثلاثة أشهر ، وله مع هذا  
منافس قوي كعبد الله بن الزبير بالمحاجز

فلا وجه للمفاصلة بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية .. ورأى  
معاوية وأعوانه في هذا أسبق من رأي الطالبين وخصوص الأمويين ، فقد  
ترددوا كثيراً قبل الجھر باختيار يزيد لولاية العهد وبيعة الخلافة بعد أبيه .  
ولم يستحسنوا ذلك قبل ارجائهم النصح إلى يزيد غير مرّة بالاقلاع عن  
عيوبه وملاهيه . ولما أنكر بعض أولياء معاوية جرأة الحسين عليه في  
الخطاب ، وأشاروا عليه أن يكتب له كتاباً « يصغر ماليه نفسه » .. قال :  
« وما عسيت أن أغيب حسيناً ؟ .. والله ما أرى للغيب فيه موضعاً »  
وثم تعلّة أخرى يتعلّل بها المفاضلون بين علي ومعاوية ولا موضع لها  
في المفاضلة بين ولديهما الحسين ويزيد . وتلك ما يزعمونه من غلبة

معاوية على « علي » بحجه في الاقناع ونشاطه أو نشاط أصحابه في الدعوة السياسية ..

فهذه التعلة ان صلحت لتعليق نجاح معاوية ، فما هي بصالحة تعليق نجاح زيد ..

لأن الذين اندخدعوا أو تخادعوا للصيحة التي صاح بها معاوية في المطالبة بدم عثمان ، كانوا يرددون هذه الصيحة ويساعدون على ترديدها حقد التأثر المزعوم وسورة العصبية المهاجمة ، ثم يساعدون على ترديدها في مبدأ الأمر أن معاوية لم يكن مجاها بطلب الخلافة ولا متعرضا لزاحمة أحد على البيعة ، وإنما كان يتشبث بقتل عثمان والمطالبة بدمه ، ولا يزيد في دعواه على ادعاء ولایة الدم وصلة القرابة

\*\*\*

ولكن الصائجين بهذه الصيحة مع معاوية قد عاشوا حتى رأوا بأعينهم مبلغ الغيرة على تراث عثمان ، وعلموا ان الملك هو الفرض المقصود من وراء تلك الفتنة والأرباء ، وان معاوية لا يقنع بأن يملك لنفسه حتى يورث الملك ولده من بعده ، وليس هو من أهل الرأي ولا هو من أهل الصلاح ولا هو من من تتفق عليه آراء هؤلاء ، ولكنه فتى عريض يقضي ليه ونهاره بين الخمور والطناير ، ولا يفرغ من مجالس النساء والنندمان الا ليهرب الى الصيد فيقضي فيه الأسبوع بعد الأسبوع بين الأديرة والبواقي والآجام ، لا يالي خلال ذلك تمهيداً لملك ولا تدريباً على حكم ولا استطلاعاً لأحوال الرعية الذين سيتولاهم بعد أبيه ، ثقة بما صار اليه من التمهيد والتوطيد وما سوف يصير

فكل خلاف جاز في المفاضلة بين علي ومعاوية غير جائز في المفاضلة بين الحسين وزيد .. وإنما الموقف الحاسم بينهما ، موقف الأريجية الصراح في مواجهة المنفعة الصراح . وقد بلغ كلامها من موقفه أقصى طرفيه وأبعد غايته ، فاتصر الحسين بأشرف ما في النفس الإنسانية من غيرة على الحق وكراهة للنفاق والمداراة ، واتصر زيد بأرذل ما في النفس

الإنسانية من جسم ومراء وختنوع لصغر المتع والأهواء  
أقام الحسين نيلته الأخيرة بكرهلاه وهو لا ينتظر من عاقبته غير الموت  
العاجل بعد سويعات ، فأذن لأصحابه أن يتفرقوا عنه تحت الليل ان كانوا  
يستحيون أن يفارقوه في ضوء النهار . فأبوا الا أن يعتوا دونه ، وقال  
له مسلم بن عوسجة الأستدي : « أحنن تخلى عنك ولم نعذر الى الله  
في أداء حقك ؟ .. أما والله لا أفارقك حتى أكسر في صدورهم رحبي  
وأضرفهم بسيفي ما بقي قائم بيدي ، ولو لم يكن معني سلاحي لقذفهم  
بالحجارة دوتك حتى أموت معك » . وقد برّ بقسمه وبقي ومات ..  
ودنا منه حبيب بن مظاير وهو يوجد بنفسه ، فقال له : « لو لا اني أعلم  
اني في أترك لاحق بك لأنجبيت أن توصيني حتى أحفظك بما أنت له  
أهل » ، فقال وكان آخر ما قال : « أوصيك بهذا — رحمك الله — أن  
تغوت دونه » وأدوماً بيده نحو الحسين

\* \* \*

وقتل الحسين .. وذهب الأمل في دولته ودولة الطالبين من بعده الى  
أجل بعيد ، ولكنه كان يشتم بالكلمة العوراء فيهون على الرجل من  
 أصحاب الأريضية أن يموت ولا يصبر على سماع تلك الكلمة أو يترك  
الجواب عليها ..

فلما نعي الحسين في الكوفة نادى واليها ابن زياد الى الصلاة  
الجامعة . وصعد الى المنبر ، وخطب القوم فقال : « الصمد الله الذي أظهر  
الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين زيد بن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب  
ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته »

فما أتتها حتى وثب له من جانب المسجد شيخ ضرير هو عبد الله بن  
عفيف الأزدي الذي ذهبت احدى عينيه يوم الجمل وذهبت عينه الأخرى  
يوم صفين . فصاح بالوالى غداة يوم انتصاره وزهوه : « يا ابن  
مرجانة ! .. أقتل أبناء النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟ .. انا  
الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوبه »

فما طلم عليه الصباح الا وهو مصلوب ..  
الى هذا الأفق الأعلى من الأريحية والخوة ارتفعت بالنفس الإنسانية  
نصرة الحسين ..

والى الأنوار المرذولة من الخسنة والاثرة هبطت بالنفس الإنسانية  
نصرة يزيد .. وحسبك من خسة ناصريه ، أنهم كانوا يجزون بالحظام  
وهتك الأعراض على عزو « المدينة » النبوية واستباحة ذمارها فيسرعون  
إلى الجزاء .. يسرعون إليه وليسوا هم بكافرين بالنبي الدفين في تلك  
المدينة ، فيكون لهم عذر الاقدام على أمر لا يعتقدون فيه التحرير ! ..  
بل حسبك من خسة ناصريه أنهم كانوا يرعدون من مواجهة الحسين  
بالضرب في كربلاء لاعتقادهم بكرامته وحقه ، ثم يتزععون لباسه ولباس  
نسائه فيما انتزاعوه من أسلاب !! ولو أنهم كانوا يكفرون بدينه  
وبرسالة جده ، لكانوا في شرعة المروءة أقل خسنة من ذلك

\* \* \*

وتقابل وسائل النجاح في المزاجين كما تقابل المقاصد والغايات ..  
فكان شعار معاوية وأشياعه : « ان الله جنوداً من العسل » وهو يعني  
العسل الذي يداف بالسم ليخلّي طريق النجاح من كل مفترض فيها ولو  
كان من الأصدقاء . فكثرت روايات المؤرخين عن مقتل الحسن بن علي  
والأشتر التخمي بهؤلاء الجنود !! وأعجب منها ما قيل عن مقتل عبد  
الرحمن بن خالد ، وقد كان نصيراً معاوية في حروب الشام .. فانه مات  
مسموماً على ما اشتهر من الروايات ، لأنه رشح للخلافة بعد معاوية دون  
يزيد !! . وعلم ذلك أقرباء عبد الرحمن بن خالد ، فقتلوا طيب معاوية  
« ابن أثال » الذي اتهموه بسمه في الدواء

ولو استباح الحسين وشيشه هذه الوسائل مرة واحدة ، لكانوا  
وسيكين أن يبلغوا مقصدتهم من قريب . فقد كان هاني بن عروة شيخ  
كندة من أنصار الحسين وأبيه ، وكانت كندة كلها تطيعه وتليبه حتى قيل  
انه « اذا صرخ لباه منهم ألف سيف ». فزاره عبيد الله بن زياد - والي

يزيد على الكوفة – ليعوده في بعض مرضه ويتألفه ويستميله اليه . وقيل ان هانئاً عرض على مسلم بن عقيل بن أبي طالب أن يقتل عبد الله بن زياد وهو عنده ، وقيل ان الذي عرض ذلك رجل من صحبة هانئ المقربين . فأبي مسلم ما عرضه هذا ذاك ، وهو يومئذ طلبة ذلك الواли ، وجنوده قد تعقبوه وأهدروا دمه وأجزلوا الوعود لم يسلمه أو يدل عليه ، وقال : « انا أهل بيت نكره الغدر » . ولو انه بطش بابن زياد ، لقد بطش يومئذ بأكبر أنصار يزيد ..

وليقل من شاء ان قتل ابن زياد كان صواباً راجحاً ..  
وان الترجم من قتله كان خطأ فادحاً من وجهة السياسة أو من وجهة الأخلاق ، فالذي لا يشك فيه أنه ان كان صواباً فهو صواب سهل يستطيعه كثيرون ، وان كان خطأ فهو الخطأ الصعب الذي لا يستطيعه الا القليلون ..

\* \* \*

كذلك يقول من يقول : ان الأريجية التي سمت اليها طبائع أنصار الحسين ؛ إنما هي أريجية الإيمان الذي يعتقد صاحبه أنه يوت في نصرة الحسين فيذهب ل ساعته إلى جنات النعيم .. فهؤلاء الذين يقولون هذا انقول يجعلون المنفعة وحدها باعث الإنسان إلى جميع أعماله ، حتى ما صدر منها عن عقيدة وإيمان . وينسون ان المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى الغرائز الحيوانية التي يصاب من جراءها الفرد طوعاً أو كرها في خدمة نوعه ، بل ينسون أن أنصار يزيد لا يكرهون جنات النعيم ولا يكفرون بها ، فلماذا لم يطلبوا كما طلبوا أنصار الحسين ؟ .. انهم لم يطلبوا لأنهم منقادون لرواية أخرى ولأنهم لا يملكون عزيمة الإيمان ونضوة العقيدة ، ولا تلك القوة الأخلاقية التي يتغلبون بها على رهبة الموت ويفقدون بها وساوس التعلق بالعيش والخنوع للمتعة القريبة . فلو لا اختلاف الطبائع لظهر شرف الناس جميعاً بجنات النعيم على نحو واحد ، ومدى الناس على سنة واحدة في الأريجية والفتداء ، ومرجع الأمر اذن في آخر المطاف

الى فرق واضح بين طبائع الأريجيين وطبائع النفعيين  
وكذلك يقول من يقول : ان الأريجية في نفوس أنصار الحسين كانت  
أريجية أفراد معدودين ثبتوا معه ولم يخذلوه الى يومه الأخير .. وينسى  
هؤلاء ان الارتفاع ليقاس بالقمة الواحدة كما يقاس بالقمم الكثيرة ، وأن  
الفور ليسير في مكان واحد كما يسير في كل مكان ، وإنما تكون الندرة  
هنا أدلة على جلالة المرتقة الذى تطيقه النفس الواحدة أو الأنفس  
المعدودات ، ولا تطيقه نفوس الأكثرين ..

\* \* \*

فمدار الخلاف اذن في هذه الجولة التاريخية اى هو الفارق الخالد  
بين مزاجين يارزين كائناً ما كان تفسير المفسرين للعوائد الروحية والمطامع  
السياسية ، ولم يتلاق هذان المزاجان على تناحر وتنازع كما تلاقيا عاملا  
في النزاع بين الطالبين والأمويين ، وخاصة في النزاع بين الحسين ويزيد  
فحياة الحسين رضي الله عنه صفحة ، لا صفحة عاشرها في توضيح  
الفارق بين خصائص هذين المزاجين، وبيان ما لكل منها من عدة للتجاح  
في كفاح الحياة ، سواء نظرنا الى الأمد البعيد أو قصرنا النظر على الأمد  
القريب ..

## أسبابُ التَّنافِسِ وَالْخُصُومَةِ

قبل أن يقف الحسين ويزيد متناجين ، كانت الحوادث قد جمعت لهما أسبابُ التَّنافِسِ وَالْخُصُومَةِ منذ أجيال ، وكان هذا التَّنافِسُ بينهما يرجع إلى كل سبب يوجب التَّنافِسَ بين رجلين : من العصبية ، إلى التَّراث الموروثة ، إلى السياسة ، إلى العاطفة الشخصية ، إلى اختلاف الخليقة والنشأة والتفكير ..

تنافس هاشم وأمية على الزعامة قبل أن يولد معاوية .. فخرج أمية ناقماً إلى الشام وبقي هاشم منفرداً بزعامةبني عبد مناف في مكة . فكان هذا أول انقسام وتقسيم بين الأمويين والهاشميين : هؤلاء يعتضدون بالشام ، وهؤلاء يعتضدون بالحجاز ..

ثم علا نجم «أبي سفيان بن حرب بن أمية» في الحجاز ، فأصبحت له زعامة مرموقة إلى جانب زعامة الهاشمية . فلما ظهرت الدعوة المحمدية أخذته الفيرة على زعماته ، فكان في طليعة المحاربين للدعوة الجديدة . وندرت غزوة من النزوات لم تكن فيها لأبي سفيان أصبع ظاهره في تأليب القبائل وجمع الأموال . وشاءت المصادرات زماناً من الأزمان أن يظل وحده على زعامة قريش في حربها للنبي عليه الصلاة والسلام . فمات الوليد بن المغيرة زعيم مخزوم ، ودان زعماء تم وبني عدن وغيرهم من البطون القرشية الصفيرة بالاسلام ، ويقى أبو سفيان وحده على رأس زعامة الجاهلية والزعامة الأموية في منازلة النبي ومن معه من المهاجرين والأنصار وبلن من تغلغل العداء في هذه الأسرة للنبي عليه الصلاة والسلام ، أنَّ أباً لهب عنه كان أوحد أعدائه في الكيد له والتآليب عليه ، وإنما جاءه هذا من بنائه بأم جميل بنت حرب ، أخت أبي سفيان التي وصفها القرآن بأنها

« حَمَّالَةُ الْحَطَبِ » .. كِتَايَةُ عَنِ السُّعِيِّ فِي الشَّرِّ وَتَأْرِيَثُ نَارِ الْبُغْضَاءِ ..

ثُمَّ فَتَحَتْ مَكَّةُ ، فَوْقَهُ أَبُو سَفِيَانَ يَنْظُرُ إِلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ وَيَقُولُ لِلْعَبَاسِ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ : « وَاللَّهِ يَا أَبا الْفَضْلِ لَقَدْ أَصْبَحَ مَلِكَ ابْنِ أَخِيكَ الْيَوْمَ عَظِيمًا » .. فَلَمَّا قَالَ الْعَبَاسُ : « إِنَّهَا النُّبُوَّةُ ! » . قَالَ : « نَعَمْ إِذْنًا ! .. »

وَقَدْ أَسْلَمَ أَبُو سَفِيَانَ وَابْنَهُ مَعاوِيَةَ عَنْدَ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَكَانَ اسْلَامُ يَتِيمِ أَعْسَرِ إِسْلَامٍ عُرِفَ بَعْدَ فَتْحِهِ . فَكَانَتْ زَوْجَهُ هَنْدُ بْنَتُ عَتْبَةَ تُصْبِحُ فِي الْقَوْمِ بَعْدَ اسْلَامِهِ : « اقْتُلُوا الْخَبِيثَ الدُّنْسَ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ .. قُبْحٌ مِّنْ طَلْيَةِ قَوْمٍ .. هَلَا قَاتَلْتُمْ وَدَفَعْتُمْ عَنْ أَنفُسِكُمْ وَبِلَادِكُمْ ! .. »

\*\*\*

وَظَلَّ أَبُو سَفِيَانَ إِلَى مَا بَعْدِ اسْلَامِهِ زَمْنًا يُحْسِبُ غَلَبةَ الْإِسْلَامِ غَلَبةً عَلَيْهِ ، فَنَظَرَ إِلَى النَّبِيِّ مَرَةً وَهُوَ بِالسَّجْدَةِ نَظَرَةً الْحَائِرِ الْمُتَعَجِّبِ وَهُوَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ : « لَيْتَ شَعْرِيَ بِأَيِّ شَيْءٍ غَلَبَنِي ! » فَلَمْ يَخْفِ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعْنَى هَذِهِ النَّظَرَةِ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ حَتَّى ضَرَبَ يَدَهُ بَيْنَ كَتْفَيْهِ وَقَالَ لَهُ : « بِاللَّهِ ، غَلَبْتَكَ يَا أَبا سَفِيَانَ ! » ..

وَكَانَ فِي غَزْوَةِ حَنْيَنْ يَشَهِّدُ هَزِيْسَةُ الْمُسْلِمِينَ الْأُولَى فَيَقُولُ : « مَا أَرَاهُمْ يَقْفَوْنَ دُونَ الْبَحْرِ ! » وَقِيلَ أَنَّهُ كَانَ فِي حَرْبِ الشَّامِ يَهْتَفُ كُلَّمَا تَقْدَمَ الرُّومُ : « ايَّهُ بْنَيُ الْأَصْفَرِ » ، فَإِذَا تَرَاجَعُوا عَادُ فَقَالُوا : « وَيْلٌ لِّبْنِي الْأَصْفَرِ ! »

\*\*\*

وَقَدْ تَأْلَفَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا اسْتَطَاعَ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ وَبَعْدَ فَتْحِهَا ، فَتَزَوَّجُ بَنْتَهُ أُمَّ حَبِيبَةَ قَبْلَ الْفَتْحِ وَجَعَلَ يَتِيمَهُ بَعْدَ الْفَتْحِ حَرَمًا « مَنْ دَخَلَهُ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ » وَأَقَامَهُ عَلَى رَأْسِ الْمُؤْلَفَةِ قَلُوبَهِمُ الَّذِينَ يَزَادُ لَهُمْ فِي الْمَطَاءِ عَسْرًا أَنْ يَذَهَّبُ مَا فِي نَفْوسِهِمْ مِّنَ الْكَرَاهَةِ لِغَلَبةِ اسْلَامِ ..

وسم هذا كان المسلمين يوجسون منه فلا ينظرون اليه ولا يقاعدونه ..  
حتى برم بذلك وأحب أن يصح ما بصدورهم من قبله .. فتوسل إلى  
النبي أن يجعل معاوية كاتباً بين يديه وأن يأمره فيقاتل الكفار كما كان  
يقاتل المسلمين ..

ثم قبض النبي عليه السلام ، ونجم الخلاف على مبايعة الخليفة بعده  
بين المهاجرين والأنصار وبين بعض الصحابة من جهة أخرى .. فاشترأب  
أبو سفيان إلى هذه الفتنة ، وخليل إليه أنه مصيبة بين فتوقها ثغرة ينفذ  
منها إلى السيادة على قريش ، ثم السيادة من هذا الطريق على الأمة  
الإسلامية بأسرها .. فدخل على «علي» والعباس ، يشيرهما ويعرض عليهما  
العقوبة بما في وسعه من خيل ورجل : فنادي بهما : «يا علي ! وأنت  
يا عباس ! .. ما بال هذا الأمر في أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ والله لو  
شتت لأملاكها عليه - على أبي بكر - خيلا ورجالا وآخذناها عليه من  
أقطارها » ..

\*\*\*

وهو ولا ريب لم ينقض لأن الخلافة قد فاتت بنى هاشم ، ولا كان  
يسره أن تصير الخلافة إليهم فتستقر فيهم قرارا لا طاقة له بتحويله ..  
ولكنه أراد خلافا يفتح الباب لزعامة أممية يملك بها زمام قريش والدولة  
العربية جماء ..

فلم يخف مقصد هذه على «علي» رضي الله عنه ، وقال : « لا  
والله لا أريد أن تصلها عليه خيلا ورجالا ، ولو لا أتنا رأينا أبو بكر لذلك  
أهلًا ما خليناه واياها ». ثم أتبه قائلا : « يا أبو سفيان ! .. إن المؤمنين  
قوم نصحة بعضهم لبعض ، وإن المنافقين قوم غشية بعضهم لبعض ..  
متخاونون وإن قربت ديارهم وأبدانهم »

وانقضت خلافة أبي بكر وخلافة عمر والأمور تجري في مجريها الذي  
يأخذ على المطامع سبلها ، ويحيف أصحاب الفتن أن يرزوا بها من  
جحورها ..

حتى قامت خلافة عثمان بن عفان فاتصر بها الأمويون أيام انتصاره ، لأنّه رأس من رؤوسهم وابن عم قريب لوعدهم بيوقتم ، وأصبحت الدولة الإسلامية أممية لا يطبع في خيراتها ولا ولالياتها إلا من كان من أمية أو من حزبها . فعروان بن الحكم وزير الخليفة الأكبر يدق العطاء على الأقرباء ويجلسها عن سائر الناس ، ومعاوية بن أبي سفيان والى الشام يجذب اليه الأقرباء والأولياء ومن يرجى منهم العون . ويختفي منهم الخلاف فلما قتل عثمان رضي الله عنه كان المتنعمون بمناصب الدولة وأموالها جميعاً من الأمويين أو من صنائعهم المقربين ، ومال السلطان الى جانب أمية على كل جانب آخر من القرشين وغير القرشين

\*\*\*

لا جرم كان الصراع بعد ذلك صراعاً معروفاً النهاية من مطلع الردّية ، فقتل علي بن أبي طالب غيلة وخلصت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ..

ثم بايع أناس من أهل العراق وفارس الحسن بن علي ، فلم يستقم له أمرهم وضاق صدره ببعدهم ومحالهم ، وكان رجلاً سكينة يكره المنازعه ويتجنح الى العزلة ، فصالح معاوية على شروط .. وفيه له معاوية بالمعجل منها والتوى عليها بسؤالها . وزاد على ذلك كما تواتر في شتى الروايات أنه أغري أمرأته جعدة بنت الأشعث بسمه ، ووعدها أن يزوجهها بريده وبعطيها مائة ألف درهم ، فوق بوعده المال ولم يف بوعده الزواج

وقد أوصى الحسن رضي الله عنه أن يدفن عند قبر جده إلا أن تخاف فتنته . فلما توفي أرادوا دفنه حيث أوصى ، فقام مروان بن الحكم وجاء بني أمية وزمرتهم ومنعوا مشيعيه .. فأنكر الحسين عليهم منع سبط النبي أن يدفن الى جوار جده ، فقيل له : « إن أخاك قال اذا خفتم الفتنة ففي مقابر المسلمين سعة .. وهذه فتنة » .. فسكت على مضمض

وقد كان معاوية ولا ريب ينوي أن يجعلها دولة أموية متعاقبة في ذريته من بعده ، منذ تصدى للخلافة وخلا له المجال من أقوى منافسيه ، إلا أنه كان يتrepid ويكتم ولا يفضي بيته الى أقرب المقربين اليه ، ثم كبرت سنه وخاف أن يجعل عن قصده ، فمهما لبيعة ابنه يزيد بعض التمهيد وتوصل الى ذلك بما طاب له من وسيلة .. فلباه أهل الشام وكتب بيته الى الأفاق ، ثم همه أمر العجاج فكتب الى مروان بن الحكم عامله أن يجمع من قبله لأخذ البيعة منهم ليزيد ، فأبى مروان وأغرى رؤوس قريش بالاباء ، لأنه كان يتطلع الى الخلافة بعد معاوية ويعتبر أقدر عليها من يزيد ، لما اشتهر به من نقص وعيث .. فعزله معاوية وولى سعيداً بن العاص مكانه ، فلم يجده أحد الى ما أراد . فكتب معاوية الى عبدالله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، والحسين بن علي ، وأمر عامله سعيداً أن يوصل كتبه اليهم ويعث اليه بجواباتها . وقال لسعيد : « فهمت ما ذكرت من إطماء الناس ، وقد كتبت الى رؤسائهم كتاباً فسلّمها اليهم .. ولتشد عزيمتك وتحسن نيتك ، وعليك بالرفق . وانظر حسيناً خاصة فلا يناله منك مكروه ، فإن له قرابة وحقاً عظيماً لا ينكره مسلم ولا مسلمة .. وهو ليث عرين ، ولست آمنك إن ساورته ألا تقوى عليه »

\*\*\*

فأعيةت سعيد بن العاص كل حيلة في اقناع وجهاه الناس وعامتهم بهذه البيعة البغيضة ، وخف معاوية الى مكة ومعه الجناد وحقائب الأموال ، ودعا بأولئك النفر فقال لهم : « قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم يزيد أخوكم وابن عمك ، وأردت أن تقدموا يزيد باسم الخلافة وتكونوا أتم تعزلون وتوئرون وتجبون المال وتقسمونه »

فأجاب عبد الله بن الزبير ، وخياره بين أن يصنع كما صنع رسول الله اذا لم يستخلف أحداً ، أو كما صنع أبو بكر ، اذا عهد الى رجل ليس من بنى

أبيه ، أو كما صنع عمر اذ جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه  
فقال معاوية مغضبا : « هل عندك غير هذا ؟ »  
قال : « لا .. »

والتفت إلى الآخرين يسألهم قائلا : « فأئم ؟ » فوافقوا ابن الزبير ...  
فقال متوعداً : « أعذر من أنذر ! .. إنني كنت أخطب فيكم فيقوم إليَّ القائم منكم فيكذبني على رؤوسِه فأحمل ذلك وأصفح ، واني قائم بمقابلة .. فاقسم بالله لئن ردَّ عليَّ أحدكم كلمة في مقامي هذا ، لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يقين رجل إلا على نفسه »  
ثم أمر صاحب حرسه أذ يقيم على رأس كل منهم رجلين مع كل واحد منهما سيف ، وقال له : « ان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب ، فليضر به بسيفيهما » .

ثم خرج بهم إلى المسجد ورقى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :  
— هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبرأ أمر دونهم ولا يقضى  
الا على مشورتهم ، وانهم قد رضوا وبایعوا لیزید فبایعوا على اسم الله  
فبایعوا الناس ..

وهكذا كانت البيعة لیزید في الحجاز ..

\*\*\*

ومات معاوية وهو يعلم أن بيعة كهذه لا تجوز ولا تؤمن عقبها ..  
فأوصى ابنه « انه لا يخاف الا هؤلاء من قريش : الحسين بن علي ،  
وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير » . قال : « فأما عبد الله بن عمر  
ف الرجل قد وقته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره بآيتك . وأما الحسين بن علي  
فلا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه .. فان خرج عليك فظفرت به  
فاصفح عنه ، فان له رحمة ماسة وحقاً عظيماً »

« أما ابن الزبير فإنه خب ضب ، فإذا أمكنته فرصة وثب .. فان هو  
فعلها فقدرت عليه ، فقطعه إرباً إرباً الا أن يت未成 منه صلحاً ، فان فعل  
فأقبل واحقن دماء قومك ما استطعت » ..

### خلافة يزيد

وآل الأمر على هذا النحو الى يزيد في سنة ستين للهجرة ، وهو بين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين ، ولكنه دون أنداده في تجارب الأيام ، وليس حوله من المشيرين والنصائح أمثال المغيرة ، وزياد ، وعمر وابن العاص ، وغيرهم من القروم الذين كانوا حول أبيه .. فتهيب ما هو مقدم عليه ، وكتب الى عامله بالمدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان : « أَنْ خَذْ حَسِينًا ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْزِيْر ، بِالْبَيْعَةِ أَخْذًا شَدِيدًا لِيُسْتَفِيْ فِيهِ رَحْصَةَ حَتَّى يَأْبَعُوا وَالسَّلَامُ »

فبعث الوليد الى مروان بن الحكم يستشيره .. وكان مروان يزيد الخلافة لنفسه ، ولكنه علم بعد موت معاوية وقيام يزيد أن الأمر اليوم أمر بني أمية ، فان خرج منهم فقد خرج منهم أجمعين . فنصح للوليد نصيحة ذات وجهين : ظاهرها الشدة في الدعوة ليزيد وباطتها السعي الى الخلاص من يزيد ومنافسيه . فقال : « أَرَى أَنْ تَبْعَثَ السَّاعَةَ إِلَى هُؤُلَاءِ النَّفَرَ فَتَدْعُوهُمْ إِلَى الْبَيْعَةِ . أَمَا أَبْنَ عَمْرٍ فَلَا أَرَاهُ يَرِيُّ الْقَتْالَ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْحَسِينِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْزِيْرِ ، فَإِنْ بَيَعُوا وَلَا فَاضْرِبْ أَعْنَاقَهُمَا .. »

وضرب عنق الحسين وابن الزير معناه الخلاص من أعظم المنافسين ليزيد .. ثم الخلاص من يزيد نفسه باثاره التفوس وايقار الصدور عليه !

\*\*\*

وقد ذهب رسول الوليد الى الحسين وابن الزير ، فوجدهما في المسجد .. فعلم الحسين ما يراد منه ، وجمع طائفة من مواليه يحملون السلاح ، وقال لهم وهو يدخل بيت الوليد : « أَنْ دَعْوَتُكُمْ أَوْ سَمِعْتُ صَوْتِي قَدْ عَلَا فَاقْتُلُوكُمْ عَلَى بِأَجْمَعِكُمْ ، وَلَا فَلَا تَبْرُحُوا حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ » ..

فلما عرضوا عليه البيعة ليزيد قال : « أَمَا الْبَيْعَةُ فَإِنْ مُثِلِي لَا يَعْطِي بِعْتَهُ سِرًا ، وَلَا أَرَاكُ تَقْعُ بِهَا مِنِي سِرًا »

قال الوليد : « أَجَلْ أَجَلْ ۝

قال الحسين : « فإذا خرجت الى الناس فدعوهم الى البيعة دعوتنا لهم  
فكان الأمر واحداً »

ثم انصرف ومرwan عاصب صامت لا يتكلّم .. وما هو الا أن توارى  
الحسين حتى صاح بالوليد : « عصيتي والله ! لا قدرت منه على مثلها  
أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه »

فأنكر الوليد حاجته وقال له : « أتشير علي بقتل الحسين ! والله ان  
الذي يحاسب بدم الحسين يوم القيمة لخيف الميزان عند الله »

\* \* \*

وهكذا انتهت المنافسة بينبني أمية وبني هاشم الى مفترق طريق  
لا سبيل فيه الى توفيق ، ولم تقطع قط سلسلة هذه المنافسة منذ أجيال  
وان غلبها الاسلام في عهد النبوة ، وفي عهد الصديق والفاروق  
وكفى بالاسلام فضلا في هذا المجال أنه غلب العصبية بالمقيدة ، فجعلها  
تابعة لها غير قادرة على الجهر بمخالفتها ! ولكن العصبية المكبوبة عصبية  
موجودة غير معروفة ..

\* \* \*

وكتيرا ما يفلت المكبوب من عنانه ، وان طالت به الرياضة والاتقيناد  
فاتفاق كثيرة في مساجلات شتى بين كبار الصحابة ، أن بدرت الى  
اللسان بوادر العصبية والنبي عليه السلام حاضر ، فلما أشار عمر بقتل  
أبي سفيان - على خلاف رأي العباس في استبقاءه وتألفه - قال العباس :  
« مهلا ياعمر ! فواهله لو كان من رجالبني عدي بن كعب ماقلت مثل  
هذا .. ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف »

ولما توب أسيد بن حضير لضرب أعناق المقربين على السيدة عائشة ،  
ثار به سعد بن عبادة وصاح به : « كذبت بعمر الله ! ما تضرب أعناقهم .  
أما والله ما قلت هذه المقالة الا انك قد عرفت أنهم من الغرجرج ، ولو كانوا  
من قومك - الأوس - ما قلت هذا .. »  
وقد مات الفاروق وهو يوصي علياً فيقول : « اتق الله يا علي ان وليت

شيئا ، فلا تحملن بنى هاشم على رقاب المسلمين » .. ثم يلتفت الى عثمان فيقول له : « اتق الله ان وليت شيئا فلا تحملن بنى أمية على رقاب المسلمين » ..

\*\*\*

ومن عجائب الحيل التي تحاول بها الفرائر الانسانية أن تبقى وجودها وتمضي لطبيعتها ، لأن بنى أمية اتفعوا من حرب الاسلام للعصبية في تعزيز عصبيتهم ، فجعلوها حجة على بنى هاشم أن النبوة لا تحصر الأمر فيهم وأن الأنبياء لا يورثون .. وإذا نهضت هذه العجة على بنى هاشم ، فبني أمية أقوى المتقطعين بها من بطون عبد مناف !

وقد أوجبت الضرورة قبل المجاملة في هذه المنافسات فترة من الزمن على عهد معاوية بن أبي سفيان ، فكان يلطف القول الى أبناء على ويواليهم بالهدايا والمجاملات ، ولكنـه كان مضطرا الى مجامـلة آل على ومـضـطـرا الى تـنقـصـ علىـ والـفـضـ من دعـاه . فـكانـ بـذـلـكـ مـضـطـراـ الىـ التـقـيـضـينـ فـآنـ.

انه ملك وبـايـحـ بالـملـكـ لـيزـيدـ وـهـ يـلـمـ أـنـ غـالـبـ بـالـسـلاحـ وـالـمـالـ ، مـغلـوبـ بـالـسـمعـةـ وـالـشـعـورـ . فـكانـ النـاسـ يـفـضـلـونـ عـلـيـاـ عـلـيـهـ وـهـ لـاـ يـمـلـكـ أـنـ يـفـاضـلـ بـقـرـاءـةـ النـبـيـ ، وـلـاـ بـالـسـابـقـةـ إـلـىـ الـإـسـلـامـ ، وـلـاـ بـالـعـرـاقـ فـيـ قـرـيشـ . فـتـجـبـ النـسـبـ وـالـسـابـقـةـ ، وـعـدـ إـلـىـ شـخـصـ عـلـيـ فـيـ مـنـازـعـاتـ الـخـلـافـةـ ، فـأـتـهـمـ بـتـفـرـقـةـ الـكـلـمـةـ بـيـنـ الـمـسـلـمـينـ ، وـأـمـرـ بـلـعـنـهـ عـلـىـ الـمـسـابـرـ عـسـىـ أـنـ يـضـعـفـ مـنـ تـلـكـ الـمـكـانـةـ الـتـيـ هوـ مـغـلـوبـ بـهـ وـيـسـتـبـقـ الـدـوـلـةـ الـتـيـ هوـ بـهـ غـالـبـ .. وـلـجـ فـيـ ذـلـكـ حـتـىـ قـتـلـ أـنـاسـاـ لـمـ يـطـيعـهـ فـيـ لـعـنـ عـلـيـ وـاـتـهـمـهـ ، وـأـبـيـ أـنـ يـجـبـ الـحـسـنـ بـنـ عـلـيـ إـلـىـ شـرـطـهـ الـذـيـ أـرـادـ بـهـ أـنـ يـرـفـعـ الـلـعـنـ عـنـ أـيـهـ .. وـكـانـ مـعـاوـيـةـ عـلـىـ حـصـافـتـهـ يـجـهـلـ أـنـ قـدـ أـضـاعـ سـعـةـ وـشـعـورـاـ مـنـ حـارـبـ عـلـيـاـ فـيـ مـقـامـ السـعـةـ وـالـشـعـورـ ..

وانـ مـجاـملـةـ كـهـنـهـ الـتـيـ تـحـيـيـ الرـجـلـ وـتـفـضـلـ مـنـ قـدـرـ أـيـهـ لـهـ أـضـعـفـ مـجاـملـةـ بـيـنـ مـتـلـقـيـنـ ، فـضـلـاـ عـنـ خـصـمـيـنـ مـتـنـافـسـيـنـ قـدـ آلـ بـهـمـاـ التـنـافـسـ بـعـدـ أـجـيـالـ إـلـىـ مـفـرـقـ الـطـرـيقـ

## زواج الحسين

وكاناً كانت هذه المنافسة المؤصلة الجذور لا تكفي قصاصات التاريخ ، فأضاف إليها أناس من ثقاتهم قصة منافسة أخرى هي وحدها كافية للنفرة بين قلين متألقين . وهي قصة زواج الحسين رضي الله عنه بزینب بنت اسحق التي كان يهواها يزيد هوى أدقه وأعياه

وكانت زینب هذه على ما قيل أشهر فتيات زمانها بالجمال ، وكانت زوجة لعبد الله بن سلام الترشبي والتي العراق من قبل معاوية

فرض يزيد يحبها وأخفى سره عن أهله ، حتى استخرج له منه بعض خصيـان القصر الذين يعيـنونه على شهـواته .. فلما علم أبوه سر مرضه أرسـل في طلب عبد الله بن سلام واستدعيـه إليه أبا هـريرة وأبا الدرداء ، فقال لهـما: إنـ لهـ ابنة يـزيد زـواجهـا ولـم يـرضـ لهاـ خـليلـاـ غيرـ ابنـ سـلامـ ، لـديـهـ وـفـضـلـهـ وـشـرـفـهـ وـرـغـبـةـ مـعـاوـيـةـ فـيـ تـكـرـيـهـ وـتـقـرـيـهـ . فـخـدـعـ ابنـ سـلامـ بـمـاـ بـلـغـهـ وـفـاتـحـ مـعـاوـيـةـ فـيـ خـطـبـةـ اـبـتـهـ ، فـوـكـلـ مـعـاوـيـةـ الـأـمـرـ إـلـىـ أـبـيـ هـرـيرـةـ لـيـلـئـنـهـ وـيـسـمـعـ جـوـابـهـ . فـكـانـ جـوـابـهـ المـتـقـعـ عـلـيـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ أـبـيـهـ لـاـ تـكـرـهـ مـاـ اـخـتـارـهـ ، وـلـكـنـهـ تـخـشـيـ الضـرـ وـتـشـفـقـ أـنـ يـسـوـقـهـ إـلـىـ مـاـ يـفـضـبـ لـهـ فـطـلـقـ اـبـنـ سـلامـ زـوـجـهـ وـاستـجـزـ مـعـاوـيـةـ وـعـدـهـ .. فـإـذـاـ هـوـ يـلـوـيـهـ بـهـ وـيـقـولـ بـلـسـانـ اـبـتـهـ: إـنـهـ تـوـجـسـ مـنـ رـجـلـ يـطـلـقـ زـوـجـهـ وـهـيـ اـبـنـ عـمـهـ وـأـجـمـلـ نـسـاءـ عـصـرـهـ ..

\*\*\*

وقيل: إنـ الحـسـينـ سـمـعـ بـهـذـهـ الـمـكـيـدـةـ ، فـسـأـلـ أـبـاـ هـرـيرـةـ أـنـ يـذـكـرـهـ عـنـ زـيـنـبـ خـاطـبـاـ .. فـصـدـعـ أـبـوـ هـرـيرـةـ بـأـمـرـهـ وـقـالـ لـزـيـنـبـ: «ـ اـنـكـ لـاـ تـعـدـمـنـ طـلـابـاـ خـيـراـ مـنـ عـبـدـ اللهـ بنـ سـلامـ »

قالـتـ: «ـ مـنـ؟ـ»ـ قـالـ: «ـ يـزيدـ بنـ مـعـاوـيـةـ وـالـحسـينـ بنـ عـلـيـ»ـ ، وـهـمـاـ مـعـرـوفـانـ لـدـيـكـ بـأـحـسـنـ مـاـ تـبـتـعـنـهـ فـيـ الرـجـالـ ..»

واستشارته في اختيار أحدهما ، فقال : « لا أختار فم أحد على فم قبله  
رسول الله ، تضعين شفتوك في موضع شفتيه »  
فقالت : « لا أختار على الحسين بن علي أحداً وهو ريحانة النبي وسيد  
شباب أهل الجنة »

فقال معاوية متغطرضاً :

إنعمي أمَّ خالد ربي سامي لقاعد  
ولم يلتفت الحسين أن ردحاً إلى زوجها قائلاً : « ما أدخلتها في بيتي  
وتحت نكاحي رغبة في مالها ولا جمالها ، ولكن أردت لحلالها لبعلاها »

\* \* \*

فإن صحت هذه القصة وهي متواترة في تواريخ الثقات ، فقد تم بها  
ما نقص من النفرة والخصومة بين الرجلين ، وكان قيام يزيد على الخلافة  
يوم فصل في هذه الخصومة ، لا يقبل الارجاء ، وكان بينهما كما أسلفنا  
مفترق طريق ..

## موازنة

لخص المقرizi المنافسة التي بين الهاشميين والأمويين في ييتين فقال :  
عبد شمس قد أضرمت لبني ها  
شم حرباً يشيب منها الولد  
فابن حرب للمصطفى ، وابن هند  
لعلى ، والحسين يزيد

وسنعرض في ختام هذا الفصل عرضاً موجزاً لهذه المقابلة المتسلسلة بين  
أفراد الأسرتين لتحقيق الرأي فيما ، ولكننا نجتنى هنا بالمقابلة بين  
الخصمين المتصارعين من هاشم وعبد شمس في شخصي الحسين ويزيد ..  
فإياً كان الميزان الذي يوزن به كل من الرجلين ، فلا مراء البتة في خير  
الرجلين ..

وما من رجل فاز حيث ينبغي أن يخيب ، كما قد فاز يزيد بن معاوية في  
حربه للحسين ، وما اختصم رجالان كان أحدهما أوضح حقاً وأظهر فضلاً  
من الحسين في خصومته لزيـد بن معاوية  
والموازنة بين هذين الخصمين هي في بعض وجوهها موازنة بين الهاشميـن  
والأمويين من بداية الخلاف بين الأسرتين ، وهي موازنة حفظت كفتـها  
على وضعهما زهاء سبعة قرون ، فلم يظهر في هذه القرون أموي قـح ، الا  
ظهرت فيه الخصال الأمـوية المعهودة في القبيلة بأسـها ، ولم يظهر في خلالها  
هاشـمي قـح ، الا رأـيت فيه ملامـع من تلك الخصال التي بلـغت مثلـها الأعلى  
في محمد بن عـبد الله عليه السـلام  
والهاشـميـون والأموـيون من أروـمة واحـلة ترتفـع إلى عبد منـاف ، ثم  
إلى قـريـشـين في أصلـها الأصـيل ..

ولكن الأسرتين تختلفان في الأخلاق والأمزجة وان اتحدتا في الأرومة..  
فبنو هاشم في الأغلب الأعم مثاليون أريجيون ولا سيما أبناء فاطمة  
الزهراء ، وبنو أمية في الأغلب الأعم عمليون نفعيون ، ولا سيما الأصلاء  
منهم في عبد شمس من الآباء والأمهات

وتفسir هذا الاختلاف مع اتحاد الأرومة غير عسير .. فان الأخرين في  
البيت الواحد قد يختلفان في الأخلاق والأعمال ، كما يختلف الغربان من  
أمتين بعيدتين ، بينما لاختلف سلسلة الميراث في الأصول والفروع ، على  
ذلك النحو الذي ياذن أحيانا باختلاف الألوان والملامح في نسل واحد ،  
تأخذ كل شعبة منه بناحية من نواحي الوراثة

\*\*\*

ومن الثابت الذي لا نزاع فيه أن عبد المطلب وأمية كانوا يختلفان حتى  
في الصورة والقامة والملامح ..  
وفي نسل أمية شبهة تشير إليها ولا تزيد ، فهي محل الاشارة والراجحة  
في هذا المقام ..

دخل دغفل النساء على معاوية فقال له : «من رأيت من عليه قريش؟».  
قال : «رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس». . قال :  
«صنهمالي». . قال : «كان عبد المطلب أبيض ، متدين القامة ، حسن  
الوجه ، في جبينه نور النبوة وعز الملك ، يطيف به عشرة من بنيه كأنهم  
أسد غاب». . قال : «فصف أمية». . قال : «رأيته شيئاً قصيراً ، نحيفاً  
الجسم ضريراً ، يقوده عبد ذكوان». . فقال معاوية : «مه ! .. ذلك ابنه  
أبو عمرو». . فقال دغفل : «ذلك شيء قلتموه بعد وأحدثتموه .. وأما  
الذى عرفت فهو الذي أخبرتك به»

وذكر الهيثم بن عدي في كتاب «المثالب» أن آبا عمرو بن أمية كان عبداً  
لأمية اسمه ذكوان فاستلحقه ، ونقل أبو الفرج الأصبهاني - وهو من  
الأمويين - ما تقدم فلم يعرض له بتقنيد ..  
ووضح الفرق بين بنى هاشم وبني أمية في الخلائق والمناقب في الجاهلية

قبل الاسلام . فكان الهاشميون سراعاً الى النجدة ونصرة الحق والتعاون عليه .. ولم يكن بنو أمية كذلك .. فتخلعوا عن حلف الفضول الذي نهض به بنو هاشم وحلفاؤهم ، وهو الحلف الذي اتفق فيه نخبة من رؤساء قريش « ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا اليه حقه » ، وللأخذن أنفسهم بالتأسي في المعاش والتساهم في المال ، وليمنعن القوي من ظلم الصغير والقاطن من عنف الغريب » واتفقوا على هذا الحلف لأن العاص بن وائل اشتري بضاعة من رجل زيدى ولواه بثمنها ، فنصرروا الرجل الغريب على الترشي وأعطوه حقه ..

ولما تنافر عبد المطلب وحرب بن أمية الى تغيل بن عدي ، قضى عبد المطلب وقال لعرب :

أبوك معاهر وأبواه عفت      وذاد الفيل عن بلد حرام  
يشير الى فيل أبرهة الذي أغار به على مكة . وقال عن أمية إنه «معاهر»  
لأنه كان يتعرض للنساء ، وقد ضرب بالسيف مرة لأنه تعرض لامرأة من  
بني زهرة ، وكان له تصرف عجيب في علاقات الزواج والبنوة . فاستلحق  
عده ذكوان وزوجه امرأته في حياته ، ولم يعرف سيد من سادات الجاهلية  
قط صنع هذا الصنيع

#### اختلاف النساء

وندع اختلاف الطبائع ومفامز النسب ثم ننظر في اختلاف النساء  
والعادة — مع اختلاف الخلقة الجسدية — فنرى أنها صالحتان لتفسير  
الفارق بين أبناء هاشم وأبناء عبد شمس بعد جيلين أو ثلاثة أجيال ..  
فقد كان بنو هاشم يعملون في الرئاسة الدينية ، وبنو عبد شمس  
يعملون في التجارة أو الرئاسة السياسية .. وهما ما هما في الجاهلية من  
الربا والمماكسة والغبن والتطفيق والتزييف ، فلا عجب أن يختلفا هذا  
الاختلاف بين أخلاق الصراحة وأخلاق المساومة ، وبين وسائل اليمان  
وسائل الحيلة على النجاح  
ويتفق كثيراً في الكهافات الوثنية أن يتصف رؤساء الأديان بصفات

الرياء والدهاء والubit بأحلام الأغوار والجهلاء ، ولكنهم يتصرفون بهذه الصفة حين يعلمون الكذب فيما يمارسون من شعائر الكهانة ، ومظاهر العبادة ، ويتخذونها صناعة يروجونها لنفعتهم أو لما يقدرون فيها من منفعة أولئك الأغوار والجهلاء ..

أما أبناء هاشم فلم يكونوا من طراز أولئك الكهان المشعوذين ، ولا كانوا من المحتالين بالكهانة على خداع أنفسهم وخداع المؤمنين والمصدقين بل كانوا يؤمنون برب البيت ، وبلغ من إيمانهم بدينه أن عبد المطلب - جد النبي عليه السلام - أوصى أن يذبح ابنه فدية لرب البيت لأنّه نذر « لئن عاش له عشرة بنين ليحرّن أحدهم عند الكعبة » ، ولم يتحلّ من نذرته حتى استوّق من كلام العرافة بعد رمي القداح ثلاث مرات

\* \* \*

والأخلاق المثالية توائم الرئاسة الدينية التي يدين أصحابها بما يدعون إليه .. فاذ لم تكن فيبني هاشم موروثة من معدن أصيل في الأسرة ، فهي أشبه بسمّ الرئاسة الدينية والعقيدة المتمكّنة والشعائر المتّبعة حيلاً بعد جيل ، وهي أخلق أن تزداد في الأسرة تمكّناً بعد ظهور النبوة فيها ، وأن يتلقاها بالوراثة والقدوة أسباط النبي وأقرب الناس إليه ..

وانك لتنحدر مع أعقاب الذرية في الطالبين - أبناء علي والزهراء - مائة سنة وأربعين سنة ، ثم ييرز لك رجل من رجالها فيخيل إليك أن هذا الزمن الطويل لم يبعد قط بين الفرع وأصله في الخصال والعادات .. كأنما هو بعد أيام معدودات لا بعد المئات وراء المئات من السنين ، ولا تلبث أن تهتف عجياً : إن هذه لصفات علوية لاشك فيها ، لأنك تسمع الرجل منهم يتكلّم ويجبّ من يكلمه ، وترأه يعمل ويجزي من عمل له ، فلا تخطر في كلامه ولا في عمله تلك الشجاعة والصراحة ، ولا ذلك الذكاء والبلاغ المسكّت ، ولا تلك اللوازم التي اشتهر بها علي وألهه ; تجمعها في كلمتين اثنين تدلان عليها أوفى دلالة ، وهما : « الفروسيّة والرياضة » ..

طبع صريح ، ولسان فصيح ، ومتانة في الأسر يستوي فيها الخلق والخلق ، ونخوة لا تبالي ما يفوتها من التفع اذا هي استقامت على سنة المروءة والاباء ..

فمن يحيى بن عمر ، الى علي بن أبي طالب ، خمسة او ستة أجيال .. ولكن يحيى بن عمر يوصف لـك ، فاذا هو صورة مصغره من صور علي ابن أبي طالب على نحو من الانحاء ، فمن اوصافه التي وصفه بها الكاتب الاموي أبو الفرج الأصبهاني انه كان « رجلا فارسا ، شجاعا ، شديد البدن ، مجتمع القلب بعيدا عن رهق الشباب وما يعاب به مثله »

ومما روي عنه « انه كان مقينا ببغداد ، وكان له عمود حديدي ثقيل يكون معه في منزله ، وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه .. فيلوي العمود في عنقه فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله يحيى رضي الله عنه »

ولما ضايقه الأمراء وضنوا عليه بجرياته في بيت المال ، كان يجوع

ويعرض عليه الطعام فيأباه ويقول : « ان عشنا أكلنا »

ثم ثار وبلغت أبناء ثورته بغداد ، فأقبلت عليهم الجموع المحسودة لقتاله ، وأسرع اليه بعض الأعراب فصاح به : « أيها الرجل ، أنت مخدوع .. هذه الخيل قد أقبلت » .. فوثب الى متن فرسه فجال به ، وحمل على قائد القوم فضربه ضربة بسيفة على وجهه .. فوائى منهاما وتبعه أصحابه ، فجلس معهم ساعة وهو لا يبالي ما يكون

\* \* \*

ولما تكاثرت عليه الجموع وقتل بعد ذلك ، اتهم الناس صاحبه الهيضم العجيبي انه كان مدسوساً عليه ، وانه غرر به لينكس عنده عند احتدام القتال . فأقسم الرجل بالطلاق انه لم يكن له في المزية صنع مدبر .. قال : « وإنما كان يحيى يحمل وحده ويرجع ، فنهيته عن ذلك فلم يقبل .. وحمل مرة كما كان يفعل ، فبصرت عيني به وقد صرع في وسط عسكريهم ، فلما رأيته قتل انصرف بأصحابي »

ويحيى الشهيد هذا هو الذي قال ابن الرومي جيميته المشهورة في وصف قتاله ومقتله ، وهي طويلة منها قوله يخاطب أمراء زمانه :

فلو شهد المياجا بقلب أيكم  
 غداة التقى الجuman والخيل تسعج (١)  
 لأعطي يد العاني أو ارتد هاربا  
 كما ارتد بالقاسع الظليم (٢) المياج  
 ولكنه ما زال يغشى بنحرره  
 شبا الحرب حتى قال ذو الجهل : أهوج  
 وحاشى له من تلکم غير أنه  
 أبي خطة الأمر الذي هو أسمج  
 وأين به عن ذاك ؟.. لا أين - انه  
 اليه بعرقيه الزكين محسرج  
 كأني به كالليث يحمي عريشه  
 وأشباله لا يزدهيه المجتمع  
 كداب علي في المواطن قبله  
 - أبي حسن - والغضن من حيث يخرج  
 كأني أراه اذ هو عن جواده  
 وعقر بالترسب الجبين المشبع  
 . فحب به جسماً الى الأرض اذ هو  
 وحب به روحـاً الى الله تمرج

\*\*\*

وقد أصحاب ابن الرومي الوصف والتعليق ، فما كان كل من يحيى  
 ولا أسلافه من قبله الا علياً صغيراً يتأنى بعلی الكبير ، أو غصناً زاكياً  
 يخرج من دوخته الكبیر ، «والغضن من حيث يخرج» كما قال ، ولو لا قرة  
 هذه الطائئ في أساس الأسرة الطالية لما انحدرت على هذه الصورة  
 الواضحة بعد ستة أجيال . فنحن نرى يحيى بن عمر بعد هذه الأجيال  
 - وهو يعموده الحديدي وجرأته التي لا تتزعزع ويقينه الذي لا يلوي

(١) سعج القرس : أسرع سوء في سهولة

(٢) ذكر النعام

به الأغراء والوعيد – كأنما هو نسخة من جده الكبير الذي يحمل  
باب خير وقد أعيا حمله الرجال ، وينهد لعمرو بن وذ وقد تهيئه مثات  
الأبطال ، ويتوسط الصفوف حاسرا وقد يرزوا له بشكبة القتال ودروع  
الانزال ..

ولم يكن لبني أمية – على تقدير هذا – نصيب ملحوظ من الخلاقـ  
المثالـية والشمائل الدينـية ، ولا كان ظهور النبوـة في أسرة مناسبـة لأسرتهمـ  
من شأنـه أن يعزـز مناقبـها فيـهم كما يعتـزـ بها أبناءـ بيـتها وفروعـ أروـمتـها .  
بل لعلـه كانـ من شأنـه أن يجـنـحـ بهـمـ منـ طـرفـ خـفـيـ إلىـ صـفـاتـ تـقـابـلـ تلكـ  
الـصـفـاتـ ، ومـزاـياـ توـضـعـ لهمـ ماـفـاتـهمـ منـ تـلـكـ المـزاـياـ .. فـتـمـكـنـتـ فيـهمـ قـبـلـ  
ظـهـورـ النـبـوـةـ وـبـعـدـهاـ خـلـائـقـهـ الـعـلـىـ الـتـيـ درـبـتـهـ عـلـيـهاـ المسـاـومـاتـ التـجـارـيـةـ  
وـرـاضـهـمـ عـلـيـهاـ مـرـاسـ المـطـامـعـ السـيـاسـيـةـ . فـاشـهـرـ أـنـاسـ مـنـ رـؤـوسـهـمـ  
بـمـحـاسـنـ هـذـهـ الـخـلـائـقـ وـمـعـائـبـهـاـ عـلـىـ السـوـاءـ ، وـشـاعـتـ عـنـهـمـ صـفـاتـ الـحـلـمـ  
وـالـصـبـرـ وـالـحـنـكـةـ وـالـدـهـاءـ كـمـ شـاعـتـ عـنـهـمـ صـفـاتـ الـمـراـوـغـةـ وـالـجـشـعـ  
وـالـاقـبـالـ عـلـىـ التـرـفـ وـمـنـاعـمـ الـحـيـاةـ

\* \* \*

ولقد تقابلـ الحـسـينـ بـنـ عـلـيـ وـبـرـيزـيدـ بـنـ مـعـاوـيـةـ فـتـمـيلـ الأـسـرتـينـ ، كـمـ  
تـقـابـلـاـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ الـخـلـائـقـ وـالـحـظـوظـ .. وـلـكـنـهـمـ تـقـاـوـتاـ فـيـ تـمـيـلـ أـسـرـتـهـمـ  
كـمـ تـقـاـوـتاـ فـيـ غـيـرـ ذـلـكـ مـنـ وـجـوهـ الـخـلـافـ بـيـنـهـمـ .. فـكـانـ الـحـسـينـ بـنـ عـلـيـ  
نـمـوذـجاـ لـأـفـضـلـ الـمـزاـياـ الـهـاشـمـيـةـ وـلـمـ يـكـنـ بـنـ بـرـيزـيدـ بـنـ مـعـاوـيـةـ نـمـوذـجاـ لـأـفـضـلـ  
الـمـزاـياـ الـأـمـوـيـةـ ، بـلـ كـانـ فـيـهـ الـكـثـيرـ مـنـ عـيـوبـ أـسـرـتـهـ وـلـمـ يـكـنـ لـهـ مـنـ  
مناقـبـهـاـ الـمـحـمـودـةـ الـلـلـيـلـ

وـلـيـسـ بـنـاـ هـنـاـ أـنـ تـقـصـلـ الـقـوـلـ فـيـ أـحـوـالـ كـلـ مـنـ الرـجـلـينـ وـخـصـائـصـ  
كـلـ مـنـ النـمـوذـجـينـ ، وـلـكـنـنـاـ نـجـتـزـىـءـ مـنـهـمـ بـمـاـ يـمـلاـ الـكـفـتـينـ فـيـ هـذـاـ الـمـيزـانـ،  
وـهـوـ مـيـزـانـ الـأـرـيـحـةـ وـالـنـفـعـيـةـ فـيـ حـادـثـ كـبـيرـ مـنـ حـوـادـثـ التـارـيخـ الـعـرـبـيـ  
يـنـدرـ نـظـيرـهـ فـيـ جـمـيعـ التـوـارـيـخـ

## مكانة الحسين

وإذا كانت المعركة كلها هي معركة الأريحية والنفعية ، فالمزية الأولى التي ينبغي توكيدها هنا للحسين بن علي رضي الله عنه هي مزية نسبه الشريف ومكانه من مجدة النبي عليه السلام ..

ان المؤرخ الذي يكتب هذا الحادث قد يكون عربياً مسلماً أو يكون من غير العرب وال المسلمين ، وقد يؤمن بمحمد أو ينكر حمداً وغيره من الآباء .. ولكننا يخطئ دلالة العوادث التاريخية اذا استخف بهذه المزية التي قلنا انها أحق مزايا الحسين بالتوكيد في الصراع بينه وبين يزيد فليس المهم أن يؤمن المؤرخون بقيمة ذلك النسب الشريف في تبررهم أو قيمته في علوم العلماء وأفكار المفكرين ، ولكننا المهم أن أتباع يزيد كانوا يؤمنون بحق ذلك النسب الشريف في الرعاية والمجبة ، وأنهم مع هذا غلبتهم منافعهم على شعورهم فكانوا من حزب يزيد ولم يكونوا من حزب الحسين ..

فلولا هذه المزية في الحسين لما وضح الصراع بين الأريحية والنفعية عند الفريقين ، ولا كان المصطرون هنا وهناك من مزاجين مختلفين ، ولا كان للحركة كلها تلك الدلالة التي كشفت النفس الإنسانية في جانبي منها قويين ، يتذارعان حوادث الأمم والأفراد من زمان بعيد . وسيظلان على نزاعهما هذا الى زمان بعيد

\* \* \*

ولقد كان الحسين بن علي بهذه المزية أحب إنسان إلى قلوب المسلمين ، وأجدر انسان أن تعطف إليه القلوب

كان النبي عليه السلام هو الذي سماه ، وسمى من قبله أخاه .. قال علي رضي الله عنه : « لما ولد الحسن سميته حرباً فجاء رسول الله فقال : ( أروني ابني ما سميتوه ؟ ) . قلت : ( حرب ! ) فقال . ( بل هو حسن ) . فلما ولد الحسين سميته حرباً ، فجاء رسول الله فقال . ( أروني ابني .. ما سميتوه ؟ ) . قلت : ( حرب ! ) . فقال : ( بل هو حسين ) .. »

وذهب الى الحسين واخوه كل ما في قواد النبي عليه السلام من محبة البنين ، وهو مشوق القواد الى انذرية من نسله . فكان عليه السلام لا يطيق أذاهما ، ولا يحب أن يستمئ الى بكاء منها في طفولتها ، على كثرة ما يسكن الأطفال الصغار . وخرج من بيت عائشة يوماً ، فمرّ على بيت فاطمة فسمع حسيناً يبكي ، فقال : « ألم تعلمي أن بكاءه يؤذني ؟ » وكان يقول لها : « ادعى إلى ابني » .. فيشمها ويضمها اليه ، ولا ييرح حتى يضحكهما ويتركمها ضاحكين . وروى أبو هريرة أنه كان عليه السلام يدلع لسانه للحسين ، فبرى الصبي حمرة لسانه فيهش اليه ، وكان عيسينة بن بدر ، شهد له في بعض هذه المجالس فقال متوجباً : « يصنع هذا بهذا ؟ فوالله إن لي الولد وما قبلته قط ! » قال عليه السلام : « من لا يرحم ، لا يثرحم ؟ »

\* \* \*

وخرج ليلة في احدى صلوات الشاء وهو حامل حسناً أو حسيناً ، فوضعه ثم كبر للصلوة فأطالت سجدة الصلوة ، قال راوي الحديث : « فرفعت رأسي فإذا الصبي على ظهر رسول الله وهو ساجد فرجعت الى سجودي ، فلما قضى الصلوة قيل يا رسول الله : إنك سجدت بين ظهرى صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى اليك .. » قال : « كل ذلك لم يكن .. ولكن ابني ارتعضني فكررت أن أعيجه .. » وقام عليه السلام يخطب المسلمين ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويشعران .. فنزل عليه السلام من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال : « صدق الله ! .. (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) .. نظرت الى هذين الصبيان يمشيان ويشعران ، فلم أصبر حتى قطعت حديسي ورفعتهما »

\* \* \*

ولا يوجد مسلم في العصر القديم أو العصر الحديث يحب نبيه كما يحب المؤمنون أنبياءهم ، ثم يصر عنده حساب هذا الحنان الذي غمر به قلبه

الكرم سبطه وأحب الناس إليه .. فبهذا الحنان النبوى قد أصبح الحسين في عداد تلك الشخصوص الرمزية التي تخذ منها الأمم والملل عنواناً للحب ، أو عنواناً للنفر ، أو عنواناً للألم والقداء .. فإذا بها محبوب كل فرد ومفترته ، وموضع عطفه وشفاقه ، كأنما تمت إليه وحده بصلة القرابة أو بصلة الودة ..

وقد بلغ الحسين بهذا الحنان — مع الزمن — مبلغه من تلك المكانة الرمزية فأوشك بعض واصفيه أن يلحظه في حسه وولادته ورضاعه بمواليد المجزات . فقال بعضهم : « لم يولد مولود لستة أشهر وعاش إلا الحسين وعيسي بن مريم » . وقال آخرون أنه رضي الله عنه لم ترضعه أمه ولم ترضعه أش熙 « واعتلت فاطمة لما ولدت الحسين وجف لبنيها فطلب رسول الله مرضعة فلم يجد ، فكان يأتيه فيلقمه أباهاه فيمسه ويجعل الله في أيام رسوله رزقاً ينذرنه ، ففعل ذلك أربين يوماً وليلة ، فأنبت الله سبحانه وتعالى لحمه من لحم رسول الله .. »

ورُوي عنه غير ذلك كثير من الأساطير التي تحيط بها الأمم تلك الشخصوص الرمزية التي تعزها وتغليها فلتلتسم لها مولداً غير المولد المأله ، والنشأة المعمودة ، وتتحقماً أو توشك أن تلحظها بالخوارق والمجزات ..

\*\*\*

ولقد كانت حقيقة الحسين الشخصية كفؤًا لتلك الصورة الرمزية التي نسجتها حوله الأجيال المتعاقبة قبل أن يرى منه أبناء جيله غير تلك الحقيقة . فكان ملء العين والقلب في خلقٍ وخلقٍ ، وفي أدبٍ وسيرة ، وكانت فيه مشابهه من جده وأبيه .. الا أنه كان في شدته أقرب إلى أبيه . قال رضي الله عنه مشيراً إلى الحسن : « إن ابني هذا سيخرج من هذا الأمر ، أشبه أهلي بي الحسين » . واتفق بعض الثقات على أن « الغالب على الحسن الحلم والأناة كالنبي ، وعلى الحسين الشدة كعلي »

## صفات العصين

وقد تعلم في صباح خير ما يتعلمه أبناء زمانه من فنون العلم والأدب والقروسيّة ، واليه يرفع كثيرون من المتصوفة وحكماء الدين نصوصهم التي يعلون عليها ويردونها إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه

وقد أتى ملائكة الخطابة من طلاقة لسان وحسن بيان وغنة صوت وجمال إيماء . ومن كلامه المرتجل قوله في توديع أبي ذر وقد أخرجه عثمان من المدينة بعد أن أخرجه معاوية من الشام : « يا عَمَّا ! إنَّ اللَّهَ قَادِرٌ أَنْ يُغَيِّرَ مَا قَدْ تَرَى . وَاللَّهُ كُلُّ يَوْمٍ فِي شَأْنٍ : وَقَدْ مُنْكِرَتِ الْقَوْمُ دُنْيَاهُمْ وَمُنْعَتِهِمْ دِينَكُمْ ، وَمَا أَغْنَاكُمْ عَمَّا مُنْعَوكُمْ وَأَحْوَجُوكُمْ إِلَى مَا مُنْعَتِهِمْ ، فَاسْأَلُ اللَّهَ الصَّابِرَ وَالنَّصَرَ ، وَاسْتَعِذْ بِهِ مِنَ الْجَحْشِ وَالْجَزْعِ ، فَإِنَّ الصَّابِرَ مِنَ الدِّينِ وَالْكَرَمِ ، وَإِنَّ الْجَحْشَ لَا يَقْدِمُ رِزْقًا وَالْجَزْعَ لَا يُؤْخَرُ أَجْلًا »  
وكان يومئذ في نحو الثلاثين من عمره فكأنما أودع هذه الكلمات شعار حياته كاملة منذ أدرك الدنيا إلى أن فارقتها في مصرع كربلاء

\*\*\*

وتواترت الروايات بقوله الشعري في أغراض الحكمة وبعض المناسبات البيتية ، ومن ذلك هذه الآيات :

إِغْنَ عنَ الْمَخْلوقِ بِالْخَالقِ      تَغْنَ عنَ الْكاذِبِ وَالصَّادِقِ  
وَاسْتَرْزَقِ الرَّحْمَنَ مِنْ فَضْلِهِ      فَلَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ مِنْ رَازِقٍ  
مِنْ ظَلَّ أَنَّ النَّاسَ يَغْنُونَهُ      فَلَيْسَ بِالرَّحْمَنِ بِالْوَاقِعِ  
وَمِنْهُ هَذَانِ الْبَيْتَانِ فِي زَوْجَهِ وَابْنَهِ :

لَعْمَرُكَ اتَّنِي لَأَحْبَبْ دَارَا      تَكُونُ بِهَا سَكِينَةُ وَالرِّبَابُ  
أَحْبَهُمَا وَأَبْذَلُ كُلَّ مَالِي      وَلَيْسَ لِعَابِرٍ عَنِي عَتَابٌ  
وَهُمَا — سَوَاءٌ صَحْتَ نِسْبَتِهِمَا إِلَيْهِ أَوْ لَمْ تَصْحِ — مَعْبَرَانِ عَنْ خَلْقِهِ فِي  
بَيْتِهِ وَبَيْنِ أَهْلِهِ ، فَقَدْ كَانَ مِنْ أَشَدِ الْآيَاءِ حَدِيبَاً عَلَى الْأَبْنَاءِ وَأَشَدِ الْأَزْوَاجِ  
عَطْفَاً عَلَى النِّسَاءِ ، وَمِنْ وَفَاءِ زَوْجَاتِهِ بَعْدِ مَوَاتِهِ أَنَّ الرِّبَابَ هَذِهِ التِّي  
ذَكَرَتْ فِي الْبَيْتَيْنِ السَّابِقَيْنِ خَطْبَهَا أَشْرَافُ قَرِيشٍ بَعْدَ مَقْتَلِهِ فَقَالَتْ .

« ما كنت لاتخذه حماً بعد رسول الله .. » وبقيت سنة لا يظلهما سقف حتى  
فنيت وماتت ، وهي لا تفتر عن بكائه والحزن عليه ..

### خلق كريم

وقد سنَّ الحسين لن بعده سنة في آداب الأسرة تلقي بالبيت الذي  
نشأ فيه ووكل اليه أذن يرعى له حقه ويوجب على الناس مهابته وتقديره ،  
 فهو على فضله وذكائه وشجاعته ورجحانه على أخيه الحسن في مناقب  
كثيرة وما ثُر عدّة كان يستمع إلى رأي الحسن ولا يسوّه بالمراجعة  
أو المخالفة . فلما همَّ الحسن بالتسليم لمعاوية كان ذلك على غير رضى  
من الحسين . فلم يوافقه وأشار عليه بالقتال ، فغضب الحسن وقال له :  
« والله لقد همت أن أسجنك في بيت وأطين عليك بابه ، حتى أقضى  
بشأنني هذا وأفرغ منه ثم أخرجك .. »

فلم يراجعه الحسين بعدها وأثر الطاعة والسكوت ..

\*\*\*

ومن رعايته لسنن الأسرة ووصايا الأبوة انه ركب دين فساومه معاوية  
بما تبيّن ألت دينار أو يبلغ جسم من المال على عين « أبي بيزر » فأبى  
أن يبعها مع حاجته الى بعض ما عرض عليه – لأن أباه تصدق بما نهَا  
لقراء المدينة ، ولو أنه باعها لوقفها معاوية على أولئك القراء

وقد أخذ نفسه بسمت الوقار في رعاية أسرته ورعايه الناس عامة ..  
فهابه الناس وعرف معاوية عنه هذه المهابة فوصفه لرجل من قريش ذا هب  
إلى المدينة فقال : « اذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة فيها قوم  
كان على رؤوسهم الطير ، فتلك حلقة أبي عبد الله مؤترراً إلى أنصاف  
ساقيه .. »

ولم يذكر عنه قط أنه كان يواجه الناس بتخطئته وهو يعلمهم ويصرهم  
 بشتؤن دينهم ، الا أن تكون مكابرة أو لجاجة فله في جواب ذلك أشباء  
 تلك القوارض التي كانت تؤثر عن أبيه

وما لم تكن مكابرة أو لجاجة فهو يحتال على تصحيح الخطأ حيلة  
لا غضاضة فيها على المخطئين

فمن آدابه وآداب أخيه في ذلك أنها رأياً اعرابياً يخفف الوضوء  
والصلة فلم يشأ أن يجهه بغلطه وقال له : « نحن شباب وأنت شيخ  
ربما تكون أعلم بأمر الوضوء والصلة منا ، فنتوضاً ونصلي عندك ،  
فإن كان عندنا قصور تعلمنا ». فتبته الشيـخ إلى غلطه دون أن يأنـف  
من تبيـهـما إلـيـهـ . ومر يوماً بمسـاكـين يـأكلـونـ قـدـعـوهـ إـلـىـ الطـعـامـ عـلـىـ  
عادـةـ العـرـبـ ، فـنـزـلـ وـأـكـلـ معـهـ ثـمـ قـالـ لـهـ : « قد أـجـيـتـكمـ فـأـجـيـوـنيـ »  
وـدـعـاهـمـ إـلـىـ الـقـدـاءـ فـيـ بـيـتـهـ

\*\*\*

ورويت الغرائب في اختبار حذقه بالفقه واللغة كما رویت أمثل هذه  
الغرائب في امتحان قدرة أبيه عليهما السلام .. فقيل: إن اعرابياً دخل  
المسجد العرام فوق على الحسن رضي الله عنه وحوله حلقة من مراديـهـ  
فـسـأـلـ عـنـ نـعـيـصـ الـرـبـيـةـ » . فـقـالـ لـهـ بـعـضـ جـلـسـائـهـ : « ان كـتـ جـتـ  
لهـذاـ فـابـداـ بـذـلـكـ الشـابـ » . وـأـوـمـاـ إـلـىـ الـحـسـنـ عـلـيـهـ السـلـامـ ، فـلـمـ سـلـمـ  
عـلـىـ الـحـسـنـ وـسـأـلـ عـنـ حـاجـتـهـ قـالـ : « اـنـيـ جـتـتـ مـنـ الـهـرـقـلـ وـالـجـعـلـ  
وـالـأـيـتمـ وـالـعـمـمـ » فـقـبـسـ الـحـسـنـ وـقـالـ :

— يا اعرابـيـ ! .. لقد تكلـمتـ بـكـلامـ ما يـعـقـلـهـ إـلـاـ الـعـالـمـونـ  
فـأـجـابـهـ الـأـعـرـابـيـ قـائـلاـ يـرـيدـ الـأـغـرـابـ : وـأـقـولـ أـكـثـرـ مـنـ هـذـاـ ، فـهـلـ أـنـتـ  
بـجـيـيـ عـلـىـ قـدـرـ كـلـامـيـ ؟ .. ثـمـ أـذـنـ لـهـ الـحـسـنـ فـأـنـشـدـ أـيـاتـ تـسـعـةـ ، مـنـهاـ :  
هـنـاـ قـلـبـيـ إـلـىـ اللـهـ وـقـدـ وـدـعـ شـرـخـيـهـ  
فـأـجـابـهـ الـحـسـنـ مـرـجـلاـ بـتـسـعـةـ أـيـاتـ فـيـ مـعـنـاـهـاـ وـمـنـ وزـنـهاـ وـقـوـافـيـهاـ ،  
يـقـولـ مـنـهاـ :

فـمـاـ رـسـمـ شـجـانـيـ قـدـ  
سـفـورـ درـجـتـ ذـيلـيـنـ  
هـنـوفـ مـرـجـفـ تـرـىـ  
مـحـتـ آـيـاتـ رـسـمـيـهـ  
فـيـ بـوـغـاءـ قـاعـيـهـ  
عـلـىـ تـلـيـدـ فـوـيـهـ

الى آخر الآيات .. ثم فسر له ما أراد من المهرقل وهو ملك الروم ، والجعل وهو قصار التخل ، والأitem وهو بعض النبات ، والهمم وهو القليب الغير ملأ ، وفي هذه الكلمات أوصاف البلاد التي جاء منها وأشارة اليها ..

فقال الاعرابي : « ما رأيت كاليلوم أحسن من هذا الفلام كلاما ، وأذرب لسانا ، ولا أفصح منه منطقا »

وذلك روایة من روایات على منوالها ، ان لم تتبئ بما وقع فهي منبته بما تداوله الناس من شهرة الحسين في صباه الباكر بالعلم والفصاحة .. ولخبرته بالكلام وشهرته بالفصاحة ، كان الشعراء يرتدونه وبهم من الطمع في اصنافه أكبر من طعمهم في عطائه .. ولكن على هذا كان يجري معهم على شرعة ذوي الأقدار والأخطار من أنداده ، فيبذل لهم الجوائز ما وسعه البذل ويؤثرهم على نفسه في خاصة الحال . وقد لامه أخوه الحسن في ذلك فكتب اليه « ان خير المال ما وقى به العرض » الا أنه في الواقع لم يكن يعطي لوقاية العرض وكفى ، ولكنه كان يعطي من قصده من ذوي الحاجات ولا يخيب رجاء من استعان به على مروءة

### وفاء وشجاعة

وقد اشتهر مع الجود بصفتين من أكرم الصفات الإنسانية وأليقهما بيته وشرفه ، وهما الوفاء والشجاعة

فمن وفائه أنه أبي الغروج على معاوية بعد وفاة أخيه الحسن لأنه عاهد معاوية على المسالمة ، وقال لأنصاره الذين حرضوه على خلح معاوية ان بينه وبين الرجل عهدا وعقدا لا يجوز له تقضيه حتى تمضي المدة ، وكان معاوية يعلم وفاءه وجوده معا ، فقال لصحابه يوما وقد أرسل الهدايا الى وجوه المدينة من كسى وطيب وصلات : « ان شئتم أنباءكم بما يكون من القوم .. أما الحسن فلعله ينليل نساءه شيئا من الطيب وينهب ما يقتى من حضره ولا ينتظر غائبا ، وأما الحسين فيبدأ بأيتام من قتل مع أبيه بصفين فان بقي شيء نحر به الجزر وسقى به اللبن .. »

. وشجاعة الحسين صفة لا تستغرب منه لأنها « الشيء من معدته » كما قيل . وهي فضيلة ورثها عن الآباء وأورثها الأبناء بعده ، وقد شهد الغروب في افريقيا الشمالية وطبرستان والقسطنطينية ، وحضر مع أبيه وقائمه جميعاً من الجبل إلى صفين . وليس في بني الإنسان من هو أشجع قلباً من أقدم على ما أقدم عليه الحسين في يوم كربلاء

وقد تربى للشجاعة كما تلقاها في الدم بالوراثة ، فتعلم فنون الفروسية كركوب الخيل والمصارعة والعدو من صباح ولم تفته ألعاب الرياضة التي تم بها مرانة الجسم على الحركة والنشاط .. ومنها لعبة تشبه « الجولف » عند الأوروبيين كانوا يسمونها المداحي : جمع مدحاة ، وهي أحجار مثل القرص يحفرون في الأرض حفرة ويرسلون تلك الأحجار ، فمن وقع حجره في الحفيرة فهو الغالب

\*\*\*

أما عاداته في معيشته فكان ملاكها لطف الحس وجمال الذوق والقصد في تناول كل مباح . كان يحب الطيب والبخور ، ويأقر للزهر والريغان .. وروى أنس بن مالك انه كان عنده فدخلت عليه جارية يدها طاقة من ريحان فحيتها بها . فقال لها : « أنت حرة لوجه الله تعالى » فسألها أنس متعجبًا : « جارية تحيي بطاقة ريحان فتعتها ؟ » . قال : « كذا أدبتنا الله .. قال تبارك وتعالى : ( وَإِذَا حُسِّنَ بِتَحْيَةٍ فَحَسِّنُوا بِأَحْسَنِ مَا  
أَوْرُدُوهَا ) .. وكان أحسن منها عتها »  
وكان يميل للفكاهة ويأنس في أوقات راحته لأحاديث أشتبه وأضاحيكه ، ولكنه على شیوع الترف في عصره لم يكن يقارب منه إلا ما كان يجعل بمثله .. حتى تحدث المتحدثون أنه لا يعرف رائحة الشراب .. وكانت له صلوات يؤديها غير الصلوات الخمس ، وأيام من الشهر

وقد عاش سبعاً وخمسين سنة بالحساب المجري ، وله من الأعداء من يصدقون ويکذبون .. فلم يعبه أحد منهم بعابة ولم يملأ أحد منهم أن

ينكر ما ذاع من فضله ، حتى حار معاوية بعيه حين استعظم جلساؤه خطاب الحسين له . واقتروا عليه أن يكتب اليه بما يصغره في نفسه . فقال انه كان يجد ما يقوله في علي ، ولكن لا يجد ما يقوله في حسين تلك جملة القول في سيرة أحد الخصمين ..

### خلق يزيد

ويقف خصمه أمامه موقف المقابلة والمناقشة لا موقف المقارنة والمعادلة في معظم خلائقه وعاداته وملكاته وأعماله

فيزييد بن معاوية عريق النسب في بنى عبد مناف ثم في قريش ، ولكن الأصدقاء والخصوم والملاحدين والقادحين متقدون على وصف الخلائق التي اشتهر بها أبناء هذا الفرع من عبد مناف . وأشهرها الاثرة ، وأحمد ما يحصد منها أنها تتفنن الناس من طريق التفخ لاصحابها . وندر من وجود الأمورين في الجاهلية أو الاسلام من اشتهر بخصلة تجلب الى صاحبها ضررا أو مشقة في سبيل تفخ الناس ..

وبيت أبي سفيان بيت سيادة مرعية لا مراء فيها ..

ولكن الحقيقة التي ينبغي أن تذكرها في هذا المقام أن معاوية بن أبي سفيان لم يكن ليirth شيئاً من هذه السيادة التي كان قوامها كله وفرة المال ، لأن أبي سفيان على ما يظهر قد أضاع ماله في حروب الاسلام ولم يكن له من الوفر ما يبقى على كثرة الوارث . وروي أن امرأة استشارت النبي عليه السلام في التزوج بمعاوية فقال لها : « انه صعلوك ! .. »

\* \* \*

كذلك ينبغي أن تذكر حقيقة أخرى في هذا المقام ، وهي أن معاوية لم يكن من كتاب الوحي كما أشاع خدام دولته بعد صدر الاسلام ، ولكنه كان يكتب للنبي عليه السلام في عامه الحوائج وفي اثبات ما يجب من الصدقات وما يقسم في أربابها ، ولم يسمع عن ثقة قط انه كتب للنبي شيئاً من آيات القرآن الكريم

وعرفت معاوية خصال محمودة من خصال الجد والسيادة كالوقار والحلم والصبر والدهاء ، ولكنها على هذا كان لا يملك حلمه في فلتات تميذ بالملك الراسخ ، ومنها قتله حجر بن عدي وستة من أصحابه لأنهم كانوا ينكرون سب علي وشيعته ، فما زال بقية حياته يندم على هذه الفعلة ويقول : « ما قتلت أحدا الا وأنا أعرف فيم قتله ما خلا حجرا فاني لا أعرف بأى ذنب قتله .. »

وأم يزيد هي ميسون بنت مجذل الكلبية من كرائم بنى كلب المعرقات في النسب ، وهي التي كرهت العيش مع معاوية في دمشق وقالت تشوق إلى عيش البادية :

لبس عباءة وتقر عيني أحب إلى من لبس الشفوف  
وبيت تحقق الأرواح فيه أحب إلى من قصر منيف ..

وبمن هذه الأبيات قولها :  
وخرق منبني عني فغير أحب إلى من علچ عنيف !!  
 فأرسلها وابنها يزيد إلى باطيتها ، فتشاء يزيد مع أمها بعيداً عن أبيه ..

\*\*\*

وقد أفاد من هذه النشأة البدوية بعض أشياء تنفع الأقواء ، ولكنها على ما هو مألف في أعقاب السلالات القوية تضيرهم وتجهز على ما بقي من العزيمة فيهم ..

فكان ما استفاده من بااديةبني كلب بلاغة الفصحى ، وحب الصيد ، وركوب الخيل في رياضة الحيوانات ولا سيما الكلاب وهذه صفات في الرجل القوي تزينه وتشحذ قواه ، ولكنها في أعقاب السلالات — أو عكارة البيت كما يقال بين العامة — مداعاة إلى الاغراق في اللهو والولع بالفراغ لأنها هي عنده كل شيء وليس مددًا لغيرها من كبار الهمم وعظام المهموم

وهكذا اقلبت تلك الصفات في يزيد من المزية إلى النقصة .. فكان تلفه بالشعر الفصيح مفرياً له بمعاشرة الشعراء والنديماء في مجالس

الشراب ، وكان ولعه بالصيد شاغلاً يحجبه عن شواغل الملك والسياسة ، وكانت رفاضته للحيوانات مهزلة تلحقه بأصحاب البطالة من الترّادين والقهادين ، فكان له قرد يدعوه «أبا قيس» يلبسه الحرير ويطرز لباسه بالذهب والفضة ويحضره مجالس الشراب ، ويركبها أثناً في السباق ويحرص على أن يراه سابقاً محلياً على العجاد ، وفي ذلك يقول يزيد كما جاء في بعض الروايات :

تمسك أبا قيس بفضل عنانها  
فليس عليها ان سقطت ضمان  
الا من رأى الفرد الذي سبقت به  
جساد أمير المؤمنين أثان

وقد يكون عبد الله بن حنظلة مبالغًا في المذمة حين قال فيما نسب إليه : « والله ما خرجنا على زيد حتى خفتنا أن نرمي بالحجارة من السماء . إن رجالاً ينكح الأمهات والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة ، والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاه حستاً »

\*\*\*

ولكن الروايات لم تجمع على شيء كاجماعها على ادمانه الخمر ، وشققه باللذات ، وتوانيه عن العظام .. وقد مات بذات الجنب وهو لما يتجاوز السابعة والثلاثين ، ولعلها اصابة الكبد من ادمان الشراب والأفراط في اللذات . ولا يعقل أن يكون هذا كله اختلاقاً واختراعاً من الأعداء لأن الناس لم يختلفوا مثل ذلك على أبيه أو على عمرو بن العاص ، وهذا بنيسان أشد البعض إلى أعداء الأمويين .. ولأن الذين حاولوا ستره من خدام دولته لم يحاولوا الثناء على مناقب فيه تحل عندهم محل مساوئه وعيوبه ، كان لا الاجراء على مثل هذا الثناء من وراء الحسيني ولم يكن هذا التخلف في يزيد من هزال في البنية أو سقم اعتراه كذلك السقم الذي يعتري أحياناً بقايا السلالات التي تعم بالانقضاض والدثور ، ولكنه كان هزلاً في الأخلاق وسقماً في الطوية .. تعمد به عن السطائم مع

وثوق ببنائه وضخامة جسماته واتصافه ببعض الصفات الجسدية التي تزداد في وجاهة الأمراء كالوسامة وارتفاع القامة . وقد أصيب في صباح بمرض خطير — وهو الجدري — بقيت آثاره في وجهه إلى آخر عمره ، ولكنه مرض كان يشيع في البايدية ولم يكن من دأبه أن يقدر بكل من أصيب به عن الطموح والكفاية

\*\*\*

وعلى فرط ولعه بالطراود حين يكون الطراود لهواً وفراغاً ، كانت همة الوانية تفتر به عن الطراود حين تتسابق إليه عزائم الفرسان في ميادين القتال ، ولو كان دفاعاً عن دينه ودنياه

فلما سير أبوه جيش سفيان بن عوف إلى القدسية لغزو الروم ودفعهم عن بلاد الإسلام — أو بلاد الدولة الأموية — تناقل وتنارض حتى رحل الجيش وشاع بعد ذلك أنه امتنع في طريقه بلاء المرض والجوع ، فقال يزيد :

ما ان أبالي بما لاقت جموعهم

بالفرقدونة من حمى ومن موم  
اذا اسكنات على الأنطاط مرتفقاً

بدير مُرَّاثَةِ عَنْدِي أَمْ كُلُوم

فأقسم أبوه حين بلغه هذان اليتاذ ليحقن بالجيش ليdraً عنه عار  
النكول والشماتة بجيشه المسلمين بعد شيوخ مقاله في خلواته

\*\*\*

ومن أعجب عجائب المناقضة التي تشت في كل شيء بين الصين ويزيد أن يزيد لم يختص بمعزية محمودة مقابل نظائرها من مزايا الحسين ، حتى في تلك الخصال التي تأتي بها المصادفة ولا فضل فيها لأصحابها ومنها حميد السن وسابقة الميلاد

فلما تنازعوا اليمعة كان الحسين في السابعة والخمسين مكتمل القوة  
غاضج العقل وفي المعرفة بالعلم والتجربة ، وكان يزيد في نحو الرابعة

والثلاثين لم يمارس من شئون الرعاة ولا الرعية ما ينفعه بين هؤلاء أو هؤلاء  
ومزية السن هذه قد يطول فيها الأخذ والرد بين أبناء المصور  
ال الحديثة ، ولكنها كانت تقطع القول في أمّة العرب حيث نشأ الأسلاف  
والأخلاق على طاعة الشيوخ ورعاية الأعمار .. وهذا على أذن السابعة  
والخمسين ليست بالسن التي تعلو بصاحبها في الكبر حتى تسلبه مزية  
الفتوة ومضاء العزيمة ..

كذلك لا يقال ان « الوراثة المشروعة » في المالك كان لها شأن يرجع  
بمزيد على الحسين في ميزان العروبة والاسلام . فقد كان توريث معاوية  
ابنه على غير وصية معروفة من السلف بدعة هرقلية كما سنتها المسلمون  
في ذلك الزمان ، ولم يكن معقولاً أن العرب في صدر الاسلام يوجبون  
طاعة يزيد لأنّه ابن معاوية وهم لم يوجبو طاعة آل النبي في أمر الخلافة  
لأنّهم قرابة محمد عليه السلام

فقد شاعت عجائب التاريخ إذن أن تقييم بين ذينك الخصمين قضية  
تتضخم فيها التزعة التفعية على نحو لم تتضخم قط في أمثالها من القضايا ،  
وقد وجب أن ينحدل يزيد كل الخذلان لولا التزعة التفعية التي أعانته  
وهو غير صالح لأن يستعين بها بغير أعون من بطاته وأهله .. ولثن  
كان في تلك التزعة التفعية مسحة تشوبها من غير معدناها الوضيع لتكون  
هي عصبية القبيلة من بنى أمية ، وهي هنا تزعة مواربة تعارض الإيمان  
الصريح ولا تسلم من الختل والتلبيس

\*\*\*

لهذا شك بعض الناس في اسلام ذلك العجل من المؤمنين ، وهو شك  
لا ترضيه من وجاهة الدلائل التاريخية المتفق عليها . فقد يخطر لنا الشك  
في صدق دين أبي سفيان لأنّ أخباره في الاسلام تحتمل التأويلين ، ولكن  
معاوية كان يؤدي الفرائض ويترک بتراث النبي ويوصي أن تدفن معه  
أظافره التي حفظها إلى يوم وفاته . وليس ي sisir علينا أن نفهم كيف ينشأ  
معاوية الثاني على تلك التقوى وذلك الصلاح وهو ناشيء في بيت مدخول

الاسلام ، يتصرّح أهله أحياناً بما ينمّ على الكفر به أو التردد فيه إنما هي الأثرة ، ثم الغرق في السياسة ، ثم التمادي في الغرق مع استئثاره العناد والعداء .. وفي تلك الأثرة ولو اتحقّها ما ينشئ المقابلة من أحد طرفيها في هذه الخصومة ، ويتمّ المناظرة في شتى بواطنها بين ذينكَ الخصمين الخالدين . وتعني بهما هنا المثالية والواقعية ، وما الحسين والبيزد الا المثالان الشاخصان منها للعيان .

## رِجَالُ الْمَعْسَكَرِينَ

كان الحسين في طرقه إلى الكوفة - يوم دعاه شيعته إليها - يسأل من يلقاهم عن أحوال الناس فينبئونه عن موقفهم بينه وبين بنى أمية ، وقلما اختلفوا في الجواب ..

سأل الفرزدق وهو خارج من مكة - والفرزدق مشهور بالتشييع لآل البيت - فقال له : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء برز من السماء ، والله يفعل ما يشاء » .  
وقال له جمجم بن عبيد العامري : « أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائزهم فهم ألب واحد عليك ، وأما سائر الناس بعدهم فإن قلوبهم تهوى إليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك »

وقد أصاب الفرزدق وأصاب جمجم بن عبيد ، فإن الناس جميعاً كانوا باهواهم وأفتقديهم مع الحسين بن على ما لم تكن لهم منفعة موصولة بملك بنى أمية ، فهم أذن عليه بالسيوف التي تشهرها الأيدي دون القلوب وقد « أعظمت الرشوة » للرؤساء وأعظمت لهم من بعدها الوعود والآمال ، فعلموا أن دوام ملك بنى أمية ..

فاما الرؤساء الذين كانت لهم مكانتهم بعزل عن الملك القائم ، فقد كانوا ينصرون حسيناً ولا ينتصرون للأمويين .. أو كانوا يصانعون الأمويين ولا ييلفون بالتصانعة أن يشهروا الحرب على الحسين ومن هؤلاء هاني بن عروة من كبار الزعماء في قبائل كندة ، وشريك ابن الأعور ، وسلامان بن صرد الغزاعي ، وكلاهما من ذوي الشرف والدين بل كان من العاملين لبني أمية من ينجزه ضميره اذا بلغ العداء للحسين أشدّه ، فيترك معسكر بنى أمية ليلاً بالمعسكر الذي كتب عليه الموت

والبلاء . كما فعل العر بن يزيد الرياحي في كربلاء وقد رأى القوم يهمون بقتل الحسين ولا يقنعون بمحاربه . فسأل عمر بن سعد قائد الجيش : « أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ ». فلما قال : « نعم » ترك الجيش الأموي وذهب يقترب من الحسين حتى داهاه فقال له : « جعلت فداك يا ابن رسول الله . أنا صاحبك حبستك عن الرجوع وجعلت بك في هذا المكان ، وما ظلتني أن القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ، ووالله لو علمت أنهم ينتهون بك إلى ما أرى ما ركبتك مثل الذي ركبتك ، وإن تائب إلى الله مما صنعت ، فهل ترى لي من توبة ؟ »

قبل الحسين توبته وجعل الرجل يقاتل من ساعتها حتى قتل ، وأخر كلمة على لسانه فما بها : « السلام عليك يا أبا عبد الله ! »

\*\*\*

فمجمل ما يقال على التحقيق أنه لم يكن في معسكر يزيد رجل يعينه على الحسين إلا وهو طامع في مال ، مستحيٍ في طمعه استثناته من يهدى الحرمات ولا يالي بشيء منها في سبيل العظام

ولقد كان معاوية مشيرون من ذوى الرأى كمرو بن العاص ، والمنيرة ابن شعبة ، وزياد بن أبيه ، وأضرابهم من أولئك الدهاة الذين يسميه التاريخ أنصار دول وبناء عروش ..

وكان لهم من سمعة معاوية وذرائعه شعار يدارون به المطامع ويتحللون من التأثير ..

لكن هؤلاء بادروا جميعاً في حياة معاوية ، ولم يبق ليزيد مشير واحد من تسميمهم بأنصار الدول وبناء العروش ، وإنما بقيت له شرذمة على غراره أصدق ما توصف به أنها شرذمة جلادين ، يقتلون من أمروا بقتله ويفضلون الأجر فرحين ..

فكان أعوناً معاوية ساسة وذوى مشورة ..

وكان أعوناً يزيد جلادين وكلاب طراد في صيد كبير ..

وكانتوا في خلاتهم البدنية على المثال الذي يعهد في هذه الطغمة من

الناس ، ونعني به مثال المسخاء المشوهين .. أولئك الذين تمتليء صدورهم بالحقد على أبناء آدم ولا سيما من كان منهم على سوء الخلق وحسن الأخدودة ، فإذا بهم يفرغون حقدهم في عدائهم وإن لم يتتفعوا بأجر أو غنيمة ، فإذا اتفعوا بالأجر والغنيمة فذلك هو حقد الضراء الذي لا تعرف له حدود ..

وشر هؤلاء جميعا هم شمر بن ذي الجوشن ، ومسلم بن عقبة ، وعبيد الله بن زياد . ويلحق بزمرتهم على مثال قريب من مثالهم عمر بن سعد ابن أبي وقاص ..

ف Sherman بن ذي الجوشن كان أبى من كريمه المنظر قبيح الصورة ، وكان يصطنع الذهب الخارجى ليجعله حجة يحارب بها علينا وأبنائنا ؛ ولكنه لا يتخذ حجة ليحارب بها معاوية وأبنائنا .. كأنه يتخذ الدين حجة للحقد ، ثم ينسى الدين والحدق في حضرة المال

\* \* \*

وسلم بن عقبة مخلوق مسمى الطبيعة في مسلاخ انبان « وكان أموره تأثر الرأس ، كأنما يقلع رجليه من وحل اذا مشى » وقد بلغ من ضراوته بالشر وهوشيخ فان مريض ، انه أباح المدينة في حرم النبي عليه السلام ثلاثة أيام ، واستعرض أهلها بالسيف ، جزرا كما يجزر القصاب الفتن حتى ساخت الأقدام في الدم ، وقتل أثناء المهاجرين والأنصار وذرية أهل بدر ، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كل من استبقاء من الصحابة والتابعين على انه عبد قن لأمير المؤمنين .. !

وانطلق جنده في المدينة الى جوار قبر النبي يأخذون الأموال ويفسقون بالنساء ، حتى بلغ القتل في تقدير الزهرى سبعمائة من وجوه الناس وعشرة آلاف من الموالى . ثم كتب الى يزيد يصف له ما فعل وصف النظار المتهلل ، فقال بعد كلام طويل : « فأدخلنا الخيل عليهم ... فما صليت الظهر أصلح الله أمير المؤمنين الا في مسجدهم !! .. بعد القتل الذريع والاتهاب العظيم ... وأوقعنا بهم السيف وقتلنا من أشرف ، لنا منهم

وابعثنا مدبرهم وأجهزنا على جريتهم واتهناها ثلاثة كما قال أمير المؤمنين أعز الله نصره ، وجعلت دور بنى الشهيد عثمان بن عفان في حرب وأمان ، والحمد لله الذي شفا صدرى من قتل أهل الخلاف القديم والنفاق العظيم ، فطالما عتوا وقدينا ما طعوا . أكتب هذا الى أمير المؤمنين وأنا في منزل سعيد بن العاص مدقعاً مريضاً ما أراني الا لما بي ..  
فما كنت أبالي مت مت بعد يومي هذا ... »

\*\*\*

وكل هذا الحقد المتأجج في هذه الطوية العفنة إنما هو الحقد في طيابع المسخاء الشائئن ... يوهم نفسه انه الحقد من ثأر عثمان أو من خروج قوم على ملك يزيد ..

وكان عبيد الله بن زياد متهم النسب في قرش ، لأن أباه زياداً كان مجاهلاً للأب فكأنوا يسمونه زياد بن أبيه . ثم أحقه معاوية بأبي سفيان لأن أبي سفيان ذكر بعد نبوغ زياد ، انه كان قد سكر بالطائف ليلة فالتس بعيا فباءوه بجازية تدعى سمية . فقالت له بعد مولد زياد انها حملت به في تلك الليلة ..

وكانت أم عبيد الله جارية مجوسية تدعى مرجانة فكأنوا يغوروها بها وينسبونه اليها ، ومن عوارض المنسخ فيه – وهي عوارض لها في نفوس العرب دخلة تورث الضفن والمهانة – انه كان ألكن اللسان لا يقيم نطق الحروف العربية ..

فكان اذا عاب الحروري من الخارج ، قال : « هروري » فيضحك سامعوه ، وأراد مرة أن يقول اشهر وا سيوفكم ، فقال افتحوا سيوفكم .. فهجاه يزيد بن مفرغ قائلاً :

ويوم فتحت سيفك من بعيد  
أضعت وكل أمرك للضياع  
ولم يكن أهون لديه من قطع الأيدي والأرجل والأمر بالقتل في ساعة الغضب لشبهة ولغير شبهة . ففى ذلك يقول مسلم بن عقيل وهو صادق

**مؤيد بالأمثال والثلاث : « ويقتل النفس التي حرم الله قتلها على الغضب  
والعلاوة وسوء الظن ، وهو يلهمه ويلعب كأنه لم يصنع شيئاً »**

وقد كانت هذه الضراوة على أعنفها وأسوئها يوم تصدى عبيد الله بن زيد لمنازلة الحسين ، لأنه كان يومئذ في شرة الشباب لم يتجاوز الثامنة والعشرين ، وكان يزيد يغضه ويغضن أباه لأنه كان قد نصح معاوية بالتمهل في الدعوة إلى بيعة يزيد ، فكان عبد الله من ثم حريصاً على دفع الشبهة والغلو في اثبات الولاء للعهد الجديد ..

والذين لم يمسخوا في جبلتهم وتكون لهم هذا المسمى من أعونان يزيد ابن معاوية ، كان الطمع في المناصب والأموال واللذات قد بلغ ما يبلغه المسمى من تحويل الطبائع وطمس البصائر ومعاقلة النفوس في الحقائق ..

\*\*\*

ومن هذا القبيل ، عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي أطاع عبيد الله ابن زيد في وقعة كربلاء ولم يعدل بتلك الواقعة عن نهايتها المشؤومة ، وقد كان العدول بها عن تلك النهاية في يديه

فقد أغري عمر بن سعد بولاية الرى ، وهى درة التاج فى ملك الأكاسرة الأقدمين . وكان يتطلع إليها منذ فتحها أبوه القائد النبيل العزوف ، وينسب إليه أنه قال وهو يراود نفسه على مقاتلة الحسين :

فوالله ما أدرى وانى لعائى  
أفكر فى أمرى على خطرين  
الأتراك ملك الرى والرى مني  
أم أرجع مأثوما بقتل حسين  
وفي قتله النار التى ليس دونها  
حجاب ، وملك الرى قرة عينى

فإن لم تكن هذه الأبيات من لسانه فهو ولا شك من لسان حاله ، لأنها تسجل الواقع الذى لا شبهة فيه ..

ومن الواقع الذى لا شبهة فيه أيضا ، أن عمر بن سعد هذا لم يخل من غلظة فى الطبع على غير ضرورة ولا استفزاز ، فهو الذى ساق نساء الحسين بعد مقتله على طريق جثت القتلى التى لم تزل مطروحة بالعراء .. فصحن وقد لمحنها على جانب الطريق صيحة أسلالت الدم من عيون رجاله ، وهم من قاتل الحسين وذويه

هؤلاء وأمثالهم لا يسمون ساسة ملك ولا تسمى مهمتهم تدعيم سلطان ، ولكنهم يسمون جلادين متسلرين يطعون ما فى قلوبهم من غلظة وحقد ، ويطعون ما فى أيديهم من أموال ووعود .. وتسمى مهمتهم مدحنة طائفة لا يبالى من يسفك فيها الدماء أى غرض يصيب ..

\* \* \*

ومنذ قضى على يزيد بن معاوية أن يكون هؤلاء وأمثالهم أعوانا له فى ملكه ، قضى عليه من ساعتها أن يكون علاجه لمسألة الحسين علاج الجلادين الذين لا يعرفون غير سفك الدماء ، والذين يسفكون كل دم أجروا عليه ..

وهكذا كان لزيyd أعوان اذا بلغ أحدهم حده فى معوته فهو جlad مبذول السيف والسوط فى سبيل المال  
وكان للحسين أعوان اذا بلغ أحدهم حده فى معوته فهو شهيد يبذل الدنيا كلها فى سبيل الروح ..  
وهي اذن حرب جلادين وشهداء ..

## الحسين في مكة

عمل يزيد بوصية أبيه ، فلم يكن له هم منذ قيامه على الملك الا أن ينقر بيبيعة الحسين وعبد الله بن الزبير في مقدمة النفر الذين أنكروا العهد له في حياة معاوية ..

وكان الوليد بن عقبة بن أبي سفيان والى معاوية يومئذ على المدينة .. فلما جاءه كتاب يزيد بنى أبيه ، وأن يأخذ أولئك النفر بالبيعة « أخذوا شيئاً ليس فيه رخصة » دعا اليه مروان بن الحكم ، فأشار عليه بشورته التي جمعت بين الاخلاص وسوء النية .. وفحواها أن يبعث الى الحسين وابن الزبير ، فان بايعا والا ضرب عنقهما !

وحدث بين الحسين والوليد ما تقدمت الاشارة اليه في خضر مروان ، اذ عاد الحسين الى بيته .. وقد عول على ترك المدينة الى مكة كما تركها ابن الزبير من قبله .. فخرج منها ليلتين بقيتا من شهر رجب سنة ستين للهجرة ، ومعه جل أهل بيته وأخواته وبنو أخيه ، ولزم في مسirه الى مكة الطريق الأعظم فلم يتتبّه كما فعل ابن الزبير خافة الطلب من ورائه فصحت في الرجلين فراسة معاوية في هذا الأمر الصغير ، كما صحت في غيره من كبار الأمور ..

وانصرف الناس في مكة الى الحسين عن كل مطالب بالخلافة غيره ، ومنهم ابن الزبير . فكان ابن الزبير يطوف بالكببة كل يوم ويتردد عليه في صباحه ومسائه ، يتعرف رأيه وما نهى اليه من آراء الناس في الحجاز ، وال العراق ، وسائر الأقطار الاسلامية

فثبت الحسين في مكة أربعة أشهر على هذه الحال ، يتلقى بين آونة وآونة دعوات المسلمين الى التظاهر وطلب البيعة ، ولا سيما أهل الكوفة وما جاورها .. فقد كتبوا اليه يقولون ان هنالك مائة ألف ينصروك ،

والحوا في الكتابة يستعجلونه الظهور  
وتردد الحسين طوال هذه الأشهر فيما يفعل بهذه الدعوات المتباينات ،  
فبدا له أن يتهم حتى يتبين جلية القوم ويستطلع عليهم من قريب ..  
وآخر أن يرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب يهدى له  
طريق البيعة إن رأى فيها محلاً لتمهيد ، وكتب إلى رؤساء أهل الكوفة  
قبل ذلك كتاباً يقول فيه : « أما بعد ، فقد أتتكم كتبكم وفهمت ما ذكرتم  
من محبتكم لقدومنا عليكم ، وقد بعثت اليكم أخي وابن عمي وفقي من  
أهل بيتي مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم ..  
فإن كتب إلى أنه قد أجمع رأي ملائكم وذوى الفضل والجبي منكم على  
مثل ما قدمت على به رسالكم وقرأت في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكاً  
إن شاء الله . فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب ، والأخذ بالوسط ،  
والدائن بالحق ، والصابس نفسه على ذات الله ، والسلام »

\*\*\*

ثم بلغ الحسين أن مسلماً قد نزل الكوفة ، فاجتمع على بيته للحسين  
اثنا عشر ألفاً ، وقيل ثمانية عشر ألفاً ، فرأى أن يبادر إليه قبل أن يتفرق  
هذا الشمل ويطول عليهم عهد الانتظار والمراجعة ، فظهر عزمه هذا  
لمشيره من خاصته وأهل بيته فاختلقو في مشورتهم عليه بين موافق  
ومشيط وناصح بالمسير إلى جهة غير جهة العراق  
كان أخوه محمد بن الحنفية يرى — وهو بعد في المدينة — أن يبعث  
رسلاً إلى الأمصار ويدعوهم إلى مبaitته قبل قتال يزيد فان أجتمعوا على  
بيته فذاك ، وإن اجتمع رأيهم على غيره « لم ينقض الله بذلك دينه ولا  
عقله » ..

وكان عبد الله ابن الزبير يقول له : « إن شئت أن تقيم بالحجاز آزرناك  
ونصحنا لك وبأيعنك ، وإن لم تشاً البيعة بالحجاز توليني أنا البيعة  
فتقطع ولا تعصي »  
ويزعم كثير من المؤرخين أن ابن الزبير كان متهم النصيحة للحسين ..

ومن هؤلاء المؤرخين أبو الفرج الأصفهاني . قال : « ان عبد الله ابن الزبير لم يكن شيء أقل عليه من مكان الحسين بالحجاز ، ولا أحب إليه من خروجه إلى العراق طمعا في الوثوب بالحجاز .. لأن ذلك لا يتم له إلا بعد خروج الحسين ، فلقيه وقال له : « على أي شيء عزمت يا أبو عبد الله ؟ » فأخبره برأيه في اتيان الكوفة وأعلمه بما كتب به مسلم بن عقيل ، فقال الزبير : « فما يعسرك ؟ .. فوالله لو كان لي مثل شيعتك بالعراق ما تلومت في شيء »

\*\*\*

ولعل أنسع الناس له في هذه المسألة كان عبد الله بن عباس لما بينهما من القرابة وما عرف به ابن عباس من الدهاء .. سأله :  
— إن الناس أرجعوا أنك سائر إلى العراق ، فما أنت صانع ؟ ..  
قال :

— قد أجمعوا السير في أحد يومي هذين  
فأعاذه ابن عباس بالله من ذلك ، وقال له :

— أني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك . إن أهل العراق قوم غدر . أقم بهذا البلد فانك سيد أهل الحجاز ، فان كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم ، فان أبيت الا أن تخرج فسر إلى اليمين ، فان بها حصونا وشعابا ولأيك بها شيعة  
فقال له الحسين :

— يا ابن عم ! .. أني أعلم أنك ناصح مشقق ، ولكنى قد أزمت وأجمعت على المسير  
قال ابن عباس :

— إن كنت لابد فاعلا ، فلا تخرج أحدا من ولدك ولا حرمك ولا  
نسائك ، فخليق أن تقتل وهم ينظرون إليك كما قتل ابن عفان

## السفر الى العراق

وخرج في الثامن من ذى الحجة لا ينتظر العيد بمسكة ، لأن أخبار البيعة بالكوفة حفظت إلى التعجيل بالسفر قبل فوات الأوان ..  
وكان مسلم بن عقيل قد نزل بالكوفة ، فأقبل عليه الناس ألفاً آلوفاً  
يمايون الحسين على يديه .. وبلغوا ثمانية عشر ألفاً في تقدير ابن كثير  
وثلاثين ألفاً في تقدير ابن قتيبة  
وهال الأمر النعمان بن بشير - والى الكوفة - فحار فيما يصنع بنسالم  
وأتباعه وهم يزدادون يوماً بعد يوم ، فقصد النبر وخطب الناس معلناً  
أنه لا يقاتل الا من قاتله ولا يثبت الا على من وتب عليه ..

\*\*\*

وتسبق أنصار بنى أمية الى زيارة ينقلون اليه ما يجري بالكوفة ،  
فأشار عليه سرجون الرومي مولى أبيه أن يعزل النعمان ويولي الكوفة  
عبيد الله بن زياد ، مضمومة الى البصرة التي كان يتولاها في ذلك الحين  
وقدم عبيد الله الى الكوفة فكان أول ما عمل بها أن جمع اليه عرافة  
المدينة - أى مشايخ أحيائها - فأمرهم أن يكتبوا له أسماء الغرباء ومن  
في أحيائهم من « طلبة أمير المؤمنين والحرورية وأهل الرب » ، وأنذرهم  
« أىما عريف وجد في عرافته من بعية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه اليه ،  
صلب على باب داره ، وألغيت تلك العرافة من العطاء »  
والتمس وجوه المدينة من شيعة الحسين يتراضاهم ويستخرج خفاياهم .  
فسأل عن تخلف منهم عن لقائه وعلى رأسهم هانئ بن عمرو ، فقيل له  
أنه مريض لا يريح داره .. وكان يتعلل بالمرض تجنبًا للقاءه والسلام عليه  
فذهب عبيد الله اليه يعوده ويتلطف اليه ، وجاء في بعض الروايات أنه  
قد أشير على مسلم بن عقيل بقتله وهو في بيت هانئ ، فأبى أن يقتله  
وهو آمن في بيت مريض يعوده ..  
وقال ابن كثير ما فحواه انهم أشاروا على مسلم بن عقيل بقتله وهو في

دار شريك بن الأعور ، وقد علم شريك أن عبيد الله سيعوده .. فبعث إلى هانئ بن عروة يقول له : « أبعث مسلم بن عقيل يكون في داري ليقتل عبيد الله اذا جاء يعودني » ... فتحين مسلم عن قتله ، وسأل الله شريك : « ما منعك أن قتله ؟ » قال : « بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ( ان اليمان قيد الفتاك ، لا يفتكم مؤمن ) ، وكرهت أن أقتله في بيتك » ... قال شريك : « أما لو قتلتة لجلست في الشجر لا يستعدى به أحد ، ولكيفيك أمر البصرة ، ولكنك قتله ظالما فاجرا »

ثم مات شريك بعد ثلاثة أيام ..

\*\*\*

وتضطرب الأقاويل في وقائع هذه الأيام لتلاحمها وكثرة روايتها والعاملين فيها .. ولكن الشائع من تلك الأقاويل ينبع عن عنت شديد لقيه عبيد الله بن زياد في مغالية مسلم وشيعته ، وأنه هرب مرة من المسجد لأن الناس بصرروا بمسلم مقبلا فتصايحوه بعبيد الله فاعتصم بقصره وأغلق عليه أبوابه ..

وأجتمع إلى مسلم أربعة آلاف من حزبه ، فأمر من ينادي في الناس بشعار الشيعة : « يا منصور ! .. أمت » . ثم تقدم إلى قصر الامارة في كتبة كتبة الجيش ..

ولم يكن في القصر إلا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون من أهل الكوفة . فخامر اليأس عبيد الله وظن أنه هالك قبل أن يدركه الغوث من مولاه . ولكنه تحيل بما في وسع المستحب من حيلة هي على أية حال أجدى وأسلم له من التسليم ، فأفقد أنصاره إلى كل صوب في المدينة يعدون ويتوعدون .. وانطلق هؤلاء الأنصار يرجمون بقرب وصول المدد الآخر من يزيد ، وينذرون الناس بقطع العطايا وأخذ البريء بالذنب والغائب بالشاهد ويذلون المال من يرشي بمال ، والوعد لم يقنع بالوعد إلى حين ..

## مقتل مسلم بن عقيل

وتسلوا بكل وشيلة تبلغ بهم ما أرادوا من تخذيل الناس عن مسلم ابن عقيل حتى كانوا يرسلون الزوجة وراء زوجها والأم وراء ولدها والأخ وراء أخيه ، فيتعلقون بهم حتى يقلعوا إلى دورهم أو يدخلوا بهم في زمرة عبيد الله ..

فلما غربت شمس ذلك اليوم ، نظر مسلم حوله فإذا هو في خمسائة من أولئك الآلاف الأربعة .. ثم صلى المغرب فلم يكن وراءه في الصلاة غير ثلاثين تسللوا من حوله تحت الظلام ، وبقى وحيداً في المسجد لا يجد معه من يدله على منزل يأوي إليه

وتسمع عبید الله من القصر حين سكت الجبلة ، وسأل أصحابه أن يشرفوا ليروا من بقي من تلك الجموع .. فلم يروا أحداً ولم يسمعوا صوتاً . فخيل إليهم أنها مكيدة حرب وإن القوم رابضون تحت الظلال ، فأدلوا بالقناديل والمشاعل حتى اطمأنوا إلى خلو المسجد وفرق مسلم وأتباعه ، فدعوا إلى الصلاة الجامعة وأمر المنادين في أرجاء الكوفة : « ألا يرئت الذمة من رجل من الشرطة والمرفأ والمراكب — رؤوس المرفأ — والمقاتلة ، صلى الشاء إلا في المسجد »

\*\*\*

وأقام الحراس خلفه وهو يصلى بين أجابوه وقد امتلاه بهم المسجد ، فخطبهم بعد الفراج من صلاته قائلًا : « يرئت ذمة الله من رجل وجدنا ابن عقيل في داره »

وصاح في رئيس شرطته : « يا حسين بن نمير ! .. ثكلتك أمك ان ضاع بباب سكة من سكة الكوفة وخرج هذا الرجل ولم تأتني به ، وقد سلطتك على دور أهل الكوفة فابعث مراصد على أبواب السكك .. وأصبح غداً فاستبرئ الدور وجس خلالها حتى تأتيني بهذا الرجل .. »

وما هي ألا سويات حتى جيءَ بابن عقيل وقد دافع الشرط عن نفسه ما استطاع . ووصل إلى القصر جريحاً مجهاً ظمآن فاهوى إلى قلة عند

الباب فيها ماء بارد ، فقال له أحد أصحاب عبيد الله : « أتراها ما أبدرها !  
ولله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الجحيم في نار جهنم ! »

وأنكر عمر بن حريث هذه الفطاعة من الرجل ، فجاءه بقلة عليها منديل  
ومعها قدح فصب منها في القدح وأدناه منه ، فإذا هو ينفث الدم في القدح  
كلما رفعه للشرب منه حتى امتلا وسقطت فيه ثيتيه ، فحمد الله وقال :  
« لو كان لي من الرزق المقسم لشربته »

وأدخلوه على عبيد الله فنظر إلى جلساهم وفيهم عمر بن سعد بن أبي  
وقاص ، فناشده القرابة ليس معن منه وصية ينفذها بعد موته . فأبي أن  
يصفى إليه ! .. ثم أذن له عبيد الله فقام معه فقال مسلم : « إن على  
بالكوفة دينا استدتها سبعمائة درهم ، فبع سيفي ودرعي فاقضها عنى ،  
وابث إلى الحسين من يرده ، فاني قد كتبت إليه أعلمه أن الناس معه  
ولا أراه إلا مقبلًا ... »

فعاد عمر إلى عبيد الله نافثي له السر الذي ناجاه به وأوصاه أن  
يكتمه . ثم دعا عبيد الله بالحرس الذي قاومه مسلم وضربه على رأسه  
— واسمه بكير بن حمران — فأسلم مسلماً إليه وقال له :  
— لتكن أنت الذي تضرب عنقه

وصعدوا به إلى أعلى القصر فأشرفوا به على الجموع المحيطة به  
وضربوا عنقه ، فسقط رأسه إلى الرجبة وألقيت جثته إلى الناس . ثم  
أرسل برأسه إلى يزيد مع رؤوس سراة في المدينة كان مسلم يأوي اليهم  
أول مقدمه إليها ، ومنهم هانئ بن عروة الذي تقدمت الاشارة إليه ...

### خلال الفشل

كان مقتل مسلم بن عقيل في التاسع من ذي الحجة ليلة العيد .. وكان  
خروج الحسين من مكة قبل ذلك بيوم واحد ، فلم يسمع بمقتله إلا وهو  
في آخر الطريق ..

ولما شارف العراق أحب أن يستوثق مرة أخرى قبل دخوله ، فكتب إلى أهل الكوفة كتاباً مع قيس بن سهر الصيداوي يخبرهم بقدمه ويحضهم على الجد والتساند ، فرأى قيس القادسية وقد رصد فيها شرط عبيد الله فاعتقلوه وأشخصوه إليه .. فأمره عبيد الله أن يصعد القصر فيسب « الكذاب بن الكذاب الحسين بن على » وينهى الناس أن يطعوه فصعد قيس وقال : « أيها الناس .. إن هذا الحسين بن على خير خلق الله ، ابن فاطمة بنت رسول الله ، وأنا رسوله إليكم ! وقد فارقته بالحاجز فأجيئوه ، والعنوا عبد الله بن زياد وأباه .. »

فما كان منهم الا أن قذفوا به من حلق ، فمات ..

وحدث مثل هذا مع عبد الله بن يقطر .. فأبى أن يلعن الحسين ، ولعن عبد الله بن زياد ، فألقوا به من شرفات القصر الى الارض فاندك عظامه ولم يتمت ، فذبحوه ..

وجعل الحسين كلما سأله قادماً من العراق أبناء بمقتل رسول من رسليه أو داعية من دعاته ، فأشار عليه بعض صحبه بالرجوع ، وقال له غيرهم : « ما أنت مثل مسلم بن عقيل ، ولو قدمت الكوفة لكان الناس إليك أسرع .. »

وواثب بنو عقيل فأقسموا لا ييرحون حتى يدركوا ثارهم أو يذوقوا ما ذاق مسلم ..

ولم ير الحسين بعد ذلك أن يصحب معه أحداً إلا على بصيرة من أمره وما هو لاقيه ان تقدم ولم ينصرف لشأنه .. خطب الرهط الذين صحبوه وقال لهم :

« وقد خذلنا شيعتنا .. فمن أحب منكم أن ينصرف فلينصرف ، ليس عليهم منا ذمام .. »

ففرقوا الا أهل بيته وقليلًا من تبعه في الطريق ..

## الحسين والحر بن يزيد

والتقى الركب عند جبل ذى حسم بطلائع جيش عبد الله يقودها الحر  
ابن يزيد التميمي اليربوعي في ألف فارس ، أمروا بأن لا يدعوا الحسين  
حتى يقدموا به على عبيد الله في الكوفة  
فأمر الحسين مؤذنه بالآذان لصلاة الظهر ، وخطب أصحابه وأصحاب  
الحر بن يزيد فقال :

— أيها الناس اني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا  
فليس لنا امام ، لعل الله يجمينا بك على الهدى والحق . فقد جئتم .. فان  
عطونى ما أطمئن اليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم ، واذ لم تتعلموا  
او كتم لقديمي كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذي أقبلت منه ..  
فلم يجبه أحد ..

فقال للمؤذن :

— أقم الصلاة !  
وسائل الحر :

— أتريد أن تصلى أنت بأصحابك وأصلى بأصحابي ؟  
فقال الحر :

— بل نصلي جميعا بصلاتك

\*\*\*

ثم تيسر الحسين الى طريق العذيب ، فبلغها وفرسان عبيد الله يلazموه  
ويصررون على أخذه الى أميرهم وصاده عن وجهته حينما اتجه غير وجهتهم ،  
فأقبل عليهم يعلمون وهم يصفون اليه فقال :

« أيها الناس ! .. ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من رأى  
سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله مخالف لبيته رسول الله يعمل في عاد الله  
بالائم والمدوان ، فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول كان حقا على الله أن  
يدخله مدخله . ألا وأن هؤلاء قد لرموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة

الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالغني ، وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله ، وأنه أحق من غيري ..

« وقد أتني كتبكم ورسلكم بيعتكم وانكم لا تسلموتنى ولا تخذلوتنى، فاذ بقitem على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، وأنا الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسي مع أنفسكم وأهلى من أهلكم، فلكلكم في أسوة . وان لم تفعلوا وتفخسم عهدي ، وخلعتم بيعتى ، فلمعمرى ما هي لكم بنكير ، والمغفور من اغتر بكم . فحفظكم أخطأتهم ، ونصيبكم ضيعتم .. ومن نكث فانيا ينكث على نفسه وسيغفر الله عنكم ، والسلام»

فأنصت العر بن يزيد وأصحابه ثم توجه اليه يحدره العاقبة وينبهه:

« لئن قاتلت لتقتلن ! »

فصاح به الحسين :

— أبا الموت تخوفنى ! .. ما أدرى ما أقول لك .. ولكنني أقول كما قال أخو الأوس لابن عمر وهو يريده نصرة رسول الله، فخوفه ابن عمر وأنزره أنه لم يقول فأنسد :

سأمضي وما بالموت عار على الفتى  
اذا ما نوى خيرا وجاحد سلما  
وآسى الرجال الصالحين بنفسه  
وخالف مثورا وفارق مجرما  
فإن عشت لم أنسدم ، وان مت لم ألم  
كفى بك ذلاً أذن تعيش وترغما

\*\*\*

ثم سار الركبان ينظر بعضهما الى بعض كلما مال الحسين نحو البادية أسرع العر بن يزيد فرده نحو الكوفة . حتى نزلابنينوى ، فاذا رايت مقبل عليه بالسلاح ، يحيى العر ولا يحيى الحسين ، ثم أسلم العر كتابا من عبيد الله يقول فيه : « أما بعد فجمعهم بالحسين حتى يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي ، فلا تنزله الا بالمراء في غير حصن وعلى غير ماء .. وقد

أمرت رسولي أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتينى باشفاذك أمرى والسلام »  
فلما بدا من الحرج بن يزيد أنه يريد أن ينفذ أمر عبيد الله بن زياد وبخشى  
رقبه الذى أمر لا يفارقه حتى ينفذ أمره ، قال أحد أصحاب الحسين -  
زهير بن العين :

- انه لا يكون والله بعد ما ترون الا ما هو أشد منه . يا ابن رسول  
الله ! .. ان قتال هؤلاء أهون علينا من قتال من يأتينا بعدهم . فلعمري  
ليأتيها من بعدهم ما لا قبل لنا به . فهلم تناجز هؤلاء  
فأعرض الحسين عن مشورته وقال :  
- انى أكره أن أبدأهم بقتال

### عمر بن سعد

وكان الدليل قد ثاروا على يزيد بن معاوية واستولوا على دستي  
بأرض همدان ، فجمع لهم عبيد الله بن زياد جيشا عدته أربعة آلاف فارس  
بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص الذى يذكر الدليل اسم أبيه - سعد -  
فاتح بلادهم ، وقد وعد بولاية الرى بعد قمع الثورة الديلمية ، فلما قدم  
الحسين الى العراق قال عبيد الله لعمر :

- تفرغ من الحسين ثم تسير الى عملك  
فاستغفاه ، وعلم عبيد الله موطن هواه فقال له :  
- نعم نغطيك على أن ترد علينا عهدا ..

فاستمهله حتى يراجع نصحاء .. فنصح له ابن أخيه بن المغيرة بن  
شعبه - وهو من أكبر أعون معاوية - لا يقبل مقاتلته الحسين ، وقال له :  
- والله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض لو كان لك ، خير  
من أن تلقى الله بدم الحسين

\*\*\*

وبات ليلته يقلب وجوه رأيه ، حتى اذا أصبح ذهب الى ابن زياد ،  
فاقترب عليه أن يبعث الى الحسين من أشراف الكوفة من ليس يعني في  
الحرب عنهم .. فأبى ابن زياد الا أن يسير الى الحسين أو ينزل عن ولاية

الری .. فسار على مضض وجنوده متأقلون متراجون ، الا زعاف  
المرتقة الذين ليس لهم من خلاق  
وكان جنود الجيش يتسللون منه ويتخلقون بالكوفة .. فتذهب عبيد الله  
رجالا من أعوااته - هو سعد بن عبد الرحمن المقرى - ليطوف بها ويأتيه  
بمن تخلف عن المسير لقتال الحسين ، وضرب عنق رجل جيء به وقيل انه  
من التخلفين ، فأسرع بقتيلهم الى المسير  
وقد أدرك الجيش الحسين وهو يكرباء على نحو من خمسة وعشرين  
ميلا الى الشمال الغربي من الكوفة . نزل بها في الثاني من المحرم سنة  
احدى وستين ..

وخلال الجو في الكوفة لرجلين اثنين يسابق كلاهما صاحبه في اللؤم  
وسوء الطوية ، وينفردان بتصريف الأمر في قضية الحسين دون مراجعة  
من ذي سلطان .. وهما عبيد الله بن زياد ، وشمر بن ذي الجوشن  
عبيد الله المعموز النسب الذي لا يشغله شيء ، كما يشغله التشفى  
لتبه المعموز من رجل هو بلا مراء أعرق العرب نسبا في الجاهلية والاسلام  
.. فليس أشعى اليه من فرصة ينزل فيها ذلك الرجل على حكمه ، ويشعره  
فيها بذلك ورغمه ..

### شمر بن ذي الجوشن

وشمر بن ذي الجوشن الأبرص الكريه الذي يمضه من الحسين ما يمض  
كل لثيم مشنوه من كل كريم محبوب وسيم  
وكان كلاهما يفهم لؤم صاحبه ويعطيه فيه حقه وعذرها ، فهما في هذه  
الخلة متناصحان متفاهمان .. !

ولم يكن أيسر من حل قضية الحسين على وجه يرضى يزيد ويمهد له  
الولاء في قلوب المسلمين ولو الى حين .. لو لا ذلك الضعن المترج  
بالخليفة الذي هو كسر المخمور لا موضع معه لرأى مصيبة ، ولا لتفكير  
في عاقبة بعيدة أو قريبة ..

فالحسين في أيديهم ليس أيسر عليهم من اعتقاله وابقاءه بأعينهم في مكان

ينال فيه الكرامة ولا يتحفز لثورة  
لكتهما لم يفكرا في أيسر شيء ولا أتفع شيء للدولة التي يخدمانها ..  
وانما فكرا في النسب المغموز والصورة المسوخة ، فلم يكن لهما من هم  
غير ارغام الحسين وشهاد الدنيا كلها على ارغامه

تلقي ابن زياد من عمر بن سعد كتابا يقول فيه ان الحسين « أعطاني أن  
يرجع الى المكان الذي أقبل منه أو أن نسيره الى أي ثغر من الثغور شيئاً ،  
أو أن يأتي يزيد فيضع يده في يده »

والذى نراه نحن من مراجعة العحوادث والأسانيد أن الحسين ربما اقترح  
الذهاب الى يزيد ليرى رأيه ، ولكنه لم يعدهم أن يبايعه أو يضع يده في  
يده .. لأنه لو قبل ذلك لبایع في مكانه واستطاع عمر بن سعد أن يذهب  
به الى وجهته ، ولأن أصحاب الحسين في خروجه الى العراق قد تفوا  
ما جاء في ذلك الكتاب ومنهم عقبة بن سمعان حيث كان يقول : « صحبت  
الحسين من المدينة الى مكة ومن مكة الى العراق ، ولم أفارقها حتى قتل  
وسمعت جميع مخاطباته الى الناس الى يوم قتله .. فوالله ما أعطاهم  
ما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد ولا أن يسيروه الى ثغر من الثغور ،  
ولكنه قال : « دعوني أرجع الى المكان الذي أقبلت منه أو دعوني أذهب  
في هذه الأرض العريضة حتى تنظر الى ما يصير اليه أمر الناس »

\* \* \*

ولعل عمر بن سعد قد تجوز في نقل كلام الحسين عمداً ليأذنوا له في  
حمله الى يزيد فيلقى عن كاهله مقاتاته وما تجر اليه من سوء القالة ووخر  
الضيير ، أو لعل الأعوان الأمويين قد أشعروا عن الحسين اعتزامه للمبایعة  
ليلزموا بالبيعة أصحابه من بعده ، ويسقطوا حجتهم في مناهضة الدولة  
الأموية ..

وأيا كانت الحقيقة في هذه الدعوى فهي تكبر مائة عبيد الله وشر  
ولا تنقص منها . ولقد كانوا على العهد بمثيلهما .. كلارها كفيل أن يحول  
بين صاحبه وبين خالجه من الكرم تخامر أو تغالب اللوم الذي فطر عليه ،

فلا يصدر منها الا ما يوائم لتعين لا يتفقان على خير ..  
وكأنما جنح عبيد الله الى شيء من الهوادة حين جاءه كتاب عمر بن سعد،  
فابتدره شمر ينهاه ويجنح الى الشدة والاعتساف ، فقال له :  
— أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك والى جنبك ! وافه لئن رحل من  
بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزوة ولتكونن أولى  
بالضعف والعجز .. فلا تطعه هذه المنزلة ، ولكن لينزل على حكمك هو  
وأصحابه ، فان عاقبت كنت ولی العقوبة ، وان عفوت كان ذلك لك  
ثم أراد أن يorum بعمر ويتهمه عند عبيد الله ليخلقه في القيادة ثم يخلفه  
في الولاية ، فذكر لعبيد الله أن الحسين وعمر يتحدثان عاملا الليل بين  
المسكريين ..

فعدل عبيد الله الى رأي شمر وأفذه بأمر منه أن يضرب عنق عمر ان  
هو تردد في اكرام الحسين على المسير الى الكوفة أو مقاتلته حتى يقتل .  
وكتب الى عمر يقول له :

« أما بعد .. فاني لم أبعثك الى الحسين لتکف عنه ولا لتمنيه السلامة  
والبقاء ولا لتطاوله ولا لتعذر عنه ولا لتقعد له عندي شافعا ... انظر  
فان نزل الحسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم الى مسلما ،  
وان أبوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فانهم لذلك مستحقون .  
فان قتل الحسين فأوطئ الخيل صدره وظهره فانه عاق مشاق قاطع ظلوم ..  
فان أنت مضيت لأمرنا جزئناك جراء السامع المطيع ، وان أنت أتيت  
فاعتزل جندنا وخل بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر والسلام »

وختمت مأساة كربلاء كلها بعد أيام معدودات ..  
ولكنها أيام بقيت لها جريدة لم يحمدها طالب منفعة ولا طالب مروءة ،  
ومضت مئات السنين وهي لا تمحو آثار تلك الأيام في تاريخ الشرق  
والاسلام ..

## خطأ الشهادة

خروج الحسين من مكة الى العراق حركة لا يسهل الحكم عليها بمقاييس العوادث اليومية ، لأنها حركة من أندر حركات التاريخ في باب الدعوة الدينية أو الدعوة السياسية .. لا تكرر كل يوم ولا يقوم بها كل رجل ولا يأتي الصواب فيها — ان أصحاب — من نحو واحد ينحصر القول فيه، ولا يأتي الخطأ فيها — ان أخطأت — من سبب واحد يمتنع الاختلاف عليه. وقد يكون العرف فيها بين أصوب الصواب وأخطأ الخطأ فرقاً صغيراً من فعل المصادفة والتوفيق ، فهو خليق أن يذهب الى النقيضين ..

هي حركة لا يأتي بها الا رجال خلقوها لأمثالها فلا تخطر لغيرهم على بال ، لأنها تلو على حكم الواقع القريب الذي يتواهه في مقاصده سالك الطريق اللارج والرتب المطروق ..

هي حركة فتنة يقدم عليها رجال أخذاد ، من اللغو أن ندينهم بما يعمله رجال من غير هذا المعدن وعلى غير هذه الوتيرة .. لأنهم يحسنون ويفهسون ويطلبون غير الذي يحسنه ويفهمه ويطلبه أولئك الرجال ..

هي ليست ضرية م GAMER من م GAMER الس Isa ، ولا صفة مساوم من مساومي التجارة ، ولا وسيلة متسلل ينزل على حكم الدنيا أو تنزل الدنيا على حكمه ، ولكنها وسيلة من يدين نفسه ويدين الدنيا برأي من الآراء هو مؤمن به ومؤمن بوجوب ايمان الناس به دون غيره .. فان قبلته الدنيا قبلها وان لم تقبله فسيان عنده فواته بالموت أو فواته بالحياة ، بل لعل فواته بالموت أشهى اليه ..

هي حركة لا تقايس اذن بمقاييس الم GAMERات ولا الصفقات ، ولكنها تقايس بمقاييسها الذي لا يتكرر ولا يستعاد على الطلب من كل رجل أو في كل أوان ..

ولا تنسى أن السنين الستين التي انقضت بعد حركة الحسين ، قد

انقضت في ظل دولة تقوم على تخطئه في كل شيء وتصويب مقاتلاته في كل شيء ..

\* \* \*

ان القول بصواب الحسين معناه القول ببطلان تلك الدولة ، والتماس العذر له معناه القاء الذنب عليها . وليس يعاف على أحد كيف ينسى الحياة وتبدل القرائع أحياناً في تزويه السلطان القائم وتأييم السلطان الذاهب . فليس الحكم على صواب الحسين أو على خطئه اذن بالأمر الذي يرجع فيه الى أولئك الصنائع المتزلفين الذين يرهبون سيف الدولة القائمة ويغنمون من عطائها ، ولا لصنائع مثلهم يرهبون بعد ذلك سيفاً غير ذلك السيف ويغنمون من عطاء غير ذلك العطاء

انما الحكم في صواب الحسين وخطئه لأمرين لا يختلفان باختلاف الزمان وأصحاب السلطان ، وهما البواعث النفسية التي تدور على طبيعة الإنسان الباقية ، والنتائج المقررة التي مثلت للعيان باتفاق الأقوال

وبكل من هذين المقياسين القويين تقيس حركة الحسين في خروجه على يزيد بن معاوية ، فنقول انه قد أصاب ..

أصاب اذا نظرنا الى بواعته النفسية التي تهيمن عليه ولا يتخيل العقل أن تهيمن عليه بواعث غيرها ..

وأصاب اذا نظرنا الى تائج الحركة كلها نظرة واسعة ، لا يستطيع أن يجادل فيها من يأخذ الأمور بسنة الواقع والمصلحة أو من يأخذ الأمور بسنة النجدة والمروعة ..

فما هي البواعث النفسية التي قامت بنفس الحسين يوم دعى في المدينة بعد موت معاوية لابيعة ابنه يزيد ؟

هي بواعث تدعوه كلها أن يفعل ما فعل ولا تدعه مثله الى صنع غير ذلك الصنيع . وخير لبني الانسان ألف مرة أن يكون فيهم خلق كخلق الحسين الذي أغضب يزيد بن معاوية ، من أن يكون جميع بنى الانسان على ذلك الخلق الذي يرضي به يزيد ..

فأول ما ينبغي أن نذكره لفهم البواعث النفسية التي خامت نفس الحسين في تلك المحن الأالية ، أن بيعة يزيد لم تكن بالبيعة المستقرة ولا بالبيعة التي يضمن لها الدوام في تقدير صحيح ..  
 فهي بيعة نشأت في مهد الدس والتسلق ، ولم يجسر معاوية عليها حتى شبله عليها من له مصلحة ملحة في ذلك التشجيع

\* \* \*

كان المغيرة بن شعبة والياً معاوية على الكوفة ، ثم هم بعزله واستاذ ولاته إلى سعيد بن العاص جرياً على عادته في اضعاف الولاية قبل تشكيم ، وضرب فريق منهم بفرق حتى يعينه بعضهم على بعض ولا يتقووا عليه . فلما أحسن المغيرة نية معاوية ، قدم الشام ودخل على يزيد وقال له كلام استفهم المتعجب :

ـ لا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟  
ولم يكن يزيد نفسه يصدق أنه أهل لها أو أن يعيته مما يتم بين المسلمين على هيئة . فقال للمغيرة :  
ـ أو ترى ذلك يتم ؟  
فأراه المغيرة انه ليس بالعسير ، اذا أراده أبوه ..

وأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة ، فعلم هذا أن فرصته سانحة وأنه نسي بادل معاوية رشوة آجلة برشوة عاجلة .. يرشوه باعاته على بيعة يزيد ، ويأخذ منه الرشوة يقائمه على ولایة الكوفة الى أن يقضي في أمر هذه البيعة ، وله في التمهيد لها نصيب ..

فلما لقى معاوية سأله هذا عما أخبره به يزيد ، فأعاده عليه وهو يزخرف له بما يرضيه . قال :

ـ قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان ، وفي يزيد منك خلف فاعقد له ، فان حدث بك حادث كان كفراً للناس وخلفاً منك ، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة  
لهماكه معاوية وهو يتهيب ويتأنى :

— ومن لى بذلك ؟ ..

قال :

— أكثيوك أهل الكوفة ، ويكتفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين  
النصررين أحد يخالفك

فرده معاوية الى عمله كما كان يتمنى ، وأوصاه ومن معه ألا يتجلوا  
باقنهاز هذه النية .. ثم استشار زياد بن أبي سفيان ، فأطلع هذا بعض  
خاسته على الأمر وهو يقول :

— إن أمير المؤمنين ، يتخفّف فرقة الناس ويرجو طاعتهم .. ويزيد  
صاحب رسالة وتهاون مع ما قد أولح به من الصيد .. فالق أمير المؤمنين  
وأد إليه فعلات يزيد وقل له رويدك بالأمر ، فأحرى أن يتم لك ولا تعجل  
فإن دركا في تأخير خير من فوت في عجلة ..

فأشار عليه صاحبه « ألا يفسد على معاوية رأيه ولا يغضبه في ابنه » .  
وعرض عليه أن يلقى يزيد فيخبره أن أمير المؤمنين كتب اليك يستشيرك  
في البيعة له وإنك تخوف خلاف الناس لهنات يتقوّفها عليه ، وإنك ترى  
له ترك ما ينتمي إليه لستحكم له الحجة على الناس ..

\* \* \*

وقالوا إن يزيد كف عن كثير مما كان يصنع بعد هذه النصيحة ، وإن  
معاوية أخذ برأي زياد في التؤدة فلم يجهر بعقد البيعة حتى مات زياد ..  
وقد أحسن معاوية الامتناع من بيته قبل أن يحسه من الغرباء عنه ..  
فكانت أمراته « فاختة » بنت قرطة بن حبيب بن عبد شمس تكره بيعة  
يزيد وتود لو أثر بالبيعة ابنها عبد الله ، فقالت له :

— ما أشار به عليك المغيرة ؟ .. أراد أن يجعل لك عدوا من نفسك

يتمنى هلاكك كل يوم

واشتتدت نفقة مروان بن الحكم .. وهو أقرب الأقرباء الى معاوية ..  
حين بلغته دعوة العهد ليزيد فأبى أن يأخذ العهد له من أهل المدينة ،  
وكتب الى معاوية : « إن قومك قد أبوا اجابتكم الى بيتك » . فعزله

معاوية من ولاية المدينة وولاتها سعيد بن العاص . فأوشك مروان أن يشور ويعلن الخروج وذهب إلى أخواله من بنى كنانة فنصروه وقالوا له : — نحن بذلك في يدك وسيفك في قرابك . فمن رميته بنا أصبناه ومن ضربته قطعناه .. الرأى رأيك ، ونحن طوع يمينك

ثم أقبل مروان في وفد منهم كثير إلى دمشق ، فذهب إلى قصر معاوية وقد أذن للناس ، فسنه الحاجب لكترا من رأى معه فضريوه واقتحموا الباب . ودخل مروان وهم معه حتى سلم على معاوية وأغاظل له القول . فخاف معاوية هذا الجمع من وجوده قومه وترضى مروان ما استطاع ، وجعل له ألف دينار كل شهر ومائة لمن كان معه من أهل بيته

\* \* \*

ولم يكن مروان وحده بالغاصب بين بنى أمية من بيعة يزيد ، بل كان سعيد بن عثمان بن عفان يرى أنه أحق منه بالخلافة لأنه ابن عثمان الذي تذرع معاوية إلى الخلافة باسمه . فقال معاوية : — يا أمير المؤمنين ... علام تباعي ليزيد وتركتني ! .. فوالله لتعلم أن أبي خير من أبيه وأمي خير من أمه ، وإنك إنما ثلت ما ثلت بأبي فسرئي معاوية عنه .. وقال له ضاحكا هاشا :

— يا ابن أخي ! .. أما قولك أن أباك خير من أبيه ، في يوم من عثمان خير من معاوية .. وأما قولك أن أمك خير من أمّه ، ففضل قوشية على كلية فضل بيّن ، وأما أن أكون ثلت ما أنا فيه بأبيك فانيا الملك يؤتى الله من يشاء .. قتل أبوك رحمة الله فتواكنته بنو العاص وقامت فيه بنو حرب ، فنحن أعظم بذلك منه عليك ، وأما أن تكون خيرا من يزيد فوالله ما أحب أن داري مملوءة رجالا مثلك يزيد . ولكن دعني من هذا القول وسلنى أعطيك ، وولاه خراسان

فكان أكبر بنى أمية أعظمهم أملأ في الخلافة بعد معاوية ، وكان بعضهم لبيعة يزيد على قدر أملهم فيها ، وهؤلاء — وان جمعتهم مصلحة الأسرة فترة من الزمن — لم تكن مناسفهم هذه ليزيد بالعلامة التي تؤذن بالبقاء

وبشره بالضمان والقرار ..

وعلى هذا النحو ولدت بيعة يزيد بين التوجس والمساومة والإكراه ..

وبهذه الجماعة قوبلت بين أخلص الأعوان وأقرب القراء ..

وظهر من اللحظات الأولى ، أن المغيرة بن شعبة كان ممساراً يصافق.

على ما لا يملك .. فقد ضعن الكوفة والبصرة ومنع الخلاف في غيرهما ،

فإذا الكوفة أول من كره بيعة يزيد ، وإذا البصرة تتلماً في الجواب ووالها

يرجى الأمر ويوصي بالتمهل فيه فلا يقدم عليه معاوية في حياته ، وإذا

أطراف الدولة من ناحية همدان تثور ، وإذا بالحجاز يستعصي على بنى

أمية سنوات ، وإذا باليمن ليس فيها نصير للأمويين . ولو وجدت خارجاً

يعلن الثورة عليهم لكان ثورتها كثورة الحجاج ..

بل يجوز أن يقال — مما ظهر في حركة الحسين كل الظاهر — أن الشام

نفسها لم تتطوّر على رجل يؤمن بحق يزيد وبطلاز دعوى الحسين . فقد

كانوا يترجحون من حرب الحسين ويتسلل من استطاع منهم التسلل قبل

لقائه ، الا أن يهدد بقطع الأرزاق وقطع الرقاب

والحوادث التي تلت حركة الحسين إلى خاتم عهد يزيد أدلى بأدل ما تقدم

على اضطراب عهده وقلة ضمانه ، لأن الأحداث والنذر لم تزل تتوالى

بقية حياته وبعد موته بستين

ونحن اليوم نعلن من التاريخ كيف انتهت هذه الحوادث والنذر في عهد

يزيد أو بعد عهده ، فيخیل إلينا أن عاقبها لم تكن تحمل الشك ولم

تكن بها من خفاء . ولكن الذين استقبلوها كانوا خلقاً لا يروا فيما

طوال ملكه تعنو له الرؤوس ويرجى له طول البقاء

### بواطن الغروب

نعم كانت هناك نسحة عن الغروب لو كان يزيد في الخلافة رضي المسلمين

من العقل والخلق وسلامة التدبر وعزّة المؤئل والدولة ، وكان المسلمون

قد توافقوا على اختياره لحبهم أيامه ، وتعظيمهم لعقله وخلقه واطمئنانهم إلى

سياسته واعتمادهم على صلاحه واصلاحه ..

ولكنه على تقدير ذلك ، كان كما علمنا رجلا هازلا في أحوج الدول  
إلى الجد ، لا يرجى له صلاح ولا يرجى منه إصلاح . وكان اختياره لولاية  
العهد مساومة مكشوفة قبض كل مسامح فيها نعم رضاه وموته جهرة  
وعلانة من المال أو الولاية أو المصادنة ، ولو قبضوا مثل هذا الثمن  
ليبايعوا ولها للعهد شرًا من يزيد لما همّ أن يبايعوه وإن تعطلت حدود  
الدين وقوضت معالم الأخلاق

وأعجب شيء أن يطلب إلى حسين بن علي أن يبايع مثل هذا الرجل  
ويزكيه أمام المسلمين ، ويشهد له عندهم أنه نعم الخليفة للأمول صاحب  
الحق في الخلافة وصاحب القدرة عليها . ولا مناص للحسين من خصلتين :  
هذه ، أو الخروج ! .. لأنهم لن يتركوه بمعزل عن الأمر لا له ولا عليه

\*\*\*

ان بعض المؤرخين من المستشرقين وضعاف الفهم من الشرقيين ينسون  
هذه الحقيقة ولا يولونها تصريحها من الرجحان في كف الميزان

وكان خليقا بهؤلاء أن يذكروا أن مسألة العقيدة الدينية في نفس  
الحسين لم تكن مسألة مزاج أو مساومة ، وأنه كان رجلا يؤمن أقوى  
الإيمان بأحكام الإسلام ويعتقد أشد الاعتقاد أن تعطيل حدود الدين هو  
أكبر بلاء يتحقق به وبأهلة وبالامة العربية قاطبة في حاضرها ومصيرها .  
لأنه مسلم ولأنه سبط محمد .. فمن كان اسلامه هداية نفس فالإسلام عند  
الحسين هداية نفس وشرف بيت ..

وقد لبث بنو أمية بعد مصرعه ستين سنة يسبون أبياه على  
المنابر ، ولم يجر أحد منهم قط على المسار بورعه وتقواه ورعايته  
لأحكام الدين في أصغر صغيرة يباشرها المرء سرا أو علانية ، وحاولوا  
أن يعيشو بشيء غير خروجه على دولتهم فقصرت أسلفهم وألسنة  
الصنائع والأجراء دون ذلك . فكيف يواجه مثل هذا الرجل خطرا على  
الدين في رأس الدولة وعرش الخلافة مواجهة الهواة والمشائعة والتأمين ؟

كيف يسام أن يرشع للإمام من لا شفاعة له ولا كفاية فيه إلا أنه  
بن أبيه ..

لقد كان أبوه معاوية على كفاعة ووقار وحنكة ودرأية بشئون الملك  
والرئاسة ، وكان له مع هذا نصائح ومشيرون أولو براعة وأحلام تكبح  
من السلطان ماجمجم وتقييم ما انحرف وتمني له فيما عجز عنه . وهذا ابنه  
القائم في مقامه لا كفاعة ولا وقار ولا نصائح ولا مشيرون ، الا من كان  
عرنا على شر أو موافقا على ضلاله . فما عسى أن تكون الشهادة له  
بالصلاح للإمام إلا تغريبا بالناس وقناة بالسلامة أو الأجر المبذول على  
هذا التغريبا ..

ثم هي خطوة لا رجعة بعدها اذا أقدم عليها الحسين بما أثر عنده من الوفاء  
وصدق السريرة . فإذا باب يزيد فقد وفى له بقية حياته كما وفي معاوية بما  
عاهده عليه ، ولا سيما حين يبایع يزيد على علم بكل تقييصة فيه قد يتخل  
بها المتعلل لتفض البيعة واتحالف أسباب الخروج

فملك يزيد لم يقم على شيء واحد يرضاه الحسين لدينه أو لشرفه أو  
للأمة الإسلامية . ومن طلب منه أن ينصر هذا الملك فانيا يطلب منه أن  
ينصر ملكا ينكر كل دعوه ولا يحمد له حالة من الأحوال ، ولا تنس بعد  
هذا كله أن هذا الملك كان يقرر دعائمه في آذدآن الناس بالغضن من  
الحسين في سمعة أبيه وكراهة شيعته ومربيديه . فكانوا يسبون عليا على  
المنابر وينعتونه بالكذب والمرroc والعصيان ، وكانوا يتحرون أنصاره  
حيث كانوا في قيصر وقام على سبه والنيل منه بشتمه من الناس ، والا أصحابهم  
العنٰت والمعذاب وشمرروا في الأسواق بالصلب والهوان . فمحارة هذه  
الأمور كلها في مفتاح ملك جديد مفساه أنها سنة قد وجبت واستقرت  
الجيل بعد الجيل بغير أمل في التغيير والتبدل . فمن أثر هذه السنة في  
مفتوح هذا الملك الجديد فقد ضعف أمره وضعف أمل أنصاره فيه يوما  
بعد يوم ، وازداد مع الزمن ضعفا كما ازدادت حجة خصومة قوة عليه  
هذه هي البواعث النفسية التي كانت تجيئ في صدر الحسين يوم دعاء

أولياء بنى أمية الى مبايعة يزيد والتزول عن كل حق له ولأبنائه ولأسرته في امامية المسلمين، كائنا من كان القائم بالأمر وبالغاً ما بلغ من قلة الصلاح وبطلان الحجة . وهي بواطن لا تثنى عن الخروج ولا تزال تلعن عليه في اتخاذ طريق واحد من طريقين لا معدل عندهما ، وهما الخروج ان كان لا بد خارجا في وقت من الأوقات ، أو التسليم بما ليست ترضاه له مروءة ولا يرضاه له إيمان ..

### مصرع واتصال

أما تأثير الحركة كلها – اذا نظرنا اليها نظرة واسعة – فهى أنجح لاقصية التي كان ينصرها من مبايعة يزيد فقد صرع الحسين عام خروجه ، ولحق به يزيد بعد ذلك بأقل من أربع سنوات ..

ولم تقض ست سنوات على مصرع الحسين حتى حاقد الجزاء بكل رجل أصابه في كربلاء ، فلم يكدر يسلم منهم أحد من القتل والتنكيل مع سوء السمعة ووسواس الضمير

ولم تمر دولة بنى أمية بعدها عمر رجل واحد مدید الأجل ، فلم يتم لها بعد مصرع الحسين نيف وستون سنة ! .. وكان مصرع الحسين هو الداء القاتل الذى سكن في جثمانها حتى قضى عليها ، وأصبحت ثاراث الحسين نداء كل دولة تفتح لها طريقة الى الأسماع والقلوب

ولا صابة هذه الحركة في تأثيرها الواسعة دخل في روع بعض المؤرخين أنها تدبر من الحسين رضى الله عنه ، توخاه منذ اللحظة الأولى وعلم موعد النصر فيه .. فلم يخامر الشك في مقتله ذلك العام ، ولا في عاقبة هذه الفعلة التي ستحقق لا محالة بقاتلها بعد أعوام

فقال ماريني الألماني في كتابه (السياسة الاسلامية) : « إن حركة الحسين في خروجه على يزيد إنما كانت عزمة قلب كبير عز عليه الادعاء وعز عليه النصر العاجل ، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذى يبلغ به

النصر الآجل بعد موته ، ويحيى به قضية مخدولة ليس لها بغير ذلك حياة »  
فإن لم يكن رأى الكاتب حقاً كله ، فبعضه على الأقل حق لا شك فيه  
ويصدق ذلك — في رأينا — على حركة الحسين بعد أن حيل بينه وبين  
الذهب لوجهه الذي يرتضيه ، فائز الموت كيما كان ولم يجعل ما يحيق  
بيني أمينة من جراء قتله .. فهو بالغ منهم باتصارهم عليه مالم يكن نيلعنه  
بالنجاة من وقعة كربلاء

\*\*\*

وقد جرى ذكر الموت على لسان الحسين من خطوطه الأولى وهو يتهدأ  
للرحيل ويودع أصحابه في الحجاز . فقال لهم : « إن الموت حق على ولد  
آدم » ولم يخف عليه أنه يركب الخطة التي لا يبالي راكبها ما يصيبه من  
ذلك القضاء ..

لكنه لم يكن يتأمن من اقناع الناس والتفافهم به منذ خطوطه الأولى .  
ولم يعقد عزمه على ملاقا الموت حتى ساموه الرغم ، وأبوا عليه أن ينصرف  
إلى أي منصرف قبل التسليم المبين ، مسوقا على الكره منه إلى عبيد الله  
ابن زياد ..

وتباين آراء المؤاخرين خاصة في خروج الحسين بنسائه وأبنائه ، أكان  
هو الأحزن والأكرم أم كان الأحزن والأكرم أن يخرج بمفرده حتى يرى  
ما يكون من استجابة الناس له أو اعتراضهم عنه وضعفهم في تأييده  
وليس للمتأخرين أن يقضوا في مسألة كهذه بمقولهم وعاداتهم ، لأنها  
مسألة يقضى فيها بحکم العقل العربي وعاداته في أشباه هذه المواقف .  
وقد كان اصطحاب النساء والأبناء عادة عربية في البعثة التي يتصدى  
لها المرء متعمداً القتال دون غيره فضلاً عن البعثة التي قد تشتبك في  
القتال وقد تتسمى بسلام كبعثة الحسين

فكان المقاتلون في وقعة ذى قار يصطحبون حلالهم وذرارهم ويقطعون  
وضن الرواحل — أي أحزمتها — قبل خوض المعركة ، وكان المسلمون  
والشركون معاً يصطحبون العلائين والذراري في غزوات النبي عليه

السلام ، وكان مع المسلمين في حرب الروم صفة نساء قريش وعقالٍ بيوتاتها ، وكان النبي عليه السلام يصطحب زوجة أو أكثر من زوجة في غزواته وحروبه ، وحكم الواحدة هنا حكم الكثيرات ، وهي عادة عربية عريقة يقصدون بها الاشهاد على غاية العزم وصدق النية فيما هم مقبلون عليه ، وفي معلقة ابن كلثوم اشارة مجملة الى معنى هذه العادة العربية من قديم عصورها حيث يقول :

على آثارنا يضي حسان نحادر أن تقسم أو تهونا  
يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتسا اذا لم تمنعونا  
وقد كان الحسين رضي الله عنه يندب الناس لجهاد يخوضونه ان قضى  
عليهم ان يخوضوه فلا يبالون ما يصيغ لهم في أنفسهم وفي أبنائهم وأموالهم ،  
لأنهم يطلبون به ما هو أعز على المؤمن من النفس والولد والمال ، فليس  
من المروءة أن يندبهم لأمر ولا يكون قدوة لهم فيه

وكان على الحسين وقد أزمع الخروج أن يجمع له أقوى حجة في يديه  
ويجمع على خصومه أقوى حجة تقلب عليهم ، اذا غلبوه وأخفق في  
مسعااته .. فيكون أقوى ما يكون وهو منتصر ، ويكونون أبغض ما  
يكونون وهو مهزول ..

والمسلم الذي ينصر الحسين لنسبة الشريف أولى أن ينصره غاية نصره  
وهو بين أهله وعشيرته ، والا فما هو بناصره على الاطلاق ، وتقلب الآية  
في حالة الخذلان ، فيتال المتصر من البعض والنقمة على قدر اتصاره  
الذى يوشك أن يقلب عليه

### صواب الشهاداء

وجملة ما يقال ان خروج الحسين من الحجاز الى العراق ، كان حركة  
قوية لها بواعتها النفسية التي تنفس بمثله ولا يسهل عليه أن يكتبها أو  
يعيد بها عن مجريها ..

وانها قد وصلت الى تأثيرها الفعال من حيث هي قضية عامة تتجاوز

الأفراد الى الأعقاب والأجيال ، سواءً أكانت هذه القضية نصرة لآل الحسين.  
أم حرباً لبني أمية ..

انما يبدو الخطأ في هذه الحركة حين تنظر اليها من زاوية واحدة ضيقة  
المجال قرية المرمى ، وهي زاوية العمل الفردى الذى يراضى بأساليب  
المعيشة اليومية ويدور على النفع العاجل للقائين به والداعين اليه  
فحركة الحسين لم تكون مسددة الأسباب لمنفعة الحسين بكل ثمن وحيثما  
كانت الوسيلة ..  
وعلة ذلك ظاهرة قرية ..

وهي أن الحسين رضى الله عنه طلب الخلافة بشروطها التي يرضاهما ونم  
يطلبها غنية يحرص عليها مهما تكلفة من ثمن ومهما تتطلب من وسيلة ..  
وهنا غلطة الشهداء ..  
بل قل : هنا صواب الشهداء ..

ومن هو الشهيد ان لم يكن هو الرجل الذى يصاب ويعلم أنه يصاب  
لأن الواقع يخذه ولا يجري معه الى مرماه ؟

ومن هو الشهيد ان لم يكن هو الرجل الذى يصاب ويعلم أنه يصاب  
طبعاً « ويصدق الخبر في طبيعة الإنسان والخير عزير والدنيا به شحيبة ؟  
منذ القدم ، أخطأ الشهداء هذا الخطأ ، ولو أصابوا فيه لما كانوا شهداء  
ولا شرفت الدنيا بفضلية الشهادة

فالحسين رضى الله عنه قد طلب خلافة الراشدين حيث لا تسنى خلافة  
الراشدين ، أو حيث تسنى الدولة الدينية التي يضمن بها أصحابها  
ويتكلبون عليها ويتولون إليها بوسائلها

فكان عناته بالدعوة والاقتاع أعظم جداً من عناته بالتنظيم والإزام  
نزل رسوله الأول مسلم بن عقيل بالكوفة صفر الدين من المال حتى  
احتاج فيها أن يفترض سبعمائة درهم هي التي أوصى بردها إلى أصحابها  
قبل قتله ..

وذلك عقبة من المحبات التي تعيق الدعوات الكبار ، ولكنها على هذا  
تلم تكن بالعقبة العصبة التذليل ..

فلو أنه قد طلب المال من وسائله الدنيوية أو السياسية ، لما استعصى  
عليه أن يأخذ منه ما يكفيه . فلعله كان ميسورا له بعد أن تجمع حوله  
الأنصار وبابع الحسين على يديه ثلاثة ألفا كما جاء في بعض الروايات .  
ففي تلك اللحظة لعله كان يستطيع أن يحيط بقصر الوالي الأموي  
ويستولى عليه وينشئ الحكومة الحسينية فيه . ثم لعله كان يستطيع بعد  
ذلك أن يوجه الدعاة إلى أطراف الدولة الشرقية ليتلقي البيعة ويقيم  
الولاة ويحشد الأجناد ..

فإذا كان هذا فاته حتى خف الأمويون لدرء الخطر عنهم ويعثوا إلى  
الكونفة بعيده الله بن زياد ، فقد سبق عبيد الله هذا في يوم من الأيام إلى  
يديه وكان في وسعه أن يطش به ويستوى على كرسيه ويحرم يزيد بن  
معاوية نصيرا من أنصاره ..

وقد فاته هذا لأن شريعة الخلافة لا تبيحه في رأيه ، أو لأنه اعتقاد أن  
الحق يُبَيِّن وأن الباطل يُبَيِّن .. فلا حاجة به بعد التمييز بينهما إلى فتكة  
الغدر كما سماها ، ولا محل عنده لاهدار الدماء وهو ينبع على الدولة  
القائمة أنها تهدى النساء بال شبكات ..

ولقد رأى مسلم أن حق صاحبه في الخلافة قائم على شيء واحد وهو  
اقبال الناس إليه طائعين ومبaitهم أيام مختارين . فاما وقد تفرقوا عنه  
رعبه من السلطان أو ضعفه في اليقين ، فالرأي عنده أن يكتب إلى صاحبه  
يعلمه باقتضاض الناس عنه ويتنهيه عن القدوم ، ولا حق له عليهم بعد ذلك  
حتى يثوبوا إليه ..

وقيام الخلافة على هذا الاختيار عقيلة لا تفهمها نحن الآن ، ولكن  
قد يفهمها يومئذ من كان على مقربة من عهد النبوة وعهد الصديق  
والفاروق ..

فقد كان الصراع بين الحسين ويزيد أول تجربة من قبيلها بعد تهدى  
النبوة وعهد الخلفاء الأولين ..

لم يكن الصراع بين على ومعاوية على هذا الوضوح الذي لا شبهة فيه  
بين الحق والباطل وبين الفضيلة والنقيصة ...

لكنه في بيعة الحسين كان قد وضح وضوح الصبح الذي عين  
وكان ذلك كما قلنا أول تجربة من قبيلها بعد عهد القداء في سبيل  
العقدة والامان .. بعد العهد الذي كان الرجل فيه يخرج من ماله وينفصل  
من ذويه ويتجبر لاحب أخيه وأخيه وبنيه ان خالقه في أمر الاسلام ..  
بعد العهد الذي كان القليل فيه من المسلمين يصدون الكثير من المشركين  
وفي أيديهم السلاح والعتاد ومن ورائهم المعامل والأزواج ... بعد العهد  
الذي تغير فيه الناس ، وخيل الى من كان يعبدهم على غير تلك الحال  
أنهم متغيرون ..

### الناس عبيد الدنيا

فكيف ينخدل الحسين وينتصر يزيد في عالم سهد النبوة وشهد الخلافة  
على سنته الراشدين ؟ ان كلمة واحدة قالها الحسين في ساعة يأسه تشف  
عن مبلغ يقينه بوجوب الحق وعجبه من أن يكون الأمر غير ما وجب ،  
وذلك حيث قال : « الناس عبيد الدنيا ، والذين لعن على أسلتهم  
يحوطونه ما درت به معايشهم ، فإذا محسوا بالبلاء قل الديانون »  
ان الطائفة الأرضية لا تندفع في صلاح الناس ولا تعجب هذا العجب  
لأنها لا تخرج من نطاقها المحدود ولا تصدق ما وراءه من الآمال والوعود  
انها لا تفضل عن طريق المنفعة لأنها لا تعرف غيرها من طريق ، أنها  
تؤثر القنديل الخافت في يدها على الكوكب اللامع في السماء ، لا لأنها  
لا ترى الكوكب اللامع في السماء ، بل لأنها ترى القنديل والكوكب  
فتعلم أن هذا قريب وأن ذلك جد بعيد  
انها لا تندفع بالسراب لأنها لا تخرج من عقر دارها ولا تشعر بظما  
الفؤاد ولا تنظر الى السراب ..

ولكن طبيعة الشهداء غير طبيعة المساومة على البيع والشراء ..  
طبيعة المساومة موكلة بالحرص على المهنات ..  
وطبيعة الشهادة موكلة يبذل الحياة لما هو أدوم من الحياة  
وشتان طبيعة وطبيعة ، وشتان خطأ الشهداء وخطأ المساومين  
ولست موازین المساومة . بالموازین الفدنة التي يسلح عليها أمر بنى  
الإنسان ، فان بنى الإنسان ما بهم غنى قط عن الذين يخطئون لأنهم  
أرفع من المصرين ، وانهم لهم الشهداء  
وانهم لعلى صواب في المدى البعيد ، وان كانوا على خطأ في المدى  
القريب .. مدى الأجوف والمعدات والجلود لا مدى الأرواح والأخلاص ..  
من هؤلاء كان الحسين رضي الله عنه ؛ بل هو أبو الشهداء رينبوع  
شهادة متعاقبة لا يقرن بها ينبوع في تاريخ البشر أجمعين  
فلا جرم يصيب في المدى البعيد ويخطيء في المدى القريب .. مدى  
المنفعة التي تناهه هو في معيشة يومه ، وهو المدى الذي لا يأسف عليه  
ولا ينص الركاب اليه ..

## الحرام المقدّس

عرفت قديما باسم « كوربابل » ثم صفت الى كربلا ، فجعلها هذا التصحيف عرضة لتصحيف آخر يجمع بين الكرب والبلاء ، كما رسماها بعض الشعراء ..

ولم يكن لها ما تذكر به في أقرب جيرة لها فضلا عن أرجاء الدنيا البعيدة منها .. فليس لها من موقعها ، ولا من تربتها ، ولا من حوادثها ، ما يفري أحدا برؤيتها ثم يثبت في ذاكرة من يراها ساعة يرحل عنها فلمل الزمن كان خليقا أن يعبر بها سنة بعد سنة وعصرها بعد عصر ، دون أن يسمع لها اسم أو يحس لها بوجود .. الا أن تذكر « نينوى » وجيرتها فتدخل في زمرة تلك الجيرة بغير حساب وشاءت مصادفة من المصادات أن يساق إليها ركب الحسين بعد أن حيل بينه وبين كل وجهة أخرى ، فاقتربت تارياها منذ ذلك اليوم بتاريخ الاسلام كله . ومن حقه أن يقترب بتاريخ بني الانسان حينما عرفت لهذا الانسان فضيلة يستحق بها التنويه والتخليد

فهي اليوم حرم يزوره المسلمون للعبرة والذكرى ، ويزوره غير المسلمين للنظر والمشاهدة ، ولكنها لو أعطيت حقها من التنويه والتخليد ، لحق لها أن تصبح مزارا لكل آدمي يعرف لبني نوعه نصيبا من القدسية وحظا من الفضيلة ، لأننا لا نذكر بقعة من بقاع هذه الأرض يقتربن أسمها بجملة من الفضائل والمناقب أسمى وألزم لنوع الانسان من تلك التي اقترنت باسم كربلا ، بعد مصرع الحسين فيها فكل صفة من تلك الصفات العلوية التي بها الانسان انسان وبغيرها لا يحسب غير ضرب من الحيوان السائم .. فهي مقرونة في الذاكرة بأيام الحسين رضى الله عنه في تلك البقعة الجرداء

وليس في نوع الإنسان صفات علويات أبى ولا ألزم له من الإيمان والقداء والإيثار ونقطة القصيم وتنظيم الحق ورعاية الواجب والجدل في المحنـة والأئنة من الصـيم والشجاعة في وجه الموت المحـوم .. وهـى - ومشيلات لها من طرازـها - هيـ التي تجلـت في حـوادث كـربلاـء منذ نـزل بها رـكب الحـسين ، ولم تـجتمع كلـها ولا تـجلـت قـط في مـوطـن من المـواطن تـجلـيها في تلك الحـوادـث ، وقد شـاء القدر أـن تكونـ في جـانـبـ منها أـشرف ما يـشرـف بهـ أـبنـاءـ آدم ، لأنـهاـ فيـ الجـانـبـ الآخـرـ منـهاـ أـخـرىـ ماـ يـخـزـىـ بهـ مخلوقـ منـ المـخلوقـات ..

وحسـبـكـ منـ تـقوـيمـ الأـخـلـاقـ فيـ تلكـ التـفـوسـ ، انهـ ماـ منـ أحدـ قـتلـ فيـ كـربـلاـءـ الاـ كانـ فيـ وسـعـهـ أـنـ يـتـجـبـ القـتلـ بـكـلمـةـ اوـ بـخـطـوةـ ، ولـكـنـهمـ جـمـيعـاـ آتـرـواـ الموـتـ عـطاـشاـ جـيـاعـاـ منـاضـلـينـ عـلـىـ أـنـ يـقـولـواـ تـلـكـ الـكـلمـةـ اوـ يـخـطـواـ تـلـكـ لـخـطـوةـ ، لأنـهـمـ آتـرـواـ جـمـالـ الأـخـلـقـ عـلـىـ مـتـاعـ الـحـيـاةـ ..

أـوـ حـسـبـكـ منـ تـقوـيمـ الأـخـلـقـ فيـ نفسـ قـائـدـهاـ وـقـدوـتهاـ أـنـهـ رـأـوهـ بـيـنـهـمـ فـاقـتـدوـهـ بـأـنـفـسـهـمـ ، وـلنـ يـتـمـ الرـءـ رـوحـ الـاسـتـشـهـادـ فـيـنـ يـلـازـمـهـ الاـ أـنـ يـكـونـ هوـ أـهـلـاـ لـلـاسـتـشـهـادـ فـيـ سـبـيلـهـ وـسـبـيلـ دـعـوـتـهـ ، وـأـنـ يـكـونـ فـيـ سـلـيـقةـ

الـشـهـيدـ الـذـيـ يـأـتـمـ بـهـ الشـهـداءـ

### نـوـتـ مـعـ

أـقـبـلـ الـفـقـىـ الصـفـيرـ عـلـىـ بـنـ الـحـسـينـ عـلـىـ أـيـهـ .. وـقـدـ عـلـمـ أـنـهـ مـخـيـرـونـ بـيـنـ الـمـوـتـ وـالـتـسـلـيمـ فـسـأـلـهـ :

ـ أـسـنـاـ عـلـىـ الـحـقـ ؟ ..

قـالـ الـوـالـدـ الـمـنـجـبـ الـنـجـيبـ :

ـ بـلـىـ وـالـذـىـ يـرـجـعـ إـلـيـ الـعـبـادـ ..

فـقـالـ الـفـقـىـ :

ـ يـاـ أـبـهـ ! .. فـاذـنـ لـاـ بـالـىـ ! ..

وهكذا كانوا جمِيعاً لا يبالون ما يلقوه ، ما علموا أنهم قائمون بالحق  
وعليه يموتون ..

وأراد الحسين – وقد علم أذ التسليم لا يكون – أن يبقى للموت  
وحده وألا يعرض له أحداً من صحبة . فجمعهم مرة بعد مرة وهو يقول  
لهم في كل مرة : « لقد بورتم وعاوتم والقوم لا يريدون غيري ولو  
قتلوني لم يتغروا غيري أحداً .. فإذا جنكم الليل ففرقوا في سواده  
وانجووا بانقسامك » ..

فكأنما كان قد أراد لهم الملائكة ولم يرد النجاة ، وفزعوا من رجائهم  
إيه كما يفزع غيرهم من مطالبتهم بالثبات والبقاء . وقالوا له كأنهم  
يتكلمون بلسان واحد : « معاذ الله والشهر الحرام .. ماذا تقول للناس  
إذا رجعنا إليهم ؟ أتقول لهم أنا تركنا سيدنا وابن سيدنا وعمادنا ، تركناه  
غresa للنبيل ودرية للرماح وجرا للسباع ، وفررتنا عنه رغبة في الحياة ؟  
معاذ الله .. بل نحيا بحياتك ونموت معك .. »

قالوا له نموت معك ولنك رأيك : ولم يخطر لأحد منهم أن يزبن له  
العدول عن رأيه ايشاراً لنجاتهم ونجاته . ولو خادعوا أنفسهم قليلاً لزبنوا  
له التسليم وسموه نصيحة مخلصين يريدون له الحياة ، ولكنهم لم يخادعوا  
أنفسهم ولم يخادعوه ، ورأوا أصدق النصيحة له أن يتجنبوه التسليم ولا  
يتجنبوه الموت ، وهم جميعاً على ذلك

ولم يكونوا جميعاً من ذوى عمومته وقرباه ، بل كان منهم غرباء  
نصحوا له ولأنفسهم هذه النصيحة التي ترعب العار ولا ترعب الموت .  
فقال له زهير بن القين : « والله لو ددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى  
أقتل هكذا ألف مرة ، ويدفع الله بذلك الفشل عن نفسك وعن نفس  
هؤلاء الفتياً من أهل بيتك »

وقال مسلم بن عوسجة كأنه يعتب لما اختار له من السلام : « أحنن  
نخلئ عنك ؟ وبم نعتذر إلى الله في أداء حقك ؟ لا والله حتى أطعن في  
صلدوريهم برمحى وأضربيهم بسيفى ما ثبت قائمه في يدي ، ولو لم يكن

معي سلاح أقاتهم به لقتلهم بالحجارة . والله لا نخليك حتى يعلم الله  
أنا قد حفظنا غيبة رسوله فيك . وأما والله لو علمت أنتي أقتل ثم أحى  
ثم أحرق ثم أحى ثم أحرق ثم أذري ويفعل بي ذلك سبعين مرة مافارقتك  
حتى ألقى حمامي دونك .. »

وجيء الى رجل من أصحابه الغرباء بنبياً عن ابنه في فتنة الديلم ، فعلم  
أن الديلم أسروه ولا يفكرون اسراه بغير فداء ، فأذن له الحسين أن ينصرف  
وهو في حل من يعته ويعطيه فداء ابنه . فأبى الرجل إباء شديداً ، وقال :  
« عند الله أحسبه ونقسي » ثم قال للحسين : « هيهات أن أفارقك ثم  
أسأل الركبان عن خبرك .. لا يكن والله هذا أبداً » ..

\*\*\*

وقد تناهت هذه المناقب الى مداها الاعلى في نفس قائدتهم الكريم ..  
يغيل الى الناظر في أعماله بكرباء أن خلائقه الشريفة كانت في سباق  
بينها أنها يظفر بختار اليوم ، فلا يدرى أكان في شجاعته أشجع ، أم  
في صبره أصبر ، أم في كرمه أكرم ، أم في ايمانه وأفنته وغيرته على الحق  
بالغا من تلك المناقب المثل أقصى مداده .. الا انه كان يوم الشجاعة لا مراء ،  
وكانت الشجاعة فضيلة الفضائل التي تدعا سائرها بروافد من كل خلق  
نبيل يعينها على شأنها . فكان الحسين - شبل على - في شجاعته الروحية  
والبدنية معاً غاية القويات ، وكان مضرب المثل بين الرعيل الأول من أشجع  
الشجعان في أبناء آدم وحواء ..

ملك جائش .. وكل شيء من حوله يوهن العجاش ، ويحل عقدة العزم ،  
ويغزو بالدعة والمجراة ..

ملك جائش ومن حوله نساءه وأبناؤه في نضارة العمر ، يجوعون  
ويظماؤن ، ويتشبثون به ويكون ، وملك جائش رؤبة وانفة ولم يملكه  
وثبة واتب الى الغضب أو هيجنة مهتاج الى الوغى ، فكان قبل القتال  
وفي حومة القتال قواها بصيراً ينفض الضعف عن عزائمها ، كما ينفض الأسد  
غبرات الحصباء عن لبده ، ولم يخامره الأسف قط في ذلك الموقف المرهوب

الا من أجل أحبابه وأعزائه الذين يراهم ويرونه ويسمع صيحتهم  
ويسمعونه . فقال وهو ينظر الى الأخبار ومن فيها : « الله در ابن عباس  
فيما أشار به على ! » ..  
وجلس ليلة القتال في خيمته يعالج سهاما له بين يديه ويرتعز وأمامه  
ابنه العليل :

يا دهر أَفْ لَكَ مِنْ خَلِيلٍ كَمْ لَكَ بِالْأَشْرَاقِ وَالْأَصْبَارِ  
مِنْ صَاحِبٍ وَمَاجِدٍ قَتِيلٍ وَالْدَّهْرُ لَا يَقْعُدُ بِالْبَدْلِ  
وَالْأَمْرُ فِي ذَاكَ إِلَى الْجَنِيلِ وَكُلُّ حِيٍ سَالِكٌ سَبِيلِي  
فَرِدٌ ابْنَهُ عَبْرَتْهُ لَكِيلًا يَزِيدُهُ أَمْلًا عَلَى أَمْلَهُ . وَسَعَتْهُ أَخْتَهُ زَينَبُ ، فَلَمْ تَقُو  
عَلَى حَانَاهَا وَوَجَلَهَا ، وَخَرَجَتْ إِلَيْهِ مِنْ خَيَّانَاهَا حَاسِرَةً تَنَادِي : « وَائِكَلَاهُ !  
الْيَوْمُ ماتَ جَدِّي رَسُولُ اللَّهِ وَأَمِي فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ وَأَبِي عَلَى وَأَخِي الْحَسِينِ  
فَلَيَتَ الْمَوْتُ أَعْدَمْنِي لِلْحَيَاةِ يَا حَسِينَاهُ ! يَا بَقِيَّةَ الْمَاضِينَ وَقَالَةَ الْبَاقِينَ ! »  
فَبَكَى لِبَكَائِهَا وَلَمْ يَتَشَنَّ ذَرَّةً عَنْ عَزْمِهِ الَّذِي بَاتَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ لَهَا :  
— يَا أَخْتَ ! لَوْ تَرَكَتِ الْقَطَا لِنَامٍ .. وَلَمْ يَزِلْ يَنَادِيهَا .. وَيَعْزِيزُهَا وَهُوَ  
فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ مُسْتَقْرٍ كَالْطَّوْدِ عَلَى مَوَاجِهِ الْمَوْتِ وَإِيَّاهُ التَّسْلِيمُ أَوْ النَّزُولُ  
عَلَى « حُكْمِ ابْنِ مَرْجَانَةِ » كَمَا قَالَ .. ثُمَّ احْتَمَلَهَا مُغْشِيَا عَلَيْهَا حَتَّى أَدْخَلَهَا  
الْجَاءَ ..

\* \* \*

تَرَوْلُ الْمَالِكِ وَتَدُولُ الدُّولِ وَتَنْجُوحُ الْمَطَاعِمِ أَوْ تَخْيِبُ وَتَحْضُرُ الْمَطَالِبُ  
أَوْ تَنْيِبُ . وَهَذِهِ الْخَلَائِقُ الْعَلْوَيَّةُ فِي صُدُورِ الْأَنْسَانِ أَحَقُّ بِالْبَقَاءِ مِنْ الْمَالِكِ  
وَمَا حَوْتَهُ ، وَمِنْ الدُّولِ وَمَا حَفَظَتْهُ أَوْ ضَيَّعَتْهُ ، بَلْ أَحَقُّ بِالْبَقَاءِ مِنْ رَوَاسِيِّ  
الْأَرْضِ وَكَوَافِكِ السَّمَاءِ ..

### حرب النور والظلام

وَكَانَتْ فَتَةُ الْحَسِينِ صَغِيرَةً كَمَا عَلِمْنَا قَدْ رَصَدَتْ لَهَا هَنَالِكَ تَلْكَ الْفَتَةَ  
الْكَبِيرَةُ الَّتِي تَنَاقِضُهَا أَتَمْ مَا يَكُونُ التَّنَاقِضُ بَيْنَ طَرْفَيْنِ ، وَتَبَاعِدُهَا أَبْعَدَ  
مَا تَكُونُ الْمَسَافَةُ بَيْنَ قَطْبَيْنِ ، فَكُلُّ مَا فِيهَا أَرْضٌ مُظْلَمٌ بَسْفُ بَالْغَنِيِّ

الاسفاف ، وليس فيها من النفحـة العـلـوـية نـصـيب ..

أـلـمـصادـفـاتـ نـظـامـ وـتـدـبـيرـ .. ؟!

نـحنـ لـاـ نـعـلمـ إـلـاـ أـنـهـ مـصـادـفـاتـ يـخـفـىـ عـلـيـنـاـ مـاـ يـبـنـهـ مـاـ الـوـشـائـجـ  
وـالـصـلـاتـ ..ـ وـلـكـنـهاـ لـذـلـكـ هـىـ الـأـعـاجـبـ التـىـ تـسـتـوـقـفـ النـظـرـ  
لـعـجـيـبـاـ الـعـاجـبـ ،ـ وـإـذـ لـمـ تـسـتـوـقـفـهـ مـاـ يـفـهـمـهـ فـيـهـ مـاـ نـظـامـ وـتـدـبـيرـ  
فـجـيـرـةـ كـرـبـلـاءـ كـانـ قـدـيـمـاـ مـعـاهـدـ الـأـيـمـانـ بـحـربـ النـورـ وـالـظـلـامـ ،ـ  
وـكـانـ حـولـهـ أـنـاسـ يـؤـمـنـونـ بـالـنـضـالـ الدـائـمـ بـيـنـ أـورـمـزـدـ وـاهـرـمـانـ .ـ وـلـكـنـهـ  
كـانـ فـيـ حـقـيـقـتـهـ ضـرـبـاـ مـنـ الـمـعـازـ وـفـتـاـ مـنـ الـخـيـالـ  
وـتـشـاءـ مـصـادـفـاتـ التـارـيـخـ إـلـاـ أـنـ تـرـىـ هـذـهـ الـبـقـاعـ التـىـ آمـنـتـ بـأـورـمـزـدـ.  
وـاهـرـمـانـ حـربـاـ هـىـ أـوـلـىـ أـنـ تـسـمـىـ حـربـ النـورـ وـالـظـلـامـ مـنـ حـربـ الـحـسـينـ  
وـمـقـاتـلـيـهـ ..

\*\*\*

وـهـىـ عـنـدـنـاـ أـوـلـىـ بـهـذـهـ التـسـمـيـةـ مـنـ حـرـوبـ الـاسـلامـ وـالـمـجـوسـيـةـ فـتـلـثـ  
الـبـقـاعـ وـماـ وـرـاءـهـاـ مـنـ الـأـرـضـ الـفـارـسـيـةـ لـأـنـ الـمـجـوسـيـةـ كـانـ يـدـافـعـ شـيـئـاـ  
يـنـكـرـهـ ..ـ فـقـىـ دـفـاعـهـ مـعـنـىـ مـنـ الـأـيـمـانـ بـالـوـاجـبـ كـماـ تـخـيلـهـ وـرـآـهـ ،ـ وـلـكـنـ  
الـجـيـشـ الـذـىـ أـرـسـلـهـ عـبـيـدـ اللهـ بنـ زـيـادـ لـحـربـ الـحـسـينـ كـانـ جـيـشاـ يـحـارـبـ  
فـلـيـهـ لـأـجـلـ بـطـنـهـ أـوـ يـحـارـبـ رـبـهـ لـأـجـلـ وـالـيـهـ .ـ اـذـ لـمـ يـكـنـ فـيـهـ رـجـلـ وـاحـدـ  
يـؤـمـنـ بـيـطـلـانـ دـعـوـيـ الـحـسـينـ أـوـ رـجـحـانـ حـقـ يـزـيدـ ،ـ وـلـمـ يـكـنـ فـيـهـ كـافـرـ  
يـنـفـحـ عـنـ عـقـيـلـةـ غـيرـ عـقـيـدـةـ الـاسـلامـ ،ـ إـلـاـ مـنـ طـوـيـ قـلـبـهـ عـلـىـ كـفـرـ كـمـيـنـ هـوـ  
مـخـفيـهـ ،ـ وـلـاـ نـخـالـمـ كـثـيـرـيـنـ ..

وـلـوـ كـانـواـ يـحـارـبـونـ عـقـيـدـةـ بـعـقـيـدـةـ ،ـ لـاـ لـصـقـتـ بـهـمـ وـصـمـةـ النـفـاقـ وـمـسـبةـ  
الـأـخـلـاقـ ..ـ فـعـداـوـتـهـمـ مـاـ عـلـمـواـ أـنـهـ الـحـقـ وـشـعـرـواـ أـنـهـ الـوـاجـبـ أـقـبـحـ بـهـمـ  
مـنـ عـدـاـوـةـ الـمـرـءـ مـاـ هـوـ جـاهـلـهـ بـعـقـلـهـ وـمـعـرـضـهـ عـنـهـ بـشـعـورـهـ ،ـ لـأـنـهـمـ يـحـارـبـونـ  
الـحـقـ وـهـمـ يـعـلـمـونـ ..  
وـمـنـ ثـمـ كـانـواـ فـيـ مـوـقـعـهـمـ ذـاكـ ظـلـاماـ مـطـبـقاـ .ـ لـيـسـ فـيـهـ مـنـ شـعـورـ الـوـاجـبـ

بصيص واحد من عالم النور والقداء .. فكانوا حقاً في يوم كربلاء فوة  
من عالم الظلام تكافح قوة من عالم النور  
أقربهم إلى العذر يومئذ من اعتذر بالفرق والرعب لأنهم أكرهوه  
بالسيف على غير ما يريد .. فكان الجبن أشرف ما فيه من خصالسوء  
وكان منهم أناس كتبوا إلى الحسين يستدعونه إلى الكوفة ليما يعوده  
على حرب يزيد ، فلما ندبهم عمر بن سعد للقائه وسؤاله أحجموا عما  
ندبهم له واستغفوه ، لأن جوابهم أن سأله في شأن مجده اليهم : اتى  
جتكم ملبياً ما دعوتم اليه ! ..  
وركب أناساً منهم الفزع الدائم بقيمة حياتهم لأنهم عرفوا الاثم فيما  
افترفوه عرفاناً لا تسعهم المغالطة فيه ، ومن هؤلاء رجل من بنى إبان بن  
دارم كان يقول :

— قتلت شاباً أمرد مع الحسين بين عينيه أثر السجود .. فما نمت ليلة  
منذ قتلته الا أتأني فيأخذ بتلايبي حتى يأتي جهنم فيدفعني فيها ، فأصبح  
فما يبقى أحد في الحي الا سمع صياحي

\*\*\*

ورأى هذا الرجل صاحب له بعد حين وقد تغير وجهه وأسود لونه ،  
 فقال له : « ماكنت أعرفك » ، وكان يعرفه جميلاً شديداً البياض ..

ومنهم من كان يتزاور عن الحسين في الممعنة ، ويخشى أن يصيبه أو  
يصاب على يديه ، ولو أنهم حاربوه لأنهم علموا أنه أهل للمحاربة فلم  
يتزاوروا عنه ولم يتحاشوه لكان الحرب هنالك حريراً بين رأين ومنهين  
وشجاعتين ، ولكنهم كشفوا أنفسهم بتحاشيهم أيامه . فإذا هم يحاربون  
رأيهم الذي يدينون به ، ووليمهم الذي يضرون له الحمرة والكرامة ،  
وفي ذلك خزفهم الأثيم

على أن الجبن والجشع لا يفسران كل ما اقترفه جيش عبيد الله من شر  
وائمه في أيام كربلاء ..  
فلا حاجة بالبيان ولا بالجشع إلى التمثيل والتنكيل أو التبرع بالإيذاء

حيث لا تلجهه الضرورة اليه ، وليس قتل الطفل الصغير الذى يموت من العطش وهو على مورد الماء بالأمر الذى يلجهء اليه الجبن أو يلجهء اليه طلب المال ، وقد حدث فى أيام كربلاء من أمثال هذا البغى اللئيم شيء كثير رواه الأمويون ، ولم تقتصر روايته على الهاشمين والطالبين أو أعداء بنى أمية !

\* \* \*

وينبغي أن نفهم ذلك على وجه واحد لا سبيل الى فهمه بغيره ، وهو نكسة الشر في النفس البشرية ، حين تلج بها مغالطة الشعور وحين تعالب عناها حتى تعيسها المغالبة فينطلق بها العناد

فالرجل الحبيث المغرق في الخيانة قد يتصرف في خلوته تصرف الأنذال ثم لا يبالى أن يعرف نذالته وهو بنجوة من أعين الرقباء . ولكن أربعة الآلاف لا يتشارحون بالنذالة بينهم ولا يقول بعضهم لبعض أنهم يعملون ما يستحقون به التحقيق والمهانة ولا تقبل لهم فيه مذنة ولا علاة . وانما شأنهم في هذه الحالة أن يصطنعوا الحماسة ويواجهدوا التردد ما استطاعوا ليظهرروا في ثوب الغلاة المصدقين الذين لا يشكرون لحظة في صدق ما يعملون ، فيغمض الرجل منهم عينيه ويستتر بغضنه من النفاق حتى ليوشك أن يخدع نفسه عن طوية فؤاده ..  
وتلك لجاجة المغالبة في الشعور ..

أما مجاذبة النفس عناها وانطلاقها بعد هذه المجاذبة المخفة ، فالشواهد عليها كثيرة فيما نراه كل يوم .. يحاول الرجل أن يتتجنب الخمر فلا يستطيع ، فإذا هو قد دخل العذار وغرق فيها ليله ونهاره غير مبال بما يقال  
كانما هو القائل : « دع عنك لومي فان اللوم اغراء »

ونحب المرأة أن تستحيى وتتواردى من المسبة في هواها ، ثم يغلبها هواها فإذا هي قد ألقت حياءها للريح ، وصنعت ما تحجم عنه التي لم تنازع نفسها قط في هوى ، ولم تشعر قط بوطأة الخجل والاستار  
واندفاع المتهجمين على الشر في حرب كربلاء بغير داع من الحفيفة ولا

ضرورة ملزمة تقضي بها شريعة القتال ، فهو الاندفاع الذي يسبر لنا عنق  
الشعور بالاتم في نفوس أصحاب زيد . وقد رأينا من قبل عمق الشعور  
بالعنق في أصحاب الحسين ، وما بنا من حاجة الى البحث عن علة مثل هذه  
العلة لمن خلقوا مجرمين وخلقت معهم ضراوة المقد والايذاء لهذا الميدان  
وغير هذا الميدان ؛ كشمر بن ذي الجوشن ، ومن جرى مجراه .. فهؤلاء  
لا يصنعون غير صنيعهم الأئم كلما وجدوا السبيل اليه  
على أنها - بعد كل هذا - حرب بين الكرم واللؤم ، وبين الضمير  
والمعدة ، وبين النور والظلم .. فشأنها على أية حال أن تصبح مجالاً من  
الطرفين لقصارى ما يبلغه الكرم وقصارى ما يبلغه اللؤم ، وقد بلغت في  
ذلك أقصى مدى الطرفين

\*\*\*

ومن المتعذر بعد وقوف هاتين القوتين موقف المراقبة والمناجزة ، أن  
تقضى أوائل القتال وتبع ترتيب الحوادث واحدة بعد واحدة على حسب  
وقوعها .. فان الأقوال في سرد حوادث كربلاء لا تتفق على ترتيب واحد ،  
سواء كان هذا الترتيب في رواية أنصار الحسين أو رواية أنصار زيد ..  
الا أن الترتيب الطبيعي يستعين للعقل من سبب الوقوف في ذلك  
المكان ، وهو منع الحسين أن ينصرف الى سبيله وأن يرد الماء حتى يكرمه  
العطش الى التسلیم ، وكان الموقف كما وصفه أبو العلاء بعد ذلك بأربعة  
قروان :

من الفتى هنا فجر عظاماً      وهي نير الماء فابعث الدم  
ولم يمتنع طريق الماء في باديء الأمر دفعه واحدة لأن حراس المورد من  
جماعة عمر بن سعد ، لم يكونوا على جزم بما يصنعون في مواجهة الحسين  
وصحبه .. فلما اندفع بعض أصحاب الحسين الى الماء بالقرب والأداؤ ،  
ما يفهم القوم هنئه ثم أخلوا لهم سبيل النهر خوفاً وحيرة ، فشربوا وملأوا  
قربهم وأدواهاهم بما يغتنيهم عن الاستقاء الى حين  
والظاهر أن الشر كله كان في حضور شمر بن ذي الجوشن على تلك

انساحة ، متربصا كل التربص بمن يتوانى في حصار الحسين ومضائقته .  
فيعزله ويعرضه لسوء العذراء ، ثم يطمع من وراء ذلك أن يتولى قيادة  
الجيش وأماراة الرى بعد عزل عمر بن سعد بن أبي وقاص .. فبطل  
التردد شيئاً فشيئاً ، وتعذر على الحسين وأصحابه بعد الهجمة الأولى أن  
 يصلوا إلى الماء . ولبثوا أياماً وليس في معسكرهم ذو حياة من رجل أو  
امرأة أو طفل أو حيوان إلا وهو يتلظى على قطرة ماء فلا ينالها ، ومنهم  
الطفل العليل والشيخ المكدود والحيوان الأعجم ، وصياح هؤلاء الظماء  
من حرقة الظلمأ يتواتى على مسمع الحسين ليل نهار وهو لا يملك لهم غير  
الوصاية بالصبر وحسن المؤاساة

وفي ذلك المأزق الفاجع ، نضحت طائئن اللؤم في معسكر ابن زياد بشر  
ما تنضح به طبيعة لئيمة في البنية الآدمية .. فاقرروا من خسة الأذى  
ما تزه عنه الوحش الضاريات ، وجعلوا يتلهون ويتفكرون بما تتشعر  
منه الجلود وتندى له الوجوه ، ونکاد نمسك عن تسطيره أسفنا وانتعاضا  
لولا أن القليل منه جزء لا ينفصل من هذه الفاجعة ، وبيان لما يلى من  
وقعها في التفوس وتسلسل تراثها إلى أمد بعيد ..

### مائتم مخزية

فمن هذه المآتم المخزية أن الحسين برح به العطش فلم يباله .. ولكنـه  
رأى ولده عبد الله يتلوئـى من ألمه وعطشه ، وقد بـعـ صوته من الـباء ،  
فحمله على يديـه يـهمـ أن يـسـقيـهـ ويـقولـ للـقومـ : « اـتـقـواـ اللهـ فـيـ الطـفـلـ انـ  
لـهـ تـقـواـ اللهـ فـيـنـاـ » فأـوتـرـ رـجـلـ مـنـ نـيـالـةـ الـكـوـفـةـ قـوـسـهـ ، ورمـىـ الطـفـلـ  
بـسـهـ وـهـ يـصـيـحـ لـيـسـعـهـ الـعـسـكـرـانـ : « خـذـ اـسـقـهـ هـذـاـ » .. فـنـفـذـ السـهـ  
إـلـىـ أـحـسـائـهـ ! ..

وـكانـواـ يـصـيـحـونـ بـالـحسـينـ مـتـهـاتـينـ : « أـلـاـ تـرىـ إـلـىـ الـفـرـاتـ كـأـنـهـ بـطـوـنـ  
الـحـيـاتـ ؟ـ .. وـالـهـ لـاـ تـذـوقـهـ حـتـىـ تـمـوـتـ وـمـنـ مـعـكـ عـطـشـاـ »  
وـلـمـ اـشـتـدـ عـطـشـ الحـسـينـ دـنـاـ مـنـ الـفـرـاتـ لـيـشـرـبـ ، فـرـمـاـهـ حـسـينـ بـنـ نـمـيرـ

بسم وقع في فمه .. فاترتعه الحسين وجعل يتلقى الدم يديه فامثلات راحتاه بالدم ، فرمى به إلى السماء وقد شخص بيصرء إليها وهو يقول : « إن تكون حبست عنا النصر من السماء ، فاجعل ذلك لما هو خير منه ، واتقم لنا من القوم الظالمين ! »

وقد كان منع الماء - قبل الترامي بالسهام - نذيراً كافياً بالعرب ، يريح الحسين أن يصيب منهم من يتعرض للإصابة .. ولكنه رأى شمر بن ذي الجوشن - أبغض مبغضيه المؤليين عليه - يدنو من بيته ويحول حولها ليعرف منفذ الهجوم عليها ، فأبى على صاحبه السلم بن عوجة أن يرميه بسم و قد أمكنه أن يصفيه وهو من أسد الرماة .. لأنه كره أن يبدأهم بعداء ..

\* \* \*

وكأنه لمح منهم ضعف النية وسوء السخلة في الدفاع عن مولاهم ، وعلم أنهم لا يخلصون في جبهة ، ولا يؤمنون بحقّه ، وأنهم يخدمونه للرغبة أو الرهبة ولا يخدمونه للحق والذمة .. فطمع أن يقمع ضمائرهم وينبه غفلة قلوبهم ، ورمى بأخر سهم من سهام الدعوة قبل أن يرمي بسم واحد من سهام القتال . فخرج لهم يوماً يزى جده عليه السلام متقدلاً سيفه لابسا عمانته وردائه ، وأراهم أنه سيخطبهم ، فكان أول ما صنعوه دليلاً على حدق فراسته فيهم ، لأن رؤسائهم ومؤليسيهم أشفقوا أن يتركوا له آذان القوم فينفذ إلى قلوبهم ويلمس موقع الانقطاع من ألبائهم . فضجروا بالصياح والجلبة وأكثروا من العجيج والحركة ليحبجوه كلامه عن أسمائهم ويتقوّى أثر مواعظه فيهم ، وهو بتلك الهيئة التي تغضي عنها الأ بصار وتعنو لها الجبار ..

ولكنه صابرهم حتى ملأوا ، وملأّ أخوانهم ضجيجهم هذا الذي يكشفون به عن عجزهم وخوفهم ، ولا يوجب الثقة بدعواهم عند أخوانهم .. فهدأوا بعد لحظات وسمعوا بعد الحمد والصلوة : « انسبني من أنا .. هل يحل لكم قتلى واستهلاك حرمتى ؟ ألسنت ابن بنت نبيكم ؟ .. أو لم

يبلغكم ما قاله رسول الله لى ولأخرى : هذان سيدا شباب أهل الجنة ؟  
ويحكم ! .. أتطلبوتنى بقتيل لكم قتلته أو مال لكم استهلكته ؟ »

ثم نادى بأسماء أنصاره الذين استدعوه الى الكوفة ثم خرجوا لحربه  
في جيش ابن زياد . فقال : « ياشيث بن الربعي ! ياحجار بن أبيه ! ياقيس  
ابن الأشعث ! يا زيد بن الحارث ! يا عمر بن الحاجاج ! .. ألم تكتبوا الى  
أن قد أينعت الشمار واخضرت الجنبات ، وإنما تقدم على جئتكم لك  
مجتهد ؟ » ..

نزلت الأرض تحت أقدامهم بهذه الكلمات وبلغ بها المقنع من فيه  
مطعم لاقناع ، وتحولت الى صفة فتة تعلم أنها تحول الى صف لن  
تجد فيه غير الموت العاجل ، واستطاعت هذا الموت ولم تستطع البقاء مع  
ابن زياد لاغتنام الغنيمة وانتظار الجزاء من المناصب والأموال

\* \* \*

ولم تكن كلمة الحسين كل ما شهده عسكره من سلاح الدعوة قبل  
الاحتکام الى السيف .. فقد كانت للبطل المجيد زهير بن القين كلمات في  
أهل الكوفة أمضى من السيوف والرماح حيث تصيب ، فركب فرسه  
وتعرض لهم قائلاً : « يا أهل الكوفة ! نذار لكم من عذاب الله نذار ، إن  
حقا على المسلم نصيحة المسلم ، ونحن حتى الآن أخوة على دين واحد  
ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، فإذا وقع السيف اقطعت العصمة وكنا  
نحن أمة وأنتم أمة .. إن الله قد ابتلانا واياكم بذرية نبيه محمد صلى الله  
عليه وسلم لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، وانا ندعوكم الى نصر حسين  
وخدلان الطاغية بن الطاغية عبد الله بن زياد ، فإنكم لا تدركون منها الا  
سوءاً : يسلان أعينكم ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ،  
ويرفعانكم على جذوع النخل ويقتلان أمثالكم وقراءكم أمثال حجر بن  
عدي وأصحابه وهانيء بن عروة وأشياهه »

فوجم منهم من وجهم ، وتوقع منهم من توقع ، على ديدن المريب المكابر

اذا خلع العذار ولم يألف من العار ، وتوعدوه وتوعدوه لحسين معه اذ  
يقتلوهم أو يسلموهم صاغرين الى عبيد الله بن زياد

### تخاصل وضعف

ولا يظهر من عدد الفريقين ساعة القتال أن المتحولين الى معسكر  
الحسين كانوا كثيرين أو متلاحقين . ولكن بداعة التحول كانت مما يخيف  
ويزعج ، لأنها اشتملت على قائد كبير من قواد ابن زياد هو الحر بن يزيد  
الذى أرسلوه فى أول الأمر ليحلئ الحسين عن دخول الكوفة ، وقد كان .  
يحسب أن عمله يتمنى الى هذه المراقبة ولا يدعوها الى القتال وسفك  
الدم .. فلما تبين نية القتال ، أقبل يدنو نحو عسكر الحسين قليلاً فنيلاً ،  
وتأخذه رعدة وينتابه ألم شديد .. حتى راب أمره صاحبه المهاجر بن أوس  
فقال له :

— والله ان أمرك لمريب .. ما رأيت منك قط مثل ما أراه الآن ، ولو  
قيل من أشجع أهل الكوفة ما عدوك ..  
فباح له الرجل بما في نفسه وقال له :  
— انى أخير نفسي بين الجنة والنار ، ولا أختار على الجنة شيئاً ولو  
قطعت أو حرق ..

ثم ضرب فرسه ، ولحق بالحسين وهو يعتذر قائلاً :  
— لو علمت أنهم ينتهون الى ما أرى ما ركبت مثل الذى ركب ، وانى  
قد جئتكم تائباً مما كان منى الى ربى ، مؤاسيا لكم بنفسى حتى آموت بين  
يديك ! ..

ولن يخلو معسكر ابن زياد من مئات كالحر بن يزيد يؤمنون ايمانه .  
ويودون لو يلحقون به الى معسكر الحسين ، ويزعجمون أن يتحول أمامهم  
انو، المعسكر وهم ناظرون اليه ، لأنه يكتهم ويكتشف مغالطتهم بينهم وبين  
أنفسهم ويحضهم على الاقتداء به والتذلل فى أسباب ندمه ، لا لأنه يتقصى  
عددهم أو ينذر بالهزيمة فى ميدان القتال .. فكلهم ولا رب يشع بشعوره

ويعتقد في فضل الحسين على يزيد مثل اعتقاده ؛ وبعيد على العقل أن يصدق في هؤلاء الشراذم أنهم قد أطاعوا يزيد لأنه صاحب بيعة حاصلة وأنهم قد « تأدبو بأدب الدولة » أدبا يغلب شعور الجماعة وإيمان المرء بحق الشريعة وحرمة البيت النبوي ، ويرون عليه قتل سبط النبي في هذا السبيل ، وكيف وإن منهم من بايع الحسين على البعد ودعاه إليه يقود « الجند المجند » إلى قتال يزيد ؟ فكلامهم في البيعة الحاصلة لغط يلوكونه بالستهم ولا يستر ما في طوتيتهم ، وليس أقتل على أمثال هؤلاء من عبه المغالطة كلما تجلج في مكانه وحركه القدوة التي يريدونها ولا يتقوون عليها ، كتلك القدوة المائة بصاحبيهم العز بن يزيد

لا جرم كان أعظم الجيشين قلقا وأشدّهما حيرة وأعجلهما إلى طلب الخلاص من هذا المأزق التحليق هو أكبر الفتئتين وأقوى العسكريين

### شجاعة جند الحسين

كان هناك عسكران أحدهما صغير يلح عليه العطش والضيق ، ولكنه كان مطمئنا إلى حقه يلقى الموت في سبيله ويزيد يجهشه العطش والضيق طمأنينة إلى هذا المصير ..

والعسكر الآخر أكبر العسكريين ولكنه كان « يخون » نفسه في ضمير كل فرد من أفراده ، وتملكه الحيرة بين ندم وخوف وتبكير ومحاولات واضطراب ، يصر في الأعصاب ويقذف بالمرء إلى الخلاص كيما ذكر الخلاص ..

وطال القلق على دخلية عمر بن سعد فأطلقه سهما في الفضاء كأنه كان متشبثا بصدره فاستراح منه بانطلاقه ..

فزحف إلى مقربة من معسكر الحسين ، وتناول سهما فرماه عن قوسه إلى المعسكر وهو يصبح :

— أشهدوا لي عند الأمير انتي أول من رمى الحسين ..  
ثم تتابعت السهام فبطلت حجة السلم وذهب كل تأويل في نية القوم ،

وقال الحسين وهو ينظر الى السماء وينظر الى أصحابه :

— قوموا يا كرام فهذه رسال القوم اليكم ..  
وبذلك بدأ القتال ..

وقد تأهب الحسين لهذه المقابلة المنتظرة ، وان كان على انتظاره ايها قد ترث حتى يبدأه بالعدوان من جانبهم ، وحتى يجب عليه الدفاع وجوبا لا خلاف فيه ..

فاختار له راية يحتمى بها من ورائه ، ووسع وهدقها حتى أصبحت خندقا لا يسهل عبوره .. فأودى فيه النار ليمعن عليهم الالتفاف به من خلفه ، وهم في كثرةهم التى توجع علته صحبه ستين ضعفا قادرون على هماجته من جميع نواحيه

وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا .. وهم نيف وأربعة آلاف يكثرون فيهم الفرسان وراكبو الابل ويحملون منوفا مختلفة من السلاح ..

ومع هذا التفاوت البعيد في عدد الفريقين ، كان العسكر القليل كفرا للعسكر الكبير لو جرى القتال على سنته المبارزة التي كانت دعوة مجابة في ذلك العصر ، اذا اختارها أحد الفريقين ..

فإن آآل على جميعا كانوا من أشهر العرب - بل من أشهر العرب والجم - بالقوة البدنية والصبر على الجراح والاضطلاع ببناء العرب ساعات بعد ساعات ، ومنهم من كان يلوى الحديد فلا يقيمه غيره ، ومنهم محمد بن الحنفية الذى صرع جباررة القوة البدنية بين العرب والجم في زمانه ، ومن أشهر هؤلاء الجباررة رجل كان في أرض الروم يغتر به أهلها .. فأرسله ملكهم الى معاوية يعجز به العرب عن مصارعته وانتقاء يأسه . فجلس محمد بن الحنفية وطلب من ذلك الجبار الرومي أن يقيمه ، فكان كائنا يحرك جيلا لصلابة أعضائه وشدة أسره . فلما أقر الرجل بعجزه رفعه محمد فوق رأسه ثم جلد به الأرض مرات

والحسين رضى الله عنه قد كان هو ومن معه من شباب آآل على من

ورث هذه القوة البدنية كما ورثوا ثبات الملاش وحمية الفؤاد ، وكانوا كفؤاً لمبارزة الأنداد واحداً بعد واحد حتى يفرغ جيش عبيد الله من فرسانه القادرين على المبارزة ، ولا يبقى منهم غير الهمل يتبددون في منازلة الشجعان ، كما تبدد السائمة المذعورة بالمراء ..

وكان مع الحسين نخبة من فرسان العرب كلهم شهرة بالشجاعة والباس وسداد الرمي بالسهم ومضاء الضرب بالسيف ، ولن تكون صحبة الحسين غير ذلك بداهة وتقديرًا لا يتوقفان على الشهرة الذائعة والوصف المتواتر ، لأن مزاملة الحسين في مثل تلك الرحلة هي وحدها آية على الشجاعة في ملاقة الموت وكرم النعية في ملاقة الفتنة والاغراء .. فإذا جرى القتال كله مبارزة بين أمثال هؤلاء ومن يربون لهم من جيش عبيد الله ، فهم كفء للمنازلة وليس أملهم في الغلب بضعف

وقد بدأ القتال بهجوم الخيل من قبل جيش ابن زياد ، فأشرع أصحاب الحسين لها رماحهم وجثوا على الركب ينتظرونها .. فلم تقم الخيل للرماد وأوشكت أن تجفل مولية بفرسانها ..

فعدل الفريقان إلى المبارزة ، فلم يتعرض لها أحد من جيش ابن زياد إلا فشل أو نكس على عقيبه ، فخشي رؤوس الجيش عقبى هذه المبارزة التي لا أمل لهم في الغلبة بها ، وصاح عمر بن الصجاج برفاقه :

— أتدرون من تقاتلون؟ .. تقاتلون فرسان مصر وقوماً مستimitين ..  
لا يربز اليهم منكم أحد فانهم قليل .. لو لم ترمونهم إلا بالحجارة لقتلتموهم ..

فاستصوب عمر بن سعد مقاله ، ونفي الناس عن المبارزة ..

فلما يربز عابس بن أبي شبيب الشاعري بعد ذلك وتحداهم للمبارزة ، تحاموه لشجاعته ووقفوا بعيداً منه . فقال لهم عمر :

— ارمونه بالحجارة ..

فرموه من كل جانب .. فاستمات وألقى بدرعه ومحفه وحمل على  
من يليه ، فهزهم وثبت لجموعهم حتى مات

وعجزت خيل القوم مع كثرتها عن مقاومة خيل الحسين ، وهى تكشف  
كل ساعة عن فارس قتيل .. فبعث عروة بن قيس مقدم الفرسان في جيش  
ابن زياد يقول لعمر بن سعد : « ألا ترى ما تلقى خيلي هذا اليوم من  
هذه العدة اليسيرة؟ .. أبعث اليهم الرجال والرماة » فبعث اليه بخمسين  
من الرماة وعلى رأسهم الحصين بن نمير ، فرشقوا أصحاب الحسين  
بالنبل حتى عقروا الخيل وجرحوا الفرسان والرجال

وكان أبو الشعثاء يزيد بن زياد الكندي من عدل إلى جيش الحسين  
وهو من أشهر رماة زمانه . فلما تكاثر عليهم رمي النبال والسياه ، جثا  
بين يدي الحسين وأرسل مائة سهم لم يكن يخيب منها خمسة أسمهم ..  
وقاتل حتى مات ..

وكان الذين عدوا إلى عسكر الحسين أشد أنصاره عزمه في القتال  
وهجمة على الموت ، ومنهم العز بن يزيد الذي تقدم ذكره . فجاهد  
ما استطاع ليقنع أصحابه الأولين بالكف عن حرب الحسين أو بالعدول  
إلى صفة .. وقام على فرسه يخطب أهل الكوفة ويزجرهم ، فسكنوا  
هنيهة ثم رشقوا بالنبل فعقروا فرسه وجرحوه .. فما زال يطلب الموت  
ويتحرى من صفوهم أكتفها جمعاً وأقتلها نيلاً حتى سقط مثخناً بالجراح  
وهو ينادي الحسين : « السلام عليكم يا أبا عبد الله »

ولم يكن من أصحاب الحسين إلا من يطلب الموت ويتحري موقعه  
وأهدافه .. فكان نافع بن هلال البجلي يكتب اسمه على أفواه نبله  
ويرسلها فيقتل بها ويجرح ، وقلما يخطئ مرماه . فأحاطوا به وضربوه  
على ذراعيه حتى كسرتا ، ثم أسروه والدم يسيل من وجهه ويديه ،  
فحسبوه يلين للوعيد ويجزع من التمثيل به ، فأسمعهم ما يكرهون وراح  
يستزيد غيظهم ويقول لهم : « لقد قتلت منكم أنتى عشر رجالاً سوى  
من جرحت ، ولو بقيت لي عضد وساعد لزدت »

## صرخ الحسين

واستهدف الحسين رضى الله عنه لأقواس القوم وسioفهم ، فجعل أنصاره يحبونه بأنفسهم ولا يقاتلون الا بين يديه . وكلما سقط منهم صريح ، أسرع الى مكانه من يخلفه ليلقى حتفه على أثره

فضاقت الفئة الكثيرة بالفئة القليلة ، رسول لهم الضيق بما يعانونه من ثباتها أن يقوضوا الأخيبة التي أوى اليها النساء والأطفال ليحيطوا بالعسكر القليل من جميع جهاته . ثم أخذذوا في احرارها ، وأصحاب الحسين يصدونهم ويدافعونهم ، فرأى رضى الله عنه أن اشتغال أصحابه بمنعهم يصرفهم عن الاشتغال بقتالهم ، فقال لهم :

— دعوهم يحرقونها .. فإنهم اذا أحرقوها لا يستطيعون أن يجوزوا اليكم منها ..

وظل على حضور ذهنه وثبات جائه في تلك المحنـة المترابطة التي تعصف بالصبر وتطيـش بالأـباب .. وهو جهد عظيم لا تحتويه طاقة اللحم والدم ، ولا ينهض به الا أولـو العزم من أندر من يلد آدم وحواء . فـانه رضى الله عنه كان يقـاسـى جـهـدـ العـطـشـ وـالـجـبـوعـ وـالـسـهـرـ وـنـزـفـ الـجـراـحـ وـمـتـابـعـةـ الـقـتـالـ ، وـيلـقـيـ بالـهـ اليـ حـرـكـاتـ الـقـومـ وـمـكـائـدـهـمـ ، وـيـدـيرـ لـرـهـطـهـ ماـ يـحـبـطـونـ بـهـ تـلـكـ الـحـرـكـاتـ وـيـتـقـونـ بـهـ تـلـكـ الـمـكـائـدـ ، ثـمـ هوـ يـحـمـلـ بـلاـءـهـ وـبـلاـءـهـمـ .. وـيـتـكـاثـرـ عـلـيـهـ وـقـرـ الأـسـىـ لـحظـةـ بـعـدـ لـحظـةـ كـلـمـاـ فـجـعـ بـشـهـيدـ مـنـ شـهـادـهـمـ . وـلـاـ يـزـالـ كـلـمـاـ أـصـيبـ عـزـيزـ مـنـ أـوـلـئـكـ الـأـعـزـاءـ حـمـلـهـ إـلـيـ جـانـبـ اـخـوانـهـ وـفـيـهـمـ رـمـقـ يـنـازـعـهـمـ وـيـنـازـعـونـهـ وـيـنـسـونـ فـيـ حـشـرـجـةـ الصـدـورـ مـاـ هـمـ فـيـهـ .. فـيـطـلـبـونـ الـمـاءـ وـيـعـزـ طـلـبـهـ فـيـ قـلـبـهـ كـلـمـاـ أـعـيـاهـ الـجـوابـ ، وـيـرـجـعـ إـلـيـ ذـخـيرـةـ بـأـسـهـ فـيـسـتـمـدـ مـنـ هـذـهـ الـآـلـامـ الـكـاوـيـةـ عـزـماـ يـنـاهـضـ بـهـ الـمـوـتـ وـيـعـرضـ بـهـ عـنـ الـحـيـاةـ .. وـيـقـولـ فـيـ أـثـرـ كـلـ صـرـيحـ : « لاـ خـيـرـ فـيـ الـعـيـشـ مـنـ بـعـدـكـ » وـيـهـدـفـ صـدـرهـ لـكـلـ مـاـ يـلـقـاهـ ..

وانـهـ لـقـىـ هـذـاـ كـلـهـ ، وـبعـضـهـ يـهـدـ الـكـواـهـلـ وـيـقـضـ الـأـصـلـابـ .. إـذـاـ

بالرماح والسيوف توشه من كل جانب ، وإذا بالقتل يتعدى الرجال المقاتلين الى الأطفال والصبيان من عترته وأآل بيته ، وسقط كل من معه واحدا بعد واحد فلم يبق حوله غير ثلاثة يناضلون دونه ويتقون الضرب عنه ، وهو يسبقهم ويأذن لمن شاء منهم أن ينجو بنفسه وقد دنت الخاتمة ووضح المصير ..

وكان غلام من آل الحسين – هو عبد الله بن الحسن أخيه – ينظر من الأخيبة ، فرأى رجلا يضرب عمه بالسيف ليصيده حين أخطأ زميله ، فهروء الغلام الى عمه وصاح في براءة بالرجل :  
— يا ابن الخليفة .. أتقتل عمي ؟

فتعمله الرجل بالسيف يريد قتله ، فتلقي الغلام ضربته بيده فانقطعت وتعلقت بجلدها .. فاعتنقه عمه وجعل يواسيه وهو مشغول ب الدفاع عن يليه ..

ثم سقط الثلاثة الذين بقوا معه ، فانفرد وحده بقتال تلك الزحوف المطبقة عليه . وكان يحمل على الذين عن يمينه فيتفرون ، ويشد على الخيل راجلا ويشق الصفوف وحيدا ، وبهابه التربيون فيستعدون ، ويهم المتقدمون بالاجهاز عليه ثم ينكصون .. لأنهم تحرجو من قتله ، وأحب كل منهم أن يكفيه غيره مغبة وزره ، فغضب شمر بن ذي الجوشن وأمر الرماة أن يرشقوه بالنبل من بعيد ، وصاح بنن حوله :

— ويحكم ! .. ماذا تتتظرون بالرجل ؟ .. اقتلوه ثكلتكم أمها لكم ..  
فاندفعوا اليه تحت عيني شمر مخافة من وشایته وعقابه .. وضربه زرعة ابن شريك التميمي على يده اليسرى فقطعواها ، وضربه غيره على عاتقه فخر على وجهه ، ثم جعل يقوم ويكتبوا لهم يطعنونه بالرماح ويضربونه بالسيف حتى سكن حراكه ، ووُجدت بعد موته رضوان الله عليه ثلاثة وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير اصابة النبل والسمام ، وأحصاها بعضهم في ثيابه فإذا هي مائة وعشرين  
ونزل خولي بن يزيد الاصبعي ليحتضر رأسه ، فملكته رعدة في يديه

وجسده ، فتحاه شر وهو يقول له :  
— فـَتَّ الله في عضدك ! ..

واحتز الرأس وأبى الا أن يسلمه اليه في رعدته ، سخرية به وتمادي  
في الشر ، وتحديا به ملئ عسى أن ينعاه عليه ! وقضى الله على هذا الخبيث  
الوضر أن يصف نفسه ب فعله وصفا لا يطرقه الشك والاتهام ، فكان  
ضغته هذا كله ضغنا لا معنى له ولا باعث اليه الا أنه من أولئك الذين  
يذريهم اللؤم فيسليمهم بعض السلوى أن يؤلوا به الكرام ، ويجعلوه  
تحديا مكتشوفا كأنه معرض للزهو والفخار ، وهم يعلمون أنه لا يغدر  
به ولا يزهى ! ولستهم يبلغون به مأربهم اذا آلموا به من يحس فيهم  
الضعة والعار ..

وبقيت ذرة من الحمية يرتفع اليها مرتفع ..  
وبقيت وهذه من الخسة يتحدر اليها منحدرون كثيرون

فلم يكن في عسكر الحسين كله الا رمق واحد من الحياة باق في رجل  
طعين مشخن بالجراح ، تركوه ولم يجهزوا عليه لظنهم أنه قد مات ..  
ذلك الرجل الكريم هو سعيد بن أبي المطاع أصدق الأنصار وأنبل  
الأبطال ..

فأبى الله لهذا الرمق الضعيف أن يفارق الدنيا بغير مكرمة يتم بها  
مكرمات يومه ، وتشتمل عليها النقوص الكثيرات فإذا هي حسبها من  
شرف مجد وثناء ..

\* \* \*

تسادى القوم بمصرع الحسين فبلغت صيحتهم مسمعه الذى ألقنه  
التزع وأوشك أن يجعل ما يسمع . فلم يخطر له أن يسكن لينجو وفد  
ذهب الأمل وحم الختام ، ولم يخطر له أنه ضعيف متزوف يجعل به  
ال القوم قبل أن ينال من القوم أهون منال ، ولم يحسب حساب شيء في  
تلك اللحظة العصيبة الا أن يجاهد في القوم بما استطاع ، بالغا ما بلغ  
من ضعف هذا المستطاع ..

فالتمس سيفه فإذا هم قد سلبوه ، ونظر إلى شيء يجاهد به فلم تقع  
يده إلا على مدينة صغيرة لا غناء بها مع السيف والرماح .. ولكنه فتح  
بها وغالب الوهن والموت ، ثم وثب على قدميه من بين الموتى وثبتة  
المستثنى الذي لا يفر من شيء ولا يالي من يصيب وما يصاب . فتولام  
الذعر وشلت أيديهم التي كانت خليقة أن تمتد إليه ، وانطلق هو يشنن  
فيهم قتلا وجراحتا حتى أفاقوا له من ذعراهم ومن شفاعتهم بضمجمهم  
وغيتهم . فلم يقووا عليه حتى تعاون على قتل رجلان .. فكان هذا حدا  
هو الكرم والمجد في عسكر الحسين إلى الرمق الأخير

### خسارة ووحشية ..

وكان حقا لا مجازا ما توخيته حين قلنا إنها طرفان متافقان . وأنها  
حرب بين أشرف ما في الإنسان وأوضع ما في الإنسان

في بينما كان الرجل في عسكر الحسين ينهض من بين الموتى ولا يضن  
بالمرق الأخير في سبيل إيمانه ، اذا بالآخرين يهترفون أسوأ المآثم في  
رأيهم - قبل رأي غيرهم - من أجل غنية هينة لا تسمن ولا تغني من  
جوع . فلو كان كل ما في عسكر الحسين ذهبا ودراماً أغنى عنهم شيئاً  
وهم قرابة أربعة آلاف .. ولكنهم ، ما استيقنوا بالعقوبة - قبل أن يسلم  
الحسين نفسه الأخير - حتى كان همهم الى الاسلاب التي يطلبونها حيث  
وجدوها ، فأهربوا الى النساء من بيت رسول الله ينزعونهن العلى  
والثياب التي على أجسادهن ، لا يزعم عن حرمات رسول الله وازع من  
دين أو مروءة . وانقلبوا الى جثة الحسين يتخطفون ما عليها من كساء  
تخلته الطعون حتى أوشكوا أن يتركوها على الأرض عارية ، لولا  
سراويل لبسها رحمة الله مزقة وتعدم تزيقاً لها ليتركوها على جسده ولا  
يسلبوها . ثم ندبوا عشرة من الفرسان يوطئون جثته الغيل كما أمرهم  
ابن زياد ، فوطئوها مقبلين ومدبرين حتى رضوا صدره وظهره

وقد يساق الغنم هنا معدنة للاثم بالغا ما بلغ هذا من العظم ، وبالغا ما بلغ ذلك من التفاهة . لكنهم في الحقيقة قد ولعوا بالشر للشر من غير ما طعم في مفهوم كبير أو صغير . فحرموا الرى على الطفل الظامن العليل وأرسلوا الى أحشائه السهام بديلا من الماء ، وقتلوا من لا غرض في قتله وروعوا من لا مكرمة في ترويعه .. فربما خرج الطفل من الأخيبة ناظرا وجلا لا يفقه ما يجري حوله ، فينقض عليه الفارس الramح فوق فرسه ويطعنه الطعنة القاضية بمرأى من الأم والأخت والمعنة والقريبة ، ولم تكن في الذي حدث من هذا القبيل مبالغة يزعمونها كما زعم أجزاء الذم بعد ذلك عن حوادث كربلاء وجرائر كربلاء . فقد قتل فعلا في كربلاء كل كبير وصغير من سلالة على رضى الله عنه ، ولم ينج من ذكورهم غير الصبي على زين العابدين .. وفي ذلك يقول سراقة الباهلى :

عين جودي بعبرة وعويل  
واندبي ما ندب آل الرسول  
سبعة منهم لصلب على      قد أبيدوا وسبعة لعقيل

وما نجا على زين العابدين الا بأعجوبة من أتعجب المقاصير ، لأنه كان مريضا على حجور النساء يتوقعون له الموت هامة اليوم أو غدا ، فلما هم شمر بن ذي الجوشن بقتله ، نهاد عمر بن سعد عنه اما حياء من قرابة الرحمن أمام النساء — وقد كان له نسب يجتمع به في عبد مناف — واما توقعوا لموته من السقم المضنى الذي كان يعانيه .. فنجا بهذه الأعجوبة في لحظة عابرة ، وحفظ به نسل الحسين من بعده ، ولو لا ذلك لباد

ثم قطعوا الرؤوس ورفعوها أمامهم على الحراب ، وتركوا الجثث ملقاة على الأرض لا يدفنونها ولا يصلون عليها كما صلوا على جثث قتلامهم .. ومرروا بالنساء حواسر من طريقها فولولن باكيات وصاحت زينب رضي الله عنها :

— يا محمداه !.. هذا الحسين بالعراء وبناتك سبايا وذريرتك مقتلة  
تسفي عليها الصبا ..

فوجم القوم مبهوتين وغلبت دموعهم قلوبهم .. فبكى العدو كما بكى الصديق ! ..

\*\*\*

لم تنقض في ذلك اليوم خمسون سنة على انتقال النبي محمد عليه السلام من هذه الدنيا الى حظيرة الخلود : محمد الذي بر بدينهم ودنياهم فلم ينقل من الدنيا حتى نقلهم من الظلمة الى النور ، ومن حياة التيه في الصحراء الى حياة عاصرة يسودون بها أمم العالمين . ثم هذه خمسون سنة لم تنقض بعد ، واذا هم في موكب جهير يجوب الصحراء الى مدينة بعد مدينة : سباياه بنات محمد حواسر على المطاي وأعلامه رؤوس أبنائه على الحراب ، وهم داخلون بهدخول الظافرين !

وبقيت الجثث حيث نبذوها بالعراء « تسفي عليها الصبا »  
فخرج لها مع الليل جماعة من بنىأسد كانوا ينزلون بتلك الأنجاء ..  
فلما أمنوا العيون بعد يوم أو يومين سروا مع القمراء الى حيث طلت  
بهم على منظر لا يطلع القمر على مثله — شرفا ولا وحشة — في الآباد ..

وكان يوم المقتل في العاشر من المحرم .. فكان القمر في تلك الليلة  
على وشك التمام .. فحفروا القبور على ضوئه ، وصلوا على الجثث  
ودواها ، ثم غادروها هناك في ذمة التاريخ . فهى اليوم مزار يطيف به  
المسلمون متلقين ومختلفين ، ومن حقه أن يطيف به كل انسان ، لأنه  
عنوان قائم لأقدس ما يشرف به هذا الحي الآدمي بين سائر الأحياء  
فما أظلت قبة السماء مكانا لشهيد قط هو أشرف من تلك القباب  
 بما حوتة من معنى الشهادة وذكرى الشهداء

## مَوْطِنُ الرَّأْسِ

اتفقت الأقوال في مدفن جسد الحسين عليه السلام ، وتعددت أية  
تعدد في موطن الرأس الشريف ..  
فمنها أن الرأس قد أعيد بعد فترة إلى كربلاء فدفن مع الجسد فيها ..  
ومنها أنه أرسل إلى عمرو بن سعيد بن العاص والي يزيد على المدينة ،  
فدهنه بالبيع عند قبر أمه فاطمة الزهراء ..  
ومنها أنه وجد بخزانة لزييد بن معاوية بعد موته ، فدفن بدمشق عند  
باب الفراديس ..  
ومنها أنه كان قد طيف به في البلاد حتى وصل إلى عسقلان ، فدفنه  
أميرها هناك وبقي بها حتى استولى عليها الفرنج في الغروب الصليبية..  
فيبدل لهم الصالح طلائع وزير الفاطميين بعصر ثلاثين ألف درهم على أن  
ينقله إلى القاهرة حيث دفن بعشهده المشهور . قال الشعراوي في طبقات  
الأولى : « إن الوزير صالح طلائع بن رزيك خرج هو وعسكره حفاة  
إلى الصالحية ، فتلقي الرأس الشريف ووضعه في كيس من الحرير الأخضر  
على كرسي من الأبنوس وفرش تحته المسك والعنبر والطيب ، ودفن في  
المشهد الحسيني قريباً من خان الخليلي في القبر المعروف »  
وقال السائح الهروي في الإشارات إلى أماكن الزيارات : « وبها — أي  
عسقلان — مشهد الحسين رضي الله عنه : كان رأسه بها ، فلما أخذتها  
الفرنج نقله المسلمون إلى مدينة القاهرة سنة تسعة وأربعين وخمسين »  
وفي رحلة ابن بطوطة أنه سافر إلى عسقلان « وبه المشهد الشهير حيث  
كان رأس الحسين بن علي عليه السلام ، قبل أن ينقل إلى القاهرة »  
وذكر سبط بن العجوزي فيما ذكر من الأقوال المتعددة أن الرأس بمسجد  
الرقعة على الفرات ، وأنه لما جاء به بين يدي يزيد بن معاوية قال : « لا يعشنه »

إلى آل أبي معيط عن رأس عثمان » وكانوا بالرقه ، فدفونه في بعض دورهم ثم دخلت تلك الدار بالمسجد الجامع ، وهو إلى جانب سوره هناك فالاماكن التي ذكرت بهذا الصدد ستة في ست مدن هي : المدينة ، وكربلاه ، والرقه ، ودمشق ، وعسقلان ، والقاهرة ، وهي تدخل في بلاد الحجاز والعراق والشام وبيت المقدس والديار المصرية . وتکاد تشتمل على مداخل العالم الاسلامي كلها من وراء تلك الأقطار ، فان لم تكن هي الأماكن التي دفن فيها رأس الحسين فهى الأماكن التي تحيى بها ذكراه لا مراء ..

وللتاريخ اختلافات كثيرة ، نسميها بالاختلافات اللفظية أو العرضية ، لأن نتيجتها الجوهرية سواء بين جميع الأقوال ، ومنها الاختلاف على مدفن رأس الحسين عليه السلام . فأيا كان الموضع الذي دفن به ذلك رأس الشريف ، فهو في كل موضع أهل للتعظيم والترشيف . وإنما أصبح الحسين — بكرامة الشهادة وكرامة البطولة وكرامة الأسرة النبوية — معنى يحضره الرجل في صدره وهو قريب أو بعيد من قبره . وإن هذا المعنى لني القاهرة ، وفي عسقلان ، وفي دمشق ، وفي الرقة ، وفي كربلاه ، وفي المدينة ، وفي غير تلك الأماكن سواء

### وقاحة ابن زيد

ويقل الاختلاف أو يسهل التجاوز عنه كذلك فيما حدث بين فاجعة كربلاه ولقاء يزيد ..

فالمتوافق لسير الأمور أنهم حملوا الرؤوس والنساء إلى الكوفة ، فأمر ابن زيد أن يطاف بها في أحياء الكوفة ثم ترسل إلى يزيد وكانت فعلة يدارونها بانتوقيع فيها على سته المأخذ الذى لا يملك مداراة ما فعل . فبات خولي بن يزيد ليته بالرأس في بيته ، وهو يعني نفسه ببني الدهر كما قال . فأقسمت امرأة له حضرمية : « لا يجمع رأسها ورأسه بيته وفيه رأس ابن رسول الله »

ثم غدا الى قصر ابن زياد وكان عنده زيد بن أرقم من أصحاب رسول الله .. فرأه ينكت ثانيا الرأس حين وضع أمامه في أجائه ، فصاح به مغضبا :  
— ارفع قضيتك عن هاتين الشيتين .. فوالذي لا اله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله على هاتين الشفتين يقبلهما ..  
وبكى ..

فهزىء به ابن زياد وقال له :  
— لو لا انك شيخ قد خرفت وذهب عقلك ، لضربت عنقك !  
فخرج زيد وهو ينادي في الناس غير حاصل بشيء :  
— أتكم عشر العرب العبيد بعد اليوم .. قتلتم ابن فاطمة وأثترتم ابن مرجانة ، فهو يقتل شراركم ويستعبد خياركم  
وأدخلت السيدة زينب بنت علي رضي الله عنها ، وعليها أرذل ثيابها ومعها عيال الحسين وأمامتها .. فجلست ناحية لا تتكلم ولا تنظر الى ما أمامها . فسأل ابن زياد :  
— من هذه التي انحازت ناحية ومعها نساؤها ؟  
فلم تجيه .. فأعاد سؤاله ثلاثة وهي لا تجيه ، ثم أجبت عنها احدى الاماء :  
— هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم  
فاجرأ ابن زياد قائلا :  
— الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأبطل أحدوتكم ..

وقد كانت زينب رضي الله عنها حقاً جديرة بنسبها الشريف في تلك الرحلة الفاجعة التي تهد عرائم الرجال .. كانت كأشجع وأرفع ما تكون حقيقة محمد وبنت على وأخت الحسين . وكتب لها أن تحفظ بشجاعتها وتضحيتها بقية العقب الحسيني من الذكر .. ولو لاها لاقررض من يوم كربلاء ..

فلم تمهل ابن زياد أن ثارت به قائلة :  
— الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه وطهروا من الرجس تطهيرا .. إنما

يُفْسِحُ الْفَاسِقُ وَيَكْذِبُ الْفَاجِرُ ، وَهُوَ غَيْرُنَا وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ  
فَقَالَ ابْنُ زِيَادٍ :

— قَدْ شَفِىَ اللّٰهُ نَفْسِي مِنْ طَاغِيْتَكُ وَالْعَصَمَةِ  
فَغَلَبَهَا الْحُزْنُ وَالْغَيْظُ مِنْ هَذَا التَّشْفِيِ الَّذِي لَا نَاصِرٌ لَّهُ مِنْهُ ، وَقَالَتْ :  
— لَقَدْ قَتَلْتَ كَهْلِيَ ، وَأَبْدَتَ أَهْلِيَ ، وَقَطَعْتَ فَرْعَانَهُ وَاجْتَسَتَ أَصْلِيَ ،  
فَإِنْ يَشْفَكَ هَذَا فَقَدْ اشْتَفَيْتَ ..  
فَتَهَافَتَ ابْنُ زِيَادٍ سَاحِرًا وَقَالَ :  
— هَذِهِ سَجَاعَةٌ .. لِعَمْرِيْ لَقَدْ كَانَ أَبُوهَا سَجَاعًا شَاعِرًا  
فَقَالَتْ زِينَبُ :  
— إِنْ لَّيْ عَنِ السَّجَاعَةِ لِشَفَاعَلَا .. مَا لِلْمَرْأَةِ وَالسَّجَاعَةِ ?

### عَلَى ذِينِ الْعَابِدِينَ

ثُمَّ نَظَرَ ابْنُ زِيَادٍ إِلَى غَلَامٍ عَلِيلٍ هَزِيلٍ مَعَ السَّيْدَةِ زِينَبَ فَسَأَلَهُ :

— مَنْ أَنْتَ ؟

قَالَ : عَلَى بْنُ الْحُسَيْنِ

قَالَ : أَوْ لَمْ يَقْتُلَ اللّٰهُ عَلَى بْنُ الْحُسَيْنِ ؟

قَالَ : كَانَ لَيْ أَخْ يُسَمِّي عَلَيَا قَتْلَهُ النَّاسُ

فَأَعْدَادُ ابْنِ زِيَادٍ قَوْلُهُ : اللّٰهُ قَتَلَهُ

فَقَالَ عَلَى : إِنَّ اللّٰهَ يَتُوفِّيُ الْأَنْقَنْ حِينَ مَوْتِهِ ، وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ  
إِلَّا بِإِذْنِ اللّٰهِ ..

فَأَخْذَتْ زِينَبُ ابْنَاهَا عَزَّةً، الْأَثْمَ وَاتْهَمَهُ قَائِلًا :

— وَبِكَ جَرَأَةٌ لِجَوَابِيِّ !

وَصَاحَ الْخَيْثُ الْأَثْمِ بِجَنْدِهِ :

— اذْهَبُوا بِهِ فَاضْرِبُوا عَنْهُ ..

فَجَاهَتْ بِعَمَّةِ الْفَلَامِ قَوْةً لَا يَرِدُهَا سُلْطَانٌ ، وَلَا يَرْهِبُهَا سَلاَحٌ .. لَأَنَّهَا  
قوَّةٌ مِنْ هَانَ لِدِيهِ الْمَوْتُ وَهَانَتْ عَلَيْهِ الْحَيَاةُ ، فَاعْتَقَتِ الْفَلَامُ اعْتِقَادَهُ مِنْ

اعزم ألا يفارقه إلا وهو جثة هامدة ، وأقسمت لمن قتلته لتقتلني معه .

فارتد ابن زياد مشدوها وهو يقول متوجبا :

— يا للرحم .. أني لأطئنها ودت أني قتلتها معه

ثم قال : « دعوه لما به » .. كأنه حسب أن العلة قاضية عليه

وعلى هذا هو زين العابدين جد كل منتب إلى الحسين عليهما السلام ، وكان كما قال ابن سعد في الطبقات : « قمة كثير الحديث عالياً رفيعاً ورعاً » ، وكما قال يحيى بن سعيد : « أفضل هاشمي رأيته في المدينة » ..

ولولا استمامة عمه كما ترى ، لقد كادت تذهب بهذه البقية الباقية  
كلمة على شفتي ابن زياد !

### الرأس عند يزيد

ولما قضى الخليفة نهمة كيده من الطواف برأس الحسين في الكوفة وأرباضها ، أنهذه ورؤوس أصحابه إلى دمشق مرفوعة على الرماح ، ثم أرسل النساء والصبيان على الأقتاب ، وفي الركب على زين العابدين مغلول إلى عنقه يقوده شمر بن ذي العوشن ومحضر بن ثعلبة .. فتلاحق الركبان في الطريق ودخلوا الشام معا إلى يزيد

وتكرر منظر القصر بالكوفة في قصر دمشق عند يزيد .. ولا تستغرب أن يتكرر بعضه حتى يظن أنه قد وقع في التاريخ خلط بين المنظرين ، لأن المناسبة في هذا المقام تستوحى ضربا واحدا من التعقيب وضربا واحدا من العوار ..

فارتاع من مجلس يزيد من نبأ المقتلة في كربلاء حين بلغتهم ، وقال يحيى بن الحكم وهو من الأمويين :

لهمام بجنب الطف أدنى قرابة

من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل

سمية أمي نسلها عدد الحصى

وبنت رسول الله ليست بذى نسل

فأسكته يزيد .. وقال وهو يشير الى الرأس وينكث تباه بقضيب فيده : ( أتدرون من أين أتى هذا ؟ .. انه قال : « أبي على خير من أبيه وأمي فاطمة خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر » .. فاما أبوه فقد تجاج أبي وأبوه الى الله وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما أمه فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أبيه ، وأما جده فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فيما عدلا ولا ندا ، ولكنه أتى من قبل ققهه ولم يقرأ : قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتتنزع الملك من تشاء ) ..

وهو كلام ينسب مثله الى معاوية في رده على حجيج على في الخلافة .. ولعل يزيد قد استعاره من كلام أبيه وزاد عليه

ونظر بعض أهل الشام الى السيدة فاطمة بنت الحسين - وكانت جارية وضيئه - فقال ليزيد : « هب لي هذه » ، فأرعدت وأخذت بشباب عمتها .. فكان لعمتها في الذود عنها موقف كمويقها بقصر الكوفة ، ذيادا عن أخيها زين العابدين ، وصاحت بالرجل :

ـ كذبت ولو قتلت .. ما ذلك لك ولا له

فتغتبط يزيد وقال : « كذبت ، ان ذلك لي .. ولو شئت لعملت »  
قالت : « كلا والله .. ما جعل الله لك ذلك ، الا أن تخرج من ملتنا  
وتدين بغير ديننا »

فاشتد غيظ يزيد وصاح بها : « اي اي تستقبلين بهذا ؟ .. انما خرج من الدين أبوك وأخوك »  
قالت : « بدين الله ودين أبي وأخي وجدى اهتديت أنت وأبوك  
وجدك » ..

فلم يجد جوابا غير أن يقول : « بل كذبت يا عدوة الله »  
 فقالت : « انت أمير ثمتم ظالما ، وتهمر بسلطانك »  
فأطرق وسكت ...

وأدخل على بن الحسين مغلولاً ، فأمر يزيد بفك غله وقال له :  
— ايه يا ابن الحسين .. أبوك قطع رحمي وجهل حقى ونازعنى  
سلطانى ، فصنع الله به ما رأيت ..  
قال على :

— ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من  
قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله ليسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا  
تفرحوا بما آتاكם والله لا يحب كل مختال فخور . فتلا يزيد الآية : « وما  
أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم » . ثم زوى وجهه وترك خطابه ..  
وكان لقاء نساء يزيد خيراً من لقائه .. فواسين السيدة زينب والسترة  
فاطمة ومن معهما ، وجعلن يسألنهن عما سلبته بكرباء فيرددن اليهن  
مثله وزيادة عليه ..

وأحب يزيد أن يستدرك بعض ما فاته ، فلجأ إلى النعمان بن بشير  
واليه الذي عزله من الكوفة لرققه بدعاه الحسين .. وأمره أن يسير آل  
الحسين إلى المدينة ويجهزهم بما يصلحهم . وقيل انه ودع زين العابدين ،  
وقال له : « لعن الله ابن مرjanة .. أما والله لو أني صاحب أبيك ما  
سألني خصلة أبداً لا أعطيته ايها ، ولدفت الحتف عنه بكل ما  
استطعت ولو بهلاك بعض ولدي . ولكن الله قضى ما رأيت يابنى ! ..  
كاتبى من المدينة ، وأنه إلى كل حاجة تكون لك »

### تبعة يزيد

والناس في تقدير التبعة التي تصيب يزيد من عمل ولاته مشارب  
وأهواء ، يرجح كل منهم إلى مصدر من مصادر الرواية فيبني عليه حكمه  
فمنهم من يرى انه بريء من التبعة كل البراءة .. ومنهم من يرى انه  
أقر فعلة ابن زياد ثم ندم عليها .. ومنهم من يقول انه قد أمر بكل ما  
اقترفه ابن زياد وتوقع حدوثه ولم يمنعه وهو مستطيع أن يمنعه لو شاء  
والثابت الذي لا جدال فيه ، أن يزيدا لم يعاقب أحدا من ولاته كبير

أو صغر على شيء مما اقترفوه في فاجعة كربلاه ، وان سياسة في دولته بعد ذلك كانت هي سياسة أولئك الولاة على وطيرة واحدة مما حدث في كربلاه . فاستباحة المدينة – دار النبي عليه السلام – وتحكيم مسلم ابن عقبة في رجالها ونسائها ، ليست بعمل رجل ينكر سياسة كربلاه بفكيره وقلبه ، أو سياسة رجل تجري هذه الحوادث على تقديره تدبيره وشعوره وما زال يزيد وأخلاقه يأمرون الناس بلعن على والحسين وألهما على المنابر في أرجاء الدولة الإسلامية . ويستقون من يقتيم باهدار دمهم وصواب عقابهم بما أصابهم . ومن تجب لعنته على المنابر بعد موته بستين ، فقتله جائز أو واجب في رأي لاعنه

ومن أفرط في سوء الظن ، رجع عنده أن عبيد الله بن زياد كان على اذن مستور بكل ما صنع ، ويملي لهم في هذا الظن اذ استصال ذريه الحسين من الذكور خطة تهم يزيد لوراثة الملك في بيته وعقبه ، ويفيده أن يقدم عليها مسترا من وراء ولاته ثم يصل منها ويلقي بنيتها عليهم . ولو لم يكن ذلك لكان عجيا أن توكل حياة الحسين وأبنائه وأله إلى والى الكوفة بغير توجيه من سيده ومولاه .. فقد كان الزمان الذى اقضى منذ خروج الحسين من مكة إلى نزوله بالطف على القرات كافيا لبلوغ الخبر إلى يزيد ورجوع الرسل بالتوجيه الضروري في هذا الموقف لو إلى الكوفة وغيره من الولاة ، فأن لم يكن الأمر تدبيرا متفقا عليه فهو المساعة التي تلى ذلك التدبير في السوء والشدة . وهي مساعة التهاون الذى لا تستقيم على مثله شئون دوله . وقد روى ابن شريح اليشكري أن عبيد الله صارحه بعد موت يزيد فقال : « أما قتلى الحسين فإنه وأشار إلى يزيد بقتله أو قتلى فاخترت قتله » وهو كلام متهم لا تقوم به حجة على غائب قضى نحبه ..

ويبدو لنا أن الظن يتعاون يزيد هنا أقرب إلى الظن بيايازه وتدبيره .. لأنه جرى عليه طوال حكمه وألقى حبل ولاته على غاربهم وهو لا يصيده ويعنته ، وانه ربما ارتاح في سريرته بادئ الأمر إلى فعلة ابن زياد

وأعوانه .. ولكنك ما عتم أذ رأى بوادر العواقب توشك أن تطبق عليه بالوبال من كل جانب ، حتى تيقظ من غفلته بعد فوات الوقت فعمد إلى المحسنة والاستدراك جهد ما استطاع ، ولم يكن في يقظته على هذا معتصما بالحكمة والسداد ..

ولقد رأى البوادر منه غير بعيد ، ولما تنقض ساعات على ذيوع الخبر في بيته قبل عاصمة ملكه .. فتنعى ابن الحكم فعلة ابن زياد ، وناح نساؤه مشفقات من هول ما سمعن ورأين ، وبكى ابنه الورع الصالح معاوية فكان يقول اذا سئل : « نبكي على بني أمية لا على الماضين من بني هاشم » ..

ومهما تكون غفلة يزيد ، فما أحد قط يلمح تلك البوادر ثم يجعل أنها ضربة هوجاء لن تذهب بغير جريدة ، ولن نهون جريرتها في الحاضر القريب ولا في الآتي البعيد ..

والواقع أنها قد استبعت بعدها جرائر شتى لا جريدة واحدة ، وما تتضمن جرائرها إلى اليوم ..

فلم تنقض سنتان حتى كانت المدينة في ثورة حنق جارف يقتلع السدد ويخترق العدد .. لأنهم حملوا إليها خبر الحسين محمل التشيم والشماتة . وضحك واليهم عمرو بن سعيد حين سمع أصوات البكاء والصرخ من بيوت آل النبي ، فكان يتمثل قول عمرو بن معد يكرب :

عجب نساء بنى زياد عجة      كعجيج نسوتنا غداة الأرباب

وكانت بنت عقيل بن أبي طالب تخرج في نسائها حاسرة وتشد :

ماذا تقولون ان قال النبي لكم :

ماذا فعلتم .. وأتم آخر الأمم ؟

بعترتي ، وبأهلني ، بعد مفتقدني ..

منهم اساري ، ومنهم ضرجوا بدم

ما كان هذا جزائي اذ نصحت لكم

اذ تخلفوني بسوء في ذوى رحمى

فكان الأمويون يجربون بمثل تلك الشماتة ، ويقولون كما قال عمرو ابن سعيد : « ناعية كناعية عثمان »  
ولا موضع للشماتة هنا بالحسين ، لأنه قد أصيب على باب عثمان  
وهو يذود عنه ويجتهد في سقيه وسقى آل بيته .. ولكنها شماتة هوجاء  
لا تعقل ما تصنع ولا ما تقول

### ثورة المدينة

وللقدر المتأخر لجت بالولاية الأمويين رغبهم في تلفيق « المظاهرات العجازية » ، فلم يرعوا ما يأهل المدينة من الحزن ، الالاعنة والأسى الدفين وجعلوا همهم كله أن يكرهوا القوم على نسيان خطب الحسين واصطناع الولاء المفترض ليزيد . فحملوا إلى دمشق وفدا من أشراف المدينة لم يلبشو أن عادوا إليها منكرين لحكم يزيد مجتمعين على خلع بيته ، وراحوا يقولون لأهل المدينة : « أنا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويضرب بالطناشير ، ويعرف عنده القيام ، ويلعب بالكلاب ، ويسمى عنده الغراب »

وقال رئيسهم عبد الله بن حنظلة الانصاري وهو ثقة عند القوم لصلاحه وزهده : « لو لم أجده إلا بني هؤلاء — وكان له ثمانية بنين — لجاهدت بهم . وقد أعطاني وما قبلت عطاهم إلا لأنقوى به »

والتهببت نار الثورة بالألم المكثوم والدعوة الموصولة ، فأخرج المدينيون والى يزيد وجميع من بالمدينة من الأمويين ومواليهم وأعلنوا خلعهم للبيعة ..

وصدق ابن حنظلة النية ، فكان يقدم بنيه واحدا بعد واحد حتى قتلوا جميعا ، وقتل بعدهم اتفة من حياة يسام فيها الطاعة ليزيد وولاته وببدا في ثورة المدينة أن يزيد لم يستند كثيرا ولا قليلا من عبرة كربلاء ، لأنه سلط على أهلها رجالا لا يقل في ثؤمه وغله وسوء دخلته ، وولعه بالشر والتعذيب ، وعنته بالقتل والتقطيل والتمثيل ، عن عبيد الله بن زياد ،

وهو مسلم بن عقبة المري . فأمره أن يسوم التأرين البيعة بشرطه ، وأن يستبيح مدinetهم ثلاثة أيام إن لم يقادروا إلى طاعته ، وكان شرطه الذي ساهم بهم أيام بعد اقتحام المدينة وانقضاء الأيام الثلاثة التي انتظروا فيها طلاقتهم « إنهم يباغتون أمير المؤمنين على أنهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم ما شاء »

وإذا كان شيء أثقل على النقوص من هذا الشرط ، وأصبح في الظلم من استباحة الأرواح والأعراض في جوار قبر النبي عليه السلام .. فذاك هو ولایة هذا السکال بيد مجرم مفظور على الغل والضغينة مثل مسلم بن عقبة ، كأنه يلقى على الناس وزر مرض النفس ومرض الجسد ومرض الدم الذي أبلاه ، ولم يبل ما في طويته من رجس ومكيدة . « فاستعرض أهل المدينة بالسيف جزرا كما يجزر القصاب الفنم ، حتى ساخت الأقدام في الدم وقتل أبناء المهاجرين والأنصار »

وأوقع كما قال ابن كثير « من المفاسد العظيمة في المدينة التبوية ما لا يحد ولا يوصف » .. ولم يكتفه أن يسفك الدماء وبهتك الأعراض حتى يلتفت باثاره الآمال والمخاوف في تقوس صرعاه قبل عرضهم على السييف ، فلما جاءوه بمعقل بن سنان صاحب رسول الله هش له وتلقاه بما يطمعه ، ثم سأله : « أعطشت يا معلق؟ .. حوصوا له شربة من سويع اللوز الذي زودنا به أمير المؤمنين » .. فلما شربها قال له : « أما والله لا تبولها من مثاتك أبدا .. وأمر بضرب عنقه .. »

ويروى ابن قتيبة أن عدد من قتل من الأنصار والمهاجرين والوجوه ألف وسبعمائة . وسائلهم من الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان ..

وحدث واحد من حوادت التمثيل والاستباحة يدل على سائر الحوادت من أمثاله .. دخل رجل من جند مسلم بن عقبة على امرأة نساء من نساء الأمصار ومعها صبي لها . فقال : « هل من مال؟ » قالت : « لا .. والله ما تركوا لنا شيئاً »

قال : « والله لتخرون الى شيئاً او لا قتلتك وصيتك هذا »  
 فقالت له : « ويحك .. انه ولد ابن أبي كبشة الانصارى صاحب  
 رسول الله ». فأخذ برجل الصبي والثدي في فمه ، فجذبه من حجرها  
 فضرب به الحائط فاقتصر دماغه على الأرض  
 وهو مثل من أمثال قد تكررت بعد تلك البيوت التي قتل فيها أولئك  
 الألوف من النساء والأطفال والآباء والأمهات ...  
 وقد مات هذا السفاح وهو في طريقه الى مكة يهم بأن يعيد بها ما  
 بدأ بالمدينة .. فدفن في الطريق وتعقبه بعض المورين من أهل المدينة  
 فنبشوا قبره وأحرقوه

### جريدة العدل

ولم تنتقض سنوات أربع على يوم كربلاء حتى كان يزيد قد قضى  
 نحبه ، ونجمت بالكوفة جريدة العدل التي حاكت بكل من مد يداً الى  
 الحسين وذويه ..

فسلط الله على قاتلي الحسين كفوا لهم في النقطة والكلال يفلح حديثهم  
 بحديثه ويکيل لهم بالکيل الذي يعرفونه . وهو المختار بن أبي عبيد  
 الشقفي داعية التوابين من طلاب ثار الحسين . فأهاب بأهل الكوفة أن  
 يکفروا عن تقصيرهم في نصرته ، وأن يتعااهدوا على الأخذ بثاره فلا  
 يبقين من قاتليه أحد ينعم بالحياة ، وهو دفين مذال القبر في العراء ..  
 فلم ينج عبيد الله بن زياد ، ولا عمر بن سعد ، ولا شمر بن ذي  
 الجوشن ، ولا الحسين بن نمير ، ولا خولي بن يزيد ، ولا أحد من  
 أحصيت عليهم ضربة أو كلمة أو مدواً أيديهم بالسلب والمهانة الى الموتى  
 أو الأحياء ..

وبالغ في النقطة فقتل وأحرق ومزق وهدم الدور وتعقب المارين ،  
 وجوزى كل قاتل أو ضارب أو ناہب بكفاء عمله .. فقتل عبيد الله  
 وأحرق ، وقتل شمر بن ذي الجوشن وألقيت أشلاءه للكلاب ، ومات  
 مئات من رؤسائهم بهذه المثلثات وألوف من جندهم وأتباعهم مغرقين في

النهر أو مطاردين الى حيث لا وزر لهم ولا شفاعة .. فكان بلاؤهم بالختار  
عدلا لا رحمة فيه ، وما نحسب قسوة بالآثمين سللت من اللوم أو بلغت  
من العذر ما بلغته قسوة الختار

ولحقت الجريمة الثالثة بأعقاب الجريمة الثانية في مدى سنوات  
معدودات ..

فصمد الحجاز في ثورته أو في تنكره لبني أمية الى أيام عبد الملك بن  
مروان ، وكان أخرج الفريقين من سبق الى أخرج العمالق . وأخرج  
العمالق ذلك الذي دفع اليه – أو اندفع اليه – الحجاج عامل عبد الملك ..  
فنصب المنجنيق على جبال مكة ، ورمي الكعبة بالحجارة والنيران فهدمها  
وعفى على ما تركه منها جنود يزيد بن معاوية .. فقد كان قائده الذي  
خلف مسلم بن عقبة وذهب لحصار مكة أول من نصب لها المنجنيق  
وتصدى لها بالهدم والاحراق ..

وما زالت الجرائم تتلاحم حتى تقوض من وطأتها ملك بني أمية ،  
وخرج لهم السفاح الأكبر وأعوانه في دولة بنى العباس .. فعموا بمقتهم  
الأحياء والموتى ، وهدموا الدور ، ونبشوا القبور ، وذكر المنكوبون  
بالرحمة فتكات الختار بن أبي عبيد ، وتجاوز التأثر كل مدى خطر على  
بال هاشم وأمية يوم مصرع الحسين

لقد كانت ضربة كربلاء ، وضربة المدينة ، وضربة البيت الحرام ، أقوى  
ضربات أمية لتمكن سلطانهم وثبتت بنائهم وتغلب ملوكهم على المنكرين  
والمنازعين .. فلم يتصر عليهم المنكرون والمنازعون بشيء كما انتصروا  
عليهم بضربات أيديهم ، ولم يذهبوا بها ضاريين حقبة ، حتى ذهبوا بها  
مضروبين الى آخر الزمان

وتلك جريمة يوم واحد هو يوم كربلاء .. فإذا بالدولة العristية تذهب  
في عمر رجل واحد مدید الأيام ، وإذا بالغالب في يوم كربلاء أخسر من  
المغلوب اذا وضعت الأعمار المتزوعة في الكفتين

## من الظَّافِرِ؟

غبن أن يفوت الانسان جزاؤه الحق على عمله وخلقه ..  
وأنقل منه في الغبن أن ينقلب الأمر فيجزى المحسن بالاسوء ، ويجزى  
المسيء بالاحسان ..

وقد تواضع الناس منذ كانوا على معنى للتاريخ والأخلاق ، ووجهة  
للشريعة والدين ..

والجزاء الحق هو الوجهة الواحدة التي تلتقي فيها كل هذه المقاصد  
الرفيعة .. فإذا بطل الجزاء الحق ففي بطانته الاخلال كل الاخلال بمعنى  
التاريخ والأخلاق ، ولباب الشرائع والأديان . وفيه حكم على الحياة  
بالعبث وعلى العقل الانساني بالتشوه والخسار

والجزاء الحق غرض مقصود لذاته يحرض عليه العقل الانساني كرامة  
لنفسه ويقينا من صحته وحسن أدائه ، كالنظر الصحيح نحبه هو غرضا  
للبصر يرتاح الى تحقيقه ويحزن لقواته وان لم يكن وراء ذلك ثواب أو  
عقاب ، لأن النظر الصحيح سلامه محبوبة والاخلال به داء كريه  
ولا يستهدف هذا القسطناس المستقيم لمحنة من مخنه التي تزرى بكرامة  
العقل الانساني ، كاستهدافه لها وهو في مصطدم التضحيه والمنافع ، أو  
في الصراع بين الشهداء وأصحاب الطمع والجحيلة ..

ففي هذا المصطدم يبدو للنظرة الأولى أن الرجل قد أضاع كل شيء  
وانهزم ، وهو في الحقيقة غانم ظافر

ويبدو لنا أنه قد ربى كل شيء وانتصر وهو في الحقيقة خاسر مهزوم ..  
ومن هنا يدخل التاريخ أذى مداخله وأينما عن قيمة البحث فيه ، لأنه  
المدخل الذي يفضي الى الجزاء الحق والتبيجة الحقة ، ويتمهي بكل عامل  
أفلح أو أخفق في ظاهر الأمر الى نهاية مطافه وغاية مسعاه في الأمد الطويل

وقد ظفر التاريخ في الصراع بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية بميزان من أصدق الموازين التي تناح لم تحيص الجزء العق في أعمال الشهداء وأصحاب الطمع والجيلة ، فقلما تناح في أخبار الأمم شرقاً وغرباً عبرة كهذه العبرة بوضوح معالها وأشواطها ، وفي تقابل النصر والهزيمة فيها بين الطوالع والخواتم ، على اختلاف معارض النصر والهزيمة ..

فيزيد في يوم كربلاء هو صاحب النصر المؤزر الذي لا يشوبه خذلان..

وحسين في ذلك اليوم هو المخدول الذي لم يطمع خاذله من وراء الظفر به إلى مزيد ..

ثم تقلب الآية أيما اقلاب ..

ويقوم الميزان ، فلا يختلف عارفان بين كفة الرجحان وكفة الخسان ..  
وهذا الذي فصدنا الى تبيينه وجلائه بتسطير هذه الفصول

\* \* \*

وما من عبرة أولى من هذه بالتبين والجلاء لدارس التاريخ ودارس الحياة وطالب المعنى بعيد في أطوار هذا الوجود

ولستا نقول ان الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع بين الشهادة والمنفعة أو بين الإيمان والمارب الأرضية ، فان لهذا الصراع لألواناً متعددة ولا تتكرر على هذا المثال ، وإن له لعناؤه لم تجتمع كلها في طرف الخصومة بين الرجلين ، وأشواطاً لم تتخذ الطريق الذي اتخذته هذه الخصومة في البداية أو النهاية

ولستا نقول ان الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع وتفردتها بارزة مائلة للتأمل والتعقيب ، وهى ان مسألة الحسين ويزيد قد كانت صراعاً بين خلقيز خالدين ، وقد كانت جولة من جولات هذين الخلقين اللذين تجاولاً أحقاباً غابرات ولا يزالان يتباولان فيما بلى من الأحقاب ؛ وقد أسفرا عن نتيجة فاصلة ينفرد لها مكان معروف بين سائر الجولات ، وليس جولة أخرى منها بأحق منها بالتعليق .. التصديق ..

ووجهتنا من هذه العبرة أن يعطى كل خلق من أخلاق العاملين حقه  
بمعيار لا غبن فيه ..

فإذا سعى أحد بالحيلة فخدع الناس وبلغ مأربه فليكن ذلك مغنم  
وكفى ، ولا يتفعه ذلك في استلاب السمعة المحبوبة والعطاف الحالص  
والثناء الرفيع ..

وإذا خسر أحد حياته في سبيل إيمانه فلتكن تلك خسارته وكفى ،  
ولا ينكب فوق ذلك بخسارة في السمعة والعطاف والثناء

فلو جاز هذا لكان العطف الانساني أزيف ما عرفناه في هذه الدنيا  
من الزيوف ، لأن خديعة واحدة تشتريه وتستبقيه . وما من زيف في  
العروض الأخرى الا وهو يتطلّى يوماً وينكشف بقية الأيام ..

\*\*\*

وإذا كان احتيال الإنسان لنفسه معطية كل ما تبهه الدنيا من غنم التفعم  
والمحبة والثناء ، فقد ربح المحتالون وخسر نوع الإنسان  
وإذا كانت خسارة المرأة في سبيل إيمانه تجمع عليه كل خسارة ،  
فالأخمن الفاشل من يطلب الخير للناس ويغفل عن نفسه في طلابه  
فكفى الوائل ما وصل إليه ..

وكثير عليه أن يطمع عند الخلف والسلف فيما ادخرته الإنسانية من  
الثناء والعطاف لمن يكرمونها بفضيلة الشهادة والتضحية ، ويخررون  
وهذا الفيصل العادل أعدل ما يكون فيما بين الحسين وزيد ..

فإذا قيل إن معاوية قد عمل وقد أفلح بالحيلة والدهاء ، فيزيد لم يعمل  
ولم يفلح بحيلة ولا دهاء .. ولكن ورث المنافع التي يشتري بها الأيدي  
والسيوف ، فجال بها جولة رابحة في كفاح الضماائر والقلوب

فينبغى ألا يربح بهذه الوسيلة ، فأما وقد ربح .. فينبغي أن يقف به  
الربح عند ذاك ، وينبغى للعنتر الكاذب والثناء المأجور ألا يحسبا على  
الناس بحساب العنتر الصادق والثناء الجميل  
وقد تزلف إلى يزيد من يتلقون إلى أصحاب المال والسلطان ثم أخذوا

أجورهم ، فينبغي أن يقوم ذلك الثناء بقيمة تلك الأجور وأن يكون ما قبضوه من أجور غاية ما استحقوه ، إن كانوا مستحقين أما أن يضاف ثناء الخلود إلى صفة أولئك المأجورين ، فقد أصبح ثناء الخلود أذن صفة بغير ثمن ، أو هو علاوة مضمونة على صفة كل مأجور ..

ان صاحب الثناء المبذول لا يسأل عن شيء غير العطاء المبذول ، ولكن التاريخ خلائق أن يسأل عن أعمال وأقوال قبل أن يبذل ما لديه من ثناء وليس في تاريخ يزيد عمل واحد صحيح أو مدعى ولا كلمة واحدة صحيحة أو مدعاه ، تقيمه بحيث أراده المأجورون من العذر المهد والمدح العقول ، أو تحوله مكان الترجيح في الموازنات بينه وبين الحسين .. كل أخطائه ثابتة عليه — ومنها بل كلها — خطوه في حق نفسه ودولته ورعاياه . وليس له فضل واحد ثابت ولا كلمة واحدة مأثورة تنقض ما وصفه به ناقدوه وعائبوه

فقد كانت له ندحة عن قتل الحسين ، وكان يخدم نفسه ودولته لو أنه استيقاه حيث ينتهي ويرعايه ..

وكانت له ندحة عن ضرب الكعبة واستباحة المدينة وتسلیط أمثال سلم بن عقبة وعبد الله بن زياد على خلائق الله ..

وكانت له ندحة عن السمعة التي لصقت به ولم تلتصق به افتراء ولا دعاء كما يزعم صنائعه ومأجوروه ، لأن واصفيه بتلك السمعة لم يلصقوا مثلها بأبيه ..

ومن كان حقه في النعمة التي نعم بها معتصباً ينتزعه عنوة ، لا يكن حقه في الفضل والكرامة جزاً لا حسيب عليه

\*\*\*

وتسديد العطف الإنساني هنا فرض من أقدس الفروض على الناظرين في سير الغابرين ، لأن العطف الإنساني هو كل ما يملك التاريخ من جراء ، وهو الثروة الوحيدة التي يحتفظ بها الخلود ..

وأنا لندع الخطأ في سياسة التغفين ، وتنظر اليهم كأنهم مصيرون في  
السياسة بصراء بموقع التدبير

فعلى هذه الصفة - لو تمت لهم - لا يحق لخادم زمانه أن ينمازع  
الشهداء في ذخيرة العطف الخالد ، وهم خدام العقائد التي تتخطى حياة  
الأجيال كما تتخطى حياة الأفراد ..

فإن حرمان الشهداء حقهم في عطف الأسلاف والأخلاق خطأ في  
الشعور ، وخطأ كذلك في التفكير ..

والناس خاسرون إذا بطل عطفهم على الشهداء ، وليس قصارى أمرهم  
أنهم قساة أو جاحدون .. لأن الشهادة فضيلة تروح وتأني وتكثر حيناً  
وتتدر في غير ذلك من الأحيان . أما حب المنفعة فإن سميتها فضيلة فهو  
من الفضائل التي لن تفارق الأحياء أجمعين ، من ناطقة وعجماء

\*\*\*

على أن الطبع الآدمي قد أشربت حب الشهداء والعطف عليهم  
وتقديس ذكرهم بغير تلقين ولا نصيحة ، وإنما تحرف عن سوء هذه  
السنة لعوارض طارئة أو باقية تمنعها أن تستقيم معها . وأكثر ما تأتي  
هذه العوارض من تضليل المنفعة والهوى القريب ، أو من نكسة في الطبع  
تغيره بالضفن على كل خلق سوى وسجية سمعة محيبة إلى الناس عامة ،  
أو من الأفراط في حب الدعوة حتى يغفل المرء من الشهادة استهواه  
لتكليفها واستعظامها المقدوة بها ، فيتهم الشهداء بالهوج ويتعقب أعمالهم  
بالنقد لكيلا يتم لهم نفسة بالجبن والضعف ويستحق المذمة واللوم في رأى  
ضميره . وإن لم يتمتهم بالهوج ولم يتمتهم بالنقد ، وقف من فضائهم  
 موقف ازورار وفتور .. وجنج إلى معدنة الآخرين والتفاهم بينه وبين من  
لا يستشهدون ، ثم يعارضون الشهداء فيما يطمحون إليه

ومعظم المؤرخين الذين يعارضون الشهداء ودعاتهم لغير منفعة أو  
نكسة هم من أصحاب الدعوة المفرطة وأنصار السلامة الناجية ، وينغلب  
على هذه الخلة أن تسليمهم ملكرة التاريخ الصحيح لأنها تفرضهم للخطأ

فـ الحـكـمـ وـالـفـكـرـ ، كـمـاـ تـعـرـضـهـمـ لـلـخـطـأـ فـيـ الـعـطـفـ وـالـشـعـورـ  
وـمـنـ الـمـقـيـنـ عـلـىـ تـارـيـخـ هـذـهـ الـفـتـرـةـ عـنـدـنـاـ – فـيـ الـعـرـيـةـ – مـؤـرـخـ يـتـخـذـ  
مـنـ الـمـثـلـ لـكـلـ مـنـ الـعـذـرـ وـالـعـطـفـ حـيـنـ يـصـلـ الـأـمـرـ إـلـىـ الـاستـشـهـادـ كـراـهـةـ  
لـلـظـلـمـ وـدـرـءـاـ لـلـمـنـكـرـاتـ ، وـهـوـ الـأـسـتـاذـ مـحـمـدـ الـخـضـرـىـ صـاحـبـ تـارـيـخـ  
الـأـمـمـ الـاسـلـامـيـةـ رـحـمـهـ اللهـ ..

فـىـ تـعـقـيـبـهـ عـلـىـ ثـورـةـ الـمـدـيـنـةـ التـىـ قـدـمـنـاـ الاـشـارـةـ إـلـيـهـ يـقـولـ : «ـ اـنـ  
الـانـسـانـ لـيـعـجـبـ مـنـ هـذـاـ التـهـورـ الغـرـيبـ وـالـمـظـهـرـ الـذـىـ ظـهـرـ بـهـ أـهـلـ الـمـدـيـنـةـ  
فـيـ قـيـامـهـ وـحـدـهـمـ يـخـلـعـ خـلـيـفـةـ فـيـ اـمـكـانـهـ أـنـ يـجـرـدـ عـلـيـهـمـ مـنـ الـجـيـوشـ مـاـ  
لـاـ يـمـكـنـهـمـ أـنـ يـقـفـواـ فـيـ وـجـهـهـ .ـ وـلـاـ نـدـرـىـ مـاـ الـذـىـ كـانـوـاـ يـرـيدـونـهـ بـعـدـ  
خـلـعـ يـزـيدـ؟ـ ..ـ أـيـكـوـنـوـنـ مـسـتـقـلـيـنـ عـنـ بـقـيـةـ الـأـمـصـارـ الـاسـلـامـيـةـ ،ـ لـهـمـ خـلـيـفـةـ  
مـنـهـمـ يـلـىـ أـمـرـهـمـ أـمـ حـمـلـ بـقـيـةـ الـأـمـةـ عـلـىـ الدـخـولـ فـيـ أـمـرـهـمـ؟ـ وـكـيـفـ يـكـوـنـ  
هـذـاـ وـهـمـ مـنـقـطـعـوـنـ عـنـ بـقـيـةـ الـأـمـصـارـ وـلـمـ يـكـنـ مـعـهـمـ فـيـ هـذـاـ الـأـمـرـ أـحـدـ  
مـنـ الـجـنـوـدـ الـاسـلـامـيـةـ؟ـ ..ـ اـنـهـ فـتـقـاـ فـتـقـاـ وـارـتـكـبـواـ جـرـمـاـ فـعـلـيـهـمـ جـزـءـ  
عـظـيمـ مـنـ تـبـعـةـ اـتـهـاكـ حـرـمـةـ الـمـدـيـنـةـ ،ـ وـكـانـ الـلـازـمـ عـلـىـ يـزـيدـ وـأـمـيرـ الـجـيـشـ  
أـنـ لـاـ يـسـرـفـ فـيـ مـعـاـلـمـهـ بـهـذـهـ الـعـاـمـلـةـ ..ـ فـاـنـهـ كـانـ مـنـ الـمـكـنـ أـنـ يـأـخـذـهـمـ  
بـالـحـصـارـ ..ـ »ـ

\*\*\*

ويـضـيـلـ إـلـيـكـ وـأـنـتـ تـهـرـأـ كـلـامـ الـأـسـتـاذـ عـنـ هـذـهـ الـفـتـرـةـ كـلـهاـ أـنـ لـدـيـهـ  
أـعـذـارـاـ لـيـزـيدـ وـلـيـسـ لـدـيـهـ عـذـرـ لـأـهـلـ الـمـدـيـنـةـ .ـ لـأـنـهـ يـفـهـمـ كـيـفـ يـغـضـبـ الـرـءـ  
لـمـاـ فـيـ حـوـزـتـهـ ،ـ وـلـاـ يـفـهـمـ كـيـفـ تـضـيـقـ بـهـ كـراـهـةـ الـظـلـمـ وـغـيـرـةـ الـعـقـيـدـةـ عـنـ  
الـاحـتمـالـ ..ـ

وـشـعـورـهـ هـذـاـ يـحـولـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ الـحـكـمـ الصـحـيـحـ عـلـىـ حـوـادـثـ التـارـيـخـ ،ـ  
لـأـنـهـ يـحـولـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ اـتـهـاكـ هـذـهـ الـعـوـادـثـ حـيـثـ تـتـسـتـرـ لـأـمـةـ ،ـ  
وـاسـتـبعـادـهـاـ حـيـثـ هـىـ بـعـيـدةـ عـنـ التـقـدـيرـ  
فـلـمـ يـحـدـثـ قـطـ فـيـ مـواجهـةـ الـظـلـمـ وـاتـرـاعـ الـدـوـلـ الـمـكـروـهـةـ أـنـ شـعـرـ

الناس كما أرادهم الأستاذ أن يشعروا أو فكروا في الأمر كما أرادهم أن يفكروا ..

ومسحيل حدوث هذا أشد الاستحاله ، وليس قصاراً أنه لم يحدث من قبل في حركات التاريخ ..

فهذه الحركات التي تواجه الدول المکروھة لا تنتظر – ولا يمكن أن تنتظر – حتى تربى قوتها وعدتها على ما في أيدي الدولة التي تكرھها من قوة وعدة ..

ولكنها حركة أو دعوة تبدأ بفرد واحد يجترب على ما يهابه الآخرون . ثم يلحق به ثان وثالث ورابع ما شاء له الاقناع وضيق الذرع بالأمور . ثم ما ينالهم من نعمة فيشيغ الغضب وينكشف الظلم عن كأن في غفلة عنه ، ثم يستند العرج بالظالم فيدفعه العرج إلى التخبط على غير هدى ، ويخرج من تخبط غليظ أحمق إلى تخبط أغلاط منه وأحمق .. فلا هم يقونون في امتعاضهم وتذمرهم ولا هو يقف في بطشه وجروته ، حتى يخلو به البطل والجبروت فيكون فيه وهنه والقضاء عليه

وعلى هذا النحو يعرف المؤرخ الذي يعالج النفوس الآدمية ما هو من ضبعها وما هو خلائق أن يتضرر منها ، فلا يعالجاها حق العلاج على أنها مسألة جمع وطرح في دفتر الحساب بين هذا الفريق وذاك الفريق

وعلى هذا النحو تكون حركة الحسين قد سلكت طريقها الذي لا بد لها أن تسلكه ، وما كان لها قط من مسلك سواه

\* \* \*

وصل الأمر في عهد يزيد إلى حد لا يعالج بغير الاستشهاد وما نعا منحاه ..

وهذا هو الاستشهاد ومنحاه . وهو – بالبداية التي لا تحتاج إلى مقابلة طويلة – منحى غير مجرى الحساب والجمع والطرح في دفاتر التجار ومع هذا يدع المؤرخ طريق الشهادة تمضي إلى نهاية مطافها ثم يتناول دفتر التجار كما يشاء .. فإنه لو أجاد في نهاية المطاف أن دفتر التجار لن

يكتب الريح آخرًا إلا في صفحة الشهداء  
فالدعاة المستشهدون يخسرون حياتهم وحياة ذويهم ، ولكنهم يرسلون  
دعوتهم من بعدهم ناجحة متفاقمة فتظفر في نهاية مطافها بكل شيء حتى  
المظاهر العرضية والمنافع الأرضية ..

وأصحاب المظاهر العرضية والمنافع الأرضية يكسبون في أول الشوط  
ثم ينهزمون في وجه الدعاة المستشهدة حتى يخسروا حياتهم أو حياة  
ذويهم ، وتوزن حظوظهم بكل ميزان فإذا هم بكل ميزان خاسرون ..  
وهكذا أخفق الحسين ونجح يزيد ..

ولكن يزيد ذهب إلى سبيله وعقوب أنصاره في الحياة والخطام والسمعة  
بعد بشهور ، ثم تقوضت دولته ودولة خلفائه في عمر رجل واحد لم  
يتجاوز الستين ..

وانهزم الحسين في كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده ولكنه ترك  
الدعاة التي قام بها ملوك العباسين والفاطميين وتعلن بها أناس من  
الأيوبيين والعثمانيين ، واستظل بها الملوك والأمراء بين العرب والقرن.  
والمنود ، ومثل الناس في حالة من النور تخشع لها الأ بصار ..  
وباء بالفخر الذي لا فخر مثله في توارىخ بني الإنسان غير مستثنى  
منهم عربي ولا أعمى وقديم ولا حديث

### أبو الشهداء

فلئن في العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين  
عدة وقدرة وذكرة .. وحسبه أنه وحده في تاريخ هذه الدنيا الشهيد  
ابن الشهيد أبو الشهداء في مئات السنين ..

وأيسر شيء على الضعفاء الهازلين أن يذكروا هنا طلب الملك ليغزوا  
به شهادة الحسين وذويه ..  
 فهو لاءٌ واهبون ضالون مترقبون في الوهم والضلالة ..

لأن طلب الملك لا يمنع الشهادة ، وقد يطلب الرجل الملك شهيداً قديساً ويطلبه وهو مجرم بريء من القدسية ..  
وانما هو طلب وطلب ، وانما هي غاية وغاية ، وانما المغول في هذا الأمر على الطلب لا على المطلوب  
فمن طلب الملك بكل ثمن ، وتوسل له بكل وسيلة ، وسوى فيه بين الغصب والحق . بين الخداع والصدق وبين مصلحة الرعية ومفسدتها ،  
فهي سبيل الدنيا يعمل لا في سبيل الشهادة  
ومن طلب الملك وأباه بالثمن المعيب ، وطلب الملك حقاً ولم يطلب له أنه شهوة وكفى ، وطلب الملك وهو يعلم أنه سيموت دونه لا محالة ، وطلب الملك وهو يعتز بنصر الإيمان ولا يعتز بنصر الجندي والسلاح ، وطلب الملك دفعاً للمظلمة وجلباً للمصلحة كما وضحت له بنور إيمانه وقواه ، فليس ذلك بالعامل الذي يخدم نفسه بعمله ، ولكنه الشهيد الذي يلبى داعي المروءة والأريحة ويطيع وحي الإيمان والقيمة ويضرب للناس مثلاً يتجاوز حياة الفرد الواحد وحياة الأجيال الكثيرة ..  
ومن ثم يقىم الآية بعد الآية على حقيقة الحقائق في أمثل هذا الصراع بين الخلقيين أو بين المزاجين والتاريخيين ..  
وهي أن الشهادة خصم ضعيف مغلوب في اليوم والأسبوع والعام ..  
ولكنها أقوى الخصوم الغالبين في الجيل والأجيال ومدى الأيام ..  
وهي حقيقة تؤيدها كل نتيجة نظرت إليها بعين الأرض أو بعين السماء  
على أن تنظر إليها في نهاية المطاف  
ونهاية المطاف هي التي يدخلها « نوع الإنسان » في حسابه ويوضع  
عليها وشائج عطنه واعجابه . لأنه لا يعمل لوجبات ثلاثة في اليوم ،  
ولا ينظر إلى عمر واحد بين مهد ولحد ، ولكنه يعمل للدوم وينظر إلى  
الخلود ..

## عاشق الجمال

اذا لحقت السيرة بعالم المثال الذي يتطلع اليه خيال الشعراء وتنعنى  
به قرائح أهل الفن ، فقد تزهت عن رقة الجسد وأصبحت صورة من  
الصور المثلث في عالم الجمال ..

ومن آيات الجمال انه يتحدى المتعة ويؤثر البطولة على السلامة ..  
فإذا تعلقت القرحة بالجمال ، فلا جرم تزن الأمور بغدر ميزان الحساب  
والصفقات .. فتعرض عن النعمة وهي بين يديها وتقبل على الألم وهي  
ناظرة اليه ، وتلزمها سجية العشق الآخذ بالأعنة ، فتقاد له ولا تقاد  
لنصيحة ناصح أو عذر عاذل .. لأن المشغوف بالجمال يشده ولا يالي  
ما يلقاه في سيله ..

وقد تمثلت سجية عاشق الجمال في كل شعر نظمه شعراء الحسين  
وذويه تعظيمًا لهم وثناء عليهم .. فلم يتوجهوا اليهم ممدوحين وإنما اتجهوا  
اليهم صوراً مثلـ يهيمون بها كما يهيم المحب بصورة حبيبه ، ويستعدّبون  
من أجلها ما يصيّبهم من ملام ويلام  
وفي معنى كهذا المعنى يقول الكميـت شاعر أهل البيت :

طريـت وما شـوقـا إـلـى الـيـضـ أـطـرب  
وـلـا لـبـا مـنـى ، وـذـو الشـيبـ يـلـعب  
وـلـم يـلـهـنـي دـارـ وـلـا دـسـمـ مـنـزـلـ  
وـلـم يـتـرـبـي بـنـسانـ خـضـبـ  
وـلـا أـنـا مـنـ يـزـجـ الطـسـيرـ هـمـ  
أـصـاحـ غـرـابـ أـمـ تـعـرضـ ثـلـبـ

ولا السانحات البارح عشية  
 أمر سليم القرذ أم أمر أعضب (١)  
 ولكن الى أهل الفضائل والنهاي  
 وخمير بنى حواء . والعير يطلب  
 الى التفر البسيخن الذين بجهم  
 الى الله فيما نالى أقرب  
 بنى هاشم ، رهط النبي . فاتى  
 بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب  
 خفضت لهم منى جنساً مودة  
 الى كتف عطفاء أهل ومرحب  
 يشيرون بالأيدي الى قولهم  
 الا خاب هذا ، والشيرون أخيب  
 فطائفه قد كفرتني بعيسىكم  
 وطائفة قالوا : مسىء ومنذب  
 فما ساءنى تكبير هاتيك منهم  
 ولا عيب هاتيك التي هي أعيوب  
 يسبونى من خبئهم وضلالهم  
 على حبكم ، بل يسخرون وأعجب  
 وقالوا : ترابي (٢) هواه ورائيه  
 بذلك أدعى فيه ————— وألقب  
 على ذاك اجرياً ، فيسركم ضريبي  
 ولو جمعوا طرا على وأجلبوا  
 وأحمل أحقاد الأقارب فيكم  
 وينصب لي في الأعددين فأنصب

(١) السانح : الطير الذي يمر من البارد الى دافعه البارد ، والاعجب :

المكسور

(٢) من كنى على ابن طالب « أبو تراب » وترابي نسبة اليه

وقد مرّ بنا حديث زين العابدين رضي الله عنه ، وهو غلام عليل أوشك  
أن يخبطه الموت بكلمة من عبيد الله بن زياد لأنّه استكبر « أذ تكون  
بـ جرأة على جوابه »

فهذا الغلام العليل قد عاش حتى انعقد له ملك القلوب حيث انعقد  
ملك الأجسام لهشام بن عبد الملك سيد ابن زياد وآلـه ..

وذهب هشام بين جنده وحشمه يصحّي البيت ويتربي الناس ، فلم  
يخلص الى الحجر الأسود لتراحم الحجيج عليه . وانه جالس على كرسيه  
يتنتظر اقاضى الناس اذا بـ زين العابدين يقبل الى الحجر الأسود في  
وقاره وهيـته ، فيفتحـي له الحجـيج ويحفـوا به وهو يستلم الحجر مطمئـنا  
غير معجل .. ثم يعود من حيث أتـى والنـاس مشـيعـوه بالـتجـلة والـدعـاء  
وتهـول رـجـلا من حـاشـية هـشـام هـذـه المـاهـة التـى لم يـرـها مـولاـه فـيـسـأـلـ :  
« من هـذـا الـذـى هـابـه النـاس هـذـه الـهـيـة ! »

ويخشـى هـشـام أـن يـطـلع جـنـده عـلـى مـكـانـة رـجـل لم يـتـطاـول إـلـى مـثـلـ  
مـكـاتـه بـسـلـطـانـه وـعـتـادـه فـيـقـولـ : « لا أـعـرفـه » .. وـهـتـسبـ الجـوابـ  
وـهـذـا الـذـى تـصـدـى لـه شـاعـر آخرـ قد غـامـر بـحيـاته وـنـوالـه ليـقـولـ  
بـالـقصـيدـ المـحـفـوظـ ما ثـقـلـ عـلـى لـسان هـشـام أـن يـقـولـه فـي كـلـمـتين عـاـبـرـتين ..  
وـذـلـكـ هو الفـرـزـدقـ حيثـ قـالـ :

هـذـا الـذـى تـرـفـ الـبـطـحـاء وـطـائـهـ  
وـالـبـيـت يـمـسـرـفـه وـلـلـحـلـ وـالـحـرـمـ  
هـذـا اـبـن خـير عـبـاد اللهـ كـلـمـهـ  
هـذـا الـقـيـقـيـ الـقـيـ الـطـاهـرـ الـعـلـمـ  
هـذـا اـبـن فـاطـمـةـ اـذ كـنـتـ جـاهـلـهـ  
بـجـدـهـ أـنـبـيـاءـ اللهـ قـدـ خـتـمـواـ  
وـلـيـسـ قـوـلـكـ مـنـ هـذـا بـضـائـرـهـ  
الـعـربـ تـرـفـ مـنـ أـنـكـرـتـ ، وـالـعـجمـ

\* \* \*

وتصدى عبيد الله بن كثير لأمير مكة - خالد بن عبيد الله - فلعله  
وهو قادر على قتله لأنه يلعن علينا وحسينا في خطبه ، وأنشد :

لعن الله من يسب علينا وحسينا من سوقة واما  
أيسب المطهرون جدوا والسلام الآباء والأعمام  
يأمن الطير والحمام ولا يا من آكل الرسول عند المقام  
طبت بيتك وطاب أهلك أهلا  
أهل بيتك النبي والاسلام  
رحمة الله والسلام عليه كلما قام قائم بسلام

\* \* \*

وتنقضى السنون وتسامع العربية بشاعر فعل لم يسلم من لسانه أحد ، ولم ينزعه أحدا من المجلدين له أو المتررين عليه عن استحقاق الهجاء .. فكان ينشد الآيات المقذعة ، ويتسأل عن صاحبها فيقول : « لم يستحقها أحد بعينه بعد ، ولسوف يستحقها كثيرون » هذا الشاعر العجيب هو دعبدالعزيز الغزاعي الذي يهز أوتار التفوس بأمثال هذه الآيات في آل البيت :

مدارس آیات خلت من تلاوة  
 ومتزل وحى مقفر العروضات ! . .  
 لآل رسول الله بالخيف من منى  
 وبالركن والتعريف والمحجرات  
 ديار على ، والحسين ، وجعفر  
 وحمزة ، والسباد ذى الثففات (١)

(١) كان علي بن الحسين يلقب ملئ التفاتات لأن جبهته أصبحت كثافة العبر - أي ركبته - من كثرة السجود

ديار غرباها كل جون مبادر  
ولم تف للأيام والسنوات  
إلى أن يقول :

ملامك في أهيل النبي فانهم  
أحباء ما عاشوا وأهل ثقائى  
في سارب زدنى من يقينى بصيرة  
وزد جسم يارب في حسناى  
أحب قصى الرحم من أجمل جسم  
وأهجر فيهم أسرى وبنائى  
لقد حفت الأيام حولي بشرها  
وانى لأرجو الأمان بعد وفاتى  
الم تر أنى من ثلاثين حاجة  
أروح وأغدو دائم الحسرات  
أرى فيهم في غيرهم متقدما  
وأيدיהם من فيهم صفرات  
قال رسول الله نحف جسومهم  
وآل زياد حفل القصرات (١)  
بنات زياد في القصور مصونة  
وآل رسول الله في القلوات !!!  
إذا وتروا مدوا إلى أهيل وترهم  
أكفا عن الأوتار منقضيات !!!

\*\*\*

ووهب على بن موسى الرضا للشاعر جائزة من دراهمه المضروبة  
باسمه وخلع عليه من ثيابه ، فبذل له أهل « قم » ثلاثين ألف درهم  
ليسعهم الخلعة فلن بها . ثم ترصدوا له في الطريق ليأخذوها منه عنوة

(١) القصرة الرقة ، وحفل القصرات أي علات الرقب من السر

تبركاً وذكرى . فسمح بالمال ولم يسمح بالخلعة .. واسترضوه فلم يرض  
 إلا أن يعطوه كما من أكمامها ليدفن معه في كفنه ، وتقسموا الخلعة بينهم  
 فخورين بها غير مبالين ما بذلوه في ثمنها  
 واقتضت فترة لم تطل .. وتسامت العريبة بشاعر آخر أفحى من  
 دعبد وأقدر منه على التصرف بالهجاء والمديح  
 ذلك هو أبو العباس على بن الرومي الذي نسى مددوحيه من آل  
 طاهر وبني العباس ليذكر حق حفيد الحسين يحيى بن عمر الشهيد . ولو  
 كلفه ذكره القتل والحرمان  
 وفي بعض ما ساقه من النذر لأمراه زمانه مهلكة له قلما يفلت منها قائل  
 بحياته ، وذاك حيث يقول من قصيدة العجمية :

غررتم لئن صدقتم أن حالة  
 تدوم لكم ، والدهر لوناذ ، أخرج  
 لعل لهم في منطوى الغيب تأرا  
 سيسمو لكم والصبح في الليل مولع  
 بمجر تضيق الأرض من زفاته  
 له زجل ينفي الوحوش وهزوج (١)  
 يود الذي لا يرى أن سلاحه  
 هنالك خلخال عليه ودملاج  
 فيدرك ثأر الله أنصار دينه  
 والله أوس آخررون وخزررج  
 ويقضى أمام الحق فيكم قضاة  
 مبينا ، وما كل العوامل تخدج

وكل أولئك شاعر ينسى التقوى في مواطن شتى من عمله قوله ولا  
 ينساها في حق الشهداء من آل الحسين وصحبه .. لأنها يحس العمال  
 احساس الشعرا ويهتز « للصورة المثلثي » اهتزاز الأريحية التي ينظم

(١) الهزيمة اختلاط الصوت ، والهزيمة الكبير

بها رواد الخيال . فهم هنا ببرأة من قيود العيش ووسائل الحاجة وأعباء التوازن الأرضية ، يستوحون سلالة القول فيما ينبغي أن يقال .. فيجري على لسانهم لأنهم مسوقون إليه ..

بل كل أولئك شاعر لا يسخو بالدح وهو موصول بالعطاء الجليل ، ثم هو يسخو به للشهداء وألمهم على غير أمل في نوال ، وعلى خوف شديد من العرمان والوبال ..

\* \* \*

وشاعر آخر لم يكن يهجو من الناس هذا أو ذلك ، ولكنه كان سيء النظر بالناس أجمعين .. وكان يقول ما بدا له في الدنيا والدين ، ولكنه يجامل مع المجاملين فلا يقصر عن شأوهם في السابقين أو اللاحقين ذلك هو أبو العلاء المعري حيث قال في الفجر والشفق :

وعلى الدهر من دماء الشهيد  
بن على ونجله شاهدان  
فهما في أواخر الليل فجرا  
ن ، وفي أولياته شفقان  
ثبا في قميص ليجيء العرش  
سر مستعديا إلى الرحمن  
وان وحي الشعر من سرائر التقوس لأصدق حكماء من لسان التاريخ  
اذا اختلف الحكمان ..

ولكتهما قد توافقا معا على مقال واحد .. فجلوا لنا من سيرة الحسين رضى الله عنه صورة الجمال في عالم المثال ، وكذلك يعيش ما عاش في أخلاد الناس ..

عباس محمود

# العقلاني

فاطمة الزهراء والفاتحات  
أهل البيت

دار الكتاب اللبناني - بيروت

## تمهيد

ترد الاشارة الى الوراثة في مواضع شتى من هذه الصفحات التالية ، ونعمل عليها في مناسبات شتى لتفسير بعض الأطوار . ومنها أطوار الجماعات أو أطوار الحركات التاريخية

وأراني أهم بأن أضرب المثل فأبدأ بنفسي وبأثر الوراثة في كتابة هذه الصفحات وكتابة كثير من الصفحات في الموضوعات الإسلامية وما اتصل منها بالعترة النبوية على التخصيص .. ومن أمثالنا في الصعيد الأعلى ما معناه ان البيت اذا احتاج الى الخبر فهو أولى به من الجامع

ولدت لأبوبين من أهل السنة : أبي على مذهب الشافعى وأمى على مذهب أبي حنيفة ، وفتحت عيني على الدنيا وأنا أراهما يصليان ويتيقظان قبل الفجر لأداء صلاة الصبح حاضرة ، وربما زارنا أحد أخوالى في تلك الساعات المبكرة ذاهبا الى المسجد القريب أو عائدا منه الى داره

\*\*\*

وقتحت أذنى كما فتحت عيني على عبارات الحب الشديد للنبي عليه السلام وآلـهـ ، فمولـدـ النبي حفلة سنوية فيـ الـ بـيـتـ تـرـقـبـهاـ نـحـنـ الصـغـارـ وتـفـرـجـ بـهـ لـأـنـاـ نـحـنـ الـقـائـمـونـ بـالـخـدـمـةـ فـيـهـ .ـ وـأـسـمـاءـ النـبـيـ وـآلـهـ تـرـدـدـ بـيـنـ جـوـانـبـ الـبـيـتـ لـلـيلـ نـهـارـ ،ـ لـأـنـاـ أـسـمـاءـ اـخـوتـيـ أـجـمـعـينـ :ـ مـحـمـدـ وـإـبرـاهـيمـ وـالـمـختارـ وـمـصـطفـىـ وـأـحـمـدـ وـالـطـاهـرـ وـيـسـ ،ـ وـشـقـيقـتـيـ الـوـحـيـدةـ اـسـمـهـ فـاطـمـةـ ،ـ وـاسـمـيـ أـنـاـ مـنـسـوبـ إـلـىـ عـمـ النـبـيـ لـاـ إـلـىـ الـأـمـيرـ الـأـسـبـقـ :ـ عـبـاسـ حـلـمـيـ الثـانـيـ كـمـاـ كـانـ يـتوـهمـ بـعـضـ مـعـارـفـ .ـ لـأـنـىـ وـلـدـتـ قـبـلـ وـلـايـتـهـ ،ـ وـأـيـتـ فـيـ الـمـدـرـسـةـ أـنـ الـقـبـ بـلـقـبـ «ـ حـلـمـيـ »ـ جـرـيـاـ عـلـىـ مـاـ تـعـودـتـهـ الـمـدارـسـ فـيـ تـلـكـ الـحـقـبةـ ،ـ وـبـقـيـتـ مـنـسـوـبـاـ إـلـىـ اـسـمـ «ـ مـحـمـودـ »ـ وـهـوـ كـذـلـكـ مـنـ اـسـمـاءـ النـبـيـ ،ـ

ولم يكن لأبي اخوة ، وانما كانت أختاه الشقيقتان تسميان باسم نفيسة  
واسم زينب ، وأولادهم ينادون بالأسماء التي تغلب عليها هذه النسبة  
الشريفة ..

\*\*\*

ورثت هذا الحب الشديد للنبي وآلـه عليهم سلام الله ورضوانه ، وليس  
هذا الحب الشديد بالمستغرب من أهلـ السنـة لأنـهم يدينون بـدـسـتـورـ السـنـة  
الـنبـوـيـة ، ولـكـنـهـ كانـ فـيـ بيـتـناـ أـشـبـهـ بـالـعـاطـفـةـ الـنـفـسـيـةـ مـنـهـ بـالـأـدـابـ الـمـذـهـيـةـ ،  
فـاسـتـفـدـتـ مـنـهـ كـثـيرـاـ فـيـ درـاسـةـ تـارـيخـ الـاسـلـامـ

استـفـدـتـ مـنـهـ اـنـتـىـ كـنـتـ شـدـيدـ التـرـيـثـ فـيـ سـمـاعـ كـلـ دـعـوىـ مـنـ دـعـاوـىـ  
الـسـيـاسـةـ الـقـدـيمـةـ الـتـىـ كـانـتـ تـقـومـ عـلـىـ انـكـارـ حـقـ ، أوـ انـكـارـ فـضـلـ ، أوـ  
انـكـارـ نـسـبـ ، أوـ انـكـارـ مـاـ مـنـ ضـرـوبـ انـكـارـ الـتـىـ تـسـ توـارـيـخـ أـهـلـ  
الـبـيـتـ الـنـبـوـيـ مـنـ بـعـيدـ أوـ قـرـيبـ ..

ولـمـ استـفـدـ مـنـهـ بـحـمـدـ اللهـ كـراـهـيـةـ أـحـدـ ذـيـ حـنـ أوـ ذـيـ فـضـلـ ، لـأـنـ  
قدـاسـةـ الـعـظـمـةـ الـإـنـسـانـيـةـ تـجـبـ عـنـدـيـ جـمـيعـ هـذـهـ الصـفـائـرـ الـتـىـ تمـسـ  
توـارـيـخـ الـعـظـمـاءـ أـجـمـعـينـ ، وـولـمـ بـدـرـاسـةـ توـارـيـخـ الـعـظـمـاءـ مـنـ طـفـولـتـىـ  
الـبـاـكـرـةـ عـصـنـىـ بـحـمـدـ اللهـ مـنـ غـوـائـلـ هـذـاـ الصـفـارـ ..

وـمـنـ أـثـرـ هـذـهـ الـوـرـاثـةـ فـيـ ذـهـنـىـ اـنـتـىـ لـمـ أـصـدـقـ مـاـ كـانـ فـيـ حـكـمـ اـنـوـاقـ  
الـمـقـرـرـ عـنـ سـيـاسـةـ الـإـمـامـ ، وـاـنـهـ لـمـ يـكـنـ لـهـ مـنـ سـيـاسـةـ نـصـيبـ ، فـبـحـثـتـهاـ  
بـحـثـ الـاـشـعـاتـ وـلـمـ أـعـطـهـاـ مـنـ بـادـيـ الرـأـيـ شـأـنـاـ أـكـبـرـ مـنـ الـاـشـعـاتـ الـتـىـ  
تـسـرـىـ عـلـىـ الـأـفـوـاهـ بـغـيرـ دـلـيلـ ، أوـ يـجـيـئـهـاـ الدـلـيلـ الـمـخـلـقـ مـنـ صـنـعـ أـصـحـابـ  
الـمـنـافـعـ وـالـمـأـربـ فـيـ سـيـاسـةـ الـحـاـكـمـ الـفـالـبـ ، فـهـمـ مـدـافـعـونـ عـنـ أـنـفـسـهـمـ باـتـهـامـ  
الـآـخـرـينـ ..

\*\*\*

وـمـنـ أـثـرـ هـذـهـ الـوـرـاثـةـ فـيـ ذـهـنـىـ اـنـتـىـ قـارـبـتـ سـيـرـ الـعـظـمـاءـ الـإـسـلـامـيـنـ  
وـ«ـالـنـبـوـيـنـ»ـ لـأـرـضـيـ ذـهـنـىـ ، وـلـمـ يـقـنـعـنـىـ أـنـ أـرـضـيـ بـهـاـ عـاطـفـةـ لـأـسـتـمـدـ  
مـنـ ذـهـنـىـ شـوـاهـدـهـاـ وـآـيـاتـهـاـ ، فـعـظـمـاءـ الـإـسـلـامـ عـنـدـيـ أـعـلـامـ اـنـسـانـيـةـ باـذـخـةـ

تُخوّلها مكان العظمة مناقب يكبرها المسلم وغير المسلم ؛ ولنست غاية الأمر فيهم إنهم أضرة للتبرك وتلاوة الفاتحة والسلام وبهذه التزعة الموروثة أطرق باب الكلام في حياة الزهراء ، فانها — سلام الله عليها — قد تكتب لها ترجمة لأنها بنت محمد ، أو تكتب لها ترجمة لأنها زوج على ، أو تكتب لها ترجمة لأنها أم الحسن والحسين وبنهما الشهداء ، ولكنها مع هذه الكراهة قد تكتب لها ترجمة لأنها هي فاطمة ، ولأنها هي مصدر من مصادر القوة التاريخية التي تابعت آثارها في دعوات الخلافة من صدر الإسلام إلى الزمن الأخير

\* \* \*

وهذا الذي قصدت إليه بكتابه هذه السيرة ، وبالبحث عن مكان الصلة بينها وبين المتسبين إلى فاطمة ، وعلى قلة الأخبار التي حفظت عن شخص فاطمة عليها السلام أرجو أن أكون على نهج التوفيق فيما أمكنني أن أستخلصه من ملامح هذه السيرة المباركة ومعالجتها  
ونعود إلى الوراثة فنقول : إن أول ما نضيفه إلى بيان قوة اليقين ، أو بيان القوة الإيمانية في نفس الزهراء ، أنها ورثتها من أم وأب ، وقد غطى ميراثها من أبيها على كل ميراث ، ولكنه إذا اقترن بالميراث من أمها فقد بلغت اصالتها مدى متصل الآثار فيما ورثته هي ، وفيما تورثه الأعقاب من بعدها ، وما أخلفه من ميراث

القسم الأول

# فاطمة الزهراء

\* أم الزهراء ..

\* شأتها ..

\* زواجها ...

\* بلاغتها ...

\* في الحياة العامة ..

\* شخصية الزهراء ..

\* الذرية الفاطمية ..

## أُمُّ الزَّهْرَاءِ

حفظ التاريخ لنا قليلاً من أخبار السيدة خديجة - أم الزهراء - رضي الله عنها ، ولكن هذا القليل كاف للتعرف بها ، وبما يمكن أن تورثه بيتها من الخلائق والسبايا ، لأنها يعطينا منها صورة كاملة لا تزيدها الافاضة في الأخبار إلا في التفصيل

ومن جملة الأخبار القليلة التي حفظت لنا نعلم ان الزهراء أنجبتها أم ذات قطنة ورجاحة ، وانها رضي الله عنها كانت غنية اليد غنية النفس بأكرم العواطف الأنثوية : عاطفة المحبة الروحية ، وعاطفة الأمومة ، وعاطفة الإيمان ..

كانت تسمى في الجاهلية بالطاهرة وسيدة نساء قريش ، لأنها جمعت الى مكانة النسب العريق مكانة الثروة الوافرة ومكانة الخلائق الموقرة ، وأهلها جميعاً لم يحفظ التاريخ سيرة أحد منهم الا كان علماً في الحكمة والدراءة أو في الشجاعة والشتم ، كورقة بن نوفل وأسرة الزبير بن العوام

\*\*\*

ولدت لأبوبين كلاهما من أعرق الأسر في الجزيرة العربية ، وكلاهما ينتهي نسبه الى ثؤى بن غالب بن فهر ، بل كانت أمها تتنسب من ناحية أمها كذلك الى هذا النسب المعرق في النبل والسيادة ، فهي فاطمة بنت هالة التي ينتهي نسبها كذلك الى ثؤى بن غالب ، وهالة بنت قلابة التي ينتهي نسبها الى ذلك الجد الأعلى ، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة كما تقدم ، فكانت قافتها الى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين في كثير من الأعوام

وأهم من هذا جبيه بالنسبة الى زوجة نبى ، والى جدة الأئمة من بيت النبوة ، انها كانت مفطورة على التدين وراثة وتربية ..

فأبواها خويلد هو الذى نازع تبعاً الآخر حين أراد أن يتحمل الركن الأسود معه الى اليمن ، فتصدى له ولم يرهب باسه غيرة على هذا النسق من مناسك دينه ، وقال السهيلى في الروض الأنف : « ان تبعاً روع في منامه ترويغاً شديداً حتى ترك ذلك وانصرف عنه » فلا يبعد ان روعة خويلد ومرآه وهو ينذر العاهل بالغضب الالهى اذا أقدم على فعلته قد شغل قلب التبع فتراجى له من المخوفات في منامه ما أرهبه وثناء عن عزمه

\*\*\*

وابن عم السيدة خديجة هو ورقة بن نوفل الذى رجعت اليه حين بدا لها من اضطراب النبي عليه السلام عند مفاجأته بالوحى ما أزعجها ، فركبت الى ورقة تسأله لعله بالدين وعکوفه على دراسة كتب النصارى واليهود ، ولم تكن الكهانة الدينية وظيفة ينتقم بها صاحبها . اذ لم يكن في مكة مسيحيون يرجعون في أمرهم الى كاهن او كنيسة ، وإنما كان عکوف الرجل على دراسة الدين طبيعة فيه توحي اليه الشك في عبادة الأصنام وتتجنح به الى البحث والمراجعة عسى أن يهتدى الى عقيدة أفضل من هذه العقيدة ، وينسب اليه شعر كان يقوله في الجاهلية يشبه شعر أمية بن أبي الصلت ، ويروى كتاب السيرة انه استغرب علم السيدة خديجة باسم جبريل حين ذكرته له ، وقال لها : « انه السفير بين الله وبين آبيائه ، وان الشيطان لا يجرئ أن يتمثل به ولا يتسم باسمه .. »

وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روایات مختلفة ، لايسينا أن تستقصيها . لأن المهم في الأمر هو وجود هذا الشقف بمدارسة الأديان بين بني عم السيدة الأقربين ، فهذا واقرداد آبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن والمخاطرة بنفسه غيرة منه على مناسك الكعبة كافيان للإبانة عن طبيعة التدين التي ورثتها الأسرة ، من كان منهم على الجاهلية ، ومن تحول عنها الى النصرانية

ويؤخذ من أخبار السيدة خديجة الأخرى انها كانت على علم بكل من يطالع كتب المسيحية والاسرائيلية ، لأنها لم تكتف بسؤال ابن عمها بل

سألت غيره من كانت لهم شهرة بالاطلاع على التوراة وكتب الأديان .. وقد روى عنها كلام قاله للنبي عليه السلام حين فاجأه الوحي فعاد إليها ، وقال لها : « لقد خشيت على نفسي ! » فكان كلامها الذي أرادت أن تسرى به عنه وتبثت به جحانة آية على العلم بباب الدين علما يستكثر على الناشئين في أديان العجاهلية ، فإن الدين لا يudo أن يكون عندهم كهانة وسحرا ، ولكنها أدركت من حقيقة الدين مالا يدركه عامة قومها ، فلعلت انه فضيلة واد النبي الجدير أن يندب له هو الرجل الذي اتسم بالفضيلة ، وقالت للنبي وقد آمنت انه وحي وليس بعارض من عوارض الجنة : « كلا ! والله ما يغزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكتب المدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتودى الأمانة »

\*\*\*

علمات للنبوة لا يذكرها كل من يسمع بالدين ، ولو لا أنها عرفت من أبناء عمومتها من كان يفهم النبوة هذا الفهم لما كانت هذه علاماتها لصدق النبوة وصرف الرجل والخشية عن نفس زوجها الكريم وهي على هذا طبيعة مميزة ، وليس طبيعة منساقة إلى السماع والتقليد ، فمما نقل عنها أنها طلبت إلى النبي عليه السلام أن يخبرها إذا جاءه جبريل ، فلما أخبرها قالت له : « قم فاجلس على فخذني اليسرى » ففعل ، فقالت : « هل تراه ؟ » قال : « نعم » . قالت : « فتحول إلى فخذني اليمنى » وسألته : « هل تراه ؟ » قال : « نعم » . فألقت خمارها وسألته ، فقال : « الآن لا أراه .. » قالت : « يا ابن العم اثبت وأبشر ، فإنه ملك وما هو بشيطان »

وهذا الاختبار غاية ما كان يتنتظر من سيدة في عصرها أن تتحسن به حقيقة الوحي . ولا غرابة فيه عند المسلم وعنده غير المسلم في العصر الحاضر ، فإن البديمة لا تشتعل بالوحى الدينى والنظر إلى جسد الآثى في وقت واحد ، ولا سيما بعد الحوار وإعادة السؤال مرة بعد مرة ، فلا

موجب اذ لشك المتشككين من المتحذلقين في صحة هذه الأحاديث وقد رزقت هذه السيدة الباردة صباحة الوجه مع ما رزقته من الخلق الجميل والحسب الأثيل والمال الجزيل ، وصدق من قال ان السعادة لا تتم ، فان هذه السيدة التي تم لها غاية ما تمناه المرأة لم تتم لها نعمة السعادة في حياتها الزوجية ، فانها تزوجت في صباها برجل من هامات مكة هو أبو هالة بن زرارة فمات ولها منه ولد صغير سُمِّي باسم هند ( لعله دفعاً للأذى الحسد ) وهو الذي تربى مع السيدة فاطمة وقتل في جيش الامام في وقعة الجمل على أرجح الأقوال ، ويتوثر عنه أوفي وصف للنبي رواه سبطه الحسن عليهما صلوات الله ..

ثم بني بها عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومي ، وخالفوا في أي زوجيها كان الأول ولكنه على كل حال زواج لم يكتب له الدوام ، وقد أعرضت عن الزواج بعد هذين الزوجين حتى عرض لها في حياتها الرجل الذي أصبحت بفضله علماً من أعلام النساء في التاريخ ، ولا شيء أدل على رجاحة لبّها من أنها في اختيار زوجها ، مع تهافت الخطاب عليها ورجوع الأمر إليها فيما تختار

أما كيف اتصل النبي عليه السلام بالعمل في تجارةها فتکاد الأقوال تتفق على انه كان بشورة من عمه أبي طالب ، وأن أبو طالب قال له في سنة من السنين : « يا ابن أخي . أنا رجل لا مال لي وقد اشتد علينا الزمان ، وهذه غير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخدیجہ بنت خویلد تبعث رجالاً من قومك في عيرها فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت اليك » . وقد تردد النبي في مفاجحتها بهذا الطلب فذهب إليها أبو طالب ، فأجابته على رضى وكراهة ، وقالت له : « لو سألت ذلك لبعيد بغيض لاجبناك ، فكيف وقد سألت لقرب حبيب ؟ »

وقد سافر النبي إلى الشام وباع واشترى وربح لها أصناف ما كانت تربح في كل عام ، وأعجبها منه انه حين عاد من السفر وكل إلى غلامها ميسرة الذي كان يصحبه أن يسبقه ليشرها بعودة القافلة ووفرة كسبها ،

فأكترت منه مروءته وأماته وحذقه ، وأحبته وودت لو يخطبها مع الخطاب ، وعُرِضَت له بذلك في حديث أقرب إلى التلميع منه إلى التصرّح ..

وأحجم النبي حياءً وأحجمت هي عن التصرّح ، ثم أوعزت إلى صديقة لها — هي نفيسة بنت منية — أن تشجعه على الخطبة ، فسألته نفيسة ذات يوم : « ما يمنعك أن تتزوج ؟ » قال : « قلة المال » . قالت : « فاذكرت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة ؟ » قال : « ومن تكون ؟ » قالت : « خديجة ! » قال : « فاذعن فاخطيها »

وروى الزهرى صاحب أقدم السير أن « رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لشريكه الذى كان يتجر معه فى مال خديجة : هلم فلتتحدث عند خديجة ، وكانت تكرهما وتحفهمها ، فلما قاما من عندها جاءت امرأة مستنشقة — هي الكاهنة — فقالت له : جئت خاطبنا يا محمد ؟ فقال : كلا . فقالت : ولم ؟ فواشه ما فى فريش امرأة — وإن كانت خديجة — الا ترك كفوا لها ... »

وأشبه الأشياء بأن يكون — بين الروايات المتعددة — إن النبي عليه السلام كاشف رئيس أسرته أن يتقدم لخطبها ففعل وخطبها خطبة عزيز قوم لعزيزه قوم ، وقال وهو ينفتح عنها في الأمر : « .. إن حمداً من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعلقاً ، وإن كان في المال قل فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك » فقال عنها عمرو ، أو ابن عمها ورقة ابن نوفل في رواية أخرى : « هو الفحل الذي لا يقدر أفقه » . وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ، ولم يتزوج عليها في حياتها إلى أن قارب الخمسين ..

ومن خديجة ولد للنبي جميع أبنائه ما عدا إبراهيم ابنه من مارية القبطية ، وهم : القاسم ، والطاهر ، والطيب ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، أصغرهم باتفاق معظم الآقوال

وكاد النبي عليه السلام عند زواجه بالسيدة خديجة في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، أما السيدة خديجة فمن كتاب السيرة من يقول أنها كانت في الأربعين أو في الخامسة والأربعين ، ومنهم ابن عباس يقول : « أنها كانت في الثامنة والعشرين ولم تتجاوزها ». وأخرى بهذه الرواية أن تكون أقرب الروايات إلى الصحة . لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلمحقيقة عمرها ، ولأن المرأة في بلاد كجزيرة العرب يذكر فيها النمو ويذكر فيها الكبر لا تتصدى للزواج بعد الأربعين ، ولا يعهد في الأغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد ، عدا من جاء في بعض الروايات افهم ولدوا مع من ذكرنا أسماءهم ..

وقد يرجح تقدير ابن عباس غير هذا إن مثل خديجة تتزوج في نحو الخامسة عشرة أو قبلها ، لجمالها ومالها وعراقتهايتها وطمانينة أهلها ، فلا تتجاوز الخامسة والعشرين بعد زواجتين لم يكتب لها طول الأمد ، وإن كما لا نعرف على التحقيق كم من السنين دام زواجها من أبي هالة ومن عتيق بن عائذ ، فمن الكلام عن ذريتها منها يبدو أن أيامها معهما لم تزد على بضعة أعوام ..

« عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .. »

وأمانتنا ألف مصدق على هذه الآية في سيرة الرسول العظيم الذي تنزلت عليه تلك الحكمة الالهية

لقد تأخرت به قلة المال فلم يتزوج قبل العشرين ، خلافاً لما جرى عليه العرف بين عيلية القوم ، وهو من تلك العلية في الذؤابة العليا ولقد عزت الهناة الزوجية على السيدة الفنية الوضيعة الذكية ، فتأتى في نحو الثلاثين

ولو كثُر مال محمد لعله كان يبني قبل العشرين بكربيمة عشر تصغره ببعض سنين ، وكان هذا هو الحظ السعيد في عرف كل إنسان عاقل رشيد ..

ولو تيسرت الهناة الزوجية لخديجة لعلها كانت في غنى عن تجر

لها ويتمنى على قواقلها بين الحجاز والشام ، ولكان لها من مالها ومال زوجها عون في الرحلة والمقام ، وكان هذا هو الحظ الممجد في عرف كل إنسان عاقل رشيد ..  
أيهم كان خيرا ؟ ..

هذا الذي كان كما كان ، أو ذلك الذي كان يحسبه كل عاقل رشيد صفوحة الحظ الحسن الرشيد ؟ !

لم تمض سنوات على هذه الآصرة القدسية التي جمعت بين الزوجين الكريسين حتى طرأ طارىء لم يدخل لها في حساب واستجاش الغيب نفس رسوله فتحفظت لأداء الأمانة العجلني التي جاشت بها جوانح الدنيا مئات السنين ..

فلم يجد محمد إلى جانبه فتاة غريبة تفزع ولا تدرى ما تصنع ، بزوجد إلى جانبه قلبًا كريماً وروحًا عظيمًا وسكنًا تهدأ عنده جائحة ضميره وطمأنه إليه خشية فؤاده ، ولم يكن قصارى الأمان عند حليلته التي سكن إليها أنها حنكة السن وحنان الأمومة ، ولكنه أمان الذي يعرف من نشأته ونشأة آله ما الرسالة وما أمانة الحق والفضيلة ، وما عاقبة الصبر على الرواء التي تندك لها عزائم وتطيش لها أحلام ، ولا يتلقاها كما يتلقى البشرة المفرحة إلا من هو كئو لها من بنى آدم وحواء

وكل ما علمناه من سيرة خديجة عليها الرضوان خليق على قلته أن يجعلها بحق سيدة نساء قريش ، ولكن هذا القليل الذي علمناه لو ذهب كله ولم يبق منه الا أيام حضانتها لبشائر النبوة في مطلعتها — لضمن لها أن تبُوأ مقام السيادة بين نساء العالمين ..

وقد بقى محمد يذكر لها تلك الأيام التي مختتم أيامه ، وظل يتقندها ويتفقد مواطن ذكرهاها أعواماً بعد أعوام ، لقد كان فيها الشغل الشاغل عن أطيب الأيام وأصعب الأيام ، وإن وفاء كهذا له وحده كفاية المستقصى في التعريف بحقها من زوجة بارة وأم رؤوم ، فما من شهادة لانسانة هي أصلق من دوام الوفاء لها في قلب إنسان عظيم

## نَشَأْتُ هَا

اذا وصفت نشأة الزهراء بكلمة واحدة تفني عن كلمات فالجد هو تلك الكلمة الواحدة ..

درجت في دار أبيها ، والدار يومئذ مقبلة على أمر جل لم تجتمع بوادره في غير تلك الدار ، وغار حراء

أمر جل لا تقف جلالته عند جدران الدار ، ولا عند أبواب المدينة التي اشتغلت عليها ، ولا عند حدود العزيرية العربية بمعارها وقفارها ، بل هو الأمر الجلل الذي يطبق العالم بأسره عصورا وراء عصور ، لأنّه هو أمر النّعوة الإسلامية التي كانت يومئذ تختبئ في صدر واحد ، هو صدر أبي الزهراء عليه السلام

ما هذه الصلوات والتسيجات ؟ ما هذه الهيئة بين الأبوين ؟ ما هذا الوجل وما هذا القنوت ؟

أكبر الظن أن الطفلة الصغيرة لم تستغرب شيئاً من هذا لأن الطفل لا يستغرب الأمر الا اذا رأى ما يخالفه ، وهي لم تفتح عينيها على غير هذه البوادر والمقدمات

أكبر الظن ان الزهراء الصغيرة لم تستغرب شيئاً مما كان يحيط بها وهي تدرج من مهدها ، ولكن الطفل الذي يحسب هذه المشاهد من مأله وفاته ينفرد بتألوفات لا تتكرر من حوله ، ويتخذ له قياسا للألفة والغرابة منفردا بين أقيسة النفوس

وأكبر الظن انه ينشأ منطريا على نفسه ، مستخفا بما يخف له الناس من حوله ، متطلبا من عادات التفوس وطبيائعها غير ما يتطلبون .. ولقد أوشكت الزهراء أن تنشأ نشأة الطفل الوحيد في دار أبيها ،

لأنها لم تجد معها غير اخت واحدة ليست من سنتها ، وغير أخيها هند ،  
وهو أكبر منها ومن اختها ، ولم يكن من عادة الطفولة العربية أن يلعب  
البنات لعب الصبيان

وأوشكت عزلة الطفل الوحيد أن تكبر معها ، لأنها لم تكن تسمع عن  
ذكريات أخواتها الكبار الا ما يحزن ويشغل : ماتوا صغارا وخلفوا في  
تعوس الأبوين لوعة كامنة وصبرا مريضا ، أو تزوج من الأخوات الأحياء  
من تزوج وخطب من خطب ، ثم لم تلبث الخطبة أن ردت إلى اختين ،  
لأنهما خطبنا إلى ولدى أبي لهب ، ثم أصبح أبو لهب عدوا للأبوين  
يقتها ويمقتاه ، فاتهت خطبة الأخرين الشقيقين بهذا العداء

جدة من كل جانب تركن إليه ، وانطواء على النفس لا تستغريه  
ولا تحب أن تتبدل ، وملاذها في كل هذا حنان أبوين لا كالآباء : حنان  
جاد رصين ، ونکاد نقول : بل حنان صابر حزين ، يشملها به الأب الذي  
مات أبناؤه ولا عزاء له من بعدهم غير عبء النبوة الذي تأهله زمان  
وتفض به زمان ولا يزال يعاني من حمله ما تنوء به الجبال ، وتشملها  
به الأم التي جاوزت الأربعين وبقيت لها في خدرها هذه البنية الدارجة  
صغرى ذرتها ، والحنان على الصغرى من الذرية بعد فراق الذرية كلها  
يالموت أو بالرحلة حنان لعم الحق صابر حزين

ولقد نعمت الزهراء بهذا الحنان من قلبين كبارين : حنان أخرى به أن  
يعلم الوقار ولا يعلم الخفة والمرح والانطلاق

وتعلمت الزهراء في دار أبوها ما لم تتعلم طفلا غيرها في مكة : آيات  
من القرآن وعادات ياباها من حولهم العابدون وغير العابدين  
ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يتعلمه غيرها من البنات في حاضرة  
الجزيرة العربية ، فلا عجب أن نسمع عنها بعد ذلك أنها كانت تضمد  
جراح أيها في غزوة أحد ، وأنها كانت تقوم وحدها بصنيع ييتها ولا يعينها  
عليه أحد من النساء في أكثر أيامها

ويبدو لنا انطواء الزهراء على نفسها من الأحاديث المروية عنها ، فلم

تعرض قط لشيء غير شأنها وشأن بيتها ، ولم تحدث قط في غير ما تأسّل  
عنه أو يلتجئها إليه حادث لا ملجأ منه ، فلا فضول هنالك في عمل ولا في  
مقال ..

\* \* \*

وسواء صح ما جاء في الأنبياء عن محاجتها للصديق بالقرآن الكريم أو  
كان فيه مجال للمراجعة ، فالصحيح الذي لا مراجعة فيه أنها سمعت  
القرآن الكريم من النبي وسمعته من على ، وأنها صلت به ووعلت أحكام  
فرائضه ، وأنها وعلت كل ما وعلته فتاة عربية أصيلة العرق والنسب ،  
وزادت عليه ما لا يعيه غيرها من الأصوليات المعرفات

لقد نشأت نشأة جد واعتكاف : نشأة وقار وأكتفاء ، وعلمت مع  
السنين أنها سليلة شرف لا منازع لها فيه من واحدة من بنات حواء فيمن  
تراء ، فوثقت بكفاية هذا الشرف الذي لا يدانى ، وثبتت بين انطوالها  
على نفسها وأكتفائها بشرفها لأنها في عزلة بين أبناء آدم وحواء

سكتت هذه النفس التورية جثمانا يضيق بيقونها ، وقلما رزق الراحة  
من اجتمع له النفس القسوة والجثمان الضعيف ، فانهما مزيف متعب  
للنفس والجسم معا ، لا قوام له بغير راحة واحدة : هي راحة الإيمان ،  
وهذا هو التوفيق الأكبر في نشأة الزهراء ، فإنها نشأت في مهد الإيمان  
إذ هو ألزم ما يكون لها بين قوة نفسها وتحول جثمانها

## زَوْجُهَا

قال الورقاني في شرح المواهب اللدنية : « إن عبد الله بن حسن دخل على هشام بن عبد الملك وعنده الكلبي فقال هشام لعبد الله : يا أبا محمد ! كم بلغت فاطمة من السن ؟ قال : ثلاثين سنة ، فقال الكلبي : خمساً وثلاثين . فقال هشام : اسمع ما يقول ، وقد عني بهذا الشأن . فقال : يا أمير المؤمنين : سلني عن أمي وسل الكلبي عن أمها »

وبوافق هذه الرواية روايات متعددة ، اتفقت على أن الزهراء ولدت في سنة بناء الكعبة قبلبعثة المصطفى ببعض سنوات ، فأصبح الأقوال بين الأخبار المتضاربة أنها عليها السلام قد تزوجت وهي في نحو الثامنة عشرة ومن جملة الأخبار يتضح أن النبي عليه السلام كان يقبّلها على رضي الله عنه . فقد خطبها أبو بكر وعمر فردهما وقال لكل منهما : انتظرا بها القضاء ، أو قال أنها صغيرة كما جاء في سنن النسائي

وفي أسد الغابة أنها لما خطبها أبو بكر وعمر وأبي رضي الله قال عمر : « أنت لها يا على ! » فقال على : « مالي من شيء إلا درعى أرهنها » فزوجه رسول الله فاطمة ، فلما بلغ ذلك فاطمة بكت ، ثم دخل عليها رسول الله فقال : « مالك تبكّين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماء وأفضلهم حلما وأولهم سلاما »

وفي رواية أن علياً لما سأله النبي : « هل عندك من شيء ؟ » قال : « كلام ». فقال له : « وأين درعك الحطميمية ؟ » أي التي تحطم السيف ، وكان النبي قد أهداه إياها ، فباعها وباع أشياء غيرها كانت عنده ، فاجتمع له منها أربعمائة درهم ..

جاء في أنساب الأشراف للبلذري : « فباع بعيرا له ومتاعا بلغ من ذلك

أربعين درهما وثمانين درهما ويقال أربعين درهم ، فأمره أن يجعل ثلثا في  
الطيب وثلثا في الماء ففعل ..

ثم استطرد صاحب الانساب الى رواية أخرى ، يرتفع سندها الى على<sup>١</sup>  
نفسه قال : « سمعت عليا عليه السلام يقول : « أردت أن أخطب الى  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته فقلت : والله مالي شيء ، ثم ذكرت  
صلته وعائذته فخطبتيها اليه » فقال : « وهل عندك من شيء ؟ » قلت :  
« لا » قال : « فأين درعك التي أعطيتك يوم كذا ؟ » قلت : هي عندى !  
قال : فاعطها ايها »

وفي طبقات ابن سعد أن رسول الله قال لما خطب أبو بكر وعمر فاطمة :  
« هي لك يا علي ! لست بidal (بدجال) » يعني لست بكذاب . وذلك أنه كان وعد  
عليها بها قبل أن يخطبها

ويروى عن النبي أنه قال لفاطمة : « ما أليت أن أزوجك خير أهلى »  
وجهزت وما كان لها من جهاز غير سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها  
ليف وتورة من أدم (أنا يفسل فيه) وسقاء ومنخل ومنشفة وقدح  
ورحاءان وجراجتان ..

وعن أنس بن مالك أن النبي قال له : انطلق وادع لي أبي بكر وعمر  
وعثمان وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار ، قال فانطلق فلم يعثروا عليهم ،  
فلما أخذوا مجالسهم قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله المحمود بنعمته  
التي بقدرته ، المطاع لسلطانه ، المهروب إليه من عذابه ، النافذ أمره في  
أرضه وسمائه ، الذي خلق الخلق بقدرته ونيرهم بأحكامه وأعزهم بيده  
وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم . إن الله عز وجل جعل المصاهرة  
نسبة لا حقا وأمرا مفترضا وحكم عادلا وخيرا جاما ، أو شج بها الأرحام  
وألزمها الأئم . فقال الله عز وجل : وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله  
نسبة وصهرها وكان ربك قديرا ، وأمر الله يجري إلى قضائه ، وقضاؤه  
يجري إلى قدره ، ولكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنه أم  
الكتاب ، ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من على<sup>٢</sup> وأشهدكم ألى

زوجت فاطمة من على<sup>\*</sup> ، على أربعائة مثقال فضة ان رضى بذلك على السنة القائمة والفرضية الواجبة ، فجمع الله شملهما وبارك لها وأطاب نسلهما ، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم »

قال أنس : « وكان على عليه السلام غائبا في حاجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه فيها.. ثم أمر لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا ، فقال : اتهبوا . في بينما نحن كذلك اذ أقبل على قبسم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ياعلى ! ان الله أمرني أن أزوجك فاطمة ، وانى زوجتكما على أربعائة مثقال فضة ، فقال على : رضيت يا رسول الله ! ثم ان عليا خر ساجدا شكر الله ، فلما رفع رأسه قال الرسول صلى الله عليه وسلم : بارك الله لكما وعليكم وأسعد جدكم وأخرج منكم الكثير الطيب »

قال أنس : « والله لقد أخرج منها الكثير الطيب »

ومن المرجح جدا أن الزهراء قد استشيرت في زواجهما على عادة النبي عليه السلام في تزويج كل بنت من بناته كما جاء في مسند ابن حنبل ، فيقول لها : فلان يذكرك ، فان سكتت أمضي الزواج ، وان نترت الستر علم أنها تأباه ، وفي زواج الزهراء قال لها : يا فاطمة ! ان عليا يذكرك . فسكتت ، وفي روايات أخرى أنه وجدها باكية ، فذاك حيث قال رسول الله : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما »

ولم يجمع كتاب السيرة على الوقت الذي تم فيه الزواج ، ولكنهم قالوا انه كان بعد الهجرة ، وبعد غزوة بدر .. وأرجح الأقوال كما قدمنا انها كانت في نحو الثامنة عشرة ، وزوجها أكبر منها ببعض سنوات ..

\* \* \*

توخينا في اقتباس هذه الأخبار أن نرجح منها الأوسط الأمثل بين أقوال الرواة والمحدثين ، فما من خبر من هذه الأخبار وصل اليانا في كتب السيرة على رواية واحدة ، وقد يبلغ الفرق في بعض المسائل التي تتعلق بالزمن

خمس سنوات أو أكثر ، ويبلغ الفرق في بعض المسائل التي تتعلق بالأقوال والأعمال أن تتناقض مناقضة القبول والاباء والرضى والانكار ، فلا مناص من الأخذ بالأوسط الأمثل بين جميع هذه الأقوال

ونحن نعني بالأوسط الأمثل أن يكون الترجيح قائما على المقابلة والموازنة والرجوع إلى حوادث الزمن وعادات أهله ، وإلى الأخرى أن يصدر مئن أنسد اليهم القول أو ثسب اليهم العمل .. فان الأخبار اذا تساوت رجح بينها ما هو أشبه بالزمن وأهله وأصحاب السيرة فيه

فمن المعمول مثلاً أن يؤثر النبي عليا بفاطمة وهما ربيان في بيته واحدة ، ومن المعمول أن يؤثر زواجها من على على مشاركتها في بيت أبي بكر وعمر لزوجات الشيدين ، ومن المعمول أن يتعدد على في خطبتها لفقره . ولا يخالف المعمول ولا المأثور أن يقدم بعد تردد ، لشعوره بأنه مخصوص بها وأنه ينبغي عليه أن يقطع الشك باليقين ويعمل من عنده مالا يبد له من عمله ، ولا يخالف المعمول ولا المأثور كذلك أن يتأخر الزواج إلى ما بعد الهجرة ، لأن حياة المسلمين في مكة – قبل الهجرة إلى المدينة – لم تكن حياةً آمنة ولا استقرار ، ولم يكن من النادر أن يهاجر المسلمون بزوجاتهم إلى بلد بعيد كالحبشة كلما ملأوا وسائل الهجرة ، فمن كان متزوجا قبل اشتداد العنت على المسلمين فلا حيلة له في الزواج ، ومن لم يكن فليس أخلاق به من ارجاء الزواج إلى حين

ذلك كله هو المعمول المأثور ، وهو الأوسط الأمثل اذا تساوت الأخبار ووجبت الموازنة والترجح

الا أن التاريخ يكتب للأعيار ، ولا يقصد من الاعتبار به شيء أهم من تصحيح النظر إلى الحوادث والناس ، واستخلاص الحقيقة بما يقع ولا يقع وما يجوز ولا يجوز

وها هنا محل لبرتين كاظم العبر في كتابة التاريخ : كتابته في الأزمنة القابرية ، وكتابته في الزمن الحديث

فأاظم العبر التي تستخلص من توارييخ عصر البعثة المحمدية أن يقتضي

ذوو الأحكام التاريخية في المسائل الكبرى فلا يرتبوا حكمًا قاطعاً في مسألة كبيرة على أرقام السنين وألفاظ الروايات ، فما كان من الأخبار مجمعاً عليه أو مقارباً للجماع فهو جدير باتخاذ الأحكام الجازمة فيه ، وما كان ميزان الحكم فيه كلمة تقابلها كلمات ، أو فرض تقابله فروض ، أو رقم ويوم تقابلها أرقام وأيام بل أعوام ، فليس من القصد أن يعطى فوق معياره من العزم واليقين ، وبخاصة حين يبني عليه اتهام أو قضاء لا يقوم في مسائل كل يوم بغير بينة تنهي كل شبهة وتبطل كل مجال

أما العبرة في تاريخنا المصري فمرجعها إلى كتابة طائفة من المصريين يزعمون أنهم يطبقون علم العصر على تاريخنا القديم وأنهم يصححونه بهذا التطبيق ، وليس أعجز منهم عن تحقيق هذه الدعوى ، لأنهم أثبتوا فيما كتبوه أنهم يزنون بميزانين وينظرون بعينين ، ويختلفون أسباب التشويه والتحريف ..

أولئك هم طائفة المستشرقين الذين يجمعون بين الاستشراق والتبيير فمن هؤلاء من بطالع في الكتب الدينية التي يصدقها فيقرأ فيها من أخبار الدعاء والأدعية أموراً لا شئ في أنها من العيوب فلا يحسبها عيوباً ، ولا يتافق منها ، بل يعنت فكره ويعتها تخريجاً وتعويجاً حتى يقبلها ، ويفرض قبولها على الناس ..

فإذا طالع كتاباً عن أصحاب دين غير دينه لم يأخذ نفسه بمثل هذا التحسين والترف ، بل أخذها على النقيض من ذلك بالمسخر والتشويه وتحويل المحسن إلى عيوب ، أو بالتنقيب في كل مكان عما يعاب أن لم يوجد ما يعيبه في ظاهر السطور والعرف

ومامن شيء يمسخ الدين ويمسخ العلم معاً كما يمسخهما هذا الخلق الظالم ، فإن الدين لا يعلم الإنسان شيئاً أن لم يعلمه حب الصدق واجتناب التمحل والافتراء ، وإن العلم شر من الجهل أن كان يسمو الإنسان أن يغمض عينيه لكيلاً يرى ويوصد أذنيه لكيلاً يسمع ، فليس هذا جهلاً يزول بكشف الحقيقة ، ولكنه مرض يعتمد حجب الحقيقة عن صاحبه وهي

مكشوفة لديه ، فهو شر من الجهل بلا مراء  
وفي تاريخ الزهاء مثال للعبرة التي تستخلص من كتب هؤلاء «العلماء»  
الذين هم شر من الجهلاء ، وأحدهم قد خصص كتاباً بتاريخ الزهاء يحاول  
فيه جهده أن «يطبق» ذلك العلم المصرى المقلوب ، فاذا هو منقلب  
عليه ..

يُؤلف رجل من رجال الدين المستشرقين الذين عاشوا زمناً في الشرق —  
كتاباً عن الزهاء ليرضى فيه ذلك «العلم المصرى» المقلوب ، ويبحث عن  
العيوب حيث لا عيوب ، فاذا العيب هو في الاسفاف ، وكم في الاسفاف من  
عيوب ، بل من ذنوب

ومن تقاهاته وسفاسفه أنه يحاول جهده أن يثبت أن السيدة فاطمة  
لم تزوج قبل الثامنة عشرة لأنها كانت محرومة من الجمال ، ولم تصدق  
أن أحداً يخطبها بعد تلك السن ، ثم يقول أنها لما عرض عليها النبي الزواج  
من على سكتة هنية ، ولكنها لم تسكت خجلاً بل دهشة من أن يخطبها  
خاطب ، ثم تكلمت فشكّت ، لأنها تزوج من رجل فقير ! ..

لو كان السند الذي استند إليه هذا «العالم» واضحاً ملزاً لقلنا  
انها أمانة العلم ، ولا حيلة للعالم في الأمانة العلمية .. !

لكن السند كله قائم على أن السيدة فاطمة تزوجت في الثامنة عشرة من  
عمرها ، وتقابله اسناد أخرى تنقضه وتتراءى للمؤلف حينما نظر حوله  
ولكنه لا يحب أن يراها ، لأنه يحب أن يرى ما يعيّب ولا يحب أن يرى  
مala عيّب فيه ..

فالمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة ولدت لأبوين جميلين ، وأن أخواتها  
تزوجن من ذوى غنى وجاه ، كأبي العاص بن الربيع وعثمان بن عفان  
وليس من المألوف أن يكون الأباون والأخوات موصوفين بالجمال ؛ وأن  
تحرمه احدى البنات ..

والمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة بلغت سن الزواج والدعوة الحمدية  
في، ايامها ، والمسلمون بين مهاجر أو مقيم غير آمن ، والحال قد تبدل بعد

الدعوة المحمدية فأصبحت خطبة المسلمات مقصورة على المسلمين ، وهؤلاء المسلمين قلة منهم المتزوج ومنهم من لا طاقة له بالزواج ، فلاحاجة بالمؤلف الى البحث الطويل ليهتدى الى السبب الذى يؤخر زواج بنت النبي الى الثامنة عشرة ، ولو كانت أجمل العجيلات ..

وفي وسعه كذلك أن يتصور أن النبي يخص بها ابن عمه ، ويتنظر بها يوم البت حين تهدأ الحال ويستعد ابن عمه للزواج ويستقر على حال بيته وبين آله الذين لا يزالون على دين الجاهلية ، فلا هم في ذلك الوقت ذووه ولا هم بعده عنده ..

كل ذلك قريب كان في وسع « العالم المحقق » أن يراه تحت عينيه ، قبل أن يذهب إلى العلة التي اعتقدها لتأخير الزواج ، فلا يرى له من علة غير فقدان الجمال .. ولكن الأسباب الواضحة القريبة لا يلتفت إليها لأنها لا تuib ، والسبب الخفي بعيد تشويه غاضبة ، فهو الجدير أذن بالالتفات وكأنما كان « العالم المحقق » في حاجة إلى جهالة فوق جهالته فهو يفهم من بكاء السيدة فاطمة انه شكایة من قدر على بن أبي طالب ، ويستند هذا القول إلى رواية البلاذري في أنساب الأشراف ، بعد زعمه أن فاطمة أبلغت زواجها على فسكت من الدهشة لا من الخجل ، وإنما دهشت لأنها لم تكن تصدق أن أحدا يخطبها بعد أن قاربت العشرين

أفمن المؤلف أو من التطبيق العلمي أن تكون الفتاة يائسة من الزواج ، مدحوشة من خطبة الخطيب ، ثم تتخل العلل وتفرض الشروط و تستعظام نفسها على بنى عمومتها الفقراء ، وليس لها يومئذ من الأغنياء ؟

كلا ! ليس ذلك بالمؤلف ولا بالتطبيق العلمي ، ولكنه تمحل للظن فضيلته الكبرى أنه يشتمل على مساس بفاطمة وعلى ... فهو أذن أحقر بالترجيح من كل تقدير مؤلف

والبلاذري - بعد - لم يذكر شيئا من هذا وليس في كلامه عن مناقب على أو فاطمة شيء من قبيل العواب الذى ينسب إلى الزهراء غير روايته للحديث بسنده وهو : « حدثنا عبد الله بن صالح عن شريك عن أبي اسحاق

عن جيشى بن جنادة قال : لما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة أرعدت فقال : اسكتى ! فقد زوجتك سيدا في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين » ..

وهذا ما وجدناه في النسخة المنشورة من مخطوطه الاستانة ، ومن الأجزاء المطبوعة في أوربة ، فتفسير « الرعدة » بذلك المعنى انما هو من ابداع المؤلف الحصيف ! ..

هذا مثال من تحقيق هؤلاء المحققين حين يكتبون عن تاريخ أعلام الشرق وحوادثه ، نمر به لعبرته النافعة في وزن التوارييخ العصرية المزعومة ، ولا تنبه اليه لقول قائل ان السيدة فاطمة كانت محرومة من الجمال .. فانه لو صح لما كانت فيه مهانة على سيدة شرفتها أكرم الآيات كما شرفها أكرم البنوات ، ولكننا ننبه اليه لأنها عبرة للمعتبرين فيما يصنعه العقل بنفسه حين يمسخه مرض الأهواء ، فيفترى على العلم والدين ماتباه أمانته العلم ، ويعافه أدب الدين ..

ونعود الى قياس الأخبار بالموازنة أو بما هو مألف ومعقول ، فنقول اتنا بحثنا عن خبر من أخبار زواج البنات في آل محمد وآل علي ، فلم نجد في عصر النبوة غير خبر واحد من قبيل الخبر الذى قيل فيه أن السيدة فاطمة أشارت الى فقر على حين بلغت خطبته لها ، وهو تزويج السيدة أم كلثوم ..

وبين الخبرين ، مع هذا ، بون بعيد ..

جاء في أسد الغابة عن حسن بن علي بن أبي طالب أنه قال : « لما تأيمت أم كلثوم من عمر بن الخطاب دخل عليها حسن وحسين أخوها فقاولا : « إنك من قد عرفت سيدة نساء المسلمين وبنت سيدهن ، وإنك والله إن أمكنت عليا من رمتك لينكحنك بعض أيتامه ، وإن أردت أن تصيبني بنفسك مالا عظيما لتصيبني » ، فواه ما قاما حتى طلع على يتكلى عنه عصاه ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه وذكر منزلتهم من رسول الله وقال : قد عرفتم منزلتكم عندي يا بني فاطمة وأثرتكم على سائر ولدى

لكانكم من رسول الله عز وجل ، فقالوا : صدق رحمة الله ، فجزاك الله  
عنة خيرا . فقال : أى بنته ! أذ الله عن وجّل قد جعل أمرك بيده ، فأنا أحب  
أن يجعليه بيدي . فقالت : أى أبه ! انى امرأة أرغم فيما يرغب فيه النساء  
وأحب أن أصيّب مما تصيب النساء من الدنيا ، وأنا أريد ان انظر في أمر  
نفسى . فقال : لا والله يابنتي ! ما هذا من رأيك . ما هو الا رأى هذين !  
ثم قام فقال : والله لا أكلم رجالاً منها أو تفعلين ، فأخذها بشيشه فقالا : اجلس  
يا أبة ، فوالله ماعلى هجرتك من صبر . اجعلى أمرك بيده . فقالت : قد  
 فعلت ! قال : فاني قد زوجتك من عون بن جعفر ، وانه لغلام ، وبعث لها  
بأربعة آلاف درهم »

هذه المؤامرة المحبية بين أخرين وأختهما ليسعداها بزواج أرغد من  
الزواج الذي يختاره أبوهم – تتهيى بطاعة الجب للاب الذي لا يصبر على  
غضبيه وتدل في سرها وعلانيتها على أجمل ما يكون بين الأخوة والآباء من  
عطف وتقدير.. وليس فيها من الشبه برواية البلاذري غير اشفاق الفتاة من  
عيشة الصنائع دون أن يكون هناك خطيب معروف تقابل خطبته بالاعتراض  
والراجحة ، وشتان مقال أم كلثوم ومارواه الرواة عن أمها البطل

فإذا كان للخبر الذي جاء في أنساب الأشراف أصل يعود عليه فأصله  
فيما هو مألف ومعقول أن يكون النبي عليه السلام قد وجد الزهراء باكية  
وليس في ذلك من غرابة ، لأننا لا تخيل فتاة في مثل موقعها لا يبكىها ما تثيره  
في نفسها ذكرى أمها ووداع بيت أبيها ، وقد فارقتها أمها وهي صبية تدرك  
ما فقدته من عطفها وبرها والطافقها لها في رخائتها وعسرها ، ثم يكون يوم  
الفصال في غريبة من الأم ومن البيت الذي لزمتها فيه ومن البلد الذي يحتويه  
فإن جهدنا أن تخيل فتاة لا تبكي حين تحوم بنفسها تلك الذكريات وتقترب  
من اليوم الفاصل بين معيشتها في كتف أبيها ومعيشتها في غير كتفه ، فموقع  
الغرابة أذ تخيلها بعد الجهد غير باكية وغير آسية ، ولا سيما من كانت  
مثل الزهراء مجبرة على مزاج حزين وأسى دفين على أمها العزيزة لم يفارقها  
مدى السنين ..

ومثل النبي الذى كانت كبرى فضائله انه انسان عظيم ، وانه كان أبا مكلوم المؤاد ، لن يقوته ذلك الخاطر في ذلك اليوم ، ولن يسكت عنه الا عامدا عالما بما يلجه في النفس من الحزن والشجن ، فمن اللطف بالفتاة الحزينة أن يتحاشاه وأن يجعل عزاءه لها ما قاله عليه السلام : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما » ..

ولم يمض غير قليل حتى تبين لنا سبب من الأسباب التي أطلالت بقاء فاطمة في بيت أبيها ، فإنه عليه السلام كان يحنو عليها لضعفها وحزنها ولا يصبر على فراقها ، فلما تحولت عن داره بعد زواجه لم تمض أيام حتى ذهب إليها فقال لها : انى أريد أن أحولك الى . فقالت : فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عنى . قال رسول الله : قد تحول حارثة بن النعمان عنا حتى استحيت منه ، فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء النبي فقال : يا رسول الله ! انه بلغنى انك تحول فاطمة اليك ، وهذه منازلى ، وهي أسبق بيوت بنى التجار بك ، وانما أنا وماى الله ولرسوله ، والله يا رسول الله للمال الذى تأخذ منى أحب الى من الذى تدع . فقال رسول الله : صدقت . بارك الله عليك ! فتحولها رسول الله الى بيت حارثة

جاء في كتاب السمهودي عن أخبار دار المصطفى : « ان بيت فاطمة رضي الله عنها في الزور الذي في القبر بينه وبين بيت النبي صلى الله عليه وسلم خوخة ... وكانت فيه كوة الى بيت عائشة رضي الله عنها ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام اطلع من الكوة الى فاطمة فعلم خبرهم ، وان فاطمة رضي الله عنها قالت لعلى ان ابني أمسيا عليين فلو نظرت لنا ادما نستصبح به ! فخرج على الى السوق فاشترى لهم ادما وجاء به الى فاطمة ، فاستصبحت ... فأبصرت عائشة المصباح عندهم في جوف الليل - وذكر كلاما وقع بينهما - فلما أصبحوا سألت فاطمة النبي صلى الله عليه وسلم أن يسد الكوة فسدها »

الى أن قال ما خلاصته من جملة أساينده : « انه صلى الله عليه وسلم

كان يأتي باب على فاطمة وحسن وحسين كل يوم عند صلاة الصبح حتى يأخذ بعضاً مني الباب ويقول : السلام عليكم أهل البيت ، ويقول : الصلاة ! ثلاثة مرات ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطردكم تطهيرا ... وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصل في ركعتين ، ثم يتنى بفاطمة ، ثم يأتي بيته نسائه

« وأسندي يعني عن محمد بن قيس قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر أتى فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث ، فخرج مرة في سفر وصنعت فاطمة مسكنتين من ورق ( بكسر الراء ) وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدمه إليها وزوجها ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها ووقف أصحابه على الباب لا يدركون أبقيعون أم ينصرفون لطول مكثه عندها ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عرف الغضب في وجهه حتى جلس على المنبر ، ففُضلت فاطمة أنه فعل ذلك لما رأى من المسكنتين والقلادة والستر .. فنزعوا قرطيها وقلادتها ومسكتها ونزعوا الستر وبعثت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت للرسول : قل له تقرأ علينا ابنتك السلام وتقول لك : اجعل هذا في سبيل الله . فلما أتاه قال : قد فعلت ، فداها أبوها ، ثلاثة مرات ، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء »

\* \* \*

وانتظمت الحياة في السكن الجديد الذي أوى إلى ظل النبي على مثال من حياة النبي في بيته : عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليها رب البيت وربته ، إذ كان رزق على من وظيفة الجندي ، ووظيفته من في الجماد ، وقد كان قليلاً في حياة النبي وهو مقصور على الجزيرة العربية ، فكان نصيب على منه أقل من أن يتسع لأجرة الخدم ، وكلما رزق ولیدا جاءته حصته على قدر ، شأنه كشأن كل أب من المسلمين

وما لبث البيت الصغير أن سعد بالذرية ، وقد رزق الأبوان الفقيران

نضيماً صالحاً من البنين والبنات : الحسن والحسين ومحسن ، وزينب  
وأم كلثوم ..

وكان أسعد ما يسعدان به عطف الأب الأكبر الذي كان يوالهم به  
جيئوا ولا يصرفه عنه شاغل من شواغله الجسم في محشم الدعوة  
والجهاد ، وقد أوشكت كل كلمة قالها في تدليل كل وليد أو الترحيب به  
أن تصبح تاريخاً محفوظاً في الصدور والأوراق

فلما ولد الحسن سماه والداه حرباً فجاء رسول الله فقال : أروني ابني  
ما سميتهم ؟ قالوا : حرب ! قال : بل هو حسن ، وهكذا عند مولد  
الحسين ، وعند مولد المحسن ، وقد مات وهو صغير

وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه ، فربما شوهد وهو يعلو بقدمه  
الصغيرة حتى يلعن بها صدر النبي ، والنبي يرقصه ويستأنسه ويداعب  
صغره وقصره بكلمات حفظها الأباون ، ولم يلبث أن حفظها المشرقان ..  
حُزْقَة (١) .. حُزْقَة .. ترقه .. ترق عين بعنه

وربما شوهد النبي عليه السلام ساجداً وطفل من هؤلاء الأطفال راكب  
على كتفيه ، فينأى في صلاته ويطيل السجدة لكيلاً يزحزحه عن مركبته ،  
وفي أحدي هذه السجادات يقول عمر بن الخطاب للطفل السعيد : نعم  
المطية مطيتك ! ..

بل ربما كان على المنبر ، فيقبل الحسن والحسين يمشيان ويتعران ،  
فيسبقه حنانه اليهما وينزل من المنبر ليحملهما ، وهو يقول : « صدق  
الله العظيم ! إنما أموالكم وأولادكم فتنة ! »  
وكان إذا سمع أحدهما ييكي نادى فاطمة وقال لها : « ما بكاء هذا  
الطفل ؟ .. ألا تعلمين أن بكاءه يؤذني ؟ » ..

وقد جعل من عادته أن يبيت عندهم حيناً بعد حين ، ويتولى خدمة  
الأطفال بنفسه وأبواهم قاعدان . ففي أحدي هذه الليالي سمع الحسن  
يسألنى فقام صلوات الله عليه إلى قربة فجعل يعصرها في القدح ، ثم

---

(١) الحرق : التمس

جمل يعبّه ، فتناول الحسين فمنعه وبدأ بالحسن . قالت فاطمة : كأنه  
 أحب إليك ؟ . قال : إنما استقى أولاً !  
 وقد يلتهم جميعاً في برد واحد فيقول لهم : « أنا وأنت يوم القيمة  
 في مكان واحد ! » ..  
 وكانت هذه الأبوة الكبيرة أعز عليهم جميعاً من أبوة الأب الصغير ،  
 فكانت فاطمة تقول إذا رقصت طفلها :  
 وابأبي شبه النبي لست شبهاً بعلى  
 وكانوا يتغایرون على هذا تغاير المحبين ، الذين يتنافسون على حب  
 لا يمنع بعضهم بعضاً أن يتنافسوا عليه

\*\*\*

حياة سعيدة مع الشطف والفاقة : سعيدة بالعطاف في قلوب كبار ،  
 ما كان حطام الدنيا عندها ليساوي مثقال ذرة من هباء  
 ولم تخل هذه الحياة ، وما خلت حياة آدمي قط ، من ساعات خلاف  
 وساعات شکایة ، فربما شكت فاطمة وربما شكا على ، وربما أخذت  
 فاطمة على قريتها بعض الشدة وما هي بشدة ، فما كان رجل مثل على  
 ليعنف على بنت رسول الله وهو يعلم مكانها من قلب رسول الله . إنما  
 هو اعتزاز فاطمة بنفسها وباوتها أن تهمل حيث كانت ، وإنما هو الحنان  
 الذي تعودته من أبيها فلا تستريح إلى مادونه ، وكل حنان بعد حنان  
 ذلك القلب الكبير فكانه قسوة أو قريب من القسوة عند من يتفقده  
 فلا يجد نظيره في قلب انسان ..

وكان الأب الأكبر يتولى صلحهما في كل خلاف ، وربما ترك مجلسه  
 بين الصحابة ليدخل إلى الآخرين المتخاصمين فيرفع ما بينهما من جفاء .  
 والصحابة الذين يتبعون في وجه النبي كل حاجة من خوالج نفسه ،  
 ويسيرون أنفسهم أن يسألوه لأنه لا يملك من ضميره ما يضمن به على المتعلم  
 والمتبصر ، يجرؤن معه على عادتهم كلما دخل البيت مهموماً وخرج منه  
 منطلق الأسaris ، فيسألونه فيجيب : « ولم لا وقد أصلحت بين أحب

الناس الى ! » ..

ومرة من هذه المرات ، بلغ العتاب غاية ما يبلغه من خصومة بين زوجين »  
ونهى الى فاطمة أن علياً لهم بالزواج من بنت هشام بن المغيرة ، فذهبـتـ  
إلى أبيها باكية تقول : « يزعمون أنك لانقضـبـ لـبنـاتـكـ ؟ »

كلمة تعلم وقعـهاـ في نفسـ أـبيـهاـ الـذـىـ ماـ زـعـمـتـ هـىـ قـطـ اـهـ يـرـضـىـ بـماـ  
يـغـضـبـهـ ، وـقـدـ عـرـفـ أـبـوـهـ ماـ تـعـنـىـ لـأـنـ بـنـىـ هـشـامـ بـنـ المـغـيـرـةـ اـسـتـأـذـنـوـهـ فـىـ  
تـزـوـيجـ بـتـهـمـ مـنـ زـوـجـ فـاطـمـةـ ، فـصـعـدـ التـبـرـ وـالـعـضـبـ بـادـ عـلـيـهـ ، وـقـالـ عـلـىـ  
مـلـأـ مـنـ الـحـاضـرـينـ : « أـلـاـ أـنـ بـنـىـ هـشـامـ بـنـ المـغـيـرـةـ اـسـتـأـذـنـوـنـىـ فـىـ أـنـ  
يـتـكـحـوـاـ بـنـتـهـمـ عـلـيـاـ ، أـلـاـ وـاـنـىـ لـأـذـنـ .. ثـمـ لـأـذـنـ .. ثـمـ لـأـذـنـ .. اـنـاـ  
فـاطـمـةـ بـضـعـةـ مـنـ يـرـبـيـنـىـ مـاـ رـابـهـ .. »

وـلـاـ نـعـلـمـ نـعـنـ مـنـ شـرـحـ هـذـهـ الـخـطـبـةـ غـيرـ مـاجـاءـ فـىـ روـاـيـاتـهـ الـمـخـتـلـفـةـ ،  
وـلـكـنـتـنـاـ نـعـلـمـ أـنـ هـذـهـ الـفـتـاةـ أـسـلـمـتـ وـبـاـيـعـتـ النـبـيـ وـحـفـظـتـ عـنـهـ ، فـلـعـلـهـاـ  
قـدـ خـفـ عـلـيـهـاـ الـفـتـتـةـ أـنـ تـزـوـجـ بـغـيـرـ كـفـءـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ ، وـأـهـلـهـاـ هـمـ مـنـ  
هـمـ فـىـ الـمـكـانـةـ وـالـحـسـبـ لـاـ يـرـضـيـهـمـ مـنـ هـوـ دـوـنـ اـبـنـ أـبـيـ طـالـبـ مـنـ ذـوـيـ  
قـرـابـتـهـاـ ، أـوـ لـعـلـهـاـ غـضـبـةـ مـنـ غـضـبـاتـ عـلـىـهـاـ عـلـىـ أـنـقـاتـ فـاطـمـةـ ، أـوـ  
لـعـلـهـاـ نـازـعـةـ مـنـ نـوـازـعـ النـفـسـ الـبـشـرـيةـ لـمـ يـكـنـ فـىـ الـدـيـنـ مـاـ يـأـبـاهـاـ ، وـاـنـ  
أـبـاهـاـ الـعـرـفـ فـىـ حـالـةـ الـمـوـدـةـ وـالـصـفـاءـ

وـلـاـ نـحـسـبـ أـنـ حـيـةـ الـزـهـرـاءـ وـالـأـمـامـ تـعـرـضـتـ لـخـلـافـ غـيـرـ الـذـىـ أـشـرـنـاـ  
إـلـيـهـ ، فـاـنـ كـتـبـ السـيـرـةـ تـسـقـصـىـ كـلـ جـلـيلـ وـدـقـيقـ مـنـ الـحـدـيـثـ عـنـ ذـرـيـةـ  
الـنـبـيـ .. وـهـىـ وـأـبـنـاؤـهـاـ كـلـ ذـرـيـةـ النـبـيـ الـذـيـ عـاـشـواـ بـعـدـ بـعـدـ ، وـلـمـ يـطـلـ بـهـاـ  
الـعـمـرـ فـلـحـقـتـ بـالـنـبـيـ صـلـوـاتـ اللـهـ عـلـيـهـ بـعـدـ وـفـاتـهـ بـيـضـعـةـ أـشـهـرـ ، وـكـانـ عـلـىـهـ  
قـدـ عـاهـدـ تـفـسـهـ لـاـ يـغـضـبـنـاـ وـقـدـ غـابـتـ عـنـهـ عـيـنـ أـبـيـهـاـ ، فـلـمـ يـغـضـبـهـاـ بـعـدـ ذـلـكـهـ  
حـتـىـ فـىـ أـمـرـ الـخـلـافـةـ ، وـهـوـ يـوـمـذـ أـجـلـ الـأـمـورـ

## بِلَا عَنْهَا

قال الامام أبو الفضل أحمد بن طاهر في كتاب بلاغات النساء :  
« ... لما أجمع أبو يكرب رضي الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم - فدك ، وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على رأسها وأقبلت في ليلة من حفلتها تطاً ذيولها ماتخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً حتى دخلت على أبي يكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار فنيطت دونها ملاعة ثم أنت أنة أجهش القوم لها بالبكاء وارتاج انجلس فأمهلت حتى سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم فافتتحت الكلام بحمد الله والصلاحة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد القوم في بكائهم فلما أمسكوا عادت في كلامها فقالت :

« لقد جاءكم رسول من أفسركم عزيز عليه ما عتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فان تعزوه تجدوه أبي دون نسائكم ، وأخا ابن عمى دون رجالكم بلغ النذارة صادعا بالرسالة ، مائلا على مدرجة المشركين ، ضاربا لتجنهم (١) آخذا يكتظهم ، يهشم الأصنام وينكث الهمام ، حتى هترم الجميع وولوا الدبر وتفرى الليل عن صبحه وأسفر الحق عن محضه ، ونطق زعيم الدين وخرست شفاق الشياطين ، وكتسم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبضة العجلان وموطئ الأقدام تشربون الطريق (٢) وقتاتون الفد أذلة خاسعين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنفذكم الله برسوله صلى الله عليه وسلم بعد اللتيا والتي وبعد ما مثى بهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب كلما حشو نارا للعرب أطفأها ونجم قرن للضلال

(١) التجن : يسكن الجم وتحريكها [الطريق الوعر ( يمانية )

(٢) الطريق : الله المطروق

وفغرت فاغرة من المشركين تذف بأخيه في لهواتها فلا ينكفء حتى يطأ  
صماخها باخمه ويخمد لميئها بسيفه مكرودا في ذات الله قريبا من رسول  
الله ، سيدا في أولياء الله ، وأتم في بلهنية وادعون آمنون ، حتى اذا اختار  
الله لنبيه في دار أئيائه ظهرت خلة النفاق وسلم جلباب الدين ونطق كاظم  
الغاوين ونبغ خامل الآفلين وهدر فنيق<sup>(١)</sup> البطلين فخطر في عرصاتكم  
وأطلع الشيطان رأسه من مفرزه ، صارحا بكم ، فوجدكم لدعائكم  
مستجيبين وللمرة فيه ملاحظين فاستنهضكم فوجدكم خفافا وأحشسكم  
فالفاكم غضايا ، فوسمتم غير أبلكم ، وأوردتموها غير شريككم ، هذا والهد  
 قريب والكلم رحيب والبرح لما يندمل ... »

\* \* \*

الى أن قالت : « وأتم الآذن ترعمون ان لا ارث لنا أفحكم الجاهلية  
تبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون . أيها المسلمـة المهاجرة  
أابتـر ارث أبي ؟ أفي الكتاب أن ترث أباك ولا أرث أبي ؟ لقد جئت شيئا  
فربـا ، فدونـكما مخطوـمة مرحـولة تلقـاك يوم حـشرـك ، فنعمـ الحكمـ اللهـ  
والزعـيمـ محمدـ والمـوعـدـ الـقيـامـةـ وعـنـدـ السـاعـةـ يـخـسـرـ المـبـطـلـونـ ، ولـكـلـ بـاـ  
مـسـتـقـرـ وـسـوـفـ تـعـلـمـونـ »

ثم انحرفت الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وهي تقول :

قد كان بعـدكـ أـنبـاءـ وـهـبـشـةـ  
لوـكـنـ شـاهـدـهـمـ لمـ تـكـثـرـ الخطـبـ  
اناـ فـقـدـنـاكـ فـقـدـ الـأـرـضـ وـابـهـاـ  
واـخـتلـ قـومـكـ فـاـشـهـلـهـمـ وـلـأـنـبـعـ

هذه رواية لخطاب الزهراء ، وفي الكتاب نفسه رواية أخرى مخالفة  
في لفظها ومعناها للرواية السابقة ، وقبل ايراد الروايتين قال أبو الفضل :  
« ذكرت لأبي الحسين زيد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب  
صلوات الله عليهم كلام فاطمة عليها السلام وقلت له ان هؤلاء - يشير

(١) الجبل القوى

إلى قوم في زمانه يغضون من قدر آل البيت - يزعمون انه مصنوع وانه من كلام أبي العيناء فقال لي : رأيت مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آباءهم ويلمونه أبناءهم وقد حدثنيه أبي عن جدي يبلغ به فاطمة عليها السلام على هذه الحكایة ورواه مشايخ الشیعہ وتدارسوا بينهم قبل أن يولد جد أبي العیناء ، وقد حدث به الحسن بن علوان عن عطیة العوی انه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه . ثم قال أبو الحسن : وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فینکر ونه وهم يروون من كلام عائشة عند موته أيها ما هو أعجب من كلام فاطمة يتحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت ؟ ..

\*\*\*

ونسبت الى السيدة فاطمة أبيات من الشعر قالتها بعد موتها  
صلوات الله عليه ، وانها بعد دفنه أقبلت على أنس بن مالك فقالت :  
« يا أنس ! .. كيف طابت أنسكم أن تحيوا على رسول الله التراب ؟ » ثم  
بكت ورثته قائلة :

أغبر آفاق السماء وكورت  
شمس النهار وأظلم العصران  
فالأرض من بعد النبي كتبية  
أسفا عليه كثيرة الرجفان  
خليكه شرق البلاد وغربها  
ولتبكه مضر وكل يمان  
وليبيكه الطود المعلم جوده  
والبيت ذو الأستار والأركان  
يا خاتم الرسل المبارك ضوءه  
صلى عليك منزل القرآن  
ووقفت على قبر النبي وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على  
عينها وبكت وأنثأت تقول :

ماذا على من شم تربة أحمد  
 أذ لا يشم مدى الزمان غواليا  
 صبت على مصائب لو أنها  
 صبت على الأيام صرن لياليا  
 وقالت على قبره أيضا :  
 أنا فقدناك فقد الأرض والبها  
 وغاب مذ غبت عنا الوحي والكتب  
 فليت بذلك كان الموت صادفنا  
 لما نعيت وحالت دونك الكتب  
 ومضي آنفا أنها تسئللت بعد خطابها عن فدك بيتن من البحر والقافية  
 مع تكرار شطر منها وهما :  
 قد كان بعده أباء وهنثة  
 لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب  
 أنا فقدناك فقد الأرض والبها  
 واختل قومك فاشهدهم ولا تنب  
 وفيهما كما يرى القاريء أقواء ، لأن الباء مضمومة في روى البيت  
 الأول مكسورة في روى البيت الثاني ، ولعل شطراً منها حل محل شطر  
 في نقل الرواية ..

\*\*\*

تقول : ان الخلاف في أمر هذه الخطب وهذا الشعر كثير ، ولا نحب  
 أن نخوض فيه لأنه خلاف على غير طائل ، وقد يحسمه أن تذكر في هذا  
 الباب ما يقال فيه الخلاف بين جميع التقاد ، فإنه أجدى من اللغو في جدال  
 لا سند له ، يسألمه جميع المخالفين  
 فيقل الخلاف ولاشك حين تذكر أن ذلك الخطاب ليس مما يصدر من  
 اللسان عنو الخاطر ، وإن قائله يعده في نفسه قبل القائه كما كان يصنع  
 الخطباء قبل استخدام الكتابة في التحضير

ويقل الخلاف ولاشك حين نذكر أن سامع هذا الخطاب لا يستظره  
عند سماعه ، فان حفظه فاما يحفظه منقولا أو مكتوبا بعد حفظه  
فاذًا قل الخلاف في هذا فعلام اذن يكثرون الخلاف ؟  
أتراء يكثرون حين يقال ان السيدة فاطمة تحسن هذه البلاغة و تستطيعها  
حين تحتفظ لها و تعدوها في خلدتها ؟  
ان هذا النصيب من البلاغة اذا استكثر على السيدة فاطمة فما من أحد  
في عصرها لا يستكثر عليه

لقد نشأت وهي تسمع كلام أبيها أبلغ البلاء ، وانتقلت الى بيت زوجها  
فعاشت سنين تسمع الكلام من أمام متفرق على بلاغته بين محبيه وشائيه ،  
وسمعت القرآن يرتل في الصلوات وفي سائر الأوقات ، وتحدث الناس في  
زمانها بمشابهتها لأبيها في مشيتها وحديثها وكلامها ، ومنهم من لا يحييها  
ولا ينطق في أمرها عن الهوى

\* \* \*

جاء في الجزء الثالث من العقد الفريد عن « الرياشي عن عثمان بن عمرو  
عن إسرائيل بن ميسرة بن حبيب ، عن المنهال بن عمرو ، عن عائشة بنت  
طلحة ، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : « مارأيت أحدا من خلق الله  
أشبه حديثا وكلاما برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة ، وكانت  
إذا دخلت عليه أخذ يديها فقبلها ورحب بها وأجلسها في مجلسه ، وكان  
إذا دخل عليها قامت إليه ورحت به وأخذت يديه قبلتها ، فدخلت عليه  
في مرضه الذي توفى فيه ، فأسر إليها فبكت ، ثم أسر إليها فضحتك ،  
فقلت : كنت أحسب لهذه المرأة فضلا على النساء فإذا هي واحدة منهم ،  
 بينما هي تبكي إذا هي تضحك . فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
سألتها فقالت : أسر إلى فأخبرني انه ميت فبكين ، ثم أسر إلى انى أول  
أهل بيته لحوقا به فضحتك »

وما قالته السيدة عائشة عن المشابهة بين الزهراء وأبيها قيل على ألسنة  
الثقة جميما ، ويزداد عليه في حديث السيدة عائشة ان امرأة في فضلها

واعتراضها بنفسها كانت ترى للزهراء فضلا على سائر النساء في حلمها ورثقاتها . ففيما يكثر الخلاف على مثل ذلك النصيб من البلاغة اذا نسب اليها ؟ ولماذا تستعظام البلاغة على من نشأت سامة لحديث محمد مطبوعة على مشابهته في حدبه ؟ ولماذا تستعظام على زوجة الامام الذى كان المتفقون على بлагاته أكثر من المتفقين على شجاعته ، وهى مضرب الأمثال ؟ ولماذا تستعظام على سامة القرآن الكريم بالليل والنهار مع الذكاء واللب الراجع ؟

\* \* \*

أما نسبة الشعر الى الزهراء فالخطب فيه أهون من ذلك فهو لا يسلكها في الشاعرات ان ثبت ، ولا يضريرها ان لم يثبت ، ونحن الى جانب الشك الكبير فيه أقرب مما الى جانب القبول ، وليس بعيدا على غير الشاعر او الشاعرة أن يدبر في فمه أبياتا يحكى بها حزنه و بشه ، فان النظم هنا أقرب الى لغة العاطفة وعادة التحبيب ، ولكن السيدة فاطمة كان لها من الاعتبار بآيات من القرآن في مقام الموت غنى عن نظم الآيات أو التمثل بها في مقام العبرة والرثاء

## في الحياة العامة

مضت السنون والسيلة فاطمة على دأبها الذي عهدناه عاكفة على بيتها ، تريدها عكوفاً عليه تربية الأبناء وخدمة البيت التي تنفرد بها ولا تجد معيناً عليها في كثير من الأيام غير زوجها

ثم توفي النبي صلوات الله عليه ، فأقامتها الحوادث فجأة على غير مرادها في معرك الحياة العامة أو الحياة السياسية كما نسميها في أيامنا ، ولم يكن لها منصرف عن ذلك المعرك في تلك الآونة ، لأن الخلاف فيها كان خلافاً على ميراث أبيها ، ميراث الخلافة ، وميراث التركة القليلة التي أعقبها ومسألة الخلافة في يوم وفاة النبي أحدى المسائل التي طال فيها الجدل ولا يسر على المنصفين أن يخرجوا من ذلك الجدل الطويل على رأى متفق عليه ، وذلك أن الخطر الأكبر في ذلك اليوم إنما كان من فتنة السقيفة : سقيفة بنى ساعدة ، حيث اجتمعت قبائل الخزرج بزعامة شيخها سعد بن عبادة ، تطلب الإمارة ، ثم نصح لهم عويم بن ساعدة باختيار أبي بكر للخلافة فأعرضوا عنه ونبذوه ، ثم خطر لذى رأى منهم أن يقسمها شطرين : أمير من الأنصار وأمير من المهاجرين ، وما برح سعد بن عبادة على جلالة شأنه في قومه نافراً من البيعة لأبي بكر بعد انقادها وهو يأبى إلا أن « يستبد الأنصار بهذا الأمر دون الناس فإنه لهم دون الناس » ...

هـ أصر على أبيه حين انقض جمـع السـقيـفة وجـاءـه الرـسـل يـدعـونـه للمـباـيعة ماـودـهـ النـضـبـ وـقـالـ لـهـمـ : « أـمـاـ وـالـهـ حـتـىـ أـرـمـيـكـ بـمـاـ فـيـ كـنـاتـىـ مـنـ نـبـلـ أـخـضـبـ سـنـانـ رـمـحـىـ » وـنـاـشـدـوـهـ أـنـ لـاـيـشـقـ عـصـاـ الـجـمـاعـةـ فـعـادـ يـقـولـ :

أـنـ ضـارـبـكـمـ بـسـيـفـيـ مـاـ مـلـكـتـهـ يـدـيـ ، مـقـاتـلـكـمـ بـوـلـدـيـ وـأـهـلـ بـيـتـيـ وـمـنـ اـعـنـىـ مـنـ قـوـمـيـ .. وـأـيـمـ اللـهـ لـوـ أـنـ الـجـنـ اـجـتـمـعـ لـكـمـ مـعـ الـأـنـسـ مـاـ يـأـسـكـمـ

## حتى أعرض على ربِّي »

ثم كان ثمة خطر لا يقل عن هذا الخطر في حاضره ولا في مغبته لو لم يعجل له العاملون بما يقطع دابرها ، وهو خطر الفتنة التي راح أبو سفيان يحضرأ نارها بين على والعباس وبين بنى هاشم وسائل بطن قريش ، يعد قوماً بنصرة بنى أمية ونصرة قريش من ورائهم ، ويوسوس القوم آخرين بمثل هذا الوعد أو بمثل هذا الوعيد ، وما كان من همه أن ينصب بنى هاشم ولا أن يؤيد الأنصار ، وإنما أراد الواقعه التي يخذلهم بها جميعاً ويخرج منها بالسيادة الأولى التي كانت له على قريش في الجاهلية .

وما من شك في خطر هذه الفتنة من أبي سفيان ولا في خطر تلك الفتنة من سقيفة بنى ساعدة ، فانحسمت الفتنة بانعقاد البيعة لأبي بكر ، ولم يتطلبهما ، بل كان مشتعلًا بتدفن الرسول ودعى إلى السقيفة مرتين وهو لا يعلم فيما يلعن ويختار باشتغاله ويفضي لشوطه ، حتى هم عمر بنبإيه أبي عبيدة بن الجراح قبل أن يشعب الجميع في السقيفة بين الخزرج والأوس والأنصار والهاجرين ، وقبل أن تتجدد المساعاة من أبي سفيان في خفائها ، وقد كاد أن يلعنها

\* \* \*

وكان على في تلك الساعة العصبية إلى جوار الجثمان الظاهر المسجني في حجرته ، فدخل عليه أبو سفيان قاتلاً : « يا أبا الحسن ! هذا محمد قد مرض إلى ربه ، وهذا ترائه لم يخرج عنكم ، فابسط يدك أبايعك ! »

ويقول عنه العباس : « يا ابن أخي .. هذا شيخ قريش قد أقبل ، فامدد يدك أبايعك وبيأيعك معى . فانا ان بايئنك لم يختلف عليك أحد من بنى عبد مناف ، واذا بايئتك عبد مناف لم يختلف عليك قريشى ، واذا بايئتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب » ..

فيجيئه على : « لا والله ياعم ! .. انى لاكره ان أبايع من وراء رثاج » .. ولقد كان أحکم في جوابه هذا من شيخ العصابة من بنى هاشم وشيخ

الدهاء من بنى أمية ، فما للخلافة معدى عنه ان كانت ولاية عهد يعلمها جميع المسلمين ؛ وما للبيعة هناك جدوى ان تمت وراء رثاج وانشقت بعدها عصا المبايعين والمعارضين

ولقد تمت البيعة على الوجه الذى عرفه التاريخ ، فان يكن هناك جدال فلا جدال بين المنصفين فيفضل الأئمة الذين ادركوا الفتنة قبل مسعاهما من السقيةة ومسعاها من دار أبي سفيان ، ولا جدال بين المنصفين فيما ابتغوه من خير وحكمة ، فما ابتغى أبو بكر ولا عمر ولا أبو عبيدة نفعا لأنفسهم وما قصروا بعد يوم البيعة في نصرة دينهم ، وما كان في وسع أحد أن يليل أجمل من بلائهم في دفع الفائلة عن الاسلام من فتنة الردة ومن غارة الفرس والروم ، ولا أن يفتح للإسلام في العراق والشام وفارس ومصر فتحا أعظم وأقرب مما فتحوه

\*\*\*

وآمن على<sup>٣</sup> بحقه في الخلافة ، ولكنه أراده حقا يطلب الناس ولا يسبقهم إلى طلبه ، ولم تمنعه البيعة لغيره أن يعينه بالرأي والسيف ويصدق العون لأبي بكر وعمر كأنه يعمل في عون رسول الله وهو بقيد الحياة

وقد اختلف الصديق والفاروق والامام يوما أو أياما بعد وفاة النبي عليه السلام ، فمن شاء فليأخذ بحججة هذا ومن شاء فليأخذ بحججة ذاك ، ولكن الحجة الناهضة لهم جميعا انهم لم يكذبوا لأنفسهم ولا لذويهم ، ولم يقعوا دون الناوية في خدمة دينهم ، ولم يحيى أحد منهم حياة ترب في صدقه وصدق طورته وحسن بلائه ، وما مات أحد منهم ولو من الدنيا نصيب يأسي عليه ..

وكانت السيدة فاطمة ترى حق على في الخلافة ، أو ترى أن قرابة النبي أحق المسلمين بخلافته ، وأن بلاء على في الجهاد وعلمه المشهود به يؤهلانه لمقام الخلافة ، وكان هذا رأى طائفة من الصحابة الصالحين أدهشهم أن يجري الأمر على غير هذا المجرى فاجتمعوا عندها واجتمعوا في غير بيتها يتشارون فيما بينهم ، أيا يرون أم يختلفون ، ولم نطلع على

رواية واحدة ذات سند يعول عليه ترمي أحدهم بشق عصا الجماعة أو بالسعي في تأليب الناس على تفضي اليسعة ، وبعد مساجلات بينهم وبين أبي بكر وعمر سفرت الفتنة عن مقصدتها وتكتسبت الدسيسة التي يتبناها أبو سفيان ، فقد عاد أبو سفيان يعرض مبaitته على علّى ويتحفظ للحقيقة فصده على وعرض له بذكر الغشية والمخادعين ، ثم قال له : « إنك تزيد أمراً لسنا من أصحابه » ، فلما يئس من هذا الباب طرق بابا آخر لعله يلتجئ منه إلى مأربه ، وذهب إلى العباس يقول له : « امدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم » ... ثم يقول : « إنك والله لأحق بميراث ابن أخيك » فيرده العباس كما رده على ، ويکاد الخلاف ينتهي عند هذا وينطوى بانطواء الكلام في مسألة الخلافة ، لولا مسألة « فدك » أو مسألة الميراث التي اختلف فيها سند أبي بكر وسند فاطمة مرة أخرى ، وأوشك أبو بكر أن يستقيل المسلمين من يعتمهم ، مخافة السخط من بنت رسول الله ..

\* \* \*

وخلالـة الحديث في أمر « فدك » أنها قرية كان النبي يقسم فيها بين آل بيته وفقراء المسلمين ، فلما قضى عليه السلام أرسلت فاطمة إلى أبي بكر تسأله ميراثها فيها وفيما بقى من خمس خير ! .. فقال أبو بكر : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إننا معشر الأنبياء لا نورث . ما تركناه صدقة .. وإن والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كان عليها » ويقال إن الزهراء احتجت عليه بقوله تعالى عن النبي من الأنبيائه - ذكريا - « يرثني ويرث من آل يعقوب » وقوله تعالى : « وورث سليمان داود » .. وإن أبو بكر قال لها : « يا بنت رسول الله ! أنت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يدل بجوابك ولا أوقعك عن صوابك ، ولكن هذا أبو الحسن بيبي وبيتك هو الذي أخبرني بما تقدست ، وأبأنى بما أخذت وتركت »

وجاء في شرح ابن أبي الحديد على فهج البلاغة « إن أبو بكر قال :

يا ابنة رسول الله ! والله ما ورث أبوك دينارا ولا درهما وانه قال : ان الأنبياء لا يورثون . فقالت : ان فدك وهبها لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فمن يشهد بذلك ؟ فجاء على بن أبي طالب فشهد وجاءت أم أيمن فشهدت أيضا ، فجاء عمرو بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهادا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها . فقال أبو بكر : صدقت يا ابنة رسول الله ، وصدق على ، وصدقت أم أيمن ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك ان مالك لأبيك ، كان رسول الله يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقي ويحمل منه في سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟ قالت : أصنع بها كما يصنع بها أبي ! قال : فلك على الله أن أصنع كما يصنع فيها أبوك ، قالت : الله لتنعلن ؟ قال : الله لافعلن . قالت : اللهم اشهد .. وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع اليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقي ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان على كذلك «

\*\*\*

وفي خلال الخلاف على هذه القضية قال عمر لأبي بكر : « انطلق بنا الى فاطمة فانا قد أغضبناها ». فانطلقوا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا عليها بكلمتهما ، فأدخلهما . فلما قعدا عندها حولت وجهها الى الحائط فسلمما عليها فلم ترد عليهما السلام ، فتكلم أبو بكر فقال : « يا حبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله أحب الى من قرابتى ، وانك لأحب الى من عاششة ابنتى ، ولو ددت يوم مات أبوك انى مت ولا أبقي بعده ، أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟ الا انى سمعت بأباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لأنورث ما تركنا فهو صدقة ». فقالت : « أرأيتكما ان حدثتكمَا حديثا عن رسول الله تعرفانه وتفعلان به ؟ » قالا : « نعم » . قالت : « نشدتكمَا الله ألم تسمعوا رسول الله يقول : رضاه فاطمة من رضائى وسخطها من سخطى ؟ » قالا : « نعم سمعناه من رسول الله ». قالت : « فانى أشهد الله وملاكته انكمَا أخطتمانى وما أرضيتمانى ، ولئن لقيت النبي لأشكونكمَا اليه » .

فقال أبو بكر : « أنا عائد بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة » ، ثم اتّحَبَ يسْكُنَ حَتَّى كَادَتْ نَفْسَهُ تَرْهَقُ ... ثُمَّ خَرَجَ فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ فَقَالَ لَهُمْ : « يَسْتَأْتِي كُلُّ رَجُلٍ مِّنْكُمْ مَعَانِقًا حَلِيلَتِهِ مَسْرُورًا بِأَهْلِهِ وَتَرْكَتُنِي وَمَا أَنَا فِيهِ ؟ لَا حَاجَةَ لِي فِي يَعْتَمِكُمْ . أَقْلِيلُنِي يَعْتَمِي »

\* \* \*

والحديث في مسألة فدك هو كذلك من الأحاديث التي لا تنتهي إلى مقطع للقول متفق عليه . غير أن الصدق فيه لا مرأة ان الزهراء أجل من أن تطلب ما ليس لها بحق ، وإن الصديق أجل من أن يسلبها حقها الذي تقوم البينة عليه ، ومن أسفنا ما قيل انه إنما منعها فدك مخافة أن ينفق على من غلتها على الدعوة إليه ، فقد ولى الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ولم يسمع أن أحداً بايعهم مالاً أخذه منهم ، ولم يرد ذكر شيء من هذا في اشاعة ولا في خبر يقين ، وما نعلم من تركية لذمة العاكم في عهد الخليفة الأول أوضح بيته من حكمه في مسألة فدك ، فقد كان يكسب برضى فاطمة ويرضى الصحابة برضاهما ، وما أخذ من فدك شيئاً لنفسه فيما ادعاه عليه مدع ، وإنما هو العرج في ذمة الحكم بلئن أقصاه بهذه القضية بين هؤلاء الخصوم الصادقين المصدقيين ، رضوان الله عليهم أجمعين

\* \* \*

ولعلنا نجمل ما وقر في أذهان المسلمين الثقات من أمر فدك بكلمة قالها عدل من أعظم العدول بعد ثمانين سنة أو نحوها ، بعيداً من الخصومة ، بعيداً من زمانها ، بعيداً من الشبهة فيها ، لأنَّه قال كلامته وفديه في يديه ينزل عنها باختياره ، لا يدعوه إلى ذلك داع غير وحي ضميره

ذلك هو عمر بن عبد العزيز القائل في مستهل عهده بالخلافة : « إن فدك كانت مما أفاء الله على رسوله ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركب ، فسألته فاطمة أيها فقال : ما كان لك أن تسأليني وما كان لي أن أعطيك ، فكان يضع ما يأتيه منها في أبناء السبيل ، ثم ولـي أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فوضعوا ذلك ببيت وضعه رسول الله ، ثم ولـي معاوية فأقطعها

مروان بن الحكم ، فوهبها مروان لأبي ولعبد الملك ، فصارت لى ولوليد  
وسلمان ، فلما ول الوليد سأله حصته منها فوهبها لى ، وسألت سليمان  
حصته منها فوهبها لى ، فاستجمعتها ، وما كان لى من مال أحب إلى منها ،  
فأشهدوا انتى قد ردتها إلى ما كانت عليه »

\* \* \*

في هاتين المسألتين نرى السيدة فاطمة على غير مألفها من العكوف على  
شؤون بنيها والابتعاد من الحياة العامة ، لأن كلتا المسألتين تدور حول  
حقها وشحذة قرياتها ، وهما مسألة الخلافة بعد النبي ومسألة الميراث من  
فيته ، واحداهما مما تسميه في لغة عصرنا بالسياسة العليا ، والأخرى مما  
تسميه سياسة الحكومة المالية أو الاقتصادية ، وكل منها جوانب  
متفرعة يعالجها مؤرخ الحوادث والسياسات من نحوها . أما في الدراسات  
النفسية فالمهم فيما وفي غيرها هو ما ترجمان عنه من خلائق صاحبة  
السيرة ، وما ترجمان عنه حين توجزه هو قوة إيمان بحقها ثبتت عليه  
و « شخصية » مستقلة لا يحمل لها حساب

## وَقَائِمًا

قلنا في « عبرية محمد » :

« حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التي دقت عن الفهم وحاررت في تعليلها عقول الأسطيين من أهل العلم والحكمة ، وهو لا ريب يجري على قانون مطرد في جميع طبقات الأحياء ، وإن كنا لا نعلم كنهه ولا نسبره عمهه ولا نزيد على استقصاء بعض الملاحظات التي تقارب الحقيقة ، أو هي أقرب ما نستطيع الوصول اليه »

« وأهم هذه الملاحظات التقريرية انه يجري على سنة المكافأة والتعويض في معظم حالاته ، فيقابل النقص في جانب بالزيادة في جانب آخر ، ويقابل القصور في مزية من المزايا بالاتفاق في مزية أخرى ..

\* \* \*

« فالأحياء السفلی عرضة للعطب الكثير في طور الولادة والحضانة ، فيقابل هذا ان الأحياء السفلی ترسّل ذرياتها بالألف وألوف الألوف ، فيبقى منها القليل الكاف لدوام النوع بعد فناء الكثير

« والأحياء العليا يقل عدد المولود منها في البطن الواحد ، فيقابل هذا أن تطول حضانتها والمنية بها ، وتتجدد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة في الأحياء السفلی

« ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضمان دوامه ، فإذا تيسر للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجور ذلك على نسله وينقص من قسمته في أبنائه ، كأنما خدمة النوع ضرورة مفروضة على كل فرد في صورة من الصور ، فإذا أداها في صورة أفعى منها في الصور الأخرى ، أو كأنما

هي مواهب وأرزاق لا يستوفيها الفرد الواحد الا بمن غال يحسب عليه ،  
ويؤدي حسابه للنوع على نحو من الانحاء  
« والانسان هو أقدر المخلوقات الحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة  
لا تتحصر في تجديد النسل وزيادة عدده »

« فهل يجوز لنا أن نقول ان العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا  
ضربيتهم باصلاح شئون الناس فلم يبق من اللازم انفرض عليهم أن  
يؤدوا هذه الضريبة من طريق الذرية ؟ »

\* \* \*

« ان قلنا ذلك فانما نقوله على سبيل الملاحظة التقريرية التي أشرنا  
اليها ، ولا بلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذي تستحقه ، فغاية  
مبلغها عندنا أنها تستوقف النظر للتأمل والمراجعة ولا تفضي بنا الى الاجزم  
أو الى التغليب .. »

« بعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا ، وفيهم أنبياء  
معتمدون لا شك في سيرتهم من هذه الناحية ، كعيسي عليه السلام  
« وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية ، أو رزقا ذرية كلها  
أنان ، أو رزقا ذرية من الإناث والذكور ولم يعشوا ، أو عاشوا ولم  
يعمروا ولا كانوا على حالة مستحبة من الصحة والتجابة .. »

« وتاريخ العظماء في جميع نواحي العظمة ، وفي جميع الأمم ، وفي  
جميع المصور ، حافلة بالشواهد التي تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خلقة  
بالتأمل والمراجعة ، يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء ،  
ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون ويدخل  
فيهم القادة العسكريون .. ولا يصعب على أحد أن يدير بصره الى فترة  
من الزمن في بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصادق ذلك في تقرير من  
عظاته ومشهوريه ، وحسبنا في مصر أسماء جمال الدين الأفغاني ومحمد  
عبدة وسعد زغلول وعبد الله نديم ومصطفى كامل ومصطفى فهمي و محمود  
سامي البارودي وحافظ ابراهيم

« فإذا جاز لنا أن نقف عند الملاحظة وأن تتأمل مغزاها ، وجاز لنا أن نفهم أن اصلاح شؤون النوع الانساني ضرورة تفني عن ضرورة الذرية في بعض الأحوال ، فأين ترانا نجد تلك الضرورة في أرفع حالة وأعلى قيمة أن لم نجدها في رسالة نبوية تتناول الأجيال وتتناول الملائكة في كل جيل ؟ وأى أبوة روحانية تفني عن أبوة اللحم والدم كما تفني أبوة النبي الذى يتکفل بتربية الأرواح في أمته ، وفي أمم لا يلقاها في زمانه ، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه إلى أقصى الزمان ؟

« نذكر هذا حين نذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية ، ونرى تكافؤا في الجانبين جديرا باللاحظة والاعتبار »

\* \* \*

نعم ونذكر هذا حين نذكر وفاة الزهراء في زهرة الشباب ، في الثلاثين أو ما دون الثلاثين ..

مات الذكور من ذرية محمد صغارا لم يجاوزوا سن الرضاع ، وعاش الآفات من ذريته ولم يرزن طول العمر ، ومنهن من لم ترزق قوة البنية في عنفوان الشباب ..

وكانت الزهراء نحيلة سراء ، يمازج لونها شحوب في كثير من الأوقات ، وقد رأها النبي عليه السلام في مرض وفاته فقال لها إنها أسرع أهل لحوقا به ، فلم تمض ستة أشهر ، وقيل أقل من ذلك ، حتى لحقت به في تلك السن التي تستقبل فيها الحياة

وكانت تشكو حينا بعد حين ، ويعودها النبي يواسيها في مرضها فإذا هو يواسيها كذلك في حاجتها ، زارها يوما وهى مريضة فقال لها : « كيف تجدينك يابنية ؟ » فقالت : « أنى لوجعة ». ثم قالت : « وانه ليزيدنى أنى مالى طعام آكله .. » فاستعبر عليه السلام وقال : « يا بنية ! .. أما ترضين انك سيدة نساء العالمين ! » ..

وزارها يوما وهى تطعن بالرحي وعليها كساء من وبر الإبل ، فبكى وقال : « تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة »

ولم يكن صلوات الله عليه يضن على فاطمة بما يملك من الانتقال ،  
فكان يخصها بالقسم الأولي من حصته كلما فرق رزقا بين ذويه وزوجاته ،  
ولكنها كانت فاقه تعهم جميعا حين لا يجد النبي ما يفرقه بينهم ، وقد  
شكا زوجاته تلك الفاقة فخيرهن بين التسريح لينعمن بالحياة الدنيا  
وزينتها ، أو يردن الله ورسوله فيصبرن على ما هو صابر عليه !  
الله أكبر ! ..

\*\*\*

مثل محمد يعلو على اشفاق المشفقين ، ومن كان في قدرته أن ينعم  
من الدنيا بما يقطع قلوب العاديين حسدا ثم يرضى لنفسه وآلها منزلة  
الاشفاع ، فذلك هو الاعظام غاية الاعظام ، وذلك هو المرتفى الذى في  
فيه :

وبعيد بلوغ هاتيك جدا  
ذلك عليسا مراتب الأنبياء

ان محمد يكى لأنه يرى أحب الناس اليه وأقربهم منه جائعة مرحلة ،  
ثيم لا يملك لها ما يشبعها ويغطيها من عنائها ، وهو يملك كل شيء في  
الجزيرة العربية .. ويسأل السائلون من زعافقة المعطلين والمعصين أعداء  
كل دين : « ما برهان النبوة عند محمد ! ؟ »  
الله أكبر .. ان لم يكن هذا برهان النبوة فبرهان أى شيء يكون ؟

\*\*\*

ولم يكن بالزهراء من سقم كامن يتعرف من وصفه ، فاذ العرب  
لوصفاً فون وان من كان حولها من آل بيتها لم يقدر العرب على وصف  
الصحة والسلام ، فما وقفتا من كلامهم وهم يصفونها في أحوال شکواها  
على شيء يشبه أعراض الأمراض التي تذهب بالناس في مقبل الشباب ،  
وكل ما يتبن من كلامهم انه الجهد والضعف والحزن ، وربما اجتمع  
اليها اعياء الولادة في غير موعدها ، ان صحة انها أسقطت « محسنا » بعد  
وفاة النبي كما جاء في بعض الأخبار

ونعود فنقول إنها ضرورة النبوة ، وكم للهداية من ضرورة تضاعف على  
الهداية مرات بعد مرات !

\* \* \*

وحضرة الموت .. وخذلتها جوارحها ، وعزيمتها في مواجهة الموت حاضرة  
لا تخذلها ، فتولت أمر غسلها وحملها على النعش بنفسها ، وقالت  
لصاحبتها أسماء بنت عميس بعد أن اغتسلت لأحسن ما كانت تغتسل :  
« يا أمّه ! أئتيتني بشيابي الجدد » ، فلبستها ثم قالت : « قد اغتسلت ، فلا  
يكشفن لي أحد كتفا » ، وشكت نحول جسمها فقالت لصاحبتها :  
« أستطيعن أن تواريني بشيء ؟ » قالت : « أني رأيت العرشة يعملون  
السرير للمرأة ويشدون النعش بقوائم السرير » فعل لها نعشها قبل  
وفاتها ، ونظرت إليه قالت : « ستر تموي ستركم الله .. » وتبتسم ،  
ولم تثر مبتسمة بعد وفاة أبيها إلا ساعتها ...

\* \* \*

وكانت وفاتها ، على القول الأشهر ، ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من  
رمضان سنة احدى عشرة للهجرة ، ودفت ليلًا حسب وصيتها كما دفن  
رسول الله ..

في كل دين صورة لأنوثة الكاملة المقدسة يتخشى بتقديسها المؤمنون  
كأنما هي آية الله فيما خلق من ذكر وأنثى ..  
فإذا تقدست في المسيحية صورة مريم العذراء ، ففي الإسلام لا جرم  
لتقدس صورة فاطمة البتول

## سُخْرِيَّةُ الزَّهْرَاءِ

من الواضح البين أن الزهراء أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء في التاريخ لأنها بنت نبى ، وزوجة امام ، وأم شهداء ..  
ولكن لا يتضح هذا الوضوح ، ولا يبين هذا البيان ، أنها تأخذ مكانها هذا « بحقها الشخصى » أو بصفاتها التى كان لها أثر فى حوادث التاريخ وهذا الذى نحب أن نقرره في الكتابة عن الزهراء ، فهو أصل قوى من أصول الدعوة التى ثبتت في مجرى الزمن أجيالا طوالا ولم تزل لها آثارها في عصرنا هذا ، وفيما يلى من الصور لم يعرف التاريخ نظيرا لثبات بنى على وفاطمة على حقهم في الامامة ، أو في الخلافة ..

\* \* \*

حوربوا فيها زمانا ، وتولواها من لا شك عندهم ولا عند الناس في فضلهم عليه ، كيزيد بن معاوية . فأتفوا أن يتركوها استخداء وخصوصا ، وحاربوا فيها كما حوربوا ، وصمدوا للطلب الحيث طالبين ومطلوبين مائة سنة ، ثم مائتين ، ثم ثلاثة مائة سنة ، حتى دانت لهم الخلافة باسمهم في عهد الدولة الفاطمية

لولا خصال فيهم تعين على هذا النضال لما ثبتوه عليه هذا الثبات ، ولا استطاعوا أن يصمدوا للضعف والعناد من بنى أمية ثم من بنى العباس ، ومعهم في الشرق والمغرب أعون وآتباع ، وقد جدوا غاية الجد في نكالهم بأبناء على وفاطمة في كل مكان ، وصنعوا بهم ما كان خليقا أن يستأصلهم استئصالا أو يرغموا على اليأس والتسليم ولكنهم نجوا من الاستئصال بقضاء لا حيلة فيه للحاكمين المسيطرین ،

وخطر لهم كل خاطر الا أن يستكينوا للرغم ويسلموا للسيف ، ويعدوا  
مع الخالقين ..

لولا خصال فيهم لما كان هذا منهم

فإذا كان مرجع هذه الخصال إلى وراثة ، ولا بد لها من نصيب من  
الوراثة ، فقد ورثوها عن فاطمة كما ورثوها عن على ، بل هي إلى ميراثهم  
من الزهراء أقرب منها إلى ميراثهم من الإمام

بعض الأخبار يفيد أن صحيحة ، وإن لم يصح ، ومن هذه الأخبار خبر  
الرواة الذين قالوا إن عليا جامل فاطمة فلم يبايع أبا بكر إلا بعد وفاتها  
ان صحيحة هذا الخبر أو لم يصح فدلالة صحيحة ، وهي اعتقاد الناس  
في ذلك العصر ان القضية قضية الزهراء وإن الإمام يجاملها فلا يغضبها ،  
وانه كان يرى ان الخلافة أحق بآن تطلب معرفة بحقه ، فإن لم تعرف  
له هذا الحق فما هو بالغريص على الشغل بها والتذير لطلبتها والسعى  
اليها ..

\*\*\*

وفي غير هذا الخبر ما يدل هذه الدلالات ، وربما كان من تلك الأخبار  
ما يعبره المؤرخ ولا يلقى إليه بالا ، وهو في هذا الباب أدل من كثير ،  
كالخبر الذي روى عن الحسن عليه السلام وهو بعد طفل صغير ..  
رووا ان الصديق رضي الله عنه قام على المنبر يخطب الناس ، فما هو  
الا أن حمد الله وأخذ في خطبته حتى سمع وسمع الحاضرون معه صوتا  
تحيلا يهتف به : « ليس هذا منبر أبيك ، انزل عن منبر أبي ... »

والتفتوا فإذا بالصائح هو الحسن بن على ، ولما يلين الثامنة ، فابتسم  
الصديق وقال والحنو يشيع في نفسه : « ابن بنت رسول الله ؟ صلقت  
ولله ... ما كان لأبي منبر ، وانه لنير أبيك » ..

وسمع على بالخبر فأرسل الى أبي بكر رسولا يقول له : « اغفر  
ما كان من الفلام ، فإنه حدث ، ولم تأمره »  
قال أبو بكر : « انى أعلم . وما اهتمت أبا الحسن »

وليست الزهراء ولا ريب هى التى أمرت الغلام الصغير أن يقول هذا المقال .. ولكن الطفل يفهم عن أمه فى هذه السن ما يغنىه عن الأمر والايحاء ، ولعل الحسن كان قد سمع تقاشا بتكرر بين أبويه فى هذا الأمر ، فوقر فى نفسه أن يشور تلك الثورة الصغيرة ، ثم نهى عنها فلم يعاودها ..

\*\*\*

في خلائق السيدة فاطمة مدد صالح للثبات على الحق الذى يعتقده صاحبه ، أو ينادى عنه فلا ينكص عنه على رغم كانت شديدة الاعتزاز باتسابها الى أبيها ، وكانت مفطورة على يقين التدين ، وكانت ذات ارادة لا تهمل في حساب شأن من شؤونها ، فظهرت منها في المواقف القليلة التي نقلت عنها أنها كانت ذات ارادة لاتتسى في الحساب ..

كان من اعتزازها بالاتساب الى أبيها أنها كانت تسر بشابها أبناءها لأبيها ، وكانت تذكر ذلك حين تدللهم وتلاعبهم ، فلم يكن أحب اليها من أن يقال لها ان أسباط رسول الله يشبهون رسول الله ..

وكانت فطرة التدين فيها وراثة من أبوين : كان حسبها ما ورثته من خاتم الأنبياء وما تعلمته منه بالتربيه والمجاورة ، ولكنها أضافت اليه ما ورثته من أمها ، أمها بنت خويلد الذى تصدى لعاهل اليمن غيرة منه على الكعبه ، وابنة عم ورقة بن نوفل الذى شغل بال الدين في الجاهلية حتى فرغ له حياته ، غير مدعو ولا مأمور

\*\*\*

ومن فطرة التدين في وريثة محمد وخديجة أنها كانت شديدة التحرج فيما اعتقدته من أوامر الدين ، حتى وهبت انأكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء ، يظهر ذلك من حديث الحسن بن الحسن عن فاطمة حيث قال : «دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل عرقا فجاء بلال بالأذان ، فقام ليصللى ، فأخذت بثوبه فقلت : يا أمي ! ألا توضا ؟ فقال : مم أنوضا

يا بنية ؟ فقلت : ما مسـتـ النـارـ . فـقـالـ لـىـ : أو لـيـسـ أـطـيـبـ طـعـامـكـمـ  
ما مـسـتـ النـارـ ؟ » ..

فـهـيـ فـيـماـ تـجـهـلـهـ تـحـرـجـ وـلـاـ تـرـخـصـ وـتـؤـثـرـ الشـلـةـ معـ نـفـسـهاـ عـلـىـ  
الـهـوـادـةـ مـعـهـاـ ..

وـقـدـ ذـكـرـ غـيرـ وـاحـدـ مـنـ الصـحـابـةـ ، وـذـكـرـتـ السـيـدةـ عـائـشـةـ ، اـنـهـ كـانـتـ  
أـشـبـهـ النـاسـ بـمـحـمـدـ فـيـ مـشـيـتـهـ وـحـدـيـثـهـ وـكـلامـهـ ، وـزـادـتـ عـائـشـةـ فـقـالـتـ :  
مـاـ رـأـيـتـ أـفـضـلـ مـنـ فـاطـمـةـ غـيرـ أـيـهـاـ ، وـاسـتـغـربـتـ مـرـةـ أـنـ تـكـوـنـ فـاطـمـةـ كـسـائـرـ  
الـنـسـاءـ حـيـنـ رـأـيـتـهـ تـبـكـيـ ثـمـ تـضـحـكـ إـلـىـ جـوـارـ رـسـوـلـ اللهـ فـيـ مـرـضـ وـفـاتـهـ ،  
ثـمـ عـلـمـتـ أـنـهـ ضـحـكـتـ لـأـنـهـ سـمعـتـ مـنـ أـيـهـاـ أـنـهـ لـاحـقـةـ بـهـ عـمـاـ قـرـيبـ  
أـمـاـ أـنـهـ كـانـتـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ ذـاتـ اـرـادـةـ لـاـ تـهـمـ ، فـقـدـ بـدـاـ ذـلـكـ فـيـ أـمـرـ  
زـوـاجـهـ ، وـفـيـ مـحـاجـجـهـ لـزـوـجـهـ ، وـمـحـاجـجـهـ لـأـبـيـ بـكـرـ وـعـمـ ، وـفـيـماـ كـانـ  
يـتوـخـاهـ عـلـىـ مـرـضـاتـهـ بـصـدـ الـمـبـاـيـعـ قـبـلـ وـفـاتـهـ

\* \* \*

وـقـدـ يـكـونـ مـنـ دـلـائـلـ الـاـرـادـةـ فـيـ الـرـأـةـ خـاصـةـ أـنـهـ تـلـزـمـ الصـمتـ وـلـاـ تـكـثـرـ  
الـكـلـامـ ، وـقـدـ كـانـ مـنـ عـادـةـ الزـهـراءـ أـنـهـ لـاـ تـكـلـمـ حـتـىـ تـسـأـلـ ، وـانـهـ لـاـ تـجـلـ  
إـلـىـ الـحـدـيـثـ فـيـمـاـ تـلـعـمـ فـضـلـاـ عـمـاـ لـاـ تـلـعـمـ ، وـلـهـذـاـ انـحـصـرـتـ أـحـادـيـثـهـ عـنـ  
أـيـهـاـ فـيـمـاـ كـانـتـ تـسـمـعـ مـنـهـ بـيـنـ الـبـيـتـ وـالـمـسـجـدـ ، وـلـمـ تـزـدـ عـلـيـهـ  
وـلـاـ تـنسـىـ اـنـ الزـهـراءـ قـدـ غـوـضـرـتـ وـهـيـ فـيـ الـثـلـاثـيـنـ اوـ قـبـلـ الـثـلـاثـيـنـ ،  
فـاـذـاـ ظـهـرـ مـنـهـ هـذـاـ الجـدـ وـهـذـاـ اليـقـينـ وـهـذـهـ العـزـةـ وـهـذـهـ الـاـرـادـةـ وـهـيـ فـيـ  
تـلـكـ السـنـ الـبـاكـرـةـ فـذـاكـ وـلـاـ شـكـ دـلـيلـ عـلـىـ قـوـةـ كـامـنـةـ يـرـجـعـ إـلـيـهـ حـيـنـ  
يـفـسـرـ الـقـسـرـوـنـ خـلـائـقـ بـنـيـهـ وـمـاعـسـاـهـمـ قـدـ اـسـتـمـدـوـهـ مـنـ هـذـاـ الـمـيرـاثـ الـكـلـيـنـ

## الذرّيّة الفاطمیّة

كانت العرب أمة نسابة ، يعنيها النسب لأنها تعتمد عليه في مفاخرها كما تعتمد عليه في مصائرها ، فهو الذي يعين لها أصول قبائلها وأصول ذوى الرئاسة فيها ، وهو كذلك يعين لها من يطالبونه بثار ويحاسبونه على جريمة ، ومن يلحق بهم عاره ويرأون منه أو يخلعونه ، فالخليل عندهم من لا خلاق له فلا هو يالي بشيء ولا يالي به أحد ، ولا يوجد من يسأل عن دمه أو يحفل بحياته وموته

ان الخليل عندهم هو القطيع عن نسبه

ولهذا حفظوا أنسابهم في الجاهلية ما استطاعوا وجاءهم الخطأ فيها من تقادم العهد وكثرة الرحلة وجهل الكتابة والقراءة

وبعد الاسلام وجب حفظ الانساب ولجأوا اليه في تدوين الدواوين كما لجأوا اليه في ميادين القتال ، فكلما حمى وطيس القتال نودى في القوم : اتسروا . ليستحى المرتد من الهزيمة التي يلحق عارها به وبذريته ما بقيت لهم سيرة في ذاكرة ..

\*\*\*

وعظمت العناية خاصة بذرية النبي عليه السلام ، صونا للنسب الشريف، ودفعا للادعاء من طلاب الخلافة ، فلم يقع لبس قط في نسب أبناء فاطمة مدي الصدر الأول من الاسلام .. ولم ينهض منهم قط امام مشكوك في نسبه على عهد الدولة الاموية ، ولم يكن الشك في النسب مطعنا في دعوى أحد منهم بعد قيام الدولة العباسية ، ولم يزل أمرهم كذلك الى أن قامت لهم دولة بالمغرب وسميت بالدولة الفاطمية . أما قبل ذلك فقد كان دعاء الدولة العباسية يناظرونهم الحجة في حق الخلافة مع اعترافهم باتساقهم

إلى السيدة فاطمة ، ولا ينكرون عليهم صحة الاتساب إليها رضي الله عنها من ذلك ما روى عن المؤمنون أنه قال يوماً على بن موسى الرضا : « بم تدعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة على من رسول الله وبقرابة فاطمة رضي الله عنها ، فقال له المؤمنون : إن لم يكن هاهنا إلا القرابة فقد خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان أقرب إليه من على أو من في مثل قدره ، وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فان الحق بعد فاطمة للحسن والحسين ، وليس على في هذا الأمر حق وهذا حياؤن ، فان كان الأمر كذلك فان علياً قد ابتزهما حقهما وهما صحيحان واستولى على ما لا يجب له »

قال رواة هذا الحديث : « فما أجباه على بن موسى بشيء » وظاهر أن على بن موسى قد لزم الصمت هنا على حد قول أبي العلاء :

تلوا باطلاً وجلوا صارماً

وقالوا : صدقنا ؟ فقلنا : نعم !

\*\*\*

والا فما كان لحجّة من أبناء على وفاطمة — وقد رزقا اللسن والفصاحة أن يعجز في هذا المقام عن الكلام الذي يقال في الرد على كلام المؤمنون ، وأقربه على اللسان أن علياً إن كان قد استولى على حقه فهو ورثته ، وإن كان قد استولى على غير حقه فهو أصحاب الحق ، وقد سمع خلفاء بنى العباس كلاماً كهذا وأشد من هذا من الخارجين عليهم باسم العلوين والفاتحين ، وأيسره أن أحداً من جدد بنى العباس في حياة الحسن والحسين لم يطلب الخلافة حين طلبها

الا أن دعوة الدولة العباسية إنما كانوا يدفعون دعوى العلوين بمثل حجة المؤمنون ولا يتعرضون لصحة النسبة ولا يجسرون على محاربة الولاء للمتسبين إلى الزهراء ، الا أن يدعوا عليه أنه حمل السيف وخرج للقتال أو أعلن المصيان

قال العتبى : « كان بين شريك القاضى والريع حاجب المهدى معارضة ،

فكان الريبع يحمل عليه المهدى فلا يلتفت اليه ، حتى رأى المهدى في منامه  
 شريك القاضى مصروفا وجهه عنه ، فلما استيقظ من نومه دعى ازريع وقص  
 عليه رؤياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ! ان شريكك مخالف لك ، وانه فاطمى  
 محض . قال المهدى : على به ! فلما دخل عليه قال له : ياشريك ! بلغنى  
 أنك فاطمى . قال شريك : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمى .  
 الا أن تعنى فاطمة بنت كسرى ! قال : ولكنى أعنى فاطمة بنت محمد صلى  
 الله عليه وسلم . قال شريك : أفلعتها يا أمير المؤمنين ؟ قال المهدى : معاذ  
 الله . قال : فماذا تقول فيما يلعنها ؟ قال : عليه لعنة الله ! قال : فالعن هذا  
 - وأشار الى الريبع - فانه يلعنها ، قال الريبع : لا والله يا أمير المؤمنين  
 ما أعنها . فقال شريك : يا ماجن ! فما ذكرك لسيدة نساء العالمين وابنة  
 سيد المرسلين في مجالس الرجال ؟ قال المهدى : دعنى من هذا . فاني رأيتك  
 في منامي كأنك مصروف عنى وفقالك الى ، وماذلك الا بخلافك على ، ورأيت  
 في منامي كأنني أقتل زديقا . قال شريك : ان رؤياك يا أمير المؤمنين ليست  
 برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه ، وان الدماء لا تستحل  
 بالأحلام ، وان علامة الزندقة بيته . قال : وماهى ؟ قال : شرب الخمر  
 والرши في الحكم وهو البغي . قال : صدقت والله يا آبا عبد الله . أنت  
 والله خير من الذى حملنى عليك »

\*\*\*

وحدث مثل هذا في معارض كثيرة ، فوشى بأناس أنهم يوالون أبناء  
 فاطمة فلم يجر الخلفاء على المساس بهم ، واضطروا إلى التعلل لهم بغیر  
 تلك العلة ..

ثم هجمت الدعوة الفاطمية على الدولة العباسية بما لا طاقة لها بدفعه  
 مع الاعتراف بنسب أصحاب الدعوة ، فاتقلوا من المناقشة بالحججة في حق  
 العم وابن العم ، والموازنة بين حق العباس عم النبي وحق ابن عمه ،  
 الى انكار النسب بتة ، وساعدتهم على ذلك تفرق الأئمة الفاطميين في الأرجاء  
 واستارهم بالدعوة ووقع اللبس في الكنى والألقاب ، فطعنوا في اتساب

الفاطميين الى السيدة فاطمة ، وأذاعوا عنهم ذلك النشور الذى سيلتلى ذكره في القسم الثاني من الكتاب ، واشترك في هذه المبابدات أناس من علماء النسائين شملتهم غواية السياسة كما شملت غيرهم ، وكان من عبرهم أن هوى السياسة لا يؤمن على عقل الحكيم ولا على علم العليم

مثال هذا أن صاحب كتاب جمهرة الأنساب ، وهو الفيلسوف الحكيم ابن حزم ، لم يسلم من فتنة هذه الغواية ، فقال وهو يتكلم عن ذرية اسماعيل بن جعفر الذي يتسب اليه الفاطميين ويسمون من أجل ذلك بالاسماعيلية : « وادعى عبد الله القائم بالمرتب أنه أخو الحسن البغیض هذا ، وشهد له بذلك رجل من بني البغیض وشهد له بذلك جعفر بن محمد بن الحسين بن أبي الحر على بن محمد الشاعر بن على بن اسماعيل ابن جعفر ، ومرة ادعى أنه ولد الحسين بن محمد بن اسماعيل بن جعفر ، وكل هذه دعوى مفتعلة ، لأن محمد بن اسماعيل بن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين ، وهذا كذب فاحش ، ولأن هذا النسب لا يخفى على من له أقل علم بالنسب ولا يجعل أهله إلا جاهلا »

\*\*\*

ونحن نخص ابن حزم بالذكر في هذا المعرض لأنه مثل للنقضين المتابلين فيما يوجب الثقة وما يوجب الشك غاية الشك في مؤلف واحد ونسبة واحد ..

فعلم ابن حزم بالأسانيد والأنساب معروف ، ولكنه في هذا المعرض خاصة عرضة للهوى كأشد ما يكون الهوى ، حتى ليكون تكذيبه لرواية داعية من دواعي احتمالها وقبولها

كان ابن حزم أمريا غاليا في التشيع للاموية ، وكانت دولتهم في الأندلس على خطير من الدعوة الاسماعيلية ، وبلغ من كراحته للاسماعيليين أنه تحول من المذهب الشافعى الى المذهب الظاهري أى المذهب الذى يأخذ بظاهر النص ويرفض التأويل ، لأن مذهب الاسماعيليين يقول بالتأويل وبأنه من حق الإمام ..

بل قد بلغ من كراحته القوم انه لا يطيق أن يذكر الرجل منهم بلقبه المتعارف عليه ، فيلقه بالغيض بدلا من الحبيب ، ولعله لم يضع كتابه في جمهرة أنساب العرب الا ليثبت حق بنى أمية في الخلافة لأنهم من فريش فقصد بحق الخلافة الى جد الأمويين والهاشميين وقال في مقدمة كتابه : « ومن الفرض في علم النسب أن يعلم المرء أن الخلافة لا تجوز الا في ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، ولو وسع جهل هذا لأمكن ادعاء الخلافة لمن لا تحل له ، وهذا لا يجوز أصلا.. ». وقد ترقى ابن حزم من الحديث عن الفاطميين الى المناقشة في معنى الحديث القائل ان فاطمة سيدة النساء ، وأنه لا يعني أنها أفضل نساء العالمين !

\*\*\*

ونحن نتزه ابن حزم عن تعمد الافتاء ، ولكننا نقول ان هواه قد جنح به الى قبول ما ليس بحججة في اثبات نسب أو دفع نسب ، ولو لا ذلك لوقف على الأقل موقف التردد بين النفي والاثبات

وفيما يلى كلام يتناول هذا الموضوع بعض التفصيل ، ونسلف القول في تلخيصه فنقول : اتنا لا نزعم أتنا وقنا على الدليل القاطع الذي يثبت نسب عبيد الله رأس الدولة الفاطمية ، ولكننا لم نقف على دليل قاطع ينفي ذلك النسب ، ووقفنا على شبهات كثيرة توجب الشك في مطاعن الطاعنين ، وهذه الشبهات في روایات نسبة كابن حزم نموذج لما وقنا عليه

القسم الثاني

## .. وَالفَاطِمِيُونَ

- \* الفاطميون ...
- \* النسب ...
- \* الباطنية ...
- \* الباطنية الفاطمية ...
- \* حسن بن الصباح ...
- \* بناة وهدامون ... ومهدومون ..
- \* حضارة مختصرة ...

# الفاطميون

كل أبناء السيدة فاطمة الزهراء فاطميون ، ولكن اسم الفاطميين يطلق في تاريخ الدول على أبناء اسماعيل ابن الامام جعفر الصادق ، ويسمون من أجل هذا بالاسماعيليين

وقد كان أبناء الزهراء يعرفون أحيانا باسم آل البيت ، فلما استأثر العباسيون بالخلافة غلب عليهم اسم العلوين

وجاء الفاطميون ففضلوا الاتساع الى الزهراء ، لأنهم يقيمون حقهم في الخلافة على أنهم أسباط النبي عليه السلام ، وأنهم أبناء الوصي على بن أبي طالب ، ولكن العباسين يتذمرون منهم دعوى الوصاية ويتذمرون ، ويقولون أن الاتساب الى النبي من جانب عمه العباس أقرب من جانب على ابن عمه أبي طالب ، ومن أجل هذا يسمى الفاطميون بهذا الاسم لأن بنوة الزهراء نسب لا يدعيه العباسيون

أما تطبيق اسم الاسماعيليين عليهم فمرجعه اتساؤهم الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وقولهم انه هو الامام بعد أبيه ، وبهذا الاسم يتميزون من أبناء السيدة فاطمة الآخرين ، وهم ذرية موسى الكاظم ، وهو الأحق بالأمامية في مذهب الإمامين الاثني عشرين

وقد كان الامام جعفر الصادق وصي بالأمامية بعده لابنه الأكبر اسماعيل ، ثم نعاه عنها ووصى بها لابنه موسى الكاظم ، وقيل في أسباب ذلك انه علم أن اسماعيل يشرب الخمر ، وقيل ان اسماعيل مات في حياة أبيه فاتقتلت ولية المهد الى أخيه

أما الاسماعيليون فيذهبون أن تحويل الولاية لا يجوز ، لأن الولاية أمر من الله يتلقاه الامام المقصوم ، والبداء لا يجوز على الله ، ويعنون بالبداء

أن يبدو الله أمر فيعدل عما أمر به قبل ذلك

ومن الاسعاعيليين من ينفي موت اساعيل في حياة أبيه ، ويقولون انه شوهد بعد تاريخ الاشهاد على وفاته ، وانما أشهد أبوه على وفاته خوفا عليه من الغيبة ومن ترخيص الخلفاء العباسين به كما كانوا يصنون بالعلوين المرشحين للدعوة ، واستدلوا على هذا بالاشهاد على وفاته وتوقيع الشهود عليه ، اذ لم تجر العادة بمثل هذا الاشهاد لولا الحيطة والتقية

والخلاف بين الاسعاعيليين وبين سائر الفاطميين قائم على امامية اساعيل ، والاماميون الذين لا يسلمون الامامة لاساعيل وذرته طوائف متعددة ، أهمها وأكبرها طائفة الامامين المروفيين بالاثني عشرين ، لأنهم يتهمون بالامامة الى محمد المنتظر بن الامام حسن العسكري ، وعندهم أنه سيظهر في زمانه الموعود ، ولهذا يدعون بتعجيل فرجه كلما ذكروه

ويتقن الاماميون على اعتقادهم عصمة الامام في تبليغ شؤون الامامة ، لأنها موئل السؤال والفتوى في أحكام الدين والدنيا ، فلا يجوز الخطأ عليه في هذه الأحكام ..

ويضيف الاسعاعيليون الى أسباب العصمة عقيدة التأويل ، فان أحكام الدين عندهم لها ظاهر وباطن ، ولا يعلم تأويلها غير الله والراسخين في العلم ، والأئمة هم الراسخون في العلم وهم أولى الناس أن يعلموا ما ليس يعلمه المؤمنون ..

ولهذا يسمى الاسعاعيليون بالباطنيين ، ومنهم من لا يصر أمور الباطن على أحكام الدين وآيات الكتاب ، بل يقولون ان كل موجود على الأرض فله نظير في الفلك الأعلى ، وان مقادير هذه الموجودات تابعة للمقادير التي تجري على نظائرها في السماء

ولما استر الأئمة شاع بينهم علم النجوم والرياضيات والفلسفة على العموم ، وكان الاماميون من عهد على رضي الله عنه يؤمدون بالهامة واطلاعه على أسرار كتاب الجفر وما اليه من كتب النجوم ، ولكن الأئمة الاسعاعيليين أمعنوا في دراسة هذه العلوم لأنهم لاذوا بالخفاء في عمد اتشارها

ر'زد عارها ، وأصبح علمهم بالأسرار خاصة مطلوباً منهم فوق علمهم  
الراسخ بشئون الإمامة في الدنيا والدين ، فإذا سأله السائلون عن أمر  
مستور فأولى الناس بعلمه الإمام المستور الذي يعلم مواطن السر والجهر  
ويتحين أوقات الفلك لاظهار ما خفي من أمور الدعوة وأمور الإمامة ، وكل  
أمر ترتبط به مصالح العباد

ودخل عدد الأئمة نفسه في خصائص الأعداد ، فمن قديم الزمن يعتقدـ  
 أصحاب النجوم سراً خاصاً في عدد السبعة وعدد الائتين عشر ،  
ويستشهدون على ذلك بعد الأفلاك السبعة وعدد أيام الأسبوع وعدد  
فتحات الوجه ، كما يستشهدون عليه بعدد الشهور وعدد البروج  
السماوية وعدد أسباط بنى إسرائيل ، وعلى هذا يدور الخلاف بين المهتمين  
بت捷يم على عدد الأئمة فهو سبعة أو اثنى عشر .. ولكل منهم فيه  
كلام طويل ..

\* \* \*

وللإمامين فروق ي يستطيعونها بين النبي والأمام والحججة والنقيب ، فالنبي  
يبعث في زمان بعد زمان ، والأمام قائم في كل زمان ، وقد يكون الإمام  
اماًما مستقراً فهو صاحب الحق في التوصية لخلفيته من بعده ، أو اماماً  
مستودعاً فهو يحمل أمانة الإمامة لضرورة موقعته ثم يردها إلى صاحبها  
ولا حق له في التوصية لغيره . أما الحجة فهو لازم في الخفاء إذا كان الإمام  
ظاهراً في العلانية ، لأن الإمام الظاهر عرضة للضرورات فلابد معه من  
حججة يرجع إليها لاستبانت الحقائق بعزل عن ضرورات السياسة ، أما إذا  
استر الإمام فلابد له من حجة ظاهر ، وقد يسمون الإمام بالناطق أو  
الصادم تبعاً للظهور والخفاء والمجاهرة بالحكم والتأويل فيه  
أما النقيب فالغالب أنهم دعاة أو وكلاء ، ولا بد لهم من آئمة يرجعون  
 إليهم في كل زمان ..

أعلنت وفاة اسماعيل في حياة أبيه كما تقدم ، فانعقدت الإمامة بهذه  
لابنه محمد ، وارتحل محمد من العجاز إلى الري ، أما لاته لم يطق

منافسة عمه موسى الكاظم على زعامة العلوين ، واما لأنه آثر الانزواء والتستر ودفع الأذى من جانب العباسيين ، وقد لقب بالأمام المكتوم لأنه لم يعلن دعوته وأخذ في بثها خفية وهو يتقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر كلما تباهت اليه العيون ولاحقته الظنون ، ثم ضاق الشرق كله بخلفائه فهجره عبيد الله الى المغرب وكان أول من نودى له بالخلافة الفاطمية ..

ونسبه كما يقره المعترفون بهذا النسب هو عبيد الله بن أحسد بن اسماعيل الثاني بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق . أما القائلون ياتساهه الى ميمون القداح – كما سيلى – فهو في زعمهم محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد ابن اسماعيل بن جعفر الصادق

ويوفق المؤرخ الهندي « مأمور »<sup>(١)</sup> بين الروايتين توفيقا محتملا جد الاحتمال فيقول ان مهدا المكتوم كان يخفى نفسه ويتعاطى طب العيون مداراة لحقيقة ، وان اسم « ميمون » كان من الأسماء التي اطلقها في حال استئراه ، والقداح هو لقب الطبيب الذي يعالج العيون

ولا نهاية للروايات والتخريجات التي تعلل سفره من الشرق الى المغرب ، فمن الرواية من يزعم أنه علم بتآمر القرامطة عليه فخرج من سلية حيث كان مقينا بجوار حمص ورحل الى مصر وهو يوري بالرحلة الى اليمن ، ومن قائل ان بعض جلساء الخليفة العباسي من يدينون بالذهب الاسماعيلى سرا قد علم بعملي الخليفة على اغتياله وقتلها فبادر الى تحذيره ، ومن قائل انه تلقى البشارة من كبير دعاته في المغرب بانتشار البيعة له بين القبائل المغربية فرحل الى المغرب ليتولى الأمر بنفسه في هذه الفترة الخامسة ، وتفق الروايات على أنه حينما سافر الى مصر واتقل منها الى المغرب كان مطاردا وكان على رأسه جعل لمن يأتي به حيا أو ميتا حيث كان

(١) كتاب الجدل والمناقشات في الخلقة الناطفين  
Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs

والروايات تتفق كذلك على أن الدعوة كانت موكولة في المغرب إلى أبي عبد الله الصناعي من صنعاء اليمن ، واسمه الكامل هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا ، وكان من ولاة الحسبة في بغداد

جاء في وصفه من كتاب — البيان المغرب في أخبار المغرب — لابن عذاري المراكشي وهو من أعداء الاسماعيليين — « فاختاروا منهم رجلاً ذا فهم وفصاحة وجدال ومعرفة يسمى أبو عبد الله الصناعي ... فسار أبو عبد الله هذا إلى موسم الحج ليجتمع به مع من يحج تلك السنة من أهل المغرب ويندوخ أخلاقهم ويطلع على مذاهبهم ويتحيل على نيل الملك بضعف الحال .. ورأى في الموسم قوماً من أهل المغرب فلصق بهم وخاطفهم وكانوا عشرة رجال من قبيل كتابة ملتفين على شيخ منهم ، فسألهم عن بلادهم فأخبروه بصفتها ، وسألهم عن مذهبهم فصدقواه عنه .. ولم يزل يستدرجهم ويطلبهم بما أوتي من فضل اللسان والعلم بالجذب إلى أن سلبهم عقولهم يسحر يانه ، فلما حان رجوعهم إلى بلادهم سأله عن أمره وشأنه فقال لهم : أنا رجل من أهل العراق ، وكنت أخدم السلطان ، ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البر فتركها وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال ، فلم أر لذلك وجهاً إلا تعليم القرآن للصبيان ، فسألت أين يتأتى ذلك تأياً حسناً ذكر لي بلاد مصر ، فقالوا له : ونحن سائرون إلى مصر وهي طريقنا ، فكن في صحبتنا إليها ، ورغبوها منه في ذلك ، فصحبهم في الطريق فكان يحدّثهم ويميل بهم إلى مذهبة ويلقي إليهم الشيء بعد الشيء إلى أن اشربت قلوبهم مجتبه ، فرغبوها منه أن يسير إلى بلادهم لعلم صبيانهم ، فاعتذر لهم وبعد الشقة ، وقال لهم إن وجدت بمصر حاجتي أقتطع بها ، والا فربما أصحبكم إلى القيروان ، فلما وصلوا مصر غاب عنهم فيها كأنه يطلب بنيته ، ثم اجتمعوا به وسألوه فقال لهم : لم أجده في هذه البلاد ما أريد ، فرغبوه أن يصحبهم فأئم لهم بذلك .. »

ولا يتسع الكلام في هذا المجال لسرد أعمال أبي عبيد الله في المغرب ، فالذى عنينا هنا هو الاشارة الى أساليب هؤلاء الدعاة في دخول البلاد التي يقصدونها بالدعوة ، وأول هذه الأساليب أن يكون الداعية مطلوبا لا طالبا وأن يكون له حماة وأتباع من أبناء البلد قبل دخوله اذا استطاع ، وقد سار أبو عبيد الله الشيعي على هذا الاسلوب حتى تمكن من القبائل واستعمال اليه قبيلة كتامة القوية بعدها وشجاعة رجالها فاتخذ الحول بعد الحيلة وجرد السيف وهزم دولة الأغالبة أعون العباسين وضمن لولاه النجاح فاستقدمه فوصل الى جبال الأطلس قبيل انتهاء القرن الثالث للهجرة ( سنة ٢٩٦ )

كذلك يطول الكلام لو تبعنا أعمال المهدى وخططه التي رسمها لاقامة عرشه في افريقيا وبسط كلمته من ورائها الى الأقطار الاسلامية ، فان ملك المهدى في المغرب قد دام أربعا وعشرين سنة الى أن توفي ( سنة ٣٢٢ للهجرة ) فخلفه ابنه القائم وخلف القائم ابنه المنصور وخلف المنصور ابنه المعز ( سنة ٣٤١ للهجرة ) وهو الذى فتح مصر في عهده وانتقلت من خلافة العباسين الى خلافته ( سنة ٣٥٦ للهجرة ) فجاءوها كعادتهم مطلوبين ممهدا لهم الطريق في الداخل والخارج بالدعوة والسلاح

\*\*\*

ان تاريخ الدولة الفاطمية جدير أن تفرد له المجلدات الضخام ، لأنّه تاريخ يغنى عن التواريخ . اذ كانت هذه الدولة نموذجا يقاس عليه ويعرض فيه ما لا يعرض في قيام الدول الأخرى من العبر والأطوار وصنوف التدبير والمصادفة . فهى الدولة التى قامت بين ست دول أو أكثر من ست دول اسلامية وأجنبية تحاربها وتخشى عاقبتها ، وأسست حقها على دعوة يتائب الخصوم من حولها على انكارها ، واعتمدت في الدعوة على وسائل لم يسبقها اليها سبق ولم يلحقها نظير لها في تلك الوسائل الى هذا القرن العشرين ... فمن تلك الوسائل فن التخديل أو « الطابور الخامس » كما يسمى في العصر الحديث ، ومنها تسخير العلم

والفن والفلسفة والقصص في نشر الدعوة الظاهرة والخفية ، ومنها الاستعارة بالجماعات السرية وترتيب الأدوار المنظمة لإنفاذ سياسة بعد أخرى ، ومنها المراكب والمواسم والمحاقن والأعياد والعادات الاجتماعية ، وكانت تثابر على الدعوة ولا تهمل معها أركان الملك من تشيد المدن وتنظيم الدواوين وترتيب الرتب وتدريب الجيوش وبناء الأساطيل وفتح المدارس والجامعات وتزويدها بالمكتبات وتشويق الناس إليها بمحالس المحاضرة والمناظرة في أيام محدودة يشهدها الرجال والنساء

\* \* \*

قيام الدولة الفاطمية في الواقع نموذج لقيام الدول بالحول والحيلة ، ولو استثنى التاريخ بدولة واحدة عن دول كثيرة لكان هذه الدولة حسبة من عبره وأطواره وتدويراته ومصادفاته ، ولستنا في صدد الافاضة في هذه الدراسة بتفصيلاتها وفروعها ، ولكننا نطرق منها في هذه العجلة ما له علاقة بالاتساع إلى الزهراء وما له علاقة بأثارها الباقة في هذا البلد ، لأنَّه البلد الذي شهد من الدولة الفاطمية أهم أدوارها وأفخم عهودها ، وكانت مخلفاتها فيه أبقى المخلفات في تاريخها الحديث

## السَّبُّ

الدعوى المتطرفة هي أقوى الدعاوى ، وهي كذلك — ومن أجل ذلك — أضعفها وأولاها بالتشكك والمراجعة

والمقصود بالدعوى المتطرفة كل دعوى تملئها البواعث النفسية أو البواعث السياسية والاجتماعية ، وهي قوية لأنها لا تأتي عفوا ولا يكتفى المدعون فيها بابدائها وترك السامعين وشأنهم في قبولها أو الاعراض عنها ، بل هم يدعونها ويحتالون على ايرادها مورد الصدق وتشييلها في صورة الكلام السائغ المحقق ، ثم يكررونها ويلحون في تكريرها ويتحبذون الفرض لشرها في مظان الاصناف إليها والرغبة في اثباتها

وإذا كانت البواعث التي تملئها متعددة متتجدة كان ذلك خليقاً أن يزيدها قوة على قوة واللحاظ على العاج ، فهي توارد من جهات كثيرة وترجع إلى الظهور كرة بعد أخرى ، كلما خيف عليها أن تضعف ، وكلما تعاظم الرجاء في التحدث بها والالتفات إليها

إن الدعوى المتطرفة قوية من أجل هذا وهي من أجل هذا بعينه ضعيفة متهمة لأن البواعث التي تملئها ترب السامع حين تكشف له ، وقد يكون الالحاح فيها مشككاً لمن يسمعها وكاشفاً للفرض والموى من ورائها

وإذا تعددت البواعث كان ذلك أخرى أن يسوق التناقض والاختلاط إلى الروايات والأقوایل ، فلا يتحقق مروجوها على اختراعها ولا على نقلها ، ومن لم يكن منهم مخترعاً لروايتها لم يجد ذهنه في التوفيق بين النقائض والتقرير بين الأسانيد ، فتصاب الدعوى بالضعف من جراء تمدد البواعث كما تأتيها القوة والمثابرة لهذا السبب ، وتختسر من هنا

كما تكسب من هناك ..

\* \* \*

وقد كان اتهام الفاطميين في نسبهم دعوى متطرفة ، وكانت البواعث إليها متعددة متتجدة ، فلا جرم تكون في وقت واحد أقوى الدعوات ثم لا تثبت أن تعود أضعف الدعوات

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون في طلبها على النسب وكانتا يهددون بمساعيهم في طلب الخلافة خصوصاً كثريين يملكون الدول في الشرق والمغرب ولا يريدون النزول عما ملكوه ، أو لا يريدون بعبارة أخرى أن يسلموا للفاطميين صحة النسب الذي يعتمدون عليه

فلم يكن أقرب إلى الذهن من مهاجمتهم في نسبهم وتجريدهم من الحجة التي يؤيدون بها مسعاهم ، فهذه هي الدعوى المتطرفة التي تعددت بواعتها في الشرق والمغرب وتوافقت الأغراض على ترويجها وتبنيتها بين الخائفين على عروشهم من نسب الفاطميين ، وكلهم ذوو سلطان وذوو براعة واقتنان ، ومن ورائهم من يرغبون في بقائهم أو يتلقون دعوامهم بالتصديق والإيمان ..

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون في طلبها على اتسابهم إلى النبي عليه السلام ، وكان هذا النسب حجة معتمدة لا يمارى فيها الأكثرون من أتباع الدول الإسلامية الذين تسري بينهم دعوى آل البيت ، غير مستثنى منهم أتباع الدولة العباسية في ذلك العهد علىخصوص ، وهو عهد النقص والأدبار الذي يكثر فيه طلاق الزوال أو طلاق العلل بالحق وبالباطل ، وعلى الانصاف الواضح أو على الجور الصراح

كان مصير الخلافة إلى الفاطميين ذريلاً بزوال عروش كثيرة ، منها عروش العباسين في بغداد والأخشidiين في مصر والأغالبة في إفريقية الشمالية والأمويين في الأندلس ، والأمراء الصغار الناشئين في هذه الرقعة هنا وهناك من يطيب لهم القرار على ما هم فيه ولا يطيب لهم التبدل والانتقال .

وكان هؤلاء المالكون غرباء عن أهل البيت ما عدا العباسين ، ولكن العباسين في ذلك المهد خاصة كانوا أخو福 الخاقفين من نسب الفاطميين ، بعد أن كانت دعوة أهل البيت تشملهم أجمعين منذ ثلاثة قرون عندما ضفت دولة بنى أمية قويت دعوة آل البيت التي كان يقوم بها العلويون والعباسيون

ولكن العباسين أخذوا بزمام الدولة الجديدة على اعتقاد الأكترین انهم كانوا يدعون إلى خلافة العلوين أبناء فاطمة وعلى أحق الناس باسم آل البيت في رأى أتباع الدولة الجديدة .، وبلغ من ايمان أتباع الدولة الجديدة بهذا الرأى أن خلفاء بنى العباس أظهروا العزم على الوصاية بعدهم لولاة عهد العلوين ، كما فعل الرشيد والأمين . ثم استحكم العداء بين بنى العباس وبنى على حتى لجأ الأئمة العلويون إلى الاختفاء وشاعت يومئذ العقيدة في الامام المستور ، ثم شاعت الدعوة إلى العلوين باسم الفاطميين لأنها أقرب الدعوات إلى بنوة محمد عليه السلام . فقد يقال ان العباسين أبناء العباس عم النبي وان العلويون أبناء على ابن عمه أبي طالب . أما الاتماء إلى فاطمة الزهراء ، فهو اتماء إلى بيت النبي نفسه ، وليس الى الاعماء ولا أبناء الاعماء

في أوائل الدولة العباسية ، كانت دعوة آل البيت تشمل العلوين والعباسيين ، وكان الخلاف يسيرا بين الفريقين على أمل التوفيق بينهما بعد حين ، وكانت قوة الدولة في نشأتها تصمد لهذا الخلاف الذي هان أمره ولم يبلغ أشدته في أول عهده ، وكان يكفي أن يقال عند اشتداده ان وراثة الأعمام أقرب من وراثة أبناء الأعمام

ولكن الدولة العباسية بقيت حتى تضعضعت وكثير الساخطون عليها والمتبمون بها والراغبون في زوالها ، وكثير كذلك شهداؤها من آل البيت أبناء على وفاطمة ، وزال عنها عطف العاطقين عليها لقربتها من بيت النبوة ، فتحول عطفهم إلى الشهداء المظلومين المشردين في أرجاء البلاد ، وأصبح تشردتهم الذي يظن به أنه يضعفهم مددًا لهم من أ Maddat العطف والولا ،

وأصبحت دعوة «القاطمين» وقعا على هؤلاء المشردين المظلومين لا يشركهم فيها العباسيون ، لأن العباسين هنا هم الخصوم المحاسبون على الظلم والت்கال واحتلال جبل الأمور

ومن القاطمين هؤلاء يأتي الخطير الأكبر على بنى العباس ، ومن نسبتهم إلى فاطمة الزهراء يأتي امتيازهم بحق الخلافة وبهذا الحق يطلبون النصفة للشهداء والمضطهدین ، فأى شئ أقرب إلى مأثور السياسة من دفع هذا الخطير بانكار هذا النسب ، ومن حصر الولاء لأهل البيت في القائمين بالأمر من بنى العباس ؟

وقد أنكر العباسيون نسب القاطمين وزعموا انهم يتسبون إلى ميمون القداح بن ديسان التوى القائل باللهين ، وتلتف التهمة كل فاقم على القاطمين وهم صنوف يتمون إلى كل مذهب ونحلة ، منهم كما أسلفنا الاخشیدیون والاغابة والامویون الاندلسیون ، وزاد عليهم من كان تابعاً للقاطمين ثم تحمل الماذیر للخروج عليهم كوالى مكة وبعض رؤساء العشائر في الجزيرة العربية ، بل قيل فيما قيل ان أناساً من العلویین شهدوا عليهم بادعائهم النسب في على وفاطمة عليهما السلام ، ونسب إلى الشريف أبي الحسين محمد بن على المشهور بأخي محسن الدمشقى انه كتب رسالة في تنفيذ دعواهم ينكرها المقریزی وينسبها إلى عبد الله ابن رزام ..

ويروى عن سبب نشاط القادر بالله إلى كتابة الأشهاد بيطلان نسب القاطمين انه سمع أبياتاً نظمها الشريف الرضي يقول فيها :

ما مقامي على الهوان وعندي

مقول صارم وأنت حمى  
أليس الذل في بلاد الأعسادى  
وببصر الخليفة العسلوى  
من أبوه أبي ومولاه مولا  
ى اذا خامنى البعيد القصى

لَفْ عَرْقِي بِعُسْرَقِه سَيِّدُ النَّاسِ  
سَنْ جَيِّهَا مُحَمَّدٌ وَعَلَى  
إِذْ ذَلِي بِذَلِكَ الْجَدِ عَزَّ  
وَأَوْمَى بِذَلِكَ الرَّبِيعَ رَدِّ

فَأَرْسَلَ إِلَى أَيْيَهُ الشَّرِيفِ أَبِي أَحْمَدِ الْمُوسَى يَقُولُ : إِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ  
مِنْزِلَتِكَ مَنَا وَمَا تَقْدِمُ لَكَ فِي الدُّولَةِ مِنْ مَوَاقِفَ مُحَمَّدَةٍ وَلَا يَجُوزُ أَنْ  
تَكُونَ أَنْتَ عَلَى خَلِيفَةِ تَرْضَاهُ وَيَكُونَ وَلَدُكَ عَلَى مَا يَضَادُ مَا لَا تَرَالُ عَلَيْهِ مِنْ  
الْاعْتِدَادِ بِكَ لِصَدَقِ الْمَوَالَةِ مِنْكَ ، وَقَدْ بَلَغْنَا أَنَّهُ قَالَ شِعْرًا - هُوَ هَذِهِ  
الْأَيَّاتِ - فِيهَا لَيْتَ شِعْرِي عَلَى أَيِّ مَقَامٍ ذَلِلَ أَقَامٌ وَهُوَ نَاظِرٌ فِي التَّقَابَةِ -  
تَقَابَةُ الْأَشْرَافِ - وَالْحَجَّ ، وَهُمَا مِنْ أَشْرَفِ الْأَعْمَالِ ، وَلَوْ كَانَ بِمَصْرِ لَكَانَ  
كَبِيرُ الْرَّعَايَا

فَأَحْضَرَ أَبُو أَحْمَدَ وَلَدَهُ الرَّضِيَّ فَأَنْكَرَ الشِّعْرَ ، فَأَمْرَهُ أَنْ يَكْتُبْ بِخَطِّهِ  
إِلَى الْقَادِرِ بِالْاعْتِدَادِ وَإِنْكَارِ نِسْبَةِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللهِ ، فَأَبَيَّ ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ :  
« أَتَكَذِّبُنِي فِي قَوْلِي ؟ » قَالَ : « كَلَّا مَا أَكَذِّبُكَ ، وَلَكِنِي أَخَافُ مِنْ  
الْدِيلِمِ وَمِنْ الدِّعَةِ فِي الْبَلَادِ » فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ : « أَتَخَافُ مِنْهُ مَنْ هُوَ بَعِيدٌ عَنْكَ  
وَتَسْخُطُ مِنْهُ مَنْ هُوَ قَرِيبٌ مِنْكَ ... وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ ؟ ... »  
وَغَضِبَ أَبُوهُ وَحَلَفَ لَا يَقِيمُ مَعَهُ فِي بَلَادِ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْأَمْرَ يَنِيهَا هَذَا الْمَلْعُونُ  
حَلَفَ الرَّضِيَّ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ تَلْكَ الْأَيَّاتِ وَكَتَبَ بِخَطِّهِ فِي مَحْسِرِ الْإِنْكَارِ ،  
وَشَاعَ الزَّعْمُ بَعْدَ كِتَابَةِ ذَلِكَ الْمَحْسِرِ أَنَّ الْمَهْدِيَ الْفَاطِمِيَّ لَمْ يَكُنْ يُسَمَّى  
عَيْدَ اللهِ ، وَإِنَّ اسْمَهُ الصَّحِيحُ « سَعِيدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْقَدَّاحَ بْنَ  
مِيمُونَ بْنَ دِيَصَانَ » ..

وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي نِسْبَتِهِ تَارِيَةُ الْمَجْوُسِ وَتَارِيَةُ الْيَهُودِ . وَاخْتَلَفُوا فِي  
الْجَدِ الَّذِي كَانَ مَجْوُسًا أَوْ يَهُودِيًّا فَقِيلَ أَنَّ عَيْدَ اللهِ كَانَ ابْنَ حَدَادَ يَهُودِيًّا  
مَاتَ عَنْ زَوْجَةِ فَبْنِي بَهَا الْحَسِينِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مِيمُونَ وَتَبَنَّى  
عَيْدَ اللهِ ، وَقِيلَ أَنَّ عَيْدَ اللهِ قُتِلَ فِي سِجْنِ سُجْلَمَاسَةَ بِالْمَغْرِبِ فَأَشْفَقَ دَاعِيهُ  
(أَبُو عَبْدِ اللهِ الشَّيْعِي) فَسَمَاهُ عَيْدَ اللهِ وَبَايِعَهُ بِالْخَلَافَةِ ، وَقِيلَ أَنَّ أَمَّةَ

لللام جعفر الصادق علق بها يهودي فولدت منه عبيد الله وشأن في بيت  
اللام متيميا الى أهل البيت

\*\*\*

وقد كانت لهجة البيان العباسى غاية فى المنف تم على الغيط وتخلو  
من الدليل ، ومنه « ان هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار المتلقب  
بالحاكم - حكم الله عليه بالبوار والدمار - ابن معد بن اسماعيل بن  
محمد بن سعيد - لا أسعدهم الله - وان من تقدمه من سلفه الأرجاس  
الأنجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين خوارج لا نسب لهم في ولد على  
ابن أبي طالب رضى الله عنه ، وان ما ادعوه من الاتساب اليه زور وباطل ،  
وان هذا الناجم فى مصر هو سلفه كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون ،  
والإسلام جاحدون ، أباحوا الفروج وأحلوا الخمور وسبوا الأنبياء  
وادعوا الربوبية ... »

ولم يقصر المؤرخون المنكرون عن القوم فى المنف والسباب فقال  
صاحب كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين عن الفاطميين ان المعروف عنهم  
انهم « بنو عبيد ، وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد الم Gorsى ،  
وقيل : كان والد عبيد هذا يهوديا من أهل سليمية من بلاد الشام ، وكان  
حدادا ، وعبيد هذا كان اسمه سعيدا ، فلما دخل المغرب تسمى عبيد الله  
وزعم انه علوى فاطمى ، ثم ترقى به الحال الى أن ملك وتسمى بالمهدى ،  
وكان زنديقا خيئا عدوا للإسلام متظاهرا بالتشيع متسترا به حريضا على  
ازالة الله الإسلامية ، قتل من الفقهاء والصالحين جماعة كثيرة ، وكان  
قصده اعدامهم من الوجود ليقى العالم كالبهائم فيتمكن من افساد  
عقائدهم ، ونشأت ذريته على ذلك منظرين يجهرون به اذا امكنتهم الفرصة  
والاأسروه ، والدعوة منبئون لهم في البلاد ، وبقى هذا البلاء على الإسلام  
من أول دولتهم الى آخرها ، وفي أيامهم كثرت الرافضة وأفسدت عقائد  
طوائف من أهل الجبال الساكنين يغور الشام ، وأخذت الافرنج أكثر  
انبلاد بالشام والجزيرة الى أن من الله على المسلمين بظهور البيت الاتابى

وتقديمه مثل صلاح الدين فاستردوا البلاد وأزالوا هذه الدولة .. »

ومن اعتدل من المؤرخين في الانكار والسباب ، كابن خلkan ، أيد التهمة بالقصص التي تؤكدتها لو أنها ثبتت كالقصة التي اشتهرت عن سيف المز وذهبه ، وإن ابن طباطبا سأل المز عند وصوله إلى مصر عن نسبة فسل سيفه ، فقال : « هذا نسيبي » ثم شر عليهم الذهب وقال : « وهذا حسيبي » وقنع منه الحاضرون بما سمعوه وشهدوه

وظاهر بغير عناء أن الوثيقة العباسية لا قيمة لها من الوجهة التاريخية ، لأن الذين وقعاها من الإشراف العارفين بالأنساب قد أكراها على توقيعها ، ومن وقعها غيرهم من فقهاء القصر والحاشية لم يكن أحد منهم حجة في مسائل النسب والتاريخ ، وقد أضعفوا دعواهم غاية الضعف بنسبة جد الفاطميين إلى ديسان التنوى وهو من أبناء القرن الثالث للميلاد ذهب إلى التوفيق بين المسيحية والزردشتية قبلبعثة الإسلامية بنحو أربعة قرون ، ولم يظهر أحد بهذا الاسم على عهد العباسين غير من يسميه المؤرخون حيناً بـ ديدان وحياناً بـ زندان أو دندان ولا شأن له بنشأة التنوية ولا بالدعوة إليها في قول أحد من أولئك المؤرخين ، وإنما قيل عنه أنه كان على ثروة كبيرة وعاون اسحاق بن ابراهيم بن مصعب على الثورة في عهد الخليفة المأمون

وادعاء الموقعين للوثيقة أن خلفاء الفاطميين أباحوا المحرمات واستحلوا الموبقات لم يقم عليه دليل قط من وقائع التاريخ ، بل ثبت من هذه الواقائع أذ بعض هؤلاء الخلفاء أكتفى بزوجة واحدة ولم يبح لنفسه ما كان يباح في قصور الخلفاء من التسرى واقتضاء الاماء ، وقد خولط الحكم بأمر الله في عقله فجنه إلى التقطن في الطعام وحرم المباح منه بدلاً من إباحة الحرام ! ..

ولعله لا يخفى على أحد من النظرة الأولى قصة التشيع والتشنيع في نسبة الفاطميين تارة إلى المجروس وتارة إلى اليهود ، فكانه لا يكفي أن تسقط دعواهم في الخلافة حتى تستقطع دعواهم في الإسلام وترجع

نسبتهم الى أبعد الملل عن الديانة الاسلامية في عرف ذلك العصر على  
الخصوص ، ثم يقال عنهم ما لا يقال في جميع المحسوس واليهود من  
استباحة المحرمات والتهافت على الشهوات

والقصة التي رويت عن سيف المعز وذهبه غنية عن التكذيب ، لأن ابن طباطبا الذي قيل انه سأله المعز عن نسبة عند وصوله الى مصر قد توفي قبل مقدم المعز اليها بأربع عشرة سنة ، وابن خلكان صاحب القصة هو الذي ذكر تاريخ وفاته فلم يكذب القصة بل قال : لعله أمير آخر ... مع ان اسم « المعز » هو الذي دار عليه مثل السيف والذهب المشهور ، وليس من المقبول بأية حال أن يقيم الفاطميون دعواهم على النسب ثم يعجزون عن ذكر هذا النسب حين يسألون عنه ، فكل جواب أيسر وأتفع من الجواب الذي وضعوه على لسان المعز للدين الله ولا معنى له الا الاعتراف الصريح بأنه مدخلو النسب دعى في الخلافة ..

وقد روى ابن خلكان أيضا ان العزيز بالله صعد المنبر فوجد فيه ورقة كتبت عليها هذه الآيات :

اـنـاـ سـعـنـسـاـ نـسـاـ منـكـراـ  
يـتـلـىـ عـلـىـ المـنـبـرـ فـالـجـامـعـ  
لـاـنـ كـنـتـ فـيـمـاـ تـدـعـيـ صـادـقاـ  
فـاذـكـرـ أـبـاـ بـعـدـ الـأـبـ الـرـابـعـ  
وـاـنـ تـرـدـ تـحـقـيقـ مـاـ قـلـتـ  
فـانـسـبـ لـنـاـ نـفـسـكـ كـالـطـائـمـ  
أـوـ فـدـعـ الـأـنـسـابـ مـسـتـورـةـ  
وـاـدـخـلـ بـنـاـ فـالـنـسـبـ الـوـاسـعـ  
فـانـ أـنـسـابـ بـنـىـ هـاشـمـ  
يـقـصـرـ عـنـهـاـ طـعـمـ الطـامـعـ

فـانـ صـحـتـ هـذـهـ الرـوـاـيـةـ فـالـتـحـدىـ فـيـهـ باـظـهـارـ النـسـبـ قـبـلـ الـأـبـ الـرـابـعـ  
صـادـرـ مـنـ خـيـرـ بـمـوـضـعـ الـخـلـافـ ، لأنـ تـارـيخـ النـسـبـ قـبـلـ الـأـبـ الـرـابـعـ يـوـافـقـ

التاريخ الذي عمد فيه الأئمة العلويون الى الاختفاء والتذكر بأسماء غير أسمائهم وائتمان الدعاة دون غيرهم على أسرار ذرتهم وأولياء عهودهم ، وإنما العجيب في الأمر أن يكون العزيز بالله هو الذي يتحداه المتحدى باظهار نسب كنسب « الطائم » العباسى ، مع أن الطائم نفسه قد علم بكتابه وزيره عضد الدولة الى العزيز وحمله الهدايا اليه واعترافه بنسبة وانه تلقى منه الشكر « لاخلاصه في ولاء أمير المؤمنين ومودته ومعرفته نحو امامته ومحبته لأبائه الظاهرين »

وقد توادر ان عضد الدولة هم بالخطبة في بغداد للخلفاء الفاطميين فرد أحد الدهاء من أصحابه عن هذا النزد وقال له : « انك مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحثين دمه ، ولكنك اذا أقمت علويها في الخلافة كان معك من تعتقد انت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لاستحلوا دمك وقتلوك .. »

وقد أشار صاحب « الروضتين في أخبار الدولتين » الى قيام الدولة الأيوية بعد الدولة الفاطمية ولكن يعلم ان صلاح الدين الأيوبي اذن بالخطبة في يوم الجمعة لل الخليفة الفاطمي ، وانه انما حوال خطبة الى الخليفة العباسى بعد وفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، وانه أطاع في ذلك أمر رئيسه نور الدين بن زنكى ، ولم يكن لصحة النسب أو بطلانه شأن في هذا التغير ، ومرجعه الأهم الى الخلاف بين مذهب الشيعة ومذهب أهل السنة ، اذ كان الأيوبيون سنيين يشتدون في اتباع مذهب أهل السنة ، وزادهم فيه شدة ما كان بين الكرد والديلم من التغور والنزاع ، وكان الديلم شيعيين والكرد سنيين ، وقد تفاقم التزاع بين رؤسائهم حتى سرى الى الألقاب ، فكان بنو بويه من الديلم يتلقبون باللقب معز الدولة وركن الدولة وعضد الدولة ، وكان الأيوبيون من الكرد يتلقبون باللقب نجم الدين وعماد الدين وصلاح الدين

وما يلاحظ أن بعض المؤرخين يحيطون على البعد في كتابتهم عن الدعوة الفاطمية ودعاتها كلما خلطوا بين هذه الدعوة والدعوة الباطنية ،

فأبو المعالى الفارسى يقول في كتابه « بيان الأديان » إن ميمونا القداح من مصر ، وجملة المؤرخين يقولون عنه أنه من فارس ، وكل منهم يحيل إلى المكان البعيد حيث يتعدى عليه تحقيق الرواية بالسند الصادق في مكان قريب ..

وصح من أجل هذا قول ابن خلدون أن شهادة الشاهدين بالطعن في نسب القوم كانت على السمع ، وأصاب المقرizi حين قال عن الملوين أئم « على غایة من وفور المدد وجلال القدر عند الشیعہ فما العامل لشیعهم على الاعراض عنهم والدعاء لا بن مجوسی أو لا بن یهودی ؟ هذا ما لا یفعله مخلوق ولو بلغ الغایة في الجهل والسلف »

ومقرizi وابن خلدون قد أرضا للمهدي الفاطمي بعد عهده بزمن طویل - وهو سنيان غير متّشیعین - ولكنها نظرا في مطاعن أعدائه نظره المؤرخ الحق فلم يجدا فيها حجة مقبولة وقامت عندهما حجة النسب الصحيح مقام التفليب والترجيع ، وقد عاصر المهدی مؤرخ أندلسی - هو عرب بن سعد - وكان من يوالون الأمويين فلم يقدح في نسب الرجل ولم یسمع من أمراء أمیة في الأندلس قدحا فيه

وغایة ما تنتهي اليه في هذه المسألة - مسألة النسب الفاطمي - ان المطاعن لم تمسسه بدليل واحد یعول عليه ، وان مطاردة عبید الله عند اتجاهه الى المغرب دليل على ان العباسین أنفسهم كانوا یخشون دعوته ، وان مبایعة الشیعہ لأبنائه - سواء شیعہ الدیلم في بغداد او شیعہ الزیدین خاصة في اليمن - ترجح صدق اتسابهم إلى السيدة فاطمة الزهراء ان لم تؤکدہ كل التوكید ، وقد كانت دعوى المنکرین عليهم كما قدمنا في صدر هذا الفصل أضعف الدعوات لأنها الدعوى المنتظرة التي تعلیها البواعث المتعددة ولا یتخیل أحد أن یتصدى الفاطمیون لطلب الخلافة بحق ذلك النسب ثم لا یتعرضون لأنکاره عليهم ما وسع المنکرین أن ینکروه ..

## البَاطِئَةُ

كان المتقدعون بالطعن في نسب الفاطميين كثيرين متعددين ، كلهم كما تقدم من ذوى السلطان أو أتباع ذوى السلطان ، وقد استعانا بالحول والجحيلة في ترويج مطاعنهم واحتزاع أقاويلهم فاستمالوا اليهم في البلاد الإسلامية من لا مصلحة له في مطاعنهم ، ولكننا نحسب - بعد مراجعة أخبار العصر وحوادثه - أن المطاعن في النسب لم تكتب من المصلقين إلا القليل الذين ينظرون إلى الأمر كله بغير اكتراث أو يكترون له ولكنهم عيال على الحوادث لا يقدمون ولا يؤخرون . أما الأثر البالغ في تغيير الناس من الفاطميين فأنما جاء من ربط الحركة الفاطمية بالحركة الباطنية وادعاء الخصوم أن الباطنين جميعا اسماعيليون من يتبعون إلى اسماعيل ابن جعفر الصادق جد القائرين بالدعوة الفاطمية

فمن زمن والناس في الشرق يفهمون أن الاسماعيلية هي كلمة مرادفة للباطنية ، ويلصقون بالاسماعيلية كل ما لصق بالباطنية من المساوى والمنكرات ، ومن الفضائح والقبائح ، وهي في الواقع كثيرة منفرة لا تحتاج إلى جهد كبير في التغيير والتشهير

وساعد على لصوق التهمة بالفاطميين أن بعض المجاهرين بالاباحة والاجتراء على مناسك الدين الإسلامي كالقرامطة في البحرين كانوا يعلنون التشيع للاسماعيليين ، أو بعبارة أخرى للفاطميين ، فوغر في الأذهان أن دعوة الاسماعيلية جميعاً إباحيون ، وإن الباطنية هي أخفاء المنكرات وأعلان التشيع للتغريب والتضليل

وقد قيل أن رجلاً من دعاة الباطنية يدعى « على بن فضل » أدعى النبوة وأباح جميع المحرمات وقال شاعره في روايات مختلفة :

خذى الدف يا هذه والعبى  
وغنى هزاريك ثم اطربى  
تولى نبى بنى هاشم  
وهذا نبى بنى يهرب  
أهل البنات مع الأمها  
ت، ومن فضله زاد حل الصبي  
وقد حط عنا فروض الصلا  
ة وحط الصيام فلم يتبع  
اذا الناس صلوا فلا تنهى  
وان صوموا فكلى واشربى  
ولا تطلبى السعى عند الصنا  
ولا زورة القبر في يثرب  
ولا تمنى نفسك المعرس  
سین من الأقررين أو الأجنبي  
فكيف حللت لهذا الفسر  
يب وصرت محرمة للأب  
اليس الفرسان لمن ربئه  
ورواه في الزمن المجلس

وقيل على الجملة ان الباطئين يظهرون الاسلام ليكيدوا له ويدسوا  
عقائد الشرك والضلال بين أهله ، وانهم في الأصل مجوس منظوون على  
نفس شديد للعرب ودينه لم يقدروا على هدم هذا الدين وتقويض دولة  
العرب بالقوة فاحتالوا على مأربهم بالدسسة والمكيدة ، وأنشأوا نحلتهم  
لاستدراج المسلمين وتحويلهم شيئاً فشيئاً من عقائدهم الى التعطيل  
والاباحة والكفر بالبعث والمعاد واتکار الفرائض والعقائد والأدیان  
قالوا : وان الاسعاعية خاصة بيشون دعوتهم على درجات ويأخذون  
المواهیق والایمان على مریدهم الا يفشو لهم سرا ولا يظهروا عليهم

أحدا ، ثم يتدرجون بهم من التشكيك وطلب المزيد من العلم على أيدي الأئمة المقصومين ثم تلقين بعض الرموز التي تررق المريد وتشوّقه الى المزيد من الأسرار ثم تعريفه بنظام النوع؛ ومن يتولاها ثم تأويل النصوص وتحريف الألفاظ على ظواهر معانٍ لها ثم الخوض في المذاهب الفلسفية التي تنتهي في الدرجة التاسعة من درجات الكشف والذلـى الى تأليـه الـامـام على مذهب الحلول ، وانـه هو روح الله قد حلـت في جـسـدـ اـنـسـانـ ، ولـعـرـى ماـذاـ فـوـسـعـ عـشـرـةـ اوـعـشـرـينـ مـنـ «ـالـواـصـلـيـنـ»ـ الـىـ هـذـهـ الـدـرـجـةـ فـيـ أـرـذـلـ العـمرـ أـنـ يـصـنـعـوهـ حـينـ يـعـلـمـونـ سـراـ بـابـاحـةـ الشـهـوـاتـ وـرـفـضـ الـادـيـانـ؟ـ !ـ

وـآـفـةـ الـبـاحـثـينـ فـيـ هـذـهـ الـأـلـغـازـ وـالـاشـاعـاتـ أـنـهـمـ جـلـوـهـاـ كـلـهـاـ مـسـأـلـةـ

أـخـبـارـ وـرـوـاـيـاتـ وـرـاحـوـاـ يـعـتـنـىـ أـنـفـسـهـمـ فـيـ جـمـعـ هـذـهـ الـأـخـبـارـ وـالـرـوـاـيـاتـ

فـاـذـاـ هـىـ تـنـاقـضـ وـلـاـ تـسـتـرـ عـلـىـ قـرـارـ

\*\*\*

مـؤـلـاءـ الـمـؤـرـخـونـ الـوـرـقـيـونـ أـوـ الـعـرـفـيـونـ لـاـ يـصـلـحـونـ لـبـحـثـ هـذـهـ

الـمـسـائـلـ الـتـىـ يـبـدـأـ الـبـحـثـ الصـحـيـحـ فـيـهـاـ وـيـتـنـهىـ فـيـ السـرـيـةـ الـأـنـسـانـيـةـ

وـمـاـ يـجـوزـ فـيـهـاـ وـمـاـ يـجـوزـ ،ـ وـمـاـ يـقـلـ وـمـاـ يـمـقـلـ ،ـ وـمـاـ يـسـتـحـقـ أـنـ يـعـارـضـ

عـلـىـ الـأـورـاقـ وـالـنـصـوصـ وـمـاـ يـجـبـ أـنـ يـرـفـضـ بـدـاهـةـ ،ـ فـلـاـ يـطـوـلـ الـبـحـثـ

فـيـهـ بـعـدـ ذـلـكـ إـلـاـ لـتـطـبـيقـ أـصـوـلـ الـنـقـدـ وـاتـخـاذـ الـأـمـثـلـةـ عـلـىـ حـقـائـقـ الـتـارـيـخـ

وـأـبـاطـيلـهـ كـمـاـ تـعـرـضـهـاـ عـلـىـ الـأـخـبـارـ وـالـرـوـاـيـاتـ

فـمـنـ الـطـرـيفـ حـقـاـ أـنـ يـقـيـدـ الـمـرـيدـونـ بـالـإـيمـانـ وـالـأـقـاسـمـ لـيـكـتـمـواـ السـرـ

ثـمـ يـأـتـىـ السـرـ الـمـكـتـومـ فـاـذـاـ هـوـ سـرـ يـطـلـعـهـ مـنـ جـمـيعـ تـلـكـ الـإـيمـانـ وـالـأـقـاسـمـ

عـلـىـ سـبـيلـ الـيـقـينـ وـلـاـ يـضـمـنـ نـقـلـهـ إـلـىـ يـقـينـ جـدـيدـ !ـ

وـأـطـرـفـ مـنـهـ أـنـ يـقـالـ عـنـ رـجـلـ اـنـ مـعـطـلـ مـنـكـرـ لـلـمـعـادـ مـنـكـرـ لـلـأـدـيـانـ ،ـ

مـنـكـرـ لـلـوـعـودـ الـإـلـهـيـةـ ثـمـ يـقـالـ عـنـهـ اـنـ كـرـاهـةـ دـيـنـ مـنـ الـأـدـيـانـ تـبـعـهـ إـلـىـ

الـجـهـادـ سـرـاـ وـعـلـانـيـةـ وـالـاستـمـاتـةـ فـيـ الـجـهـادـ حـتـىـ يـتـعـرـضـ لـلـقـتـلـ وـالـتـشـرـيدـ

أـمـلـاـ فـيـ يـوـمـ يـزـوـلـ فـيـهـ هـذـاـ الـدـيـنـ وـيـشـهـدـ هـوـ زـوـالـهـ أـوـ لـاـ يـشـهـدـ

بـعـدـ سـنـوـاتـ أـوـ بـعـدـ أـحـقـابـ وـقـرـوـنـ

إنما يعمل هذا العمل لهدم دين من الأديان من يؤمن بدين غيره ويسمى  
لقيام دولة من أبناء دينه ، فاما المنكر المطل للكل غقيقة فلن يبقى في نفسه  
من العماسة الروحية ما يهون عليه المشقة والخطر ويقيمه ويقلده كراهة  
لدين هو وغيره من الأديان عنده سواء

كان تصديق هذا مفهوما في القرون الوسطى ، لأنهم كانوا يومئذ  
يعتقدون أن الكافر يكفر في سبيل الشيطان وأنه يرى الشيطان بعينه  
ويسمع وسواسه بأذنه ويساومه ويشارطه وبيشه روحه ويأخذ منه  
السيطرة والملائكة بدليلا من نعيم السماء ، وكانوا يومئذ يقولون عن أناس  
باعينهم أنهم على صلة بالشيطان وأنهم تعلموا على يديه السحر الأسود  
واطلعوا منه على أسرار النجوم والرجوم واستهواهم مكره فعقدوا معه  
صفقة المعبود في حساب المؤمنين

أما في عصرنا هذا فمن السير أن تخيل الإنسان ملحدا ينكر كل شيء  
ويتجدد لأهوال الدعوة الباطنية لأجل شيء من الأشياء كائنا ما كان ، الا أن  
يكون ذلك شيء سطوة يطلبها لنفسه في حياته أو في بيته ، ولا يعقل  
حيثند أنه يتدرج بالأتباع المربيين من الجهل بحقيقة إلى العلم بتلك  
الحقيقة والاطلاع على دسائسه وغواياته التي يلبسها على الناس بتلبيس  
من أغوار العقائد وأسرار الديانات

وقد شغلت طائفة من المؤرخين الأقدمين والمحدثين بدعوة القرامطة  
وأشبههم في اليدين وفارس وادعائهم نسبة إلى الاسماعيلية في المغرب مع  
مجاهرتهم بالمعاصي واجترائهم على مناسك الحجج وتمثيلهم بالحجاج من  
الرجال والنساء ، فخطر لهذه الطائفة من المؤرخين أن علاقة النسب بين  
القرامطة والاسماعيليين جد يحتمل البحث ويؤدي البحث فيه إلى ثبوت  
العلاقة بين هؤلاء وهؤلاء ..

وأغرب الفرائب أن أحدا من أولئك المؤرخين لم يخطر له أن يسأل :  
لماذا لم يظهر في المغرب حيث تقوم الدولة الفاطمية كلها أناس من دعاة  
الاباحية والعصيان ، كالذين ظهروا في البحرين واليدين وفارس وبعض

بقاء الشام ..

فمن نظرة سريعة يمكن أن يتبيّن الناظر في التاريخ أن الاتساع إلى  
الإسماعيليين مفهوم من أناس يقيمون في بلاد الدولة العباسية ويعملون  
الخروج عليها ، فهم في حاجة إلى سلطان مشروع يقاومون به سلطانها  
المخلوع ، واتساعهم إلى الفاطميين أو الإسماعيليين هو السند الذي  
يركتزون إليه في محاربة الدولة العباسية واتكال حرقها في الطاعة والولاء ،  
 ولو كان نشر الدعوة الفاطمية يتولاها دعاة العصيان والمعاصي لكان أولى  
البلاد أن تظهر فيه طوائف الإباحة هي بلاد المغرب حيث دان القوم لخلافة  
الفاطميين ..

\*\*\*

ولقد حدث فعلاً أن القرامطة خلعوا البيعة الفاطمية ورجعوا إلى الدعاء  
على المتأبر باسم الخليفة العباسى حين وقعت النبوة بينهم وبين الخليفة  
الفاطمى في القاهرة ، وسواء لهم الطمع انهم قادرون على فتح مصر بعد  
أن جربوا قوتهم وحيلتهم في فتح أطراف من بلاد الشام  
وقد يكون أغرب من هذا أن يقال من جهة أن الإباحة هي الدرجة  
السابعة أو الثامنة التي يصل إليها المريد المترقى في كشف الحجب وعلم  
الأسرار ، ثم يقال من جهة أخرى أن هذه الإباحة سر مباح في الطريق  
يعكّف عليه المؤمن جهراً ويردّده الشعراً ويتعنّى به القيان ..

لم ينفصل علم النفس وعلم التاريخ في بحث من البحوث كما اتفاً  
في بحث قضية الإسماعيلية والباطنية ، ولهذا كثُر فيه التخبط وقل فيه  
الثبوت والوضوح ، ونحسب أن محة التاريخ هنا أصعب من كل محة  
لأن المؤرخ هنا يعمل عمليًّا ولا يستقل بعمل واحد : يعمل لمعرفة الحقيقة  
ويعمل لاستخلاصها من الأباطيل التي تحجبها عن عمد وتديير ، وواحد  
من هذين العملين كثير على مؤرخي الورق والعرف

انتا عرفنا ألواناً من النظم السرية التي اصطلحت عليها الجماعات  
المتسترة في العصور القديمة ، وببعضها دينيٌّ يتخد له أغراضًا سياسية

كالجماعات الأورفية والجماعات الفيثاغورية ، ولا ندرى الان كيف تكشفت هذه النظم المزعومة ، بل لأندرى هل هي في الحق كانت موجودة متبعة أو هي أوهام وتخمينات من وحي الاستطلاع والاستبطاط

ولتكنا اذا سمعنا عن نظم سرية في عصور التاريخ القريب فلا معنى في هذه الحالة للاحالة على القدم أو للخبط في الظنون ، اذ يحق لنا في هذه الحالة أن نسأل عن المريد الذي تدرج في مراتب الباطنية حتى وصل الى قيادة الدعوة ثم خانها وأفسى أسرارها ، أو يحق لنا أن نسأل عن الحاكم الذي تعقب الجماعة بعيونه وجوايسه حتى كشف عن بواطنها ، أو يحق لنا أن نسأل عن الأوراق المطوية التي نشرت بعد العثور عليها في ابنها أو بعد انتصاف زمانها ، ولسنا نذكر فيما اطلعنا عليه من أخبار الباطنية أن أحدا تحدث عن مرید واحد صعد على مراتبها من درجة التلميذ المبتدئ الى درجة الحجة المطلع على جميع خفاياها ، ولا ان أوراقا لها فصلت فيها نظمها وأسرارها وأذيعت في أوانها أو بعد أوانها ، بل زعم الرواة أن الذى فضح الجماعة وأنكر على جعفر الصادق نفسه دعوه قبل دعوى اسماعيل ابنه وخلفائه هو عبد الله بن ميمون القداح ، ومن هو عبد الله بن ميمون القداح ؟ هو واضح النظام كله ومرتب الدرجات كلها ومصطنع التخفي والتتکر لبلوغ مقاصده من الدعوة باسم اسماعيل ابن جعفر الصادق جد الامامين أجمعين ..!

بعد الله هذا هو الذى قال فيما زعم الرواة :

هات استنى الخبرة يا سنبر  
فليس عندي اتنى أنشر  
اما ترى الشيعة في فتنة  
يغراها عن دينها جعفر  
قدس كرت مغرورا به برهة  
ثم بدا لي خبر يستر

ولم تكفه قطعة واحدة ينظمها حتى نقل عنه الرواة قطعة أخرى يقول فيها .

مشيت الى جعفر حبقة  
فالقيته خادعا يخلب  
يجسر العلاء الى نفسه  
وكل الى جبله يجذب  
فلو كان أمركم صادقا  
لما ظل مقتولكم يسحب  
ولا غض منكم عنيت ولا  
سما « عمر » فوقكم يخطب

وما كانت خلافة عمر، ولا أبناء القتل من آل فاطمة وعلى ، سرا مجھولا  
قبل الياذ بالإمام جعفر والبایعه له ولبنيه ، وألاحدث بعد العلم بهذه  
الأسرار وغيرها أنه عدل عن الدعوة الاسماعيلية فيما توالت به أخباره  
في المشرق والمغرب ، فما زالت دعوة القداح الى ختام حياته قائمة على  
المبایعه بالخلافة لاسماعيل وأبناء اسماعيل

\*\*\*

وعلى هذا النحو يتبع المؤرخ ما شاء من أخبار الباطنية فلا يمضى مع  
خبر منها خطوة أو خطوتين حتى يصطدم بالعقل أو بالواقع صدمة توجب  
الشك ان لم تجزم باليقين من بطلان الخبر وتلفيقه . وخير من هذه  
« الورقيات والتصييات » أن نطمئن الى مقياس واحد لا شبهة عليه من  
أهواء السياسة ثم نعرض عليه الأخبار مما يوافقه أو لا يواافقه عسى أن  
نخلص منها الى قول صحيح أو نقد صحيح  
ذلك المقياس هو الحالة النفسية الاجتماعية التي كانت شائعة في العالم  
الإسلامي من القرن الثالث الى القرن الخامس للهجرة ، ونخصص منها  
بالنظر ما يرجع الى مطالب الحكم من جهة ومساعي التكتم والمداراة من  
جهة أخرى ..

فالدولة العباسية دخلت في دور الضعف والتفكك منذ أواخر القرن الثالث للهجرة ، فاختلت قواعد الحكم وضاعت الثقة في الحكومة القائمة وكثيرون النفصلون عن الدولة والمتضضون عليها ، وكان الدين هو حجة المطالبين بالحكم وحجة الخارجين عليه . فمن خرج على بنى العباس أنكر عليهم حق الخلافة باسم النبي مع وجود عترة النبي من أبناء على وفاطمة ، ومن اعترف لبني العباس بالحق الشرعي في الخلافة زعم أن الحكم في دولتهم لغيرهم من وزراء الترك أو الدليل أو كتاب الدواوين الذين يتواطأون مع الولاية على اتهاب الأموال وبذلها للصنائع والأعوان ، وأصبح دماء الشعب على استعداد لأنكار الخلافة على القائمين بها والاستسلام للداعياء الواثقين عليها ، وتتابع المتحطون للمعاذير الدينية في طلب الحكم أو عصيان الحاكمين من المقصوبين أو المستضعفين

وفي تاريخ شاعر مشهور بالطموح مثال لادعاء الحكم باسم الدين مرة وباسم الكتابة والأدب مرة أخرى أو مرات ، ذلك الشاعر هو أبو الطيب المتتبى الذى نسب في بعض الروايات باسم أحمد بن الحسين بن الحسن ونشأ بين العلوين في الكوفة . فإنه ادعى النبوة أو المهدية في بادية السماوة وبلن من تفاصي دعوه أن خافه والى حصن من قبل الاخشيد فاعتقله ولم يطلقه الا وقد عدل عن دعواه ، ومن أحاديث المعجزات التي طولت بها كما جاء في رسالة الغفران انهم قالوا له في بنى عدى : « هاهنا ناقة صعبة فإن قدرت على ركوبها أقررتنا إناك مرسل . فمضى إلى تلك الناقة وهي رائحة في الإبل وتحيل حتى وثبت على ظهرها ، فنفت ساعة وتنسكت بربة ، ثم سكن تقارها ومشت مشى المسحة وورد بها العلة وهو راكب عليها فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم »

قال أبو العلاء بعد ذلك : « وحدثت أيضا أنه كان في ديوان اللاذقية وأن بعض الكتب انتقلت على يده سكين الأقلام فجرحته جرحًا مفترطا ، وإن أبي الطيب تقل عليها من ريقه وشد عليها غير متظسر لوقته وقال للجريح لا تطهرا في يومك ، وعد له أياماً وليلات ... فبرى الجرح

فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أعلم اعتقاده ، ويقولون انه كعبى الأموات .. وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية ، أو في غيرها من السواحل ، انه أراد الانتقال من موضع الى موضع آخر بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما في النباح ، ثم انصرف فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : انك ستجد ذلك الكلب قد مات ، فلما عاد الرجل أتى الأمر كما ذكر .. »

وقد كانت دعوى النبي أو المهدية في عنوان شباب أبي الطيب ، فلما أوفى على الشيخوخة كان قد عدل زمانا عن دعوه ولم يعدل عن طلب الولاية بنزريعة الأدب والكتابة ، وأطعمه فيها أن كافورا الذي طلب منه الولاية كان خصيا مملوكا فاستبد بالعرش وأصبح فيما زعم : « دون الله يعبد في مصر .. ! »

قال داعي الدعاء يصف حال الناس في تلك الأزمنة من كتاب أرسله إلى أبي العلاء المعري : « ... انتى شقت بطن الأرض من أقصى ديارى إلى مصر وشاهدت الناس بين رجلين : اما منتھلا لشريعة صباً اليها ولنوح بها الى الحد الذى ان قيل له من أخبار شرعه ان فيلا طار أو جملأ باض لما قابله الا بالقبول والتصديق ، ولكن يكفر من يرى غير رأيه فيه ويصفه ويلعنه ، فالعقل عند من هذه سبله في مهواه ومضيعة .. أو منتھلا للعقل يقول انه حجة الله تعالى على عباده ، مبطلا لجميع ما الناس فيه ، مستخفا بأوضاع الشرائع ، معتبرا مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بسكاتها ، لكونها مقدمة للجهالين ، ولجامما على رؤوس الجرمين المجازفين ، لا على أنها ذخيرة للعقبى أو منجاة في الدار الأخرى . فلما رمت بي المرامي الى ديار الشام ومصر سمعت عن الشيخ ، وفقه الله ، بفضل في الأدب والعلم قد اتفقت عليه الآقاویل ووضح به البرهان والدليل ، ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين ، وفي أمره متبللين ، فكل يذهب فيه مذهبها ويتبعه من تقسيم الظنون سبيلا ، وحضرت مجلسا جليلا أجري فيه ذكره فقال الحاضرون فيه غثا وسمينا ، فحفظته بالغيب ،

وقلت ان المعلوم من صلابتة في زهذه يحميه من الظنة والريب ، وقام في  
نفسي أن عنده من حثائق دين الله سرا قد أسل عليه من التقى سترا ،  
وأمرا تميز به عن قوم يكفر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا ، ولما  
سمعت البيت :

غدوت مريض الدين والعقل فالقنى  
لتسمع أبناء الأمور الصخائج

وثقت من خلدي فيما حدست عقوبته ، وتأكدت عهوده ، وقلت : إن  
لسانا يستطيع بمثل هذه الدعوى نطقا ، ويفتق من هذا العظيم رتفقا ،  
للسان صامت عنده كل ناطق ، وناطق من ذروة جبل من العلم شاهق ،  
فقصدته قصد موسى عليه السلام للطور اقتبس منه نارا ، وأحاول أن أرفع  
بالفخر منارا ، بمعرفة ماتختلف عن معرفته المتخلفون واختلف في حقيقته  
المختلفون .. »

وداعي الدعاة صاحب هذا الخطاب هو « أبو نصر هبة الله ابن موسى  
ابن أبي عمران » صاحب أكبر منصب من مناصب الدعاة في الدولة  
القاطمية ، كتب رسائله إلى حكيم المرة ينافشه في تحريم اللحوم على  
نفسه وسائله عن البعث والقيمة ، مستعظاما على المقولين أن يتهموا  
باتكارهما حكيميا كأبي العلاء ، وقد استعار من اسمه « موسى بن أبي  
عمران » تفسيرا لوقفه من رهين المحسين موقف المقتبس من نار الطور  
وعلى ذكر أبي العلاء واعتقد الناس في أسرار الحكم وقوتها الخفية  
تنقل مارواه ابن الوردي حيث ذكر في تاريخه « إن حсадه أغروا به وزير  
حلب فجهز لاحضاره خمسين فارسا ليقتله ، فأذل لهم أبو العلاء في مجلس  
له بالمرة واجتمع بنوعمه وتآلموا لذلك فقال : إن لي ربا يمتنعني ، ثم قال  
كلاما منه مالا يفهم ، وقال : الضيوف الضيوف . الوزير وزير . فوقع  
المجلس على الخمسين فارسا فماتوا ووقع الع iam على الوزير بحلب فمات ،  
فمن الناس من زعم أنه قتلهم بدعااته وتهجده ، ومنهم من زعم أنه قتلهم  
بسحره ورصله »

وروى صاحب الكوكب الثاقب هذه القصة بزيادة تفصيل فذكر عن الغزالى أنه قال : « حدثنى يوسف بن على بأرض الهركار قال : دخلت معرة النعمان وقد وشى وزير محمود بن صالح صاحب حلب اليه بأن المجرى زنديق لا يرى افساد الصور ويزعم أن الرسالة تحصل بصفة العقل ، فأمر محمود بحمله اليه من المرة وبعث خمسين فارسا ليحملوه ، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان وقال له : يا ابن أخي ! قد نزلت بنا هذه الحادثة ، والملك محمود يطلبك ، فان منعتك عجزنا وان أسلمناك كان عارا علينا عند ذوى الذمام ويركب تتوخ الذل والعار ، فقال : هون عليك ياعم ولا بأس عليك ، فلى سلطان يدب عنى . ثم قام فاغتسل وصلى الى نصف الليل ، ثم قال لغلامه : انظر الى المريخ أين هو » فقال : في منزلة كذا وكذا ، فقال : زنه واضرب تحته وتدا ، وشد في رجلي خيطا واربطه الى الوتد ، ففعل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الأزل ! يا علة العلل ! يا صانع المخلوقات ! وموجد الموجودات ! أنا في عزك الذى لا يرام وكتفك الذى لا يضام ، الضيوف الضيوف .. الوزير الوزير .. ثم ذكر كلمات لا تفهم ، واذا بهذه عظيمة فسأل عنها ققيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها فقتلت الخمسين ، وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر لا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير . قال يوسف ابن على : فلما شاهدت ذلك دخلت على المجرى فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أرض الهركار . فقال : زعموا أنتى زنديق ، ثم قال : اكتب . وأملأ على ؟ أبياتا من قصيدة أولها :

### أستغفر الله في أمني وأوجسالي

من غفلتى وتوالى سوء أعمالى (١)

هذه الحالة النفسية التي عممت أرجاء العالم الإسلامي في القرن الرابع خاصة خلية أن ينجم فيها عشرات من يستهونون الناس بالأسرار الباطنة ، لأن عالم الباطن مستودع كل أمنية وبغية كل طالب :

(١) كتاب ابو العلاء المجرى للمرحوم « احمد تيمور باشا »

الدين وطالب الدنيا ، طالب المعرفة وطالب السحر والعيافة ، أو طالب العلم الأبيض وطالب العلم الأسود ، وخلق أن يقف النظر طويلاً عند قول داعي الدعاء أنه يطلب سراً من أبي العلاء ، وأنه قام في نفسه أن عند أبي العلاء « من حقائق دين الله سراً قد أسبل عليه من التقى ستراً ». فإنه قد يكون في هذا القول مادحاً أو مازحاً ولكنه أبان عن سمة العصر كله من « الباطنية » التي يفرضها على نفسه العارف بأسرار الدين ...

وأخلق من هذا أن يستوقف النظر أن هذا الكلام صادر من داعي الدعاء في الدولة الفاطمية ، وهو الرجل الذي يتهمي إليه كل سر ، ويصل إليه التلميذ بعد درجات ليس معه منها — فيما زعم الزاعمون — ان الدين لغو وإن القيامة وهم وإن المحرمات مستباحة للعارفين ، فلو كانت هذه رسالته التي يتهمي إليها كل متقدم في درجات الأسرار بما حاجته إلى محاسبة أبي العلاء على الظنون التي تداعع عنه في أمر الحلال والحرام وأمر البعث والحساب ؟ لقد كان الرضي عن مذاهب الزندقة جمِيعاً أولى به من التعرض لذويها ومحاسبتهم عليها ، فانهم يتبرعون بما يجتهد له ويرتب المراتب ويحتال الحيل للوصول إليه ، بعد طول العناء

الآن الخلاصة الثابتة في ذلك العصر أن « الباطنية » الواقعية حالة من الحالات التي لا تستغرب من دعاته المخلصين وأدعائه المغرضين ، فهناك « باطنية » يفرضها الناس على أنفسهم قبل أن يفرضها عليهم نظام مقرر أو مذهب منظم ، وادعاء الأسرار في تلك البيئة أمر متظر متربق لا غرابة فيه ، وأقرب ما يكون هذا الادعاء إلى من يطلب المنفعة لنفسه أو يطلب المكانة بما يعلمه ويتعلم منه غيره ، وفقاً لشرطه وتدييره وقد صار المجتمع الإسلامي إلى تلك الحالة في القرن الرابع وما تلاه بعد تمهيدات متلاحقة بعضها من فعل السياسة وبعضها من فعل الثقافة والعادة المستحدثة ..

فأما التمهيدات التي هي من فعل السياسة فهي ما أسلفناه من تزعزع الثقة بحق السلطان القائم على اختلاف الحاكمين والحكومات ، وأما التمهيدات التي هي من فعل الثقافة والعادات المستحدثة فهي انتشار الفلسفة

ونشأة البحوث العقلية في علوم الدين ومنها علم الكلام والتوحيد ، ومنها اقباس الحضارات الغربية واقتسم الأمر فيها بين المحافظة والتجديد والاسترسال مع العرف الطارئ في غير بحث ولا مبالغة .  
وقد كان أنصار السلطان القائم محافظين لأنهم يغضون التغيير ويحافظون على كل قديم

وقد كان أنصار البحث والاستطلاع أقرب إلى التجديد والتغيير .  
وكانوا مظنة للتهم من أنصار التقديم ، فكان من الطبيعي الذي لا غرابة فيه أن يصطنعوا التقى ويطهروا للناس غير ما يطئون ، سواء كانوا من المتصوفة الذين يلتمسون النجاة عند « الواصلين » المتمكنين من بواعظ الأسرار ، أو كانوا من الفلاسفة الذين يشفقون من رجمات الظنون ولا يأمنون العامة ولا ذوى السلطان المتوجسين من كل جديد ، أو كانوا من غير المتصوفة وال فلاسفة أقواما يعالجون من المعرف ما يشبه السحر والكهانة ، وهي علوم التنجيم والتماس الأسرار عند النجوم

ولم يكن الفارق بين علم النجوم الصحيح وعلم النجوم الزائف قد حسم في ذلك العصر على وجه يمنع اللبس والاختلاط بين المطلبين ، فاز الفلسفه الذين كانوا يتحدثون عن العقول العشرة كانوا يربطون بين هذه العقول العشرة وبين الأفلاك ويقولون بغلبة الأرواح التورانية التي لا تقبل الفساد على كواكب السماء وأن الصلة بينها وبين الانسان تتوقف على الرياضة والصفاء ، وقد كان المتصوفة يؤمنون بالتجلى ولا يمنعون أن ينكشف الغطاء عن البصر والبصيرة فتلمح في العالم العلوى ما أودعه الله فيه من الدلائل والاشارات

وإذا كانت « الباطنية الواقعية » قد سوت لشاعر أن يطلب السلطان بدعوى النبوة أو المهدية ، وقد أوقعت في التفوس أن ناسكا ضريرا يسيطر على الوزراء والجنود بقوة الفيپ أو بقوة النجوم ، فمن الخلط أن يقان ان الباطنية كلها وليدة الدعوة الفاطمية ، وأن هذه الدعوة مسئولة عن كل مكان يستباح يومئذ في الغفاء ، وكل ما تذرع به الطامعون في الحكم من ذرائع الدنيا والدين ..

## الباطنية الفاطمية

و كانت للفاطميين على هذا باطنية فاطمية أو اسماعيلية ، الى جانب هذه  
الباطنية الواقعية ..

لم يقدم الدليل على اتقاء الباطنية الفاطمية أو الاسماعيلية الى داعية  
من المجروس أو اليهود ببرها تدبيرا ولتفقها تلفيقا لهدم الاسلام خاصة  
و هدم الديانات عامة ، وتلقين « الوالصلين » دروس الكفر والتعطيل  
وانكار البحث والحساب واستباحة المحرمات والمنكرات ، كراهة العرب  
و دولتهم ، واتقاما منهم بالدسيسة وقد عجزوا عن الاتقام منهم بالتهرب  
والعدوان ..

فالتهمة ضعيفة لأنها جاءت من مفترضين غرضهم معروف ، وهي ضعيفة  
بعد هذا لأنها مضطربة متناقضة لا ثبت على زعم واحد ولا تستقيم على  
وجهة واحدة . فأصل الدعوة تارة من المجروس وتارة من اليهود ، ومرة  
يرجع أصلها الى ديسان الذى ظهر قبل الاسلام ، ومرة أخرى يرجع الى  
ابن القداح الذى يتبع من شعره أنه مسلم وأنه شرك في الامام جعفر بعد  
أن لاذ به وتلمس عليه ، لأن آئية الشيعة يقتلون وينهزمون

وفي التهمة من الضعف فوق هذا وذلك أنها لا تجري بجري المأثور  
من طبائع النفوس ، فاذ الرجل الذى يكفر بالدين عامة لا سلكه الحماسة  
لهدم دين ولا تبلغ منه هذه الحماسة أن يصبر للجهاد الطويل ويستهين  
بالخطر على الروح والراحة وهو يحارب السلطان ويحارب اجتماع الناس  
من حوله على اختلاف النحل والأديان

ومن المشكوك فيه بعد هذا جميعه أن ينهمد الدين اذا كفر به في كل  
عصر طائفة من « الوالصلين » معدودين على الأصابع يستبيخون المحرمات

في الخفاء على افراد او بين زمرة من الأصحاب والنظارء ، فما خلا عصر  
قط من أمثال هؤلاء بغير دعوة من داع وبغير سعي او سعاية من ساع ،  
ولم يزل الشك يتسلل الى آحاد آحاد من العائرين والمرتددين يحفظون  
شكهم لأنفسهم أو يطلغون عليه أمثلهم وذوى خاصتهم ثم يذهبون والدين  
باقي لم ينعدم بين العلية ولا بين السواد

وربما تشيع للفاطميين أناس خطوا في العقائد خطط عشواء وجحروا  
بمذاهب من مذاهب الفلسفة أو التصوف ينكروه الاسلام الصحيح ، ولكن  
التشيع من هذا القبيل قديم لم ينقطع قط من عهد الامام عليه السلام الى  
عهدهنا الذي نحن فيه ، ولم يكن هذا التشيع المقوت حجة على الامام  
على ولا على أحد من بنيه الابرار الذين سمعوا به فأنكروه أو سكتوا  
عنه ولم يرتصوه ..

ففي حياة الامام عليٰ كان عبد الله بن سباء وأصحابه يؤلهون عليا  
ويؤمنون بحياته بعد مقتله ويقولون برجمة النبي وينشرون مذهب الع Howell  
وتناصح الأرواح ، وبعد مقتل الامام نشط أصحاب النطة الكيسانية  
وأعادوا مثل هذا القول في حياة « محمد بن الحنفية » وقيل عن المختار  
الثقفي داعية القوم أنه ادعى النبوة ونظم له قرآنًا يعارض به القرآن  
الكرييم ويفرضه على صحبه في الصلوات ، ومكان الامام وابنه محمد في  
الاسلام أرفع من أن يتطاول اليه من أجل هذا عدو يلتج في عدوانه فضلا  
عن الولي والصديق ، وقد بقى المرجحون والقائلون بالرجعة والحلول  
يتمادون في ضلالتهم بعد أن برىء منهم الامام على وعاقبهم بالحرق ،  
وبعد أن كذبهم ابنه وأعرض عنهم وأقام في الحجاز وترجمهم بالعراق  
يلجون في الادعاء له والادعاء عليه

ولم يخل عصر الامام جعفر الصادق - أبي اسماعيل رأس الاسماعيليين  
- من داعية يفترى على الآئمه العلوين ، وهم أحيا ، كما فعل أبو الخطاب  
الأسدى الذي كان يقول بتشخيص الجنة والنار ، وزعم في مبدأ أمره ان  
أولاد الحسن والحسين أنبياء الله ، ثم زعم أنهم أرباب وأن الامام جعفر الله

يعبد ، فلعله جعفر الصادق وبرىء منه ونفاه . قال أبو منصور البغدادي صاحب كتاب الفرق بين الفرق « فادعى بعد ذلك في نفسه أنه الله ، وقال أتباعه أن جعفرا الله .. غير أن أبا الخطاب أفضل منه وأفضل من على ، وجوزوا شهادة الزور على مخالفيهم »

وكان غيرهم كذلك يجوزون شهادة الزور على المخالفين ، ومن شهادة الزور مانحبوه لأصحاب المذاهب من الشيعيين والسنن

وقد دعا القراءة للفاطميين كما دعا عبدالله بن سبأ للإمام علي<sup>ؑ</sup> وكما دعا المختار لابنه محمد بن الحنفية ، فأنكرهم الخليفة الفاطمي حين خرجوا على الدين وأغاروا على الحجاز واعتدوا على العجاج ، وكتب الخليفة القائم وهو بالغرب إلى داعية القراءة يقول له : « العجب من كتبك علينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمه باسمنا من حرم الله وجيشه بالأماكن التي لم تزل الجاهلية تحرم ارقة الدماء فيها واهانة أهلها ، ثم تمدث ذلك وقلعت الحجر الذي هو يمين الله في الأرض يصافح بها عباده ، وحطته إلى أرضك ورجوت أن تشكرك ، فلعنك الله ثم لعنك ، والسلام على من سلم المسلمين من لسانه ويده ! » ..

وعلى خلاف ما قيل عن إباحة المحرمات في المذهب الفاطمي ، ثبت من نصائح أئمة منهم كانوا يقصدون في الحلال المباح ويأمرون أتباعهم ومربيهم بالقصد فيه ، وقد أوصى المعز أتباعه من زعماء كاتمة بالغرب فقال عن الزوجات : « الرموا الواحدة التي تكون لكم ولا تشرهوا إلى التكثير منها والرغبة فيها فيتنفس عيشكم وتتعدد المضرة عليكم وتهلكوا أبدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة .. »

وعلى خلاف دعوى الربوية كان المعز هذا — وهو أعلمهم بالتنجيم — يقول كما روى عنه القاضي النعمان في كتاب المجالس والمسايرات : « من نظر في النجامة ليعلم على السنين والحساب ومواقع الليل والنهار وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره وما في ذلك من الدلائل على توحيده لا شريك له فقد أحسن وأصاب ، ومن تعامل بذلك علم غيب الله والقضاء بما يكون

فقد أساء وأخطأ » ..

وكان العزيز كالمعز في هذا المعتقد كما قال أخوه تميم في احدى قصائده:

ولما اختلفنا في النجوم وعلمها  
وفي أنها بالقبح والضر قد تجري  
فمن مؤمن منا بها ومكذب  
ومن مكثر فيها العدال وما يدرى  
ومن قائل تجري بسعد وأنحس  
وتعلم ما يأتي من الخير والشر  
فعلمتنا تأويل ذلك كلّمه  
بما فيه من سر وما فيه من جهر  
عن الظاهر المنصور جدك ناقلا  
وكان بها دون البرية ذا خبر  
فأخبرتنا أنّ التجسم كاهن  
بما قال ، والكهان من شيعة الكفر  
وان جميع الكافرين مصيرهم  
إلى النار في يوم القيمة والحضر  
خجمعتنا بعد اختلاف ومرية  
وألفتنا بعد التنافس والزجر  
وأوضحت فيها قول حق مبرهن  
يجلّ ظلام الشك عن كل ذي فكر  
فعدنا إلى أن الكواكب زينة  
وفيها رجوم للشياطين إذ تسري  
مسخرة مضطرة في بروجها  
تسير بتدبير الآله على قدر  
وان جميع الغيب لله وحده  
تبارك من رب ومن صمد وتر

## وَمَا عَلِمْتُ مِنْهُ إِلَّا مَا جَدَهُمُ الطَّهْرُ

رووه عن المختار جدهم الطهير

وقد خوط خليفة من خلفاء الفاطميين في عقله - وهو الحاكم بأمر الله - فلم يثبت من تصرفه أنه تلقن من آبائه وأسلافه مذهب الإباحة وادعاء الريبيبة ، وانه ورث قوم من اليهود أو المجوس متدين على الإسلام لفسدوه وينقضوه ، بل ظهر أنه يحرم المباح ويطارد اليهود تارة ويفضي عنهم تارة أخرى على كراهية وتغور ، وانه كان يمنع تقبيل الأرض بين يديه ولا يرضى أن تلشم يداه وركابه ، وأمر ألا يزيد الناس في السلام حين يدخلون إليه على قولهم : «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته» ويجوز أن يقال عن هذا الخليفة أنه كان في تخلطيه وتجديفه فرصة المضللين من وزرائه ولا يجوز أن يقال انه توكي العرش وهو يعلم انه يهودي أو مجوس يستدرج المسلمين إلى الكفر والإباحة وانه يهدم دولته ودولة الإسلام كلها وفaca لما تأمر عليه آباؤه وأخיו

ولم يثبت مع هذا كل ما قبل عن أوامر الحاكم وزواجه وكل ما شاع عن نفائه وبدواته ، فان التشنيع بالمضحكات والبالغات مأثور في القاهرة لذلك المهد وما تلاه

وقد وضع كتاب عن «قره قوش» صوره للناس في صورة الطاهية الذي لا يبالى ما يأمر به من المستحلبات والفرائض وغفل الكثيرون عن موضع الفكاهة من تلقیقات الرواية ، فحسبوها كلها جداً لامرية فيه ، وتناولوها وأضافوا إليها ، ولم يزالوا يرددونها على هذا التهم الخاطئ إلى زمن قريب ، وقد كان «قره قوش» على خلاف ماصوّرته الروايات عنه مثلاً في العزم واصالة الرأي وحسن التدبير

وعند ابن خلدون أن الأخلاق ظاهر فيما ادعوه على الحاكم من الدعاوى الدينية ، وانه كان مضطرباً في العجور والعدل والأخافة والأمن والنسل والبدعة ، وأما ما يروى عنه من الكفر ... فغير صحيح ولا يقونه ذو عقل ، ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته ، وأما مذهبـه في الرافضة فمعروف ، ولقد كان مضطرباً فيه ، ومع ذلك فكان يأخذ لأهل

السنة من المصريين في صلاة التراويح ثم ينهى عنها »  
على أن الأقاويل عن الحكم - صحت أو لم تصح - إنما تروى عنه  
ويعلم رواتها أنهم يتكلمون عن رجل مخالط في عقله لا يعول له على سر  
أو علانية ..

ونحب هنا أن نوضح ما نستبعد نسبة إلى الدعوة الفاطمية في صميمها  
على حسب ما اتهينا إليه من الشواهد النفسية والتاريخية  
فنحن لا نستبعد أن يكون من الدعاة الفاطميين أناس قد استخرجوا  
لأنفسهم من دراستهم في التصوف أو الفلسفة أو التنجيم منها ينكرون  
علماء الدين من السنين والشيعة

ولا نستبعد أن يكون منهم أناس خدموا القضية الفاطمية كلها خدمة  
لأنفسهم ولصقوا بها كما يلخص طلاب المنافع والهوازون للفرص بكل  
دعوة كبيرة تسع لخدمة المنافع الخاصة مع خدمة المنافع العامة

ولا نستبعد أن يعب على الدولة الفاطمية ما يعب على الدول في دور  
التأسيس أو في دور الانحلال

ليس شيء من ذلك بعيدا ولا موجب لاستبعاده نظرا إلى أحکام العقل  
أو شواهد التاريخ ..

ولكن الذي تستبعده ونرى أنه منافق للواقع وللمأثور من الدواعي  
النفسية أن يكون هناك توافق مبين بين أناس من المعلقين على إنشاء  
دولة لهم الدين الإسلامي والدولة الإسلامية معه ، وأن يشمل هذا  
التوافق أقواما في المغرب والشرق ويذوم من قرن إلى قرن قبل نجاح  
الدعوة وبعد نجاحها بزمن طويل

هذا هو البعيد عقلا والبعيد في دعوى المدعين الذين لم يستندوه قط  
بدليل يقرب إلى العقل ذلك الزعم البعيد

أما ماعدا ذلك من شؤون الدعوة الفاطمية ، أو شؤون الدعوة العلوية  
في جملتها فقد سار في التاريخ مطردا على النهج الذي ينبغي أن يسير عليه  
ان الإيمان بالإمامية وإطلاع الإمام على الأسرار التي تخفي على غيره

أمر لازم من لوازم الدعوة الملوية في نشأتها التاريخية  
فإن المؤمن يحق على وأبنائه في الإمامة يسائل نفسه : لم لا ينصره الله  
على أدعية الإمامة والخلافة ؟

انه يؤمن بالله وقدرته وقدرته ، فلا جواب لذلك السؤال عنده الا أنها  
حكمة يعلمها الله ، وإن الإمامة الملوية متذورة لزمان غير هذا الزمان ،  
وإن الإمام الحق يعلم زمانه أو ينبغي أن يعلمه بالهام من الله

وقد آمن شيعة على بهذا وآمنوا معه بعرفاته لعلوم الجفر وتأويل  
الكتاب ، وكلما تباعدت المسافة بين إمامية الواقع وإمامية الحق تباعدت  
معها المسافة بين إمامية الظاهر وإمامية الباطن ، ثم جاء الزمن الذي أصبحت  
فيه إمامية الباطن مستورة حتى فأصبح فيه علم الدين والدنيا مرهونا بما  
يتعلمه الطالب من الإمام المستور ومن دعاته الذين يخلصون إليه ويعلمون  
مكانه وينسرون أقواله وأشاراته ، ولا بد من هؤلاء الدعاة ولا مناص من  
هذا التعليم ..

وإذا كان السلطان صاحب الجنادل والصولة يعتمد في قيام دولته على  
الشريعة والقضاء وعلى السيف والشرطة فعلام يعتمد الإمام المستور الذي  
لا سلطان له من شرطة ولا جند ولا قضاء ؟

انه لن يعتمد على شيء غير الطاعة والثقة التي لا تزعزع ، فلا جرم  
يطيعه المطیع وهو يؤمن بعصمه على الأقل في شئون إمامته ، ويؤمن  
بهلاك روحه ان خرج على حكم الطاعة وخان أمانة الدنيا والآخرة ، وتقضى  
العقود وتحت باليمين

كل هذا بيديه ولا حاجة به الى رصف أوراق او رص أسانيد ، لأنه  
لن يكون الا هكذا حياما كان ، وقد كان

ولا تنسى ان الأئمة أنفسهم يؤمنون بما يؤمن به أتباعهم ومربيوهم :  
يؤمنون بحقهم ويؤمنون بيومهم الموعود ويؤمنون بالسر الذي يروضون  
أنفسهم بالعبادة والعلم على أن يستلموا من هداية الله

ومن التوفيقات التي نسيها بتوفيقات «الموقف» أن الباطنية الواقعية

والباطنية الفاطمية أو الامامية على الجملة تلacci هنا — بحكم الموقف الواحد — في كثير من الأمور

فالدراسات المستورة أو المكتومة تلacci في جانب واحد . وان كانت متعددة المطالب والموضوعات

وقد كان المحافظون على الواقع الراهن ينكرؤن هذه الدراسات ويمنعونها على درجات من المتع تتفاوت في العنف والصرامة

فكأن « الموقف » الواحد يجمع بين أصحاب الدراسات المستورة أو المتنوعة التي لا يرتاح إليها أنصار الواقع والمحافظة على القديم

وليس من مجرد المصادفة أن فلاسفة المشرق كانوا من الشيعة بتفكيرهم كما كان منهم آناس متشيعون بنشأتهم وميراثهم من بيتهم ، فكان الكندى والفارابى وابن سينا من الشيعة ، وكان اخوان الصفاء كذلك من الشيعة : ومن كان من الفلاسفة سينا كالفارخر الرازى فمذهبة الفلسفى فى صفات الله يوافق مذهب الاسماعيليين وأئمة الفاطميين . اذ كان يرى أن الإيمان بتعدد الصفات واستقلال كل صفة منها عن الأخرى تعريف لا يوافق التوحيد ..

والذى نستخلصه من المذهب الفاطمى أن فلاسفهم أخذوا بمذهب الفيض الالهى الذى تعلمه المشرقيون باسم الحكيم أفلاطون وهو يتمى فى حقيقته الى الحكيم أفلاطين  
نستخلص هذا من قول ابن سينا أن آباء كان يذهب فى الكلام عن العقل والنفس مذهب الاسماعيلية .

ونستخلصه من رسائل اخوان الصفاء وهم من القائلين بمذهب الفيض الذى كان يقرى به أفلاطين .

بل نستخلصه من خلط الخالطين فى هذا المذهب ، لأنه هو المذهب الذى يتعرض لهذا الخلط فى كل مكان ، وقد تعرض له فى الشرق كما تعرض له بين الأوربيين فى القرون الوسطى ، ولا يزال يتعرض له فى العصر الحديث وعلى نقىض ما قبل عن الاباحة فى مذهب الاسماعيليين يمتاز مذهب

الفيض الالهي بالبالغة في التطهير والاعراض عن الشهوات والترفع عن غواية الدنيا التي يتهالك عليها الجهلاء ، والجاهل عندهم هو من يتلمس بشيء من الاشياء غير معرفة الحقيقة الالهية والبحث عنها في كل ظاهرة من ظواهر هذا الوجود ..

وقد نبه اخوان الصفاء في غير موضع من رسائلهم الى وجوب التطهير على الحكيم الطالص للحكمة في حياته الخاصة وال العامة ، وقالوا غير مرة ان الاستسلام لشهوات البدن يقطع الانسان عن آخرته ومعاده ، ومن ذلك قولهم في رسالة الجسمانيات والطبيعتين : « اعلم أن الاستغراق في الشهوات في هذه الدنيا ينسى الانسان أمر الآخرة ويشككه ويسسه منها كما قال قائلهم في هذا المعنى :

هي الدنيا وقد وعدوا بأخرى  
وتسويف الظنومن من السوام

وقيل أيضا في هذا المعنى شرفا :

خذدوا بنصيب من نعيم ولذة  
 وكل وان طوال المدى يتصرم  
 وقال آخر وقد كان ساهيا عن أمر الآخرة :  
 ما جاءنا أحد يخبرناه

في جنة من مسات أو في نار

وأشعارهم كثيرة في مثل هذه الظنوں والشكوك والحبشة التي وقعا فيها عقوبة لهم عندما تركوا وصية ربهم ونصيحة آنبائهم واتباع علمائهم والحكماء فيما يدعونهم اليه ويرغبون فيه من نعيم الآخرة ويأمرونهم به من الزهد في الدنيا وينهونهم عنه من القرور بشهواتها وعاجل حلواتها »

ومنذ القدم عرف عن هذا المذهب الفلسفى انه مذهب نسك وعفة وعزوف عن الماديات وترفع الى عالم الروح ، وكان أفلوطين صاحبه قدوة لأبناء عصره في العفة والزهد والانقطاع عن شواغل الثروة والجاه ، وكان من تلاميذه من يبيع قصوره وفناسه ليلازمه في مهده ويعيش على مثاله

ولا غنى عن خلاصة لهذا المذهب تنقلها هنا كما أوردناها في رسالتنا  
عن الشيخ الرئيس ابن سينا وهي كما يلى :

« ... انه يتجاوز - أسطو - أشواطاً بعيدة في التنزية والتجريد ،  
فيري أن الله - أو الأحد - من وراء الوجود ومن وراء الصفات ، لا يعرف  
ولا يوصف ، ولا يوجد في مكان ولا يخلو منه مكان ، وكما هو الكمال  
الذى تفهمه بعض الفهم بنفي النقص عنه ، وهىيات أن تفهمه باثبات صفة  
من الصفات ، لأننا نستطيع أن نقول انه لا يكون هكذا ولا نستطيع أن  
نقول انه هكذا يكون ..

« وقد يتصل به الانسان في حالة الكشف والتجلی حين تتجاوز الروح  
جسدها كما يقول ، ولكنها حالة لا تقبل التأمل والتفكير ، فإذا انتقضت  
فقد يشوب الانسان بعدها الى عقله فيتأمل ويفكر وينحدر بذلك من مقام  
الأحد الى مقام العقل الذي هو دونه ، لأن الأحد فوق العقل وفوق  
المقول . ويقول أفلوطين كما يقول أسطو أن الله أو « الأحد » لا يشغل  
بغير ذاته ، لأنه مستغن بذاته كل الاستثناء . أما العالم فقد شأ من صدور  
العقل عن الأحد وصدر النفس عن العقل من هذا التأمل ، وإن العقل  
يعقل الأحد فهو أحد مثله وإن كان دونه في مرتبة الوحدانية ، ثم يعقل  
ذاته فينشأ من عقله لذاته عقل دونه وهو النفس أو هو القوة الخالقة التي  
أبدعت هذه المحسوسات ..

« ومن البديه ان صدور الجسم من الجسم ينقصه ويخرج شيئاً منه  
ينتقل من المعطى الى الآخذ فينقص باتقائه ، أما صدور الفكرة من العقل  
فلا تنقصه ولا تجرده من شيء فيه ، وعلى هذا المثال تفهم صدور العقل  
عن الأحد الذي لا يعتريه نقص بحال من الأحوال

« والنفس - وهي المرتبة الثالثة في الوجود عند أفلوطين - تتجه الى  
العقل فتسجّم معه في مقام التجريد والتزية ، وتتجه الى الهيولى فتبعد  
عن التجريد والتزية ، ولهذا تخلق الأجسام وتضفى عليها الصور على  
سبيل التذكر لما كانت تتأمله وهي في عالم القدرة الكاملة أو عالم الصور

المجردة . فهذه المحسوسات هي كالظلال للمعقولات قبل أن تبرزها النفس في عالم المحسوسات ، أو هي كأطیاف العالم وهو يستعيد بالرؤيا ما كان يصره باليقان ..

« فالمحسوسات كلها أوهام وأحلام ، وكلها غشاء باطل يزداد بعداً من الحقيقة كلما ابتعد من العقل وانحدر في اتصاله بالبيولوجي طبقة دون طبقة ، فإن العقل دون الأحده والنفس دون العقل والمحسوسات دون النفس ، وهكذا تهبط الموجودات طبقة بعد طبقة حتى تنحدر إلى البيولوجي التي لا نفس معها ، وهي معدن الشر في العالم ، لأنها سلب مخصوص يحتاج أبداً إلى الخلق ، وهو الإيجاد أو الإيجاب

« وقد صدرت النفس الفردية من النفس الكلية ، ولها كالنفس الكلية التي صدرت منها اتجاهات . فهي باتجاهها إلى النفس الكلية الهيئة صافية ، وباتجاهها إلى المحسوسات والأجساد حيوانية شهوية ، وليست النفس عند أفلوطين ملازمة للجسد كما يقول أرسطو ، بل هي جوهر منفصل عنه سابق له كالمثل الأفلاطونية ، فلا تقبل الفناء ولا يحصرها الزمان والمكان ، وهي تصدر من النفس الكلية اضطراراً كما صدرت النفس الكلية من العقل الأول ، مستجيبة لطبيعة الاصدار في ذلك العقل ، وللشوق البيولوجي الذي يتربع بالبيولوجي إلى منزلة المحسوسات فالمعقولات ..

« والسر في العالم هو البيولوجي لأنها سالة تنزل بالمعقولات والروحيات التي لا تلبسها ، ولا محيد عن الشر مع وجود البيولوجي وقدمها وضرورة الملابسة بينها وبين العقل والنفس في دور من أدوارها ، وعلى النفس أن تجاهدها وتنتصر عليها وعلى شهواتها ، فإن أفلحت عادت إلى النفس الكلية خالصة مخلصة ، وإن لم تفلح عادت إلى الجسد مرة أخرى ولقيت في كل مرة جزاءها على الذنوب التي اقترفتها في حياتها الجسدية الماضية ..

« ولا حرية للإنسان كما رأيت ، لأن وجوده ضرورة يستلزمها الصدور وملابسة البيولوجي ، ولكنه يقاوم تلك الضرورة بجهاد الشهوات ، فيترقى

من مرتبة الحس الى مرتبة التأمل الى مرتبة الكشف ، وينتقل من شتات الحس الى استجمام العقل الى وحدة الأحد ورضوان الكمال ، فتجزئه ضرورة الارتقاء عن ضرورة الانحدار ، ولا محل ينهمى لشئ من الاختيار ، وان قال به أفلوطين في بعض الأحيان ... »

هذه خلاصة وجيزة جدا لأصول مذهب الفيض كما شرحه تلاميذ أفلوطين ، نعتمد فيها على المراجع الأوربية الحديثة التى نقلت مباشرة من اليونانية ، وقد نقل هذا المذهب مجملًا في بعض الأوقات ومفصلاً في أوقات أخرى الى اللغة العربية ، ووقع في تقله خطأ استاد وخطأ تفسير .. فنسب الناقلون فصولاً منه الى أفالاطون ونسبوا مبادئه منه الى أرسسطو ، ولكن المتصوفة الاسلاميين وفلسفية الاسلام في الشرق قبلوا منه ما يواافق الدين الاسلامي وهو تزييه الأحد وعقيدة التجلى على الخلقاء من العباد والمتأنمين ، ورفضوا منه على التخصيص قوله بتناصح الأرواح وعقوبة الأنفس في هذه الدنيا بردها الى الأجساد التي تشقي فيها ، أو مكافأتها بردها الى الأجساد التي ترقى فيها الى مرتبة فوق مرتبتها

ووجد الفلسفه والمتصوفة بما يوافقهم في أقوال أفلوطين ، فقال بالكشف وقدرة النفس على الخوارق طائفة من المفكرين لا يحسبون بين أهل الطريق ولا يدعون لأنفسهم صفة الامامة الدينية ، وانما قالوا بالكشف والقدرة على الخوارق أخذنا بالأقىسة الفكرية ، واستدل ابن سينا على امكان الكشف بأن النفس الصالحة تتلقى في الرؤيا الأنباء بالمعيقات عنها وعن غيرها فلا مانع من تلقيتها العلم يقطنة متى تهيأت له بالرياضة وصفاء السريرة ، وان نفس الانسان تصرف في مادة الجسد فلا مانع أن تصرف في مادة الكون بقدرة تستمدلها من علة العلل التي تتصرف في جميع الأشياء

وطائفة من أصحاب المأرب وجدوا في تناصح الأرواح ما يعنون على دعواهم ، ومنهم من كان يدعى انه ابن الامام على بالسلسل الروحاني مع اعترافه بأنه من غير نسله في السلالة الجعديه ، زاعما ان البنوة تحصل

بالاتماء الى الروح كما تحصل بالاتماء الى الجسد ، ولم يكن في هؤلاء أحد من الفاطمين ولا كانت بهم حاجة الى هذه الدعوى لأنهم يصخرون نسبهم جميعا الى الامام على بغير وسيلة هذا التناسخ المزعوم ..

ولا شك أن العلامة الشهريستاني كان يلخص طرفا من مذهب أفلوطين كما وصل الى المشرق حين قال في تلخيصه لكتاب الباطنية عن الصفات : ان الله « لما وهب العلم للعاملين قيل هو عالم ، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر ، فهو عالم قادر بمعنى انه وهب العلم والقدرة ، لا بمعنى انه قام به العلم والقدرة أو وصف بالعلم والقدرة .. وانه أبدع بالأمر العقل الأول الذي هو تام بالفعل ، ثم يتوسطه أبدع النفس الذي هو غير تام .. ولما اشتاقت النفس الى كمال العقل احتاجت الى حركة من النفس الى الكمال واحتاجت الحركة الى آلة الحركة الخ الخ »

فهذا المذهب في الصفات الالهية يوافق مذهب أفلوطين في جملته ، وفحواه بلا اغراض ولا ابهام اتنا حين نصف الله بالعلم لا ندرك من كنه العلم الا ما يعطينا اياه ، وانا حين نصف الله بالقدرة لا ندرك من كنه القدرة الا ما نقدر عليه بأمر الله ، وهكذا في سائر الصفات مما لا يجوز أن يفهم منه انه انكار لعلم الله وقدرته ، اذ كان أصحاب الفيض الالهي ينكرون شائض الكمال ويرتفعون بالكمال الالهي مرتفعا تعجز عن ادراكه العقول ..

لكن هذا المذهب كما أسلفنا عرضة للخلط في فهمه من يهربون بما لا يعرفون ، فان هؤلاء يخلطون بينه وبين مذهب الحلول وهو يناقض مذهب الحلول أشد المناقضة وينكره غاية الانكار ، فان الخلاص من اوهام المادة الجسدية عند أفلوطين هو غاية التنزيه والتطهير ، ولا يتحقق هذا مع القول بحلول الله سبحانه وتعالى في الأجسام

كذلك يخلطون بينه وبين وحدة الوجود وهم مذهبان متناقضان . فان انفائيلين بوحدة الوجود يسبغون الصفة الالهية على الموجودات جميعا وهو قول ينفيه أفلوطين جد النفي تزكيها الله « الأوحد » عن جميع

المحسوسات والمتعددات ..

ويسع السامع ان حكمة الخلق تجلی في أناس بعد أناس فيخیل اليه  
ان اللاحق أفضل من السابق او ان قیام مشیة الله في كل عصر رسالة  
رسالة الأنبياء ..

هذا الخلط في فهم المذهب قد جنی على الحقيقة في غير طائل وجر الى  
الخطف في الظنون لغير علة لولا العماقة وخفة العقل وحب الحذقة  
والادعاء ..

وقد كان ابن هانئ الأندلسی من هؤلاء الذين يتعاطون الفلسفة  
ويهربون فيها بما لا يعرفون ، ولم تكن حذلقته مقصورة على مذهب  
الاسماعيلية بل هي طبیعة نشأت معه في موطنها ولنقط بالفلسفة وهو يتصل  
بصاحب اشبيلية فأقصاه خوفا من اتهامه معه بمشاركةه في أضالیله  
وخر عبلاته ، ولما مدح المعز الفاطمی بقصیدته الرائیة التي قال في مطلعها :  
ما شئت لا ما شاعت الأقدار

فاحکم فأنت الواحد القهار

لم يكن يريد أن يقول ان المعز أقدر من الله والا لما قال بعد ذلك :  
وكأنما أنت النبي محمد

وكأنما أنصارك الأنصار

وانما أراد أن يتحذلّق بما سمع عن صفات القدرة والعلم وان الله  
يوصف بالقدرة لأنّه يعطيها ، وان مشیته سبحانه وتعالى تقوم بمن ينذرها  
لامضاء تلك المشیة ، فخلط وخيط واتهمه الناس ولهم العذر فيما اتهموه  
به ، ولم تكن به ولا بمدحه حاجة اليه ..

الا اتنا اذا صرفا النظر عن هذا وأشباهه من ضروب الحذقة والبالغة  
في الشعر خاصة لم نجد في كلام القوم ما لم يألفه المتصوفة وأبناء الطريق  
من عبارات المجاز والكتابية ، وليس فيما روی عن ثقات الفاطميين شيء لم  
يسمع مثله من امام كبير كمحیی الدين بن عربی في كتب التأویل أو كتب  
الترسل الصريح ، وقد كتب محیی الدين الى فخر الدين الرازی رسالة

يقول فيها : « تلريوية سر لو ظهر بطلت النبوة ، وللنبوة سر لو كشفه  
تبطل العلم ، وللعلماء بالله سر لو ظهر بطلت الأحكام ، فقوام الإيمان  
واستقامة الشرع يكتم السرية .. » إلى آخر ما قال عن التوحيد والاتحاد  
والوحدةانية والأحدية .. وفوق كل ذى علم عليه ..

وهذا كلام لولا ولع المتصوفة بالأغراض لقال قائله ان النبوة لازمة لأن  
الناس لا يكتشفون سر الغيب بغيرها ، وان العلم لازم لأن النبوة لا تصل  
إلى الناس أجمعين ، وان الأحكام لازمة ، لأن العالم يزجره العلم والجاهل  
ترجره الأحكام . ولكن الأغراض في أساليب المتصوفة والخذلة في أساليب  
من يسمعون ولا يفهمون أو من يفهمون القليل ويجهرون أن يظهروا الفقه  
الكثير — كل أولئك يقود إلى الظنون حيث لا موجب للظنون

\* \* \*

وجملة القول إن الباطنية الفاطمية لو لم تقترب بالدعوة إلى قيام دولة  
تعارب الدول القائمة لما استغربها الناس ذلك الاستغراب ولا اضطررت  
حولها التهم والأقوایل ذلك المضطرب ، فقد كان كل مذهب في ذلك العصر  
« باطنيا » على نحو من الأنحاء ، وأوشك أن يتساوى في هذا أهل السنة  
وأصحاب التصوف وطلاب الفلسفة وأخوان الصفاء من يتذاكرون العلم  
بيّنهم ويظهرون منه حيناً بعد حين ما طاب لهم أن يظهروه

فالأمام الغزالى — وهو من أقطاب أهل السنة وببعضى الفلسفة —  
كان يؤلف لل العامة غير ما يؤلفه لل خاصة . وكان من كتبه ما يحسن به على  
غير أهله ، والأمام ابن عربى المتصوف كان يدين بالسرية ويرى أنها تمام  
العلم والمعرفة ، وأبو العلاء المعرى الشاعر الحكيم كان في رأى داعى  
الدعاة يخفى ما يعلم عن أناس يلعن بعضهم بعضاً ويتهم بعضهم بعضاً  
بالكفر والمرور من الدين ، وشعارهم جيبياً :

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام  
مت بدء الصمت خير لك من داء الكلام

الا أن يكون مندوباً لعمل لا حيلة له فيه أو متجرداً لرسالة يهون

فبها عنده أذ يقول وأن يقال فيه

ومن المحقق اذ الباطنية الفاطمية أضيف إليها الكثير بعد دخول  
الحسن بن الصباح الذي سيأتي ذكره في زمرتها ، ومن هذا الكثير  
أنظمة لم تمهدها من قبل ، وعوائق لم تكن لازمة لها ولا معقوله منها ،  
وأهم هذه الأنظمة نظام القدائين الذين كانوا علة الرؤساء في حوادث  
الغيبة والهجوم على المخاطر ، فهو لا يظهر لهم عمل في خدمة الباطنية  
الا بعد نشوء الدولة الفاطمية بأكثر من مائة سنة ، ولو كان للخلفاء  
الفاطميين جند من هذا النظام لما استبد بهم الوزراء أحياناً من غير مذهبهم  
ولا من المجاملين لطوائف الاسماعيلية المخلصة لأولئك الخلفاء

\* \* \*

فقد استبد الأمير بدر الجمالي بالأمر دون الخليفة – وهو أمير الجيوش  
الذى ينسب إليه حتى مرجوش والجمالية – وجاء ابنه الأفضل من بعده  
وسار مع الخليفة الأمر على خطوة أبيه ، وكان بدر وابنه الأفضل على  
مذهب من مذاهب الشيعة غير مذهب الاسماعيلية، فصادروا الاسماعيليين  
ونفوا أناساً من قادتهم وغلبوا من الديار المصرية ، وضاق الخليفة الأمر  
بوزيره ذرعاً فتحدى إلى ابن عمه في قتله عند دخوله إليه بقصر الخلافة  
ووافقه ابن عمه على وجوب الخلاص من الوزير المستبد ولكنه أشقر  
على سمعة القصر من جرائر اغتيال الوزراء والكبار في رحابه ، وأشار  
عليه بتعريف رجل من صنائع الوزير نفسه على قتله ، وأغرائه بمنصب  
سيده مكافأة له على طاعته ، واتفقا على اختيار المأمون بن البطائحي لهذه  
المهمة فقبل هذا ما أمروه به طبعاً في الوزارة ، ولم يجد البطائحي من يعينه  
على مهمته غير أعداء الوزير الذين تفاهمن من مصر ثم سلّلوا إليها خفية ..  
وسبّعهم على الاتقام منه أغراء البطائحي لهم ووعدهم بالغفو عنهم  
واسناد الوظائف إليهم متى آلت إليه وزارة الدولة ، ولو كان نظام  
القدائين معروفاً يومئذ في الدولة الفاطمية لما استطاع الوزيرالأرمني  
المخالف لمذهب الاسماعيلية أن يستبد بالآمام المطاع ولا احتاج الآمام

الطاع إلى التفكير في اغتيال الوزير بين يديه بقصر الخلافة ، ولا إلى تدبير تلك المؤامرة التي اعتمد فيها على الوعود والاغراء والاستعانت بذوي المطامع والتراث ..

ولا شك أن الحسن بن الصباح لم يعمد إلى نظام الفدائين إلا بعد استيلائه — كما سيلي — على قلعة « آلموت » واضطراره إلى حماية نفسه من دول حوله تجبره الجيوش لقتاله ، وهو في قلعته بغیر جيش يقاوم تلك الجيوش الزاحفة عليه بمثيل عدتها وعددها في ميادين القتال وقد تغيرت الدعوة كلها حين تغير موضوعها وتغيرت وسائلها ، وأمعنت في التخفي أو في « الباطنية » الواقعية حين أمعنت في الهجوم على خصومها وأمعن خصومها في الهجوم عليها

\* \* \*

أما قبل دخول ابن الصباح في زمرة الباطنية فقد كان استخفاء الدعاة وأتباع الدعاة ضرورة لا محيد عنها لانتشار أصحاب الدعاة في بلاد واسعة تدين بالطاعة لحكومات متوجسة ، تسرع إلى التشكيل بكل من يخالفها ويناصر أعداءها . ولم يكن هذا الاستخفاء لترويج الدسيسة التي تهالأ عليها « مجوس أو يهود » يتوا النية على هدم الدين وتضليل المسلمين ، بل كان لزاماً لأصحاب تلك الحكومات ولا شك أن يشركوا رعاياهم معهم في الخوف من الاسماعيلية ، فلو انهم قالوا لأولئك الرعايا أن الاسماعيليين طلاب ملك ينتزعونه من ملوك ذلك الزمن لما تحركت لأولئك الرعايا ساكنة في حربهم والدلالة على مكانهم ، إذ كان أكثر الرعايا يعلمون أن الحكم في أيدي أناس لا يستحقونه بعلمهم وعملهم وإن استحقوه بحسبتهم ، وإن أصحاب السلطان الفعال من أجناد الدليل والترك دخلاء على العباسين كما كانوا دخلاء على الفاطميين ، فان لم يكن خطراً الاسماعيلية خطراً على الدين وعلى المسلمين جميعاً فهو خطراً لا يهم الناس في كثير ولا قليل ، ما دام مقصوراً على أصحاب العروش والدسotas ولهذا راجت خرافة النسب إلى المجوس واليهود ، وهي خرافة تنكرها

الحقائق النفسية ولا تؤيدها الشواهد التاريخية ، وكل ما ثبتت نسبته إلى أصحاب الباطنية الفاطمية فهو من المسائل التي يختلف عليها طوائف المسلمين من سنيين وشيعيين ، بل يختلف عليها الشيعة الإماميون أنفسهم بين القائلين بامامة موسى والقائلين بامامة اسماعيل من أبناء جعفر الصادق ، وليس وراء ذلك كله دسيسة لهدم الاسلام كله وتضليل المسلمين أجمعين ..

\*\*\*

ومحصل القول في المذهب الاسماعيلي من الوجهة الفلسفية انه هو مذهب الفيض الالهي كما اعتقده المتصوفة المسلمون من أصحاب الدعوات السياسية وغير أصحاب الدعوات السياسية ، يضاف اليه القول بعصمة الامام وانه هو وحده القادر على التأowيل الصحيح والاحاطة بيوابن التنزيل ، وينبغي أن نذكر هنا ان القول بالعصمة الواجبة لكل امام كان مذهبًا من مذاهب الفلسفة في حكومة المدينة الفاضلة ، فان الفيلسوف الفارابي الذي كان يلقب بالمعلم الثاني قد طلب لامام المدينة الفاضلة كمال العقل والعلم والخيال والذوق والخلق والخلاقة ، ولمله لهاًدا كان قريبا من التسعة مجبًا للمتشيعين

وقد كان القول بعصمة الآئمة لا يوجب على المؤمنين به سب كل خلية غير الامام على وأبنائه الاكرمين ، ولكن سب الخلفاء جرى على ألسنة طائفة من غلاة الفاطميين وغير الفاطميين ، فاستنكروه عقلاؤهم وحكماوهم ، واستنكروه أدباء من لا ينكروه اعتقدوا ولا يرى الخلافة لأحد غير الامام على وبنيه ، ولا عذر من المسبة الباطلة على كل حال ، ولكن الخلاف القبيح الذي أطلق الألسنة بلعن على النساب ستين أو سبعين سنة هو الخلاف القبيح الذي أطلق الألسنة بعد ذلك بالجرأة على أقدار الآئمة الآخرين رضوان الله عليهم أجمعين

## حسَنُ بْنُ الصَّبَاحِ

أشرنا في الفصل السابق الى التغير الذي طرأ على نظام الدعوة الاسماعيلية بعد دخول الحسن بن الصباح في زمرتها ، وسنرى من جملة الأخبار والأعمال التي رويت عن ابن الصباح ان الرجل من أصحاب تلك الشخصيات التي لا تتصدى للدعوة من الدعوات الا أضافت اليها شيئاً من عندها وطبعتها بطبعها ، وانه لم يكن من أولئك الذين يتعلقون بدولاب كبير يديرون الى وجهته ، بل كان من الذين يديرون الدولاب الى وجهتهم حين يتعلقون به ، ولا يدفعهم الى التعلق به الا انهم لا يستطيعون أن يخلقوا لأنفسهم دولاباً مستقلاً يتعلق به الآخرون وانفت الأخبار الصادقة والكاذبة التي رويت عن الرجل على صفة واحدة فيه يثبتها الخبر الصحيح والخبر الكاذب على السواء ، وهي الجنون بالسيطرة والغلبة ، وتعتمد أن نسميه الجنون بالسيطرة ولا نسميه حباً للسيطرة ولا رغبة فيها ، لأنه كان مغلوباً لدفعه نفسه أو كان أول من غلبه تلك النزعة فمضى معها مسوقاً لها غير قادر على الوقوف بها ولا الراحة معها

والسيطرة محبوبة لكل انسان ، ولكن الفرق عظيم بين من يهيمن بالسيطرة لأنه لا يطيق العيش بغيرها ، وبين من يطلبها لأنه يفضلها على عيشة بغير سيطرة أو يفضلها على عيشة الطاعة والاذعان للمسيطرين ذلك مضطرك الى طلب السيطرة ، وهذا مختار في المفاضلة بين الحصول عليها والاستغناء عنها ، وقد يفضل الاستغناء عنها اذا جشمه الطلب فوق ما يطيق ..  
وكان الرجل داهياً ولكنه لم يكن من الدهاء بحيث يستر مطامعه

ولا يثير المخاوف فيمن حوله

أو لعله كان داهياً عظيم الدهاء ، ولكن هيامه بالسيطرة واندفاعه إليها  
كان أعظم من دهائه . فانكشفت غايتها على كره منه وحيل بينه وبين بلوغ  
تلك الغاية من كل طريق ينافسه فيه المنافسون

ومما لا ريب فيه ان الرجل لم يكن من الفلقة بحيث يصدق كل خرافات  
من الخرافات التي كان يذيعها ويتولى نشرها والدعوة إليها ، ولكن  
التاريخ والشواهد لم تحفظ لنا خبراً واحداً يدل على انه كان من السمو  
الفكري بحيث يسلم من جميع الخرافات ويتبع ما وراءها من الحقائق ،  
ولا سيما اذا كان التصديق هو طرقه الى السلطان والقلبة وقهر الخصوم  
والاتصار على النظرة ، فمن مألفه التفوس — أو من مألفه هذه  
التفوس خاصة — أن تعتقد ما يوحيها على هواها ويعزز إيمانها بطبعها ،  
كما يفعل المحب الذي يؤذيه الشك ويؤذيه العلم بعيوب محبوبه فيروض  
طبعه على اليقين وتحجيم العيوب لأنها أريح له وأعوز له على هواه من  
عذاب الشكوك وانكشاف العيون

وهذه الطبيعة المموددة في أمثاله دون غيرها هي التي تفسر لنا أعمالاً  
شتى ييدو فيها خادعاً مخدوعاً في وقت واحد ، فهو حصيف لا شك في  
حصافته ، ولكن كيف يقع الحصيف في مثل ذلك السخف الذي نج به  
حتى يسول له البطش بأقرب الناس إليه ومنهم ولده أو ولداته ؟  
يقع الحصيف في مثل ذلك السخف ، وفيما هو أسفه منه ، إذا كان  
مغلوباً على أمره مضطراً إلى تسويغ دفعته بعقيدة تجعلها في نظره وتلبسها  
ثوب الواجب الذي لا محيد عنه ولا هوادة فيه

\* \* \*

أما إن حسن بن الصباح كان مغلوباً على أمره في طلب السلطان فحياته  
كلها سلسلة من الشواهد على طبيعة لا تطيق العيش بغير سلطان أو بغير  
السعى إلى السلطان ، فإنه ما اتصل بأحد قط إلا خافه على مكانته وتوجس  
منه على الرغم من دهائه وفطنته ، ولو لم يكن طعنه أقوى من دهائه

وقطته لما تكشفت منه دفعه الطمع في كل علاقة وفي كل مكان سمع في شبابه عن الشيخ موفق النيسابوري اذ تلاميذه جميعا يرتفعون ببركة تعليمه في مراتب الدولة ، وكان ابن الصباح شيعيا ومدرسة الشيخ الموفق محمد السنة في نيسابور ، فلم يمنعه ذلك أن يختارها للتعلم فيها على أمل في الجاه والسلطان

ومن الذين ذكروه من محبيه رشيد الدين بن فضل الله صاحب « جامع التواریخ » .. وفي روايته عن صباح يقول اد، سبب العداء بينه وبين الوزير نظام الملك انه كان يتلمذ معه في مدرسة نيسابور فتعاهدا على المعاونة اذا وصل أحدهما الى منصب من مناصب الرئاسة ، وان ابن الصباح قد استتجز الوزير وعده فخياره بين ولاية الري وولاية أصفهان ، وكان ابن الصباح على الهمة فلم يقنع باحدى هاتين الولاياتين ، فاستيقاه نظام الملك في الديوان عسى أن يترقى فيه الى مكانة أكبر من مكانة الولاية ..

والرواية على هذه الصورة عرضة للنقد والمناقشة ، ولكنها على كل حال يصح منها شيء واحد : وهو علم المؤرخين للرجل — من محبيه فضلا عن مبغضيه — انه كان بعيد المطامع منذ صباح ..

وحدث ، وهو في الديوان ، انه تصدى لعمل من أعمال نظام الملك فرعد الملك بإنجازه قبل أن ينجزه الوزير ، فاحتال هذا على احباط سعيه وأوصله عليه الباب الذي أراد أن يندفع منه إلى منصبه فوق كتفيه

وقيل في تعليل سفره الى مصر لقاء الخليفة الفاطمي انه استوعب كل ما تعلمه من الدعاء فاستصغره الى جانب علمه بأسرار المعرفة ، فأراد المزيد من العلم بالشخصوص الى دار الحكمة في القاهرة ، لعله يستوفى هناك علوم الاسماعيليين التي غابت عن دعاء العراق

ومن الواضح ان الشخصوص الى عاصمة الخلافة الفاطمية هو المسىء الذى لا تصرف عنه همة طامع في مناصب الدولة ، فليس له مطعم في بغداد وليس له بين السلاجقوسين مقام محمود ، ولم يبق له الا أمل واحد

لا منصرف عنه ، وهو بلوغ النصب المرموق في عاصمة الخلافة ومرجع  
الدعوة والدعاة ..

ولكنه لسوء حظه بلغ القاهرة وند تحكم فيها رجل قوى الشكيمة  
كبير المطامع يتولى القيادة والوزارة ولا يقنع بما دون الامارة والملك  
لو تمهد اليهما السبيل ، ومن ثم زوج بنته للامير المستعلى بن الخليفة ،  
وأكره الخليفة أو زين له أن يختار المستعلى لولاية عهده ، أملأ في الملك  
ان استطاعه لنفسه ، أو في توطيد الملك لذرته من بعده

ذلك هو أمير الجيوش بدر الجبالي الذي سبقت الاشارة اليه ، وذلك  
هو الند الذى تحفز ابن الصباح لمحاولته وما اورته بعد وصوله الى  
القاهرة ، فاختار نزارا لولاية العهد، واحتال جهده أن يحول بين المستعلى  
وعرش الخلافة ، واستمد من أساس المذهب الاسماعيلي كل حجة يدعم  
بها ترشيح نزار للخلافة بعد أبيه ، فزعم انه مثل بين يدي الخليفة المستنصر  
فوكل اليه الخليفة أن يدعوه اليه والى ولی عهده بين الأمم الإسلامية .  
قال : « فسألته ومن ولی العهد ؟ فأشار الى نزار .. »

تلك قصة تشبه قصة الولاية التي صارت الى اسماعيل بن جعفر  
الصادق وثبتت له بعد عدول أبيه عن ولايته واستنادها لأخيه موسى ، فأن  
الاسماعيليين يرفضون تبديل ولاية العهد لأن الولاية بأمر الله والله يتزمه  
عن البداء ..

فلما أراد الحسن بن الصباح أن يثبت الولاية لنزار أقام لها أساسا  
كالأساس الذي قامت عليه الدعوة الاسماعيلية من مبدئها ، وروى تلك  
القصة عن الخليفة المستنصر ( والأرجح عند أناس من ثقات المؤرخين ان  
الخليفة لم يدعه الى لقائه ، بل أتزله منزل الكرامة في دار الصيافة ، ثم  
ابقاءه على أمل يتردد بين التقرب والاقصاء ) ولكن ابن الصباح قد طال  
عليه الاتظار وأحس الخطر من أمير الجيوش فنجا بحياته من مصر ، ولما  
يصدق بالنجاة ، وراح بعد الافلات من الخطر ينشئ له دعوة جديدة في  
المذهب الاسماعيلي ، وهي الدعوة الى امامية نزار

وراح الحسن يطوف في بلاد الشام وال العراق وفارس لينشر دعوته الجديدة حيث يؤمن الرصد والمطاردة ، ويبدو ان حواجز النفس الغلابة كانت في تلك الفترة على اشد ما تكون غلبة عليه ، حرجا بما لقيه وضيقا بالطبع الذي ينزعه ولا يعلم المخرج اليه ، فقال يوما لأحد أصدقائه في أصفهان : لو أن معي صديقين أركن اليهما لاتزدعت من هؤلاء السلاجقة عرشهم ... فظن به صديقه الجنون وأوصى طباهه أن يتخير لضيفه ما لطف من الطعام وطاب غذاؤه ، وأدرك الحسن أن صديقه قد خامره الشك في عقله فتركه ومضى لسبيله

والظاهر من مساعيه وحركاته في هذا التطاويف انه كان يبحث عن أستاذه القديم في الدعوة الاسماعيلية عبد الملك بن عطاش ، وكان ابن عطاش قد ولد الوكالة عنه ثم زين له السفر الى القاهرة ، وأطلعه قبل سفره اليها على أسماء بعض الدعاة المسترين الذين يلقاهم في طريقه ولكنه لم يطلعه على أسمائهم جميعا ، وأهم من ذلك لدى التلميذ المتخفى انه لم يعرف من أستاذه مكان الأموال المدخرة لبث الدعوة ولا عرف بطبيعة الحال كلمة السر التي تمكنه من أخذها وتكون علامه له عند المؤمنين عليها ، فما زال الحسن يتبع ابن عطاش حتى ظفر بلقائه ووثق من اطمئنانه اليه ، ولعله استطلعه أسرار الودائع المخبوعة فأطلعه عليها ..

و واضح ان تجارب الحسن في رحلاته بين بلاد السلاجقة وخلفاء بنى العباس وخلفاء الدولة الفاطمية قد أياسته من الوثبة الى السلطان من طريق الولاية ، ولكنها لم تنسه من الوثبة الى السلطان حيث كان لاستقرار هواء في طبعه ، فطمحت به همه الى معلم من المعلم في أطراف الدولة ينفرد بحكمه ولا تنتد اليه فيه يد ملك أو خليفة ، وتغیر الأطراف فلم يجد منها ما هو أصلح لطلبه من بلاد الدليم ، فخرج اليها مع رهط من صحبه وأتباعه ، وقيل انه تلقى من مصر في هذه الأثناء ولدا لزيارة بايعه بالامامه وعمل باسمه ودعا اليه ، حتى اتنى به المطاف الى قلعة يقيم فيها

زعيم من العلوين فاستضافه فأنزله على الرحب والاسعة وتعاضى عنه وهو ينشر الدعوة لمذهبة ويجمع الأنصار حوله ، ثم أحکم أمره كما يقول ابن الأثير فطرد صاحب القلعة واستولى عليها وعلى القلاع التي تجاورها ، وساعدته على انتزاعها انه خيل الى أهل الأقليم ان مجموعة حروفها بحسب العجم توافق تلك السنة الهجرية : سنة ثلاثة وثمانين وأربعين (٤٨٣) وهي مجموعة حروف الألف واللام والهاء والألف والميم والواو والباء التي تتألف منها كلمة الهموت ، وأتم الحيلة في أذهان القوم انه فسرها لهم بمعنى النسر المسلم من (الله) بضم اللام بمعنى النسر في الفارسية و (أموهث) (١) بمعنى المعلوم أو المعلم ، أيامه من القيب بتعليم الدين من قمة النسر الشاهقة ، والذين في مذهب الباطنية تعليم لا يستثنى عن الامام في كل زمان !

\* \* \*

وقد تحدث المؤرخون والسياح عن أسرار تلك القلعة بالأعاجيب التي ترجى الاحاديث بين الناس فيصدقونها لأنهم يحبون الاستماع الى العجب والتحدث بالعجب ويصعب عليهم بعد العثور على حديث عجيب أن يفطروا فيه كما يصعب عليهم التفريط في كل قنية عجيبة أو كل تحفة نادرة ..

من هذه الأعاجيب ان الحسن بن الصباح عرف سر الحشيش من أستاذه الطبيب ابن عطاش فسخره في نشر دعوته ، وانه توسل به لاقناع أتباعه برؤية الجنة عياناً لأنه كان يدير عليهم دواخين الحشيش ثم يدخلهم الى حديقة عمرت بمجالس الطرف التي يتغنى فيها القيان وتتلاءب فيها الراقصات ثم يخرجهم منها وهم في غيوبة الخدر ويوقع في وهمهم ساعة يستيقظون انه قد نقلهم الى جنة الفردوس وانه قادر على مرجعهم اليها حيث يشاء ، وانهم اذا ماتوا في طاعته ذاهبون بشهادة أعينهم الى السماء قالوا : وان هذا الاقناع أو هذا « الایمان البیانی » يفسر طاعة أتباعه

(١) ينطلق اسم الكلمة « الاموت » اداً الموت يفتح اللام

الذين كان يأمرهم بالهجوم على أعوانه من الوزراء والأمراء بين حاشيتهم وأجتادهم فيهمجون عليهم ويعتالونهم غير وجلين ولا نادمين ، وان كلمة «أساسن» Assassin التي أطلقت في الغرب على قتلة الملوك والعظماء ترجع الى كلمة الحشاشين أو الحسينيين نسبة الى الحسن بن الصباح وقالوا ان الفتى من أتباع شيخ الجبل كان يبلغ من طاعته لولاه أن يشير اليه الشیخ بالقاء نفسه من حلق فیلقی بنفسه ولا يتزدد ، وان أحدهم كان يقيم بين جند الأمير المقصود بالنقطة ويتكلم لغتهم حتى لا يميزوه منهم ، وانه يفعل فعلته ويتمدد أن يفعلها جهرا ولا يجتهد في الهرب من مكانها ، وان أمها هؤلاء الفدائين كمن يزغردن اذا سمعن خبر الفداء وي يكن ويتبحبن اذا عاد الأبناء اليهن ولم يفلحوا في اغتيال أولئك الاعداء ..

\*\*\*

وظل الحديث بهذا وأشباهه يتعاقب ويتأثر بين الأمم ، ويروى عن الحسن كما يروى عن خلفائه الى عهد الرحالة البرتغالي «ماركوبولو» الذي ساح في المشرق في أوائل القرن الثالث عشر للميلاد ، ولا يزال هذا التسريب الغرافي مقبولا في القرن العشرين بين الأكثرين من المؤرخين والقراء ..

ونحن نستبعد جدا أن يكون للجنة المزعومة أصل في قلعة حسن بن الصباح ، فإن التكذيب أرجح من التصديق في كل خيط من الخيوط التي نسبت منها القصة ذلك النسيج الواهي المريب

ان الحسن بن الصباح كان معروفا بالصرامة والشدة على نفسه وعلى أتباعه ، وكان يتنسك ويكتشف رياضة أو رباء أيام أتباعه وتلاميذه ، ولم يكن من اليسير في تلك القلاع المنفردة أن يخفى أمر القيان ومجالس الراقصات والفناء زمنا طويلا دون أن يطلع عليه المقربون إن لم يطلع عليه جيرة القلعة أجمعين ، وليس من المعروف عن ملخني العشيش أن يحفظوا وعيهم ويفقدوه في وقت واحد ، وأن يتلبس عليهم كلهم أمر العيان

والسمع هذا الالتباس ، وليس من المعروف عن الحشيش انه يهين صاحبه  
لمواقف الاقدام على المخاطر والاصرار عليها شهورا أو سنوات

ومن المحقق ان شيخ الجبل لم يطلع أحدا على سره ، وان أحدا من  
المؤرخين لم يشهد تلك الجنة بنفسه ولم يسمع روايتها من شاهد بعينه ،  
فهل من العسير أن تتبع مصدر هذا الخيال من روايات الزمن الذي  
نشأت فيه وسرت منه الى ما بعده من أزمنة القرون الوسطى ؟

\*\*\*

ان روايات هذا الخيال قد نشأت بين الصليبيين ولم تنشأ بين المغاربة ،  
وقد كان الصليبيون في حاجة الى تأويل شجاعة المسلمين وهم في عرضهم  
قوم هالكون لا يؤمنون بالدين الصحيح ، فخطر لهم وقالوا وكرروا انهم  
يستميتون في الجهاد لأنهم موعودون بالجنة التي تجري تحتها الأنهر  
وترقص فيها الحور الحسان ، اذا استحبوا الشهادة في سبيل الله  
واستغرب الشجاعة من الفدائين هو الذى أحوجهم الى سبب كذلك  
السبب او أغرب من ذلك السبب ، وقد كان ماركوبولو في روايته يقول  
ان الفدائين صدقوا شيخ الجبل كما كان المجاهدون من العرب يصدقون  
النبي عليه السلام ، وكانه يقول انهم لهذا يقبلون الموت وهم قوم هالكون ،  
فهم في شجاعتهم مخدوعون

ان القوم قد عجبوا كيف يطيع الفدائيون شيخهم هذه الطاعة وكيف  
يقدمون بأمره على الموت المحتوم . فلم يتخلوا بذلك سببا غير الجنة  
الموعودة ، وعرفوا الحشيش فالتمسوا فيه سر الجنة التي ترى في هذه  
الدنيا رأى العيان ، وقد جاء ذكر الحشيش في كلام مؤرخي المشرق وذكر  
بعضهم ان أناسا من شيوخ الطرق كانوا يستبيحونه ولا يحسبونه من  
المسكرات المحرمة ، وذكر البندرى مؤرخ آل سلجوقي جماعة الحشاشين  
وعنى بهم طائفة الاسماعيليين ، أما جنة « الموت » المزعومة فهي من  
مخترعات الغرب لا نعلم أنها وردت في كلام مؤرخ اسلامي قديم ولا أن  
أحدا من مؤرخى الغرب أسندها الى مصدر من المصادر الاسلامية .. ولو

كان لها مصدر من المشرق الاسلامى لكان كتب الشرق أولى بابتداعها  
من كتب الأوروبيين ..

وأول دلائل البطلان في هذه الخرافة أن وجه الغرابة الذى دعاهم إلى  
اختراعها غير غريب ، فان النخوة الدينية كانت أقرب شيء إلى أتباع الأئمة  
في ذلك الزمن ، ولا تصلح رؤية الجنة عيانا لتفسير تلك النخوة في عجائز  
الفناء فضلا عن الفتيان المجردين للفداء . فإذا كان أولئك الفتياز  
يستهينون بالموت لأنهم شهدوا الجنة عيانا فالعجب لأمهاتهم الائمة كن  
يفرحن بفقدتهم ويتحبسون لنجاتهم كيف ملکن جأشمن بغير تلك الآية التي  
رأها أبناءهن رأى العيان !

\*\*\*

لقد كان الأمل في ظهور المهدى المنتظر رجاء كل نفس وحدث كل  
لسان في ذلك العصر من المؤمنين بالمهدية ، وكانت فتن العصر أشبه شيء  
بفتن آخر الزمان أو باشراط الزمن الذى يظهر فيه المهدى المنتظر ليملأ  
الأرض عدلا كما ملئت جورا وينجو باتباعه ومصدقه إلى حظيرة الخلد  
والسلام ، وكان شيخ الجبل يتخير لtribe الفدائين فتيازاً أشداء يتفرس  
فيهم العزم والمضاء ولما يبلغوا الحلم ، ثم يأخذون في تدريسيم على المشقة  
والطاعة وهم دون الثانية عشرة وأكثرهم من أبناء الجبال في تلك الأطراف  
التي نشأ أبناؤها على الفطرة وعلى استعداد للتصديق والآيمان ، وكانت  
الآيمان بالدعوة العلوية قد شاع في تلك الأطراف فخرج منها الأمراء  
والوزراء الديليميون الذين يأتموا خلفاء القاهرة وهم في بغداد ، وكانت  
لشيخ الجبل ارادة من حديد تتسلط على أجياده سلط « المنوم  
المغناطيسي » على المدرسين عنده على التنويم ، فلم يكن في طاعة هؤلاء  
وأقادتهم على الاستشهاد من غرابة ولا من حاجة إلى رؤية الجنة بالعين ،  
وتأنى الحروب الصليبية فتلهم ما فتر من النخوة التي أذكّها الصراع بين  
الدول والفرق والطوائف والخلفاء والسلطانين .. فلا يحتاج الفتى

المدخر للاستشهاد الى دافع او حافز ، بل لعله يحتاج الى الوازع  
والرقيب ..

والمؤرخون الأوبيون الذين كتبوا عن خداع القادة لاتباعهم في  
الجماعات السرية كثيرون ، منهم من يحسن التفسير ومنهم من يسيئه ،  
ومنهم من يسرع الى الاتهام ومنهم من يتريث فيه . فمن الذين أحسنوا  
التفسير ايفانوف الروسي صاحب كتاب « مؤسس الاسماعيلية المزعوم »  
وهو من يصححون نسب The Alleged Founder of Ismailism  
الفاطميين ويرجحون الاختلاف من قبل « الأستاذة المربين » الذين  
يختارون لتعليم الأمراء وتشقيقهم في العلوم وفقه الدين ، وقد عَمَ الدعاة  
بالخداع من عهد عبد الله بن ميمون وخصوصاً بالذكر أئمة « الموت » من  
« المهدى حسن بن الصباح ورشيد الدين سنان » وسائر هؤلاء الدعاة ..  
فاما ان حسن بن الصباح كان يسوق أتباعه بالخداع فذلك ما لا ريب  
فيه عند الخصوم ولا عند الأنصار ، فهل يصدق القول عليه انه هو يخدع  
ولا يخدع وانه هو يسوق ولا يسوق ؟ ..

\*\*\*

الراجح عندنا ان هذا « المهدى » لم يكن خلوا من الايمان بدعوته على  
وجه من الوجوه ، وان عمله في الدعوة عمل جاد غير هازل وصادم غير  
متعدد ، ولا داعي للشك في ايمانه بعمله وان كان هناك شك كبير في ايمانه  
 بكل ما يقول لسامعيه ومتبعيه

وما بالنا تخيله خلوا من الايمان منصرا كل الانحراف الى التضليل  
والخداع ؟ أليس من دواعي الايمان أن يكون الانسان مدفوعا الى عمله  
غير قادر على تركه ؟ أليس من دواعي الايمان أن يكون اعتقاد الانسان  
في عمله خيرا من اعتقاده في أعمال الآخرين ؟ أليس من دواعي الايمان أن  
يقنع نفسه برسالة صالحة وأن يستمد من علمه حجة لتلك الرسالة ؟  
ان « التنويم الذاتي » معروف متواتر ، وانه لأقوى ما يكون حين  
تتدفع اليه النفس ضرورة لا حيلة لها فيها ، وذرية لها عذر من أحوال

الزمن ودعاعيه ..

وربما بدأت عقيدة ابن الصباح في رسالته سلبية قبل أن ترسخ في طويته بالاقناع الموجب واضحاً أو وسطاً بين الوضوح والغموض ونعني بالرسالة السلبية أنه آمن إيماناً لا مثنوية فيه بفساد العصر وضلال ذوى السلطان فيه ، وأنه مهما يفعل في حربهم واستصال فسادهم فهو على صواب ..

وتقرن بهذه الرسالة السلبية دفعة فطرية إلى السيادة والسلطان ، فماذا يصنع بهذه الدفعة إن لم يعمل بها عملاً قوياً متصل العزيمة والثبات ؟ أما أن يستكين إلى سيادة غيره والموت أحب إلى أصحاب هذه النقوص الفالبة المغلوبة من استكانة الخضوع ، وأما أن يمضي قدماً ولا بد له من مسوغ وبرهان ، وليس أسرع إلى السريرة من المسوغ والبرهان حين ينجيان من الفرق في لحج اليأس والانكسار وظلمات الفشل والهوان وقد قال داعي الدعاء في ذلك العصر إن الناس كانوا بين رجلين ، رجل لو قيل له إن فيلا طار أو جملأ باضم لما قبله إلا بالقبول والتصديق « أو متخل للعقل يقول أنه حجة الله تعالى على عباده ، مبطل لجميع ما الناس فيه ، مستخف بأوضاع الشرائع معترف مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ولجاما على رؤوس المجرمين المجازفين .. »

\* \* \*

وهذه عقيدة قوم لا دفعه في طبائعهم إلى طلب السيادة والسلطان ، وليس في طويتهم ما يشيرهم إلى الحركة إذا آثروا السكون ، فإذا كانت هذه العقيدة في طيبة رجل لا يهدأ ولا يستكين ولا يرى في نفسه إلا أنه أهل للقيادة والإمامية ، وإن الذين حوله أهل للقمع والتكمال ، فمن يسير عليه أن يسوغ لنفسه خداع العامة وخاصة لتحقيق غاية على يديه ، هي أصلاح مما هم فيه ، وأصلاح مما يتحققونه على أيدي سواه وقد سوغ أفالاطون في جمهوريته خداع الدهماء وخداع المتعلمين

الناشئين ، وسough فيثاغوراس من قبله حجب الحقيقة عن بعض العيون وتقريب الأمر الى المريدين بالرموز والاشارات ، وأياماً ذلك وليس واحد منها مأخوذاً بدفعة السيادة ، وليس في زمانها دعوة سرية عامة كالدعوة التي لفت حسن بن الصباح من رأسه الى قدميه ، فلم لا يسough هذا المذهب في قيادة الدهماء لحسن بن الصباح ؟ وهل من بعيد انه أطلع على أفلاطون وفيثاغوراس كما أطلع على أفلاطين ؟ ان القول باقتباس الباطنية من هذين الحكيمين راجح متواتر ، فليس مما يخل بحكمة الحكيم أن ينصب نفسه للهداية ويسلم نفسه ورسالته الى عنابة الله يتوجه به حيث أراد

\*\*\*

ان المؤمنين الخالصين للايمان بغیر مواربة ولا مراجعة ؟ ندر من الندرة بين بنی آدم وحواء ، وما من أحد آمن بعقيدة الا عرف في بعض حالاته كيف يوفق بين الشك والاعتقاد وكيف يسلم الأمر لله ويستلمه اليقين وتسعون في كل مائة ، ان لم تقل أكثر من ذلك ، يؤمدون بالمقيلة ايمان الواقعية أو ايمان الرغبة فيما يعودون به أنفسهم أو يعلّم به المدّاة ، وإذا استطاعت قوة الاعتقاد أن تقنع الملائكة بالتسليم لقائد منجد أو دليل مرشد ، فأحرى بهذه القوة أن تقنع من ترقمه عقيدته في نفسه ، أو في دعوته ، الى مقام السيادة والقيادة ، وتبسيط يده على خصومه مستحقين لعقابه ، وعلى أصحابه مستحقاً منهم الطاعة والتسليم ..

لم يكن حسن بن الصباح خلوا من الایمان بعمله فيما نرى ، ولم يكن عسيراً عليه أن يرکن الى دعوة تفريه بها ضرورة الفطرة ، ويحضره عليها فساد الزمن وسهرولة المسوغ للخروج على المقصدين فيه ، ولا يعزز عليه أن يعزّزها بعلامة من علمه الواضح أو من علمه القائم وما يلتعم فيه من بريق يثبت عليه بالالهام حيناً بعد حين ، فما عاش الرجل بقية حياته غائباً عن صوابه ولا مالكاً لكل وعيه ، وبين هذا وذاك منزلة الغائب المغلوب والخادع المخدوع ..

استولى الحسن على قلعة «آلمرث» في سنة ٤٨٣ هجرية ومات في سنة ٤٩٨ هجرية ، فظل مالكاً لتلك القلعة باسطاً نفوذه على ما حولها خمساً وثلاثين سنة ، لعله كان خلالها أقوى رجل في الديار الإسلامية من مراكش إلى تخوم الصين

ومات «المستنصر» الخليفة الفاطمي سنة ٤٨٧ للهجرة ، فانفتحت أيام الحسن أبواب الدعوة لنفسه باسم «نزار» وولي عهده ، وتسمى بالمهدي ، وانحلت البنوة الروحية للانتساب إلى الإمام ، واستمعان بتعدد المراجع في المذهب الإسماعيلي على انتقال المرجع الذي يروقه أن يدعوه ، فهو : حجة ومهدي وإمام كما يشاء .

\*\*\*

وقد اعتمد في توطيد سلطاته على ثلاث : الحيلة ، والغيلة ، والفتنة الداخلية . فمن الحيلة أن السلطان السلاجوقى ملكشاه سير إليه فرقة لمحاصره بعد استيلائه على قلعة الموت بستين ، ولم يستكثر من الجسد كما أوصاه وزيره نظام الملك استخفافاً بشأن القلعة وحمايتها ، فلما أحاطت الفرقة بالقلعة بين العجائب الجرداء والقفار الموحشة وطال على جنودها المهد بليو العواصم والحواضر أمر الحسن بقفالة تحمل الخمور فيما تحمل من المتابع فسيرة على مرأى من الجيش المحاصر ، فيما وقفت آيديهم على زقاق الخمر حتى أفرغوها في أجوافهم وانطلقو يقصفون وبهزجون ، فانقضت عليهم حامية القلعة وأمعنت فيهم قتلاً ونهباً وتشريداً من دون أن تصاب العامية بخسارة ذات بال

وأعاد ملكشاه الكرة وقد أصاغ إلى نصيحة وزيره في هذه المرة ، فضيق المحاصرون مسالك القلعة وساكنها وبطلت الحيلة فأعتمد الرجل على الفيلة ، وأرسل إلى الوزير فتى من فتيانه الفدائين فقتلته فعاد الجيش الذي سيره الوزير إلى حيث استدعاءه ملكشاه ، ل حاجته إليه في ابقاء الفتنة واتقاء الغارة من المغول

وتساعد الرجل مصادفات الحوادث .. فيموت ملکشاه ويزعم الأتباع  
والأشياع أنها كرامة المهدى تجيه من أعدائه واحدا بعد واحد ، ويتبه  
الرجل إلى موقع الفرص فلا تفوته هما فائته ، فلما نشب الفتنة بين ولدى  
ملکشاه جعل همه أن ينصر أحدهما على الآخر حتى يوشك أن يظفر  
بأخيه فيسلط على الجيش المتصر سلاح الغيلة أو سلاح الفتنة الدخيلة ،  
ومن أساليبه في هذه الفتنة أن يترك المحاربين في شرك منهن هو معهم ومن  
هو عليهم ، وقد يشيع عن أحد أعدائه في دولة الأمير أنه من الاسماعيليين  
« الصابحين » المسترين ، وقد يوهم الأمير غير ذلك فيقرب إليه ويظهر  
العداء لابن الصباح ومتبعيه

فلما آل العرش إلى السلطان سنجر بن ملکشاه ، وكان من أقوى  
الملوك وأغناهم في عصره ، لم يجد بدا من مصالحة ابن الصباح ، وقيل  
في أسباب المصالحة أنه كان من أهمها شرك السلطان في حاشيته وقواته  
وأجناده ، وتخوفه من أن تكون الدعوة السرية قد قلبت عليه أقرب الناس  
إليه وهو لا يعلم ، فتعاقد مع ابن الصباح على المسالمة وترك له جباية  
الضرائب والاتوات في اقليميه ، ويروى أنه وجد في طريقه إلى حصار  
« آلموت » خنجرا مفروسا في فراشه مكتوبا عليه أن الذي غرسه هنا  
 قادر على أن ينفعه في صدرك ، وأنه سمع عن أمراء الحصون أنهم يضمرون  
العقيدة الباطنية ويعلنون الطاعة للسلاجقة في انتظار الأمر منشيخ الجبل ،  
فاكثر المسالمة على القتال

\*\*\*

ولم يبال شيخ الجبل بالانقطاع عن الدعوة الفاطمية ، بل لم يبال  
بسقوط الخلافة الفاطمية ولم يحجم عن تهديد خلفائها بعلانية وخفية ،  
وهمه قبل كل شيء أن يكون أتباعه خالصين لطاعته والثقة به في غير  
مشاركة ولا هوادة ، فانقسمت الدعوة الاسماعيلية على نفسها وأصبحت  
لها في البلاد الفارسية والعراقية معسكران متلازمان : أحدهما معسكر  
ابن الصباح يدعو إلى توار ويدعى المهدية لشيخ الجبل ويحارب المعسكر

الآخر من الاسماعيليين ، والثاني يدعى الى المستعلى وأبنائه ، وبقيت منها «اليوم طائفة لاسماعيليين المعروفين باسم البحرة» ، يقولون ان المهدى المتظر سيظهر عما قريب من سلالة الخليفة «الامر» الفاطمى وأنه يحضر موسم الحج في كل عام ، فمن رأى الحجاج جمِيعاً في موسم من مواسم الحج فقد رأه ..

وحيرة المؤرخين والباحثين التفسانين هي حياة الرجل في السنوات الأخيرة من مقامه بقلعة آلموث . انه لم يكيد يفارقها بعد دخولها ، ولم تكن له أسرة فيها غير امرأته وولديه ، وهذا الرعيم «الباطنى» الذي قيل عن مذهبة انه ذريعة الى استباحة المحرمات والتهالك على اللذات قد اتفق انكابتون عنه على زهذه واعتكافه وعزوفه عن المباح من الأطابع ، فضلا عن الحرام ، وزعم بعض المؤرخين حين قتل ابنه أنه قتله لمحالفته ايام في شرب الخمر على الخصوص ، ولم يقتل ولدا واحدا بل قتل ولديه الاثنين وهو في شيخوخة لا مطعم له بعدها في الذرية ، وهذه هي حيرة أخرى من حيرات لا تحصى في مسلك هذا الانسان العجيب كله ، وفي مسلكه قبل وفاته على الخصوص

\* \* \*

هل هو مجنون مطبق الجنون ؟ ان الجنون المطبق الجنون لا يستغرب منه قتل أبنائه في شباب ولا شيخوخة ، وتزول بهذا غرابة القتل ولكنها تزول لتخلتها غرابة أعضل وأدهى ، وتلك هي قدرة الجنون المطبق الجنون على التدبير المحكم عاماً بعد عام ، وقدرته على حفظ مكانه ومكانته بين وزرائه وأعوانه ومنهم الأذكياء والدهاء وفيهم الشجاعة والهمة والاقدام ..

هل له عقيدة يصبر في سيلها على الشظف والفنك ويستبيح من أجلها ارقة الدماء ، دماء الابناء كدماء الأعداء ؟

انه خلق العقيدة النزارية خلقاً فمن بعيد أن يخلق العقيدة وينخدع بها ويصبر في سيلها على ما صبر عليه ويستبيح في سيلها ما استباح

والذى يبطل الحيرة فى اعتقادنا هو التفسير المقبول لطبيعة هذا الانسان  
المجىء ..

ونبدأ فنقول اتنا ينبغي أن نستغرب من حسن ابن الصباح ما هو  
غريب منه لا ما هو غريب من غيره ، ولو كانوا معظم الناس  
فالغريب فى طباع الناس تجردهم من الحنان الأبوى أو فتور هذا الحنان  
فيهم ، ولكن هل خلا الجنس البشري من آحاد يهون عندهم الحنان فى  
جانب النوازع القوية التى لها السلطان عليهم وليس لهم عليها سلطان ؟  
هل خلا الجنس البشري من آحاد نراهم يبتنا تستهويهم الشهوات الصغار  
فضلا عن الشهوات الكبار ، فلا يبالون ما يصيب أبناءهم من جراء تلك  
الشهوات ؟ ..

وهل من بعيد أن يكون ابن الصباح هذا من أولئك الذين تملكتهم  
نازعة تطفى على حنان الابوه ؟

كلا ! ليس هذا بالبعيد على الاطلاق ، بل هو دأب الطامحين من أمثاله  
إلى السيطرة ، ودأب الذين يهون عليهم شفف العيش ولا يهون عليهم  
الخضوع والبقاء في زوايا الاعمال ، وقد يكون الولدان اللذان أمر بقتلها  
قد تآمرا عليه مع بعض أعوانه المتطلعين إلى مكانه كما جاء في بعض  
الروايات ، وقد يكون أحدهما هو الذي تآمر عليه كما هو الأرجح ويكون  
ظنه بالآخر انه لا يفلح ولا يؤمن على مصير الدولة بهذه ، وقد يكون  
بطشه بابنه في سيل رسالته هو المسوغ المقبول أمام ضميره لقادمه على  
البطش بالغريباء في هذا السبيل

\*\*\*

فإذا كان الظن بجنونه المطبق حيرة ، وكان الظن بقتلته حيرة مثلها :  
فأنهى الظنون للحيرة انه أطاع طبعه في طلب الغلبة على الرغم منه ، وانه  
اتخذ من فساد زمانه حجة على وجوب رسالته وقداستها ، وانه راض  
نفسه على شدائده تلك الرسالة لتكون الشدائدة التي يضطلع بها حجة  
له على صدقه ومطاؤعه طبعه ، وانه كان عرضا لسورة الفسب ونوبة

الفتك في أزمات طبعه ولكنها سورات ونوبات دون الجنون المطبق في جميع الأحوال ، وهذا كله جائز غير مستغرب . أما المستحيل فهو أنه مصاب بالجنون المطبق أو خادع لا عمل له ولا غواية من وراء عمله غير الخداع والتضليل ، أو أنه مغفل لا يدرى موضع الفلة من سريرته ، وهو يتسلل بالاقناع إلى سائر المئات والألف ، ومنهم الأذكياء والألباء والحسفاء ..

## السّرِّيَّةُ الْبَاطِنِيَّةُ

ولعل سيرة شيخ الجبل في نقاوتها المعلومة هي ألزم السير للتعرف  
يعنى السرية الباطنية أو السرية الاسماعيلية على التخصيص ، فهذه  
السرية كانت تشتد وتترافق ببعض العمل الذى ينوطه الامام بدعاته ، لاتبعا  
للفكرة أو للعقيدة التي يخالفون بها أصحاب الفكر والمعتقدات الأخرى  
كانت السرية تشتد كلما خشي دعوة الامام في بلاد أعدائهم على أنفسهم  
وعلى رؤسائهم وأئمتهم ، وكانت تشتد كلما كان الكتمان أنجح لهم  
وأعون على تشتيت أعدائهم وتبليل الأفكار فيما حولهم ، وكانت تترافق  
حتى لاسرية على الاطلاق حيث تكون الدولة دولتهم والأمور مؤاتية  
لهم ولسياستهم ، وقد يقدون المجالس ويحضرون في الأندية العامة  
لاعلان آرائهم واقناع معارضهم كلما اطمأن بهم المقام في ديارهم

\*\*\*

ومن الجائز أن تكون تلك الأعمال مرتبطة بالعقيدة الخاصة في الامام ،  
حين يكون تعظيم الامام وتقديسه لازمين لاقناع الداعية أو القدائى  
بالهجوم على الخطير ومواجهة المصاعب والأحوال في غير اشغال على حياته  
أو حذر من عاقبة أمره ، ففى هذه الحالة يتصرف الامام بالقداسة التي  
توجب على المريد طاعته وتضمن له النجاة في هذه الدنيا أو في الدار الآخرة  
وكثيراً ما يستغنى الامام عن المبالغة بقداسته في الأزمات المصيبة التي  
تلتهب فيها الحماسة الدينية ويشيع فيها الأمل باقتراب الأوائل الموعود  
وتواتي العلامات والأشراط التي تؤذن بظهور المهدى واتصار زمرته على  
أعدائهم وأعدائه ، فإذا شاع في النفوس هذا الأمل فلا حاجة بالامام الى  
عقائد المبالغة والمبالغة في أمره ، وحسبه أنه قائد مصدق مطاع يأتى

## ينحوه جند مصدقون مطعون

وإذا أردنا التوسيع الذى يشمل جميع المذاهب ويقتضى مذاهب السنة والشيعة جمياً ولا يخص الاسناعية أو التزارية وحدها فالخلاف على الامامة هو محور كل خلاف بين جميع المذاهب من جانب السنة أو من جانب الشيعة ، فكل ماعزز ضرورة الامام الحى فهو من عقائد الشيعة ، وكل اختلاف أردنا أن نعرف عقيدة الشيعة فيه فلتترجم بجانبى الرأى الى محور الخلاف كله ، فأيهما كان أقرب الى ضرورة الامام الحى فهو من مذهب الشيعة ، بغير حاجة الى البحث الطويل والاستقصاء البعيد

\*\*\*

وقد لخص الفزالي هذا الفارق في كتاب المقدمة من الضلال فقال : « الصواب أنه لا بد من الاعتراف بالحاجة إلى معلم وأنه لا بد أن يكون المعلم معصوماً ، ولكن معلمنا المقصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم : فإذا قالوا هو ميت فنقول ومعلمكم غائب ، فإذا قالوا : معلمنا قد علم النعمة وبتهم في البلاد وهو يتضرر مراجعتهم أن اختلفوا أو أشكّل عليهم مشكل ، فنقول : ومعلمنا قد علم الدعوة وبتهم وأكمل التعليم ، إذ قال الله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم . وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا تضر غيتيه . يبقى قولهم : كيف يحكمون فيما لم يسمعوا ؟ أفالنص و لم يسعوه ، أم بالاجتهاد بالرأي وهو مظنة الخلاف ؟ فنقول : تفعل ما فعله معاذ رضي الله عنه لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ، إذ كان يحكم بالنص عند وجوده وبالاجتهاد عند عدمه ، بل كما يفعله دعاتهم إذا بعدوا عن الامام إلى أقصى الشرق ، إذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص فأن التصوص المتأهية لا تستوعب الواقع غير المتأهية ولا يمكنهم الرجوع في كل واقعة إلى بلدة الامام ، والى أن يقطع المسافة ويرجع يكون المستقى قد مات أو فات الاتقاء بالرجوع ، فمن أشكّلت عليه القبلة ليس له طريق الا أن يصلى باجتهاده ، إذ لو سافر إلى بلدة الامام ليعرفه القبلة لفات وقت الصلاة . فإذا أجيزة الصلاة الى غير

القبلة بناء على النظر - ويقال ان الخطىء في الاجتهد له أجر واحد وللمصيب أجران - فكذلك في جميع المجتهدات .. »

ومهما يكن من قول في تفصيلات الشعائر أو الفرائض فما كان منه أقرب إلى تعليم الإمام المقصوم فهو قول الشيعة وماعداه فهو قول السنين وجميع المقربين للإمامية على مذهبهم كالزيديين ، وهذا هو الذي يؤيد أن مرجع السرية كله هو الرأي في الإمامة لا عقائد مستورة أو خلائق مخالفة لأدب الدين أو العرف بين المسلمين وغير المسلمين

\*\*\*

خذ لذلك مثلاً اعلان بدء الصيام ، فإن رؤية الهلال فيه كافية على مذهب السنين ، ولكن هذا الرأي يعني عن اعلان الإمام للصيام فلا يأخذ به الإماميون ، بل يقولون ان المسلمين كانوا في حياة النبي عليه السلام يصومون حين يصوم ، فلما أزمم السفر سأله عن موعد الصيام فقال لهم : « صوموا لرؤيتكم وافطروا لرؤيتكم » . ولم يكلهم إلى الرؤية قبل ذلك وهو مقيم معهم يصوم فيصومون

ووجود علم مستور يتعلمه الناس من الإمام دون غيره هو المقدمة التي لا محيد عنها لمن يقولون بالامامية ، وإنما يختلف العلم المستور باختلاف الأئمة والأوقات والسائلين ، فقد يكون العلم المستور هو تأويل القرآن ، واجابة كل سائل عنه بما يقدر عليه ، وقد يكون العلم المستور سياسة محكمة لا تكشف لكل طالب ولا يجوز التردد في طاعتها توقيعاً على فهمها ، فإنها لو كشفت في بعض الأزمنة لاحق الضرر بمن تعلمهم تلك السياسة أجمعين ..

وقد فسر ابن الصباح اسم قلمته بمعنى النسر المعلم ، فهي مرجع المؤمنين من أتباعه لا يستفون عن تعليمها بالابتماد عنها ، وقد ترخص بعض الإماميين في أمر العصمة الواجبة للإمام ، فأباح بعضهم نقد الإمام كما فعل حسن ابن الصباح في نقد الخليفة المستنصر ، بل كما فعل داعي دعوة الخليفة نفسه هبة الله الشيرازي الذي سبقت الاشارة إليه ، ولكنهم

يقولون ان الامام يصيب وهو مختار ، ويجرى مع الخطأ وهو مكره ،  
ولا سيما في اختياره لولي عهده وصاحب الامامة من بعده ، فان من اختياره  
طائعا فهو الصواب المطاع

\*\*\*

لقد صحينا منشىء «الاسماعيلية الجديدة» من عهد بروزه في ميدان  
الدعوة الفاطمية ، ولمبدأ سيرته من نشأته الأولى . لأن حياته العامة  
لا توقف على أخباره في أوائل نشأته .. فما من خبر منها متفق عليه  
حتى اسمه وموطنه ونحلته ، فهو ينسب إلى اليمن وينذكر من نسبة  
أنه الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن حسن بن محمد الصباح  
الحميري ، ومنكرو دعواه يقولون أنه قروي من خراسان ، ومنهم من  
يقول أن آباء كان يعمل في الصياغة ، صناعة الصابحة على شواطئ بحر  
الجم ..

\*\*\*

والثابت أنه مات ولم يظهر له في حياته ولا بعد مماته أحد من ذوى  
قرباته ، وإن دعوته لم تفلح في بلاد اليمن بل أفلحت فيها دعوة الطيب  
ابن الآخر التي كانت تناقض الدعوة إلى نزار امام الحسن المختار ، وقد  
أوصى الحسن بهذه لرجل فارسي غريب عنه لا تربطه به نسبة ، ولعله من  
أقربائه المستورين أن صح أنه من الفرس وليس من أهل اليمن

ورويت عن صباح تلك القصة التي جمعت بينه وبين الخياوم نظام الملك  
بمدرسة نيسابور ، ولكنها قصة يرتاب فيها طائفه من ثقات المؤرخين ،  
لأن نظام الملك ولد سنة (٤٠٨ للهجرة) فإذا كان ابن الصباح والخياوم  
من لداته فقد بلغا اذن أكثر من مائة سنة ولو قدرنا أنها أصغر من نظام  
الملك ببعض سنوات ، وفي ذلك موضع للشك غير ضعيف

وأيا كان الخبر الذي يثبت من أخبار صباح فهو لا يغير شيئاً من ملامح  
«الشخصية» التي يربز بها في التاريخ ، وهي شخصية المغامر صاحب  
الدعوة التي انقطعت عن جذورها وانصلت به وبنياته ومراميه ، وهذه

بعد شخصية أثبتت في ملامحها من شخصية ميمون القداح وأحدث في الدعوة الفاطمية ، وعلى دعورتها تفاصيل الدعوات التي اقترن بالفاطمية في تاريخها المعلوم أو تاريخها المعهول

## بُنَاهُ وَهَدَامُونَ - وَمَهْدُومُونَ

ينسب قيام الدولة الفاطمية الى جهود الدعاة الذين انبثوا في المشرق والمغرب واقتتوا في تبلیغ الدعوة سراً وجبراً الى كل طائفة بالوسيلة التي تلائمها ، ويقلو بعض المؤرخين في شأن هذه الجهود حتى يخليوا من يقرأهم ان غير هذه الجهود لم يكن له في اقامة الدولة الفاطمية شأن ذو بال ..

ولا شك في براعة الدعوة الفاطمية وقوتها أثرها في التمهيد لقيام الدولة ، ولكننا لا ننسى أن بعض هذه الدعوة كان يسيء الى القضية ولا يحسن ، وان فريقاً من الدعاة كانوا يخدمون أنفسهم ويضرون قضيتهم ، وان الدعوة لو انصرفت كلها الى الخدمة والتمهيد ولم ينصرف شيء منها للإساءة والتنفير لما بلغت غايتها ان لم يكن جو العالم الإسلامي متيناً لقبول نظام جديد والاعراض عن نظام قديم

والواقع أن جو العالم الإسلامي قد تهيأ في القرن الثالث لقبول هذا التبدل في نظامه ، وكان هذا التهيؤ من شقين : شق ينكر النظام القائم وشق يرحب بالنظام المتظر ويعطف عليه

وكافوا يسمون ذلك دلالات النجوم ، فيربطون بين مشيئة الإنسان ومشيئة الكون كله ، ويلوح لهم حين يريدون التغيير ان التغيير كائن ولو لم يريدوه ، ولو لم يعملا لتحقيق ما أرادوه

وتوجد الكلمة التي تحفظ حين تلفظ ، ويسمع الناس « إن الشمس ستشرق من مغربها » فيهمس بها بعضهم الى بعض ، ويعجب السامع مما سمع فلا ينساه

وقد كاد علم النجوم قد استفاض في كل مسكن ، وليس أكثر من

مقارنات الفلك التي يحسب المنجمون أنها علامة الغيب على الغير  
 والاحاديث ، وطلاب التغيير هم المستبشرون دائمًا بتلك العلامات وهم  
 الذين يرکنون إليها ويترقبونها . ولا سيما حين يكون علم النجوم  
 علما يحبه المجددون ويمارسونه ، ويغضبه المحافظون ويتشاءمون به  
 ولا يتربقون بالخير من وراءه  
 وما كان أبو تمام ينظم قصيدة من قصائد المدح وحسب حين قال عن  
 النجم ذي الذنب في زمانه

أين الرواية بل أين النجوم وما  
 صاغوه من زخرف فيها ومن كذب  
 قد صيروا الأبراج العليا مرتبة  
 ما كان متقلباً أو غير متقلب  
 وخوفوا الأرض من دهماء داهية  
 اذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب

ولكن في الواقع كان ينظر في أوائل القرن الثالث إلى الوجهتين  
 المتقابلتين : وجهة الأرض عن نبوءات النجوم ووجهة المترمين بها ،  
 وما زالت الوجهتان تنفرجان حتى شهدت نهاية القرن غاية التفاؤل وغاية  
 التشاؤم بعلامات النجوم  
 قال صاحب زهر المعانى : « وكان أهل النجوم والحساب يذكرون ظهور  
 المهدى بالله وبدولته ، ثم ان الملوك والأضداد أيقنوا بذلك ،  
 وان صاحب الزمان تقدم للهجرة الى المغرب والمهدى في كنهه .. حتى يكون  
 او ان ظهوره وطلوع نوره .. وأن يكنوه بالشمس الطالعة »

وكان المهدى نفسه على علم بمراسيد النجوم ، فكان يتفاعل بمقارناتها  
 ويبشر بها أتباعه ، وهم بغیر هذه البشارة مصدقوه ، فإذا علموا أن الكون  
 كله يتأنب « لطلع الشمس من المغرب » فقد بلغ التصديق غاية اليقين  
 وقد أثر عن حفيظ موسى الكاظم – كما جاء في المقرizi – انه قال  
 في سنة اثنين وخمسين ومائتين ان الامام المنتظر سيظهر بعد اثنين وأربعين  
البلوريات الاسلامية - ٢ - ٢٧

سنة ، ونظم الفهري هذه النبوة فقال :  
الا ياشيعة الحق ذوى الامان والبر  
وممن هم نصرة الله على التحريف والزجر  
ف عند است واتس معن قطع القول في العذر  
وظل المتربيون بالدولة العباسية يقرأون في ارصاد النجوم علامات  
زوالها الى ما بعد نهاية القرن الثالث وبعد بداية القرن الرابع ، فقال  
أبو طاهر القرمطي :

أغركم مني رجوعي الى هجر  
فعما قريب سوف يأتيكم الخبر  
اذا طلع المريخ في ارض بابل  
وقارنه النجمان ، فالحذر الحذر  
فمن مبلغ اهل العراق رسالة  
بأنى أنا المرهوب في البدو والحضر  
أنا الداع للمهدى لا شك أننى  
أنا الصيفم الضراغم والجية الذكر

وقد تقدم ان الناس ظنوا بأبي العلاء المعري انه من رصدة النجوم ،  
فاذ بلغ بزمان أن يتربق فيه الضمير ارصاد السماء فهو زمان تفعل به  
العلامات الفلكية فعلها ، سواء أكان حب التغيير هو الذى علق الأ بصار ،  
والبصائر بمسالك الكواكب ، أم كانت مسالك الكواكب هي التي شحدت  
في نفوسهم حبهم للتغيير وتطلعهم الى الغيب من بصير وضرير  
وفحوى ذلك كله ان السماء والأرض في عرف أبناء القرن الثالث  
للهجرة كانتا تتطلعان الى شيء ، وان الناس كانوا يتفائلون بذلك  
ويتشاءمون ، وأحرى الناس أن يتفاءلوا بعلامات التغيير هم طلاب التغيير  
وجاءت الدعوة الفاطمية الى قوم متبرمين أو قوم غير مكتثرين للدفاع  
عن النظام القائم أو دفع النظام الجديد  
كان بين خدام الدولة العباسية نفسها من يبغضونها أو ينكرون حقها ،

ومن كان منهم لا ينكر حق الخلفاء العباسين فهو منكر لسلطان الترك والديلم ، معتقد أن أهل البيت المقربين خير من أهل البيت المؤلدين ، أو أهل البيت الذين تولت عنهم الولاية عجزا وسفها فليس لهم منها غير الأسماء

\* \* \*

وكان بطش العباسين بأبناء على من أسباب الكراهة لأصحاب الحكم وأسباب العطف على طلابه ، فكان مع العباسين من خدامهم وأعوانهم من يقدسون صاحب الدعوة العلوية ويمقتوه أصطاح العروش في بغداد ، ولو لا عامل من عمال بنى العباس في الرملة لاعتقل المهدى وقتل قبل أن يصل الى المغرب حيث أقام الدولة . يقول جعفر الطاجب في سيرته : « وصلنا الى الرملة فنزلنا بها عند عاملها ، وكان مأخوذًا عليه فلم يدر من السرور برؤية مولانا المهدى ... كيف يخدمه ورفع المهدى فوق رأسه وقبل يديه ورجليه »

ثم قال ان النجاشي وصل من دمشق الى الرملة يصف له المهدى وأمره بالبحث عنه والمهدى في داره فانكب الرجل على رجل المهدى يقبلهما ويكيى فطمأنه المهدى قائلا : « طب نفسا وقر عينا ، فوالذى نسى يده لا وصلوا الى أبدا ، ولنملكن أنا وولدى نواصى بنى العباس .. »

وتبيّن غير مرة ان النجاشيين الاسماعيليين كانوا أسرع الى تبلیغ المهدى وأعوانه من النجاشيين الذين تعقبوه وهم موعودون بالجزاء العظيم على اعتقاله وتسلیمه ، واستخدم العمام الزاجل في تبلیغ الرسائل الى المهدى وهو في طريقه كما جاء في روایات مختلفة ، فان صح هذا فهو دليل على ولاء عجيب وایمان بر رسالة المهدى على طول طريقه من الشام الى المغرب » وان لم يصح فقد صح ما هو أغرب منه وهو نجاة المهدى من عشرات الولاية والعمال في الشام ومصر والمغرب ، بل نجاته بعد دخوله الجبس حيث اعتقل قبل مصيره الى المغرب الاقصى

وربما كان ولاء عامل تابع للأمراء أقل في باب العجب من ولاء أمير قائم على عرش دولة كالدولة المصرية ، لا تعرف لخلفاء بغداد من بنى العباس

بغير الدعاء على المنبر في يوم الجمعة ، فقد روى عن كافور الأخشيدى ان الشرف أبا جعفر مسلم بن عبيد الله ناوله سوطه — وقد سقط منه فاستعظم كافور هذا التواضع منه ومال على يده يقبلها وهو يقول : « نعيت الى نفسي ، فما بعد أن ناولنى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطى غاية يتشرف لها .. »

هذه هي أشرطة الساعة وعلامات الزمان التي وافتها دعوة الدعاء الفاطميين على قدر ، ولو لم تقرن دعوة الدعاء بهذه الأشرطة التي تجمعت من فعل الحوادث التاريخية والبواحث النفسية لما تمكن الدعاء وحدتهم من اقامة الدولة ولا تسكنوا من الاقناع وهو أهم أعمال الدعاء

\* \* \*

وتتابع الأمر الى غاياته فنقول ان الدعوة والحوادث التاريخية والبواحث النفسية كلها كانت خلية أن تذهب سدى بغير نتيجة لو لم يقيض للدولة بناء وموطدون من أصحاب السلطان فيها ، يأخذون بزمام الأمور ويحسنوون قيادتها على نهجها القويم الى أن تبتدعائم الملك وتصمد البنية الجديدة لقواشى الزمن ، وهي بعد التأسيس عرضة لطوارئ الهدم والتوهين ..

وقد جرت العادة في كل دولة جديدة أن يكون لها مؤسس وموطد : مؤسس هو رأس الأسرة وموطد هو خلف له يتناول منه الملك وما يستقر قراره فيمنعه أن ينهار قبل أن يبلغ التمام ، ثم يتمه ويتركه لمن يأتيون بعده بناء أو مسترسلين أو هدامين ينقضون ما بناء الأولون

ولم تكن دولة الفاطميين شذوذًا من هذه القاعدة ، فأسسها المهدى عبيد الله ووطدها المعز لدين الله ، وكان كلامهما على نصيب وافر من الخلاق التى تبني لبناء الدول وموطدى العهود ، فلو تابعت أعمال الدعاء وداعى الزمن دون أن يتأتى للدولة هذان البيانان لما برب لها من الأرض ركن ولا أساس

اتصف عبيده الله بقوه البنية وجمال السمت والهيبة ، كما اتصف باليقظة

مع سعة الحيلة ورباطة البأش ، وعرف بالعزم واصالة الرأى وشدة  
الراس واستصانه المقاد على المكابرة والعناد ، واجتمع له حسن التصرف ،  
فلم يفته قط أن يختار الوقت الملائم والرجل الملائم للعمل المطلوب كما  
ينبغى أن يكون ، وأغان ذلك كله بحب العمارة والتنظيم ، فوجدت الدولة  
الجديدة منه مؤسسا قليلا النظرا  
قيل في قوة بيته « انه كان بقوة عشرة رجال »

\* \* \*

وليست هذه القوة نادرة في أبناء على من السيدة الزهراء ومن غيرها ،  
فقد روى عن محمد بن الحنفية انه جلد الأرض بمصارع الروم الذي  
جاء الى دمشق يتحدى الأقوباء في بلاد المسلمين كما تحداهم في بلاده ،  
ولم تزل هذه القوة معهودة فيهم بعد العجل الخامس ، فقيل عن يحيى  
ابن عمر الملقب بالشهيد انه « كان له عمود حديد ثقيل يكون معه في منزله  
وربما سقط على العبد أو الأمة من حشمه فيلوى العمود في عنقه فلا  
يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله بيده »

وليست قوة البنية شرطا في أصحاب العروش ، ولكن مؤسس الدولة  
يحتاج إليها إذا وجبت عليه الرحطة أحيانا من مكان إلى مكان فجأة وعلى  
غير استعداد ، ووجب عليه أن يصبر على متاعب الاستخفاء ومتاعب  
الحاجة وأن يصرع المطارد ويسبق المتعقب ويزر لقتال ولا يزال على  
أهبة مقاومة أعدائه ومقاومة أنصاره المتشقين عنه ، فإذا تصدى لهذا ولم  
يرزق ضلائعه الأركان أوشك أن ينقطع بالمسعى دون غاية الطريق

أسعفته هذه البنية الوثيقة في مآزقه وفي أيام سلطانه ، وأسعفته معها  
مهابة يمن لها المؤمن به ومن يحاربه ولا يضره موته ، فلما كان أسيرا  
في المغرب الأقصى كان صاحب « سجلmasة » يتكل بأعراضه ولا يجر  
على مواجهته بما يسوءه ، وكان يعمل في معيه ما لم يكن يجترئ على  
عمله وهو ناظر إليه  
وقد تمت له المسعفات في مآزق العرج باليقظة الجريئة والحيلة التي

لا تفارقها رباطة العجاش وعزه الكراهة . فلما خرج من الشام الى مصر هربا من خلفاء بغداد سيروا الاadle الى كل بلد في الطريق ينادون على الناس بأوصافه ويرئون الذمة من يراه ولا يدل عليه ، ويجعلون لمن يسلمه عشرة آلاف دينار وزلقى تنفعه عند الخلفاء والأمراء . واتفق انه صلى الصبح يوما في جامع عمرو فعرفه بعض المصلين بوصفه وهو يهم بالخروج من المسجد « وضرب بيده على كم الامام وقال له : « قد حصلت لى عشرة آلاف دينار »

\* \* \*

ولو رجل غيره في مثل ذلك الموقف العصيб لساخت به الأرض من الفزع ، ولكنه التفت الى الرجل غير مكترث وسألة كانه خلو الذهن من كل خبر : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك انت الرجل المطلوب . فضحك المهدى وعاد مع الرجل الى المسجد وهو يقول له : « عليك عهد الله وغليظ ميثاقه اتنى اذا جمعت بينك وبين الرجل الذى تطلبـه كان لي عليك ولصديقي هذا خمسة آلاف دينار ! .. » ولعله تفرس في الرجل الغفلة فأخذـه الى حلقة قد اجتمع الناس فيها ، وأدخلـه من جانبـها وراغـ منه .. وأجمعـ الآية في تلك اللحظـة على فراقـ مصرـ والمـبـادـرة بالـمسـير الىـ المـغربـ

وفي سـيرـه الىـ المـغربـ تـقبـه والـىـ مصرـ وأـدرـكـه وـتـرـدـدـ فيـ وـصـفـه فأـطـلقـهـ ولاـحـ عـلـيـهـ انهـ يـحدـثـ نـفـسـهـ بـلـحـاقـهـ اذاـ تـشـتـتـ منـ حـقـيقـتـهـ ، فـماـ عـتـمـ المـهدـىـ انـ عـادـ بـعـدـ اـنـطـلاقـهـ يـبـحـثـ عنـ كـلـبـ منـ كـلـابـ الصـيدـ يـتـعلـقـ بـهـ اـبـنـهـ — وـكـانـ تـرـبـيـتـهـ لـابـنـهـ كـمـاـ تـقـولـ فـيـ مـصـطـلـحـ هـذـهـ الـأـيـامـ تـرـبـيـةـ رـياـضـيـةـ — فـوـقـ فـيـ نـفـسـ الـوـالـيـ انـ رـجـلـ يـسـودـ بـعـدـ النـجـاةـ فـيـ طـلـبـ كـلـبـ لاـ يـظـنـ بـهـ انهـ خـائـفـ عـلـيـ حـيـاتـهـ وـانـهـ خـارـجـ فـيـ طـلـبـ الـخـلـافـةـ وـقـالـ لـأـصـحـابـهـ : « قـبـحـكـمـ اللهـ . أـرـدـتـمـ أـنـ تـحـمـلـونـيـ عـلـىـ قـتـلـ هـذـاـ حـتـىـ آـخـذـهـ . فـلـوـ كـانـ يـطـلـبـ مـاـيـقـالـ ، أوـ كـانـ مـرـبـاـ ، لـكـانـ يـطـوـيـ الـمـاحـلـ وـيـخـفـيـ نـفـسـهـ ، وـلـاـ كـانـ رـجـمـ فـيـ طـلـبـ كـلـبـ ... »

وقد يكونـ الـوـالـيـ أـطـلقـهـ مـالـ أـخـذـهـ مـنـهـ كـمـاـ يـقـولـ عـرـبـ ابنـ سـعـدـ فـيـ

تاریخه ، وانه خشی من أصحابه أن يرتابوا فيه ويرفعوا أمره الى رؤسائه - وأن يلحقوا من ورائه بالمهدي وركبه ، فكانت حکایة الكلب هذه حيلة لتضليل أولئك الأصحاب وصرفهم عن الطاردة وعن الوشایة بالوالى الى بعداد ..

ومن حزمه بعد مبايعته بالخلافة انه بادر على الأمر الى تجدید نظام الدعوة في المغرب وفي مصر واليمن والراق وخراسان ، وحمله على هذا التجدد أن أمر الدعوة لم يكن مجتمعا في يديه أيام استاره ، فنولى الدعاء ندب أعواانهم بغير مراجعة المهدى في اختيارهم ، وتسود هؤلاء الأعواان أن يتلقوا أوامرهم من الدعاء الذين ندبواهم واختاروهם ، ولم تكن عاقبة هذا النظام مأمونة على الخليفة الجديد ولا على الخلافة الناشئة ، فانه خليق أن يجعله عالة على أتباعه وأن يطبع هؤلاء في الاستبداد به وعصيان حكمه . فنقض نظام الدعوة وعزل رؤساء الدعوة ولم يستثن أكبرهم - داعي اليمن ابن حوشب - فعزله وهو الذي كان أستاذ دعاته في الأقاليم ، وكان منهم عبد الله الشيعي الذي سبق المهدى الى المغرب واستقدمه اليها بعد التمهيد له وجَسَنَ القبائل على عهده ، وقد رابه من الشيعي هذا وأخيه العباس انها على اتصال خفي بزعماء القبائل وانهما يستكثران على الخليفة أن يحصر السلطان في يديه ، ونمى اليه انهما يأتسان به ويبيتان النية مع زعماء القبائل على قتلها ، فأمر بقتلهما وأظهر الرضى عن غيرهما من ظن فيهم الظنون ، فجعل يفرقهم في المناصب النائية كأنه يكافئهم ويعتمد عليهم ، وهو في الواقع يقصيم عن مواطن الخطر ويوقع بينهم الحذر والمنافة .

\*\*\*

وأطلق دعاته العدد ومن أبقى عليه من الأقدمين يجوسون خلال الديار الاسلامية ليشرروا به ويخذلوا الأنصار حول أعدائه ، فانطلق رسلا الى بلاد الأمويين بالأندلس وببلاد الادارسة بالمغرب ، وتنشط رسلا في مصر واليمن والراق وخراسان ، وأخذ يديه أزمة الثورات في كل اقليم من

تلك الأقاليم ، فاستمهل أعوانه كلما تعجلوا الثورة وظنوا أنهم قادرون  
 عليها وإن الأوان قد آن للجهر بها ، ورأى هو بثاقب نظره أن ثورة  
 الأطراف قبل فتح مصر ، أو قبل المسير إليها ، تغrier بالثوار ، وإن الثورة  
 بعد فتح مصر ستة متقطرة قد تأتي عدوا وقد تشتب دفعة واحدة مع سقوط  
 هيبة الدولة العباسية ، فلا يعي الثوار بالخروج عليها في غير حذر  
 ولا ندم وقد صح تقديره بعد تسيير الحملة على مصر وتجربة الموقف مرتين  
 والراجح من المقابلة بين برامج المهدى انه كان مقصور اليد في حملاته  
 على مصر . كان يوصى بالانارة والتريث حتى يفرغ العمل في التخديل  
 وكسب الأنصار ... ثم يضرب القدر ضربة من ضرباته التي تأتي على غير  
 انتظار فيموت خليفة في بغداد ويستحكم الشقاق بين قواده وزرائه  
 ويفتتم التأرون الفرصة قبل تمام الأهة ، وتتوارد الكتب الى المهدى  
 بالحضور على الهجوم فلا يملك القعود والاكتفاء بالنظر الى هذه الأحداث  
 من بعيد ، ولا يبلغ من ثقته بجدوى الهجوم أن يجمع له قوته ويترك المغرب  
 خلوا من الجندي مطمئنة للمغيرين عليه والمتقاضين من بايعوه على دخل في  
 أول عهده ، فينفذ الى المشرق حملة اضطرار لا حملة اختيار ، كالحملة  
 التي عقد لواءها للزعيم البربرى حباشة ثم حمله تبة الاخفاق فيها والهرب  
 منها بعد آن وصل الى الاسكندرية

\*\*\*

أما الخطة التي يبدو انه كان يؤثرها ويختارها فهى ارجاء الحملة على  
 مصر الى أن يفرغ من شأن المغرب ويقضى على فنته ومشاغباته ، ويبيتى  
 فيه المدينة التى أزمع أن يتخذها حصننا له يحتسى به من المغيرين والمتقاضين ،  
 وقد شغلته قتن المغرب زمانا وأخرجته ايمانا احراج بعد مؤامرة عبد الله  
 الشيعى وأخيه فقمع الفتنة قمما عنيقا لا رحمة فيه ، ولم يسكن الى مقره  
 بالغرب الا بعد الفراغ من بناء المهدية حوالي سنة خمس بعد الثلاثمائة ،  
 فقال يومئذ : « لقد أمنت الآن على الفاطميات » ..

ولم تفارقه طبيعة الحيطة والدهاء فى بنائه للمهدية ، فاتقى لها موقعا

يحيط به البحر من جهات ثلاثة ، وأقام عليها سورا من الغرب له بابان من الحديد زنة الواحد منها ألف قطار وبني فيها الصهاريج وأجرى فيها القنوات وجعل للمؤن أقيمة تسع ميرة الحامية عدة شهور ، واتسحى جانبا ثم بني على مقربة من المهدية مدينة أخرى سماها باسم زويلة أحدي قبائل البربر التي تواليه ، وخصص زويلة لدكاكين التجار ومخازنهم تخفيضا عن المهدية وعزلا بين السكان ومرافقهم ، وأفضى إلى خاصته بأنه إنما فعل ذلك ليأمن غائتهم . قال : « إن أموالهم عندي وأهاليهم هناك . فان أرادوني بكيد وهم بزويلة كانت أموالهم عندي فلا يمكنكم ذلك ، وإن أرادوني بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك ، وبنيت بيني وبينهم سورا وأبوابا فأنا آمن منهم ليل ونهارا ، لأنني أفرق بينهم وبين أموالهم ليلًا وبين حرمهم نهارا »

بعد هذا استعد للحملة الكبرى على مصر وعقد لواءها نولي عهده القائم فدخل الاسكندرية سنة (٣٠٧ للهجرة) وتقدم إلى العجزة واحتل القيويم ثم دهم الوباء جيشه وقتله بالألفوف من جنده وحيل بينه وبين المدد من المغرب بعد انهزام أسطوله ، لأنه كان أضعف من أسطول العباسين

ثم كانت الحملة الثالثة (سنة ٣٢١) وهو في ومن الشيخوخة ، وقيل أنه مات قبل أن يحكم تدريجيا ، وبلغ من هيته بين أهل المترأ أن خليفة القائم كتم خبر وفاته سنة كاملة ، مخافة الاتقاض من دانوا للحكم الجديد مهابة للمهدى ورهبة من قرمه

\*\*\*

مات المهدى في سنة (٣٢٢ للهجرة) وولد في تاريخ مختلف عليه بين (سنة ٢٥٥ وسنة ٢٦٠ للهجرة) وبويع له بالخلافة وهو في نحو الأربعين ، فكانت مدة حكمه أربعين وعشرين سنة ، ترك الدولة بعدها وقد استقر بنائها ورسخت أركانها ودانت لها الذول التي كانت تنازعه في المغرب وصقلية من الأغالبة والإدارسة فمن يؤازرهم من الأمويين بالأندلس والعباسين ببغداد ، ولم يعرف عنه طوال أيامه بالغرب حاكما أو غير حاكم

انه فرغ لناعم نفسه او غفل يوما عن سياسة ملكه ، وكانت له زوجة واحدة واقتضت حياته وفي سيرته رد بلسان الحال لا بلسان المقال على، الذين رموه بالاتماء الى اعداء الدين ، بل اعداء الأديان وانه تواطأ سرا مع رسول الفساد والغواية لاستباحة المحرمات والاغراء بالتجور ، ولو لم يكن كذلك لما أبقي بعده ملكا مؤسسا يغالب عوادي الدهر من أول القرن الرابع الى نهاية القرن السادس ، أو يغالبها باثاره الباقيه الى اليوم



## المُعْزِلُ دِينِ اللَّهِ

واحتاجت الدولة الى التوطيد بعد التأسيس فقام بالقسط الاولى من هذه المهمة ابن حفيده الملقب بالمعز لدين الله ، وهو الخليفة الذي فتح مصر وبنية القاهرة في عهده ونقل مقر الملك اليها بعد اقصاء أربعين سنة على وفاة جده الكبير ، وقيل انها كانت نبوة من يحسبون الأوقات في مراحل التاريخ بالأربعينات

تولى الملك بعد المهدى ابنه « القائم بأمر الله » ثم المنصور بأمر الله ، وكلاهما جدير بامانة ميراثه وان لم يبلغ من العظمة مبلغ المؤسس من قبله أو مبلغ الموطد من بعده . فعزز القائم الأسطول واحتل الشواطئ الإيطالية حتى ثغر جنوة حماية لبلده من غارة القرادنة ، ومات قبل التمكن من صد الغواصين أطعمهم فيه موت أبيه ولو لا اعتصامه بالمهدية للدالل الدولة كلها في عشرة أعوام ، وارتقي ابنه المنصور الى العرش فاجتاح الغواصين أمامه وأسر زعيمهم القوى ابن كنداد وشت جموعه ثم تردد بين صد الأموريين الذين أغروا على مراكش في هذه الأثناء وبين صد الأفرنج الذين خيف منهم على شواطئه فوزع قواه بين هؤلاء وهؤلاء ليقف زحفهم ولا يخلو الطريق أمام أحدهم ، ومات مجدها في سنة ( ٣٤١ للمigration ) فارتقي العرش ابنه « معد أبو تميم » المعز ل الدين الله الذي كاذب حق صاحب دور التوطيد بعد انتهاء دور التأسيس

\*\*\*

قلنا في كتاب « عصرية خالد » اذ ولادة أبي عبيدة على الشام كانت لازمة بعد ولادة خالد . لأن الدول تحتاج بعد دور الفتح الى غصن الزيتون مع السيف ..

وقد كان هذا شأن المعز في المغرب بعد جده .. فانه كان يحسن المجاملة الى جانب البأس والصرامة ، وكانت نشأته نشأة علم وفروسيّة أو نشأة غلبة بالبرهان وغلبة بالسيف والصلوجان

كان المعز يحضر دروسه على أساتذته وال الحرب قائمة والمهدية محصورة، فكان يتلقى دروس الفروسيّة علماً وعملاً ولا يفرغ من مراجعة الطروس والأسفار ، وتعلم لغات الأمم التي تتصل بالخلافة الفاطمية جميعاً ، فكان يحسن البربرية والرومية والإيطالية والنوبية ، ويتوسع في علوم العربية ، وكان له شعر وثر يميل فيما إلى المحسنات لا تشارها على الألسنة والأقلام في تلك الأيام

ويروى عن أفقه من الجهل انه سمع من بعض خدمه كلمة صقلية لا يعرفها واعتقد انها كلمة شتم ومهانة فحفظها وألق أن يسأل عن معناها ولم ييرح حتى أتقن علم تلك اللهجة فإذا بالكلمة من أرذل شتائمها ، وقد ألق من جهلها فأصبح يأنف من أن يواجهه أحد بمثلها ..

وبويع له بالخلافة وهو في الرابعة والعشرين ، فهمه أول الأمر أن يستوثق من أمن المعاقل التي يعتض بها الخارجون على الدولة ، فقصد إلى جبل أوراس وفيه من القبائل من لم يكن قد دخل في طاعة آبائه فبايعوه ، وأسرع إليه المخالفون يتربون إليه لما أنسوه من مواده وكرمه وأظهر ما ظهر من خصال المعز التي يتصف بها بناء الدول انه كان حريصاً على الاتناع بالتجارب وال عبر ، وانه كان يحسن اصطناع الرجال ، وانه كان جيد القراءة في أحوال الأمم واعتتم القراءة من بينها لما يترقبه ويعقد العزيمة عليه ..

فلم ينس هزيمة الاسطول في الحملة على مصر ، ولم يزل حتى أمن على شواطئه واستطاع بقوته البحرية أن يرد أساطيل الروم عن بلاده وعن جزر البحر الخاضعة لحكمه .. ثم جدّد حفر الآبار في الطريق إلى مصر ليأمن قطع الزاد والماء عن جيشه ومن اصطناعه للرجال انه كان يستخلص الخدام والاعوان ولا يفسار

من تعظيمهم بين يديه بل يأمر الشعراء أن ينظوا القصائد في مدفعهم ويأذن لهم أن يخاطبوا بهم في حضرته ، وكذلك أمر شعراءه أن يمسحوا قائدده جوهر الصقلى وأمر العظاماء والكبراء أن يتراجلوا عند توديشه ، ولما تم لجوهر فتح مصر وأرسل وكيله الكتامي جعفر بن فلاح لفتح الشام تخطى هذا الوكيل جوهرًا عند تبلیغ بشارة الفتح إلى المعز فلم يبدأ بابلاغها إلى رئيسه «المباشر» ليبلغها من جانبه إلى الخليفة ، فنضب المعز على جعفر بن فلاح ورد إليه كتبه ليعيدها من طريق جوهر إليه

ومن اصطناعه للرجال انه كان يغفو عن الشجعان من أعدائه ويوقع في نظرهم الأمان والطمأنينة بالتجربة بعد التجربة حتى ي Suspender الطعام خالصة بغير ريبة ، ومن المشهور عنه انه كان اذا لقى أحداً من مخالفيه تركه ينصرف وهو يحسبه من حزبه ورأيه ، ولعل هذا كان سبب الاشاعة التي توالت بين الرهبان والقسوس بتصره وبقاءه على التصارى ، فان الخبر الذي جاء في كتاب «الجريدة النفيضة في تاريخ الكنيسة» لأحد الرهبان يقول انه اعتزل الملك وترهب ومات فدفن في مقبرة أبي سيفين ، ويقال في سر ذلك انه تحدى الطرق ايرام أن يزحزح الجبل فجاءه بمن زحزحه على ملا من الأمراء والكبار وقاده الجناد ورؤساء الدواوين

والثابت من الأخبار يعني عن هذه الاشاعات ، فان الخليفة المعز أمر قائده جوهر ألا يتعرض لمخالف في الدين ولا في المذهب بما يعطى شعائر دينه أو مذهبها ، وأطاع جوهر مولاه ، فبني الدير الذي عرف بدير الخندق بدليلاً من الدير الذي أصابه الهمم عند تمهيد الأرض لبناء القاهرة ، وجاء المعز فجدد كل ما تهدم من الصوامع والبيع وجدد كنيسة «مركوريوس» التي تسمى بكنيسة أبي سيفين (لان القديس كان يرسم على صهوة جواد وفي يديه سيفان) ... وقيل انه أمر باقامة البناء على المجنوب الذي أثار الدهماء استتكلارا لبنائهما وألى ليقين في حضرة الأسس حتى يقام عليه ، فلم ينقذه من مصيره الا شفاعة الطرق له عند الخليفة ..

فهذا وما جبل عليه المعز من الجاملة وما تعوده من الترحب في مجلسه بالمتظاهرين في الأديان والمذاهب هو على التحقيق أصل تلك الاشاعة عن مدفنه في مقبرة الكنيسة ، ولعلها اشاعة نبتت بعد عصر المعز بعده سنين ، يوم كانت هذه الاشاعة وما اليها مولئ العزاء في أيام الخليفة الحاكم المخوب ، لمن كان يضطهدتهم من المخالفين ، وينهم مسيحيون ومسلمون من الشيعة والسنين

\* \* \*

ومن تفاصيل استطلاع أحوال الأمم واغتنام الفرص انه عول من اللحظة الأولى على فتح مصر ونشر فيها العيون والدعاة وجاءه من مصر وزراء يستعجلونه ويستخفونه ، وتلاحت الأنباء بسوء الحال واشتداد الفلاء وقت الوباء ، فلم يتعجله ذلك كله كما أتعجله ما سمعه عن تدهور الأخلاق بين ولاة الأمر ، ومنه في رواية المقريزى ان صبية عرضت في مصر للبيع وطلب فيها البائع ألف دينار « فحضر اليه في بعض الأيام امرأة شابة على حمار لتطلب الصبية فساومته فيها وابتاعتها منه بستمائة دينار فإذا هي ابنة الأخشيد محمد بن طفع وقد بلغها خبر هذه الصبية ، فلما رأتها شفقتها حبا فاشترتها لتستمع بها »

قال المقريزى : « فعاد الوكيل الى المغرب وحدث المعز بذلك فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل فقصّ عليهم خبر ابنة الأخشيد مع الصبية الى آخره فقال المعز : يا اخواتنا ! انهضوا لمصر فلن يحول بينكم وبينها شيء ، فان القوم قد بلغ بهم الترف الى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتستمع بها ، وما هذا الا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غربتهم ، فانهضوا لميسرا اليهم .. »

وقد كان الفاطميون يحيون المواسم والموالك ويستدعونها ويشجعون الرعية عليها ، ولكن المعز - على خلاف المعهود من سياسة أسرته - حظر الاحتفال بالنوروز بعد وصوله الى مصر منعا للتبدل الذي شاع فيه على آخر أيام الأخشيديين ، وتطهيرها للأخلاق مما أصابها في تلك الأيام وأدرك

منه المعز انه نذير بزوال ملك بنى الأخديد

وقدم جوهر الى مصر في سنة ( ٣٥٨ للهجرة ) فاشترط عليه وجوه الأمة ورؤساؤها قبل التسلیم أن يؤمّنهم على عقائدهم وأمالوغاتهم ، وكتب لهم عهد أمانه الذي قال فيه : « ذكرتم وجوهنا التمسّم ذكرها في كتاب أمانكم ، فذكرتها اجابة لكم وتطمّنا لأنفسكم ، فلم يكن في ذكرها معنى ولا في نشرهافائدة ، اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة متّعة ، وهي اقامتكم على منذهبكم وأن ترکوا على ما كتّم عليه من أداء المفروض في العلم والمجتمع عليه في جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم ... ولكن على أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتّاكد على الأيام وكروں الأعوام ... »

ووضع جوهر أساس القاهرة ، ولم يشا المؤرخون أن ينسوا شهرة الفاطميين برصد النجوم - وهي شهرة صحيحة - فقالوا أنها سبّت بالقاهرة لأنّ المهندسين أقاموا على أساسها جبالاً وعلقو في الجبال أحجاراً لسماعها العمال عند حلول الرصد المطلوب ، وأنّ غرباً وقع على الجبال والمريخ في الفلك فاهتزت الجبال وأخذ العمال في وضع الحجارة فسميت المدينة باسم القاهر الذي يطلقه المنجحون على المريخ ، لأنّه كان في معتقد الأولين الله العزوب ..

\*\*\*

هذه القصة « أولاً » تروى عن بناء الاسكندرية وهي « ثانياً » لا تعقل ، لأنّ النجوم ترصد ليلاً والفرسان لا ظير بالليل ، ولو طارت ليلاً أو نهاراً لما كانت وقعة غراب على جبل كافية للدق الأجراس على جميع الأسوار ، ولو كانت الأجراس تدق بهذه السهولة لدقّت قبل وقوع الغراب على الجبل لأسباب كثيرة تحرك الجبال كما تحركها هزة الغراب ، ولو كان تحقيق الرصد مبنياً على انعلم لا على الرؤية لأمكن أن يبدأ التأسيس في ساعة معلومة بغير حاجة إلى الأجراس

ثم من قال انه غراب وهو مجھول ؟ وكيف عرفوه . والمنظون ان  
المهندسين هم الذين حرکوا العبال ؟ ولم لا يكون طيرا آخر أو جملة  
من الطير ؟ ..

وقد رويت القصة وتناقلها المؤرخون وتقبلها الكثيرون ، وفي التنبیء  
الى ما فيها من الاحالة عبرة لمن يصدق السمعة التي تخلقها الأقاويل من  
هذا القبيل ..

وابع جوهر سنة دولته في تخطيط المدن وتشييد العماائر ، فانهم  
تمودوا أن يبدأوا بتجديـد المعـالم والشارـات ليـشعرـ الناسـ ألفـةـ العـهدـ  
الجـديـدـ بالـنظـرـ وـالـسـمعـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ قـبـلـ مـطـالـبـهـمـ يـتـغـيـرـ مـاـ تـوارـثـوهـ وـثـبـتوـاـ  
عـلـيـهـ ، فـشـرـعـ جـوـهـرـ فـيـ بـنـاءـ مـسـجـدـ العـاصـمـةـ الجـديـدـةـ (ـ ٣٥٩ـ للـهـجـرةـ )  
وـسـمـاهـ الجـامـعـ الأـزـهـرـ عـلـىـ اـسـمـ الزـهـراءـ فـأـرـجـعـ الأـقوـالـ ، وـكـانـهـ أـرـادـ  
أـنـ يـسـتـغـنـيـ بـالـعـاصـمـةـ الجـديـدـةـ وـمـسـجـدـهـاـ عـنـ الـقطـائـعـ عـاصـمـةـ الطـولـونـينـ  
وـمـسـجـدـهـاـ الشـهـورـ بـمـسـجـدـ اـبـنـ طـولـونـ ، وـعـنـ الـفـسـطـاطـ وـمـسـجـدـهـاـ  
الـشـهـورـ بـالـمـسـجـدـ الـعـتـيقـ ، وـكـلـاـهـماـ — أـىـ الـقطـائـعـ وـالـفـسـطـاطـ — كـانـتـ  
عـاصـمـةـ الـقـطـرـ فـيـ أـوـانـهـ ، وـاستـحـدـثـ الـأـمـرـاءـ بـعـدـ خـرـابـ الـقطـائـعـ عـاصـمـةـ  
خـارـجـ الـفـسـطـاطـ سـمـوـهـاـ الـعـسـكـرـ ثـمـ أـشـأـ الفـاطـمـيـونـ الـقـاهـرـةـ مـعـقـلاـ وـمـقـاماـ  
لـأـمـيـمـ فـيـ تـجـدـيـدـ الـمـعـالـمـ وـالـشـارـاتـ عـلـىـ مـاـ أـلـمـنـاـ إـلـيـهـ

\*\*\*

وبعد فراغ جوهر من بناء القصور التي أعدت لاقامة الخلفاء أبلغ  
العز فقدم الى الاسكندرية ( شعبان ٣٦٢ للهجرة ) وجلس لاستقبال  
رؤساء المدينة والوافدين اليها للتسلیم عليه ثم خطبهم قائلا انه لم يقصد  
الى مصر طبعا في زيادة ملك او مال وانما قصد اليها لتأمين الأنفس  
وحماية طريق الحج ودرء الفارة عن ديار الاسلام ، وهو كلام يقول مثله  
كل فاتح ولكنه كان في بر قاع المعز خطة تملها الفرورة عليه ، لأن تأمين  
الطريق الى الحجاز كان ضمانا لاستقرار الدولة الفاطمية ودفع الشبهات  
عنها ، اذ كان الترامطة يعملون باسمها وكان أعداء الدعوة الفاطمية

يشيعون عن القوم أنهم يقطعون طريق الحج علا بمنذهب الاسماعيليين  
 ويزعمون أن الاسماعيليين يسقطون الحج من الفرائض ، فكان تأمين  
 طريق الحجاز من قبل مصر والشام خطة تقضي بها مصلحة الحاكم  
 والحاكم ، ولم يلبيت المزع في القاهرة سنة واحدة حتى تفاقم خطب التزاع  
 بينه وبين القرامطة وأعلن البراءة منهم وأعلنوا الخروج عليه ، وزحفت  
 جموعهم الى مصر ومعها قبائل البايدية التي تطلب الغنيمة وتتخى من  
 عواقب تأمين الطريق ، فاستعد لهم المزع بعدة الحيلة حقنا للدماء وأرسل  
 الى زعيم القبائل البدوية حسان بن الجراح الطائى من يطعنه المال اذا  
 تراجع وتتحى عن أصحابه ، ووعده بمائة ألف دينار .. قبل الصفة ،  
 وخرج المزع للقتال على اتفاق بينه وبين ابن الجراح أذ يهزم هذا بجموعه عند  
 التقائه الصدوق ، وقد فعل وحمل معه آكياس الدنانير ... ولكنها لم تحو  
 من الدنانير الصحيح غير مئات تبدو على وجه الآكياس ومن تحتها قطع  
 النحاس المذهبة يخفى فيها الزعيم المخدوع جميعاً عن شركائه ، ودارت الدائرة  
 على القرامطة في ذلك اليوم فتقنعوا من الغنمية بالإياب ودب المخاوف  
 والشكوك بينهم وبين أصحابهم فلم يرجعوا بعدها الى غاراتهم على مصر  
 ولم ينته عهد التوطيد بانتهاء عهد المزع ( في سنة ٣٦٥ للهجرة ) فان  
 ابنه العزيز الذى تولى الملك بعده كان من كفافة الملوك وكانت طاعته  
 غالبة على المغرب ومصر وجزيرة العرب لاتخرج عليه خارجة فيها الا عجل  
 بقمعها وأعاد الأمور في أرجاء الدولة الى نصابها ، ولكنه مات ( سنة  
 ٣٨٦ ) وقد بدأت في أيامه دسائس القصور وسياسة العريم ، وتناثرت  
 هنا وهناك بدور الانحلال التي اختفت الى حين في ابان نزرة الدولة  
 وزهوها ، ثم بربت وترعرعت مع ادباء الأمور وتعاقب الضعفاء من  
 الأماء ..

### الحاكم بأمر الله

قام بعد العزيز على سرى مصر أسطورة في شخص انسان ، لو لم يكن

تاریخه خبرا یقینا لشك فیه المؤرخون أو جزموا بانکاره ، اذ كان مجموعه من النقاد والرائب يكذب بعضها بعضا ولا يتصور العقل لأول وهلة أنها تصدر من انسان واحد ذلك هو الحاکم بأمر الله ..

كان يعمr ويغرب ، وكان يلين ويقوس ، وكان ينهى عن المراسم ثم يفرض منها ما يشبه العبادة ، وكان يجيز شعائر أهل السنة وأهل الذمة نم يمنعها ويبيطش بنن يعلنها .. وكان يحرّم المباح ويبيع الكفر البوح ، وكان يبدل الليل بالنهار والنهار بالليل ، فمن فتح دکانا بالنهار جلدہ ومن أغلق دکانا بالليل رماه بالعصيان ، وكان يعتق العبيد والاماء ويفرق عليهم الهبات والأرزاق ثم يستعيد الأحرار ويدينهم بما يأنف منه الأرقاء ، وكان يخرج الى غیران الجبل في الظلام ويختبئ في حجرات قصره منذ مشرق الشمس الى المغيب ، وكان يدعى علم الغيب ويعاقب من يحرس ماله ومتاعه كأنه يشك فيه ، ثم يحاسب على الصغائر التي يغفرها المنتطسو ..

قال ابن خلدون : « ان حاله كان مضطربا في الجور والعدل والاخافة والامن والنسل والبدعة ». وقال ابن خلگان : « انه كان جوادا سمحا ، خيشا ماکرا ، ودیء الاعتقاد ، سفاكا للدماء ، قتل عددا من کبراء دولته صبرا ؛ وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت امورا وأحكاما يحمل الرعية عليها .. »

ولم يذكر عن ملك في أحوال العقيدة ما ذكر عن هذا الحاکم بأمر الله : وبأمره ، وبأمر المأمورين والأمراء

فمن مؤرخي القبط من يقول انه مات على النصرانية ، ومنهم من يقول انه كان يعبد المريخ ويتوهם انه يراه ويتحدث اليه ، ومن مؤرخي السنة من يقول انه ادعي الريوبية ، ومن أتباعه اليوم من ينفي الموت عنه ويزعم انه صعد الى السماء ليعود الى الأرض في آخر الزمان ، وأطبقت النقاد على تاريخ حياته بتاريخ وفاته ، فلم يعلم أحد متى مات وكيف مات

وفي رأينا بعد هذا ان سيرة العاكم هي أتعجب السير وأوضحت السير  
في وقت واحد ...

هي أعجبها في موازين النصوص والأوراق ; وهي أقلها عجبا في ميزان  
علم النفس الذي لم ينفصل عن التاريخ قط في الكلام عن دولة كما انفصل  
عنه في الكلام على ملوك هذه الدولة

واضح من تطبيق علم النفس على أعراض هذا الرجل أنها حالة من  
حالات الهوس بالأسرار أو الحالات التي تعرف بهوس الفموض

Mystic Hallucinosis

أصحاب هذه الحالة مستغمضون مولعون بالأسرار ، يفرطون في التفاؤل  
والتشاؤم لا يمانهم بالرموز واعتقادهم أن الغيب يتحدث إليهم عن  
مكانته بتلميحات من الحوادث والمعانى المزدوجة التي تحصل في أطروائهما  
ما ينتمى عليه ظاهرها للعارفين ، وإذا غلا الظن بأصحاب هذه الحالة كانت من  
الحالات التي تختلط ببروح الاضطهاد ، فيقع في روع المريض أن النّنس  
بضمرون له الشر ويتعقبهم بالتجسس والاستطلاع ، وينتقم منهم للوهم  
العارض والشبيهة الكاذبة ، لأنّه يصدق كل خبر عنهم غير الخبر الصراح  
ويسكن التهوسون بالأسرار إلى مناظر الظلام ، ويستهويهم الليل  
بخفاياه ، وتروقهم الوحدة في الخلوات ..

وليس المصاب بهذه الحالة مجذونا ذاهل الحس عما حوله في جميع  
الأوقات ، بل هي نوبات تمرّرها ولا تمنعه أن يبدع ابداع العباءقة  
وملوهويين في بعض الفنون

أما علة هذا المرض فأنصار فرويد يرجعون بها كعادتهم إلى صدمات  
الطفلة وأزماتها التي ترتبط بالجنس على الخصوص ، فتكمن في الوعي  
الباطن وتتمكن منه على غير علم من ضحيتها ، حتى تنفجر دفعة واحدة  
أو رويدا رويدا في مقبل الشباب

وغير « الفرويديين » يعلوّنها باضطراب الحواس ولاسيما حاسة  
السمع وحاسة البصر ، فيتوهم المريض أنه يرى ويسمع ما ليس يراه  
الأصحاء ولا يسمعونه ، ويحدث أحياناً أن ينظر إلى الشيء الماثل فلا يراه

ويصنف الى الصوت البين فلا يسمعه ، وقد يتتفقون مع جماعة فرويد في الرجوع بالصلة الى صدمات الطفولة وأذماتها دون أن يربطوها بالمسائل الجنسية ..

هذه الأعراض كلها ظاهرة فيما روى عن الحكم من شتى المصادر ، ولم يكن الحكم بعزل عن البيئة التي تندس فيها الآفات الى نفس الطفل الناشئ ، فقد نشأ الحكم كما أسلفنا في عهد دسائس القصور وسياسة العریم ، وتركه أبوه وهو في الحادية عشرة من عمره وأقام على وصيته ثلاثة متنافسين هم الملوك برجوان والقاضي محمد بن النعمان والحسن بن عمار رعيم قبائل البربر من كتامة ، وأول هؤلاء برجوان كان غارقا في دسائس القصور وسياسة العریم

وقد أحاطت هذه الدسائس بالحكم وهو في سن الخطر ، لأنه لم يكن من الطفولة بحيث يجعل ماحوله ، ولم يكن من الفتولة بحيث يدرك ما يحيط به ويملك الوسائل الى استطلاعه . كان في الحادية عشرة وكانت كل خفية من خفايا الدسائس تفريه بالتلطع وتوسوس له بالريبة والتساؤل . فإذا كان مع هذا قد نشأ في بيته التنجيم وكبر وهو يصنف الى أحاديث الباطن والظاهر وأسرار الفيوب التي تتكشف للواصلين من الأئمة ، فلا عجب في ابتلائه بتلك الآفة ، آفة الهوس بالاسرار أو الولع بوسائل القهوض ، ثم يجهز على البقية الباقة من عقله أولئك الوزراء والعشراء الذين يتلمسون مواطن الضعف في تقوس الأمراء الناشئين فيمعنون في استغلالها ويفرون في تحسينها وتزيينها ، كما فعل الدرزي والأخرم من حاشية الحكم المقربين ، اذ قيل لهم وسوسوا له بمذهب الحلول وخطابوه مخاطبة الأرباب ، وأطبقت آفة الاطلاع المضل على آفة الاستطلاع المكبوب ..

ولم يكن الحكم من المعرفين في الشهوات فتحتل أعصابه من قبل الأسراف ، ولم يكن يعاور للخبر أو يستطيعها بل كان يحرمنا وينهى عنها ولم يشرب النبيذ الا بالغطاخ طبيبه الذي خطر له أن يعالجها بادخال السرور

الى نفسه في مجالس الغناء مع يسير من الشراب ، وإنما « عرض له كما قال الطيب يعني الانطاكي في تاريخه تشنج من سوء مزاج يابس في دماغه وهو مزاج المرضى الذي يحدث في المانخوليات واحتاج في مداواته منه إلى جلوسه في دهن البنفسج وترطيبه به ، وإن كثرة سهره أيضاً وشغفه بمواصلة الركوب والهيمان الدائم مما يتقتضيه هذا السوء المتقدم ذكره ، وإن أبياً يعقوب أشحاق بن إبراهيم بن انسطاس لما خدمه استماله إلى أن تسامح في شرب النبيذ وسماع الأغانى بعد هجره لها ومنع الكافنة منها ، فانصلحت أخلاقه وترتبط مزاج دماغه واستقام أمر جسمه ، ولما مات أبو يعقوب وعاد إلى الامتناع عن شرب النبيذ ومن سماع الغناء رجع إلى ما كان عليه »

تلك هي خلائق العاكم كما يصورها علم النفس ولا يصور لنا فيها شيئاً من تلك الأعاجيب التي يستغربها مؤرخو النصوص والأوراق ، فإن طفلاً يصاب بالتشنج وتحيط به في سن المراهقة دسائس القصور التي تحيط بالملوك الصغار ، وينشأ وهو يسمع الأحاديث عن التجيم وأسرار البواطن والغيوب ، ثم يتلى من حوله بالمترافقين والمتقين عن مواطن الضعف في نفسه الحائرة — غير بداع أن يصاب بهوس الأسرار وأن تصدر منه تلك النقايس التي ينساق فيها على الرغم منه أو التي ينساق فيها مختاراً لأنه يتوهّم أنه يروض نفسه بالتحقّف والتمهّد ، وحمل الناس عليها والتقارب إلى الله بعقارب من ينحرف عنها ، فتكتشف له الحجب التي لا تزال مسدلة دونه ، ويتم نفسيه كلما خفيت عليه مساراتها بنقص في الرياضة وقصور في العبادة ، فلا يزال دهره بين خشوع العابد ومحاولته اليائس وقلق العائز وأيام المستريح إلى الظفون ، ودعوى المصدق لما يلقى عليه مما يستريح إليه

وسواء صحي أن نكبة العاكم كانت أحدى جرائم « العريم » ودسائس القصور أو كانت نكبته جريمة المرض وحده فقد صدقت فراسة المعز في عاقبة التكثير من الزوجات والجواري وأخذت سياسة القصور تشعب

وتشتري حتى تناولت كل شيء في الدولة والمجتمع ، وكانت جرائرها آخر الأمر شرًا قائمًا بذاته وثرا محسوبا عليه سائر الشرور ، لأنَّه كان حائلًا دون انتقامتها ومنعها كما كان حائلًا دون معالجتها بعد وقوعها فمن جراء دسائس القصور تعددت قوى الجيش وشجرت بينها نوازع الشقاق تبعاً لاختلاف الأحزاب في كل حريم ، فكان للدولة قوة من الترك وقوة من السودان إلى جانب القوة التي كانت لها من البرير والعرب ، وأصبح حرس الأمن أول المزعجين للأمنيين ولأنفسهم وللقيادة والحكام ولم يمض غير جيل واحد على قيام الدولة في مصر حتى ابتليت بسياسة « البيروقراطية » أو تحكم الدواوين فوق ما ابتليت به من سياسة الحرير ..

وبسبب هذه الآفة ولالية بعض الخلفاء في سن الطفولة وولاية خلفاء آخرين كالاطفال وان بلغوا مبلغ الرجال . فقد ركزوا إلى ترف التصور وقنعوا من الوزراء بجلب المال إليهم كلما طلبوه ، فقبضن الجباة ورؤساء الدواوين والوزراء على أزمة الثروة وعلى أزمة السياسة وطمعوا لأنفسهم ولسدادتهم فاستباحوا المصادر وجمع الاتوات من الرشوة والارهاب عدا ما يجمعون من الضرائب في غير موعد والمصائب لا تأتى فرادى كما يقال ، فان الماجاعة من الداخل وهجوم الصليبيين وغير الصليبيين من الخارج قد أصابا الدولة بعجز فوق عجز حتى تذرع إليها التماسك والدفاع ، فحق عليها القول

وقد سمي عصر الخليفة « المستنصر » بالعصر الذهبي في الدولة الفاطمية مع ما كان يتخلله من القحط والمجاعة والوباء ، وما سمي عصره بهذا الاسم لأنَّه صنع فيه شيئاً خلال ستين سنة قضاها على العرش منذ جلس عليه وهو في السابعة ( سنة ٤٢٧ هجرية ) إلى أن مات وهو يدلُّ إلى السبعين ، ولكنه كان عصرًا كموسم الحصاد الذي تبرز فيه الثمار والأحوال وتتضاعج فيه المسئل وما يحملها من المشيم الذي ستدره الريح بما قريب أو تطعمه النار ذات الوقود

فلا مات تعاقب بعده على الخلافة من لا يحسب من البناء ولا من الهدمين ، وإنما هو مهدم تداعى تحته قواعد الملك ، وقد يفارقها وهو قتيل ..

وكأن بنو أيوب قد أخذوا بزمام السلطان في مصر قبيل انتهاء الدولة الفاطمية ، فلما استقر الرأي في أيام صلاح الدين على الدعاء لل الخليفة العباسى بدلاً من الخليفة الفاطمى الملقب بالعاشر ، تجاوبت المنابر بالدعاء الجديد ولم يعلم به الخليفة الذى تحول عنه الدعاء ، لأنّه كان يوجد بنفسه في مرض الوفاة ، فكانت سنة سبع وستين وخمسينائة للهجرة هى خاتمة الأجلين : أجل الخليفة الذى عمر أحدى وعشرين سنة ، وأجل الدولة التى عمرت بين المغرب ومصر مائتى سنة وسبعين

وقد عزل أمراء الدولة بعد موت عميدها متفردين ليترضوا بغیر عقب ، وقال المقرىزى عن صلاح الدين وال الخليفة الأخير : « وأضعف العاشر باستنفاد ما عنده من الأموال فلم يزل أمره في ازيداد وأمر العاشر في نقصان ... ومنع العاشر من التصرف حتى تبين للناس ما يريده من إزالة الدولة ... فلم يبق للعاشر سوى اقامة ذكره في الخطبة .. هذا وصلاح الدين يوالى الطلب منه كل يوم ليفضعه ، فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك حتى لم يبق عند العاشر غير فرس واحد فطلبه منه وألجه إلى ارساله وأبطل ركوبه من ذلك الوقت وصار لا يخرج من القصر .. »

هذه قسوة لم يحسبها التاريخ على صلاح الدين ، لأنّها من قسوة الزمن وجناية الأسلام على الأخلاف ، أو هو قد حسبها في حساب الموازنـة بين المناقـب والمعـائب ، وبين حـكم المـروءـة وحـكم السـيـاسـة المـشـنـوـة ، وبين القـضاـء الـذـي يـجـرـيـه صـاحـبـه ، وـالـقـضاـء الـذـي يـجـرـيـه قـاضـيـه فـيـجـزـيـه وـكـانـه يـعـاقـبـه ، فـرـجـحـت كـفـة الـاقـبـال وـهـو دـائـم الـرجـحانـ وـدـالـت دـوـلـة الـزوـال فـشـالت كـفـتها فـيـ مـيزـان الـزـمانـ



# حَضَارَةُ مُخْضَرَةٍ

اذا استثنينا الحضارات المصرية الأولى في أيام الفراعنة جاز أن يقال ان حضارة مصر في عهد الفاطميين لم يعرف لها نظير بعد الميلاد ، ولا استثناء لمهد البطالسة ، لأنه عهد غلبت فيه الصبغة الأجنبية على الصبغة الوطنية ، خلافاً للحضارة في أيام الفاطميين ، فان صبغتها المصرية كانت غالبة على كل صبغة ، ومن ثم لم تكرر في وطن آخر على هذه الصورة ، وبقيت مصر على مذهبها الديني الذي كانت عليه قبل قيام الدولة بين ربوعها ..

وتصدق كلمة الحضارة هنا على كل حضارة تفاس بمقاييس التقاقة أو مقاييس الصناعة أو مقاييس الثروة أو مقاييس الشؤون الاجتماعية فلم توجد في مكتبة بعد مكتبة الاسكندرية خزائن للكتب كالغزائن التي وجدت في القصر الشرقي وتفاوت تقديرها بين ستمائة ألف مجلد و مليونين ، حسب اختلاف التقدير على ما يظهر بين عدد الكتب وعدد النسخ ، وقد كان فيها بعض الكتب عشرات من النسخ للإعارة أو الأطلاع ..

وتنافست التصور في اقتناء الكتب النادرة ، فكان في كل قصر مكتبة تحتوى عشرات الآلاف من كتب الفقه والأدب والرياضيات والطب وسائر العلوم ..

وكان الخليفة يزور المكتبة العامة من حين الى حين فيترجل ويضع نعليه ، وتعرض عليه الكتب الواردة لياذن بوضعها في الرفوف وأنشئت دار الحكمة ودار العلم . هذه للمتعلمين وتلك للمعلمين ، وفتحت فيما مجالس المناقضة والمحاضرة ، يخصص منها قسم للرجال

وقد للنساء ، وتنقل المراة أحياناً إلى قصر الخليفة فيشترك فيها أو يشرف عليها ، ويأذن لكل ذي رأى أن يدل إلى برأيه فيها ، وإن خالف به جماع الآراء ..

وتشاعت بين العامة ثقافتهم التي ترضيهم من ملامح التاريخ المنشور أو المنظوم ، فلم يكن مجلس من مجالس السمر العامة يخلو من القصاصين أو الشعراء المنشدين ، يسمعون جميرة الناس طرفاً من التاريخ الشعبي والقصص الشعبية ، عدا مجالس الوعظ والتقويم التي تفتح للقصداد في المعاهد أو المساجد من صلاة الفجر إلى صلاة العشاء

وفي عهدهم أصلحت الدواوين ونظمت وسائل الرى وأعيدت مساحة الأرض وفكروا في بناء الخزان عند أسوان ..

وتقدمت الفنون والصناعات ، وتنافس القانون والصناعة في هندسة البناء ، وفي النّقش على الجدران والحفريات على التجارة الكريمة ، وشوهدت رسوم على النسيج تحكى اللوحات الفنية في دقة التصوير وجمال التلوين ، وبلغ فن التصوير البارز والتصوير الغائر غاية ما يبلغه في عصر من العصور ، وصيفت التماضيل من المعادن والجواهر فأوشكت قيمة المعدن المرتخص أن تناظر قيمة المعدن النفيس بفضل الصناعة والاتقان

وقد ألفوا وصفوا إذا بالغوا في وصف العجائب أن يشبهوها بعجائب ألف ليلة وليلة ، ولكن عجائب ألف ليلة وليلة كانت كالنسخة المنشورة من ذخائر القصور في تلك الحضارة ، لو لا أن نسخة الحقيقة كانت هي الأعجب والأبدع من نسخة الخيال

وكانت التجارة مدة للصناعة لا ينقطع ولا يزال يعطيها كلما أخذ منها ويحثها على التوسيع والمزيد : تأتي السفن من بحار المغرب وبحار الهند والصين بالخامات وتعود بيدائع المصنوعات ، أو تأتي بيدائع المصنوعات وتعود بما هو أبدع وأغلى ، دواليك في مواسم العام كله لاتني ذاهبة آية على مدى الصيف والشتاء

وتعددت المواسم والمحافل الاجتماعية ، وحافظت الدولة الجديدة على

مواسم الأزمنة الغابرة وأضافت إليها ، بعد الغاء النوروز عند مقدم الخليفة المعزى إلى القاهرة عادوا إلى الاحتفال به وأضافوا إليه الاحتفال بالنطاس وخميس العهد وأعياد الربيع ، وأحصى من مواسم العام غير ذلك رأس السنة ويوم عاشوراء ومولد النبي ومولد الإمام ومولد آل البيت ، وليلالي الوقود وهي ليال من رجب وشعبان يحتفل بها قبل نوافل الصيام ..

وتناه了一 الليل ومحاذف النهار ، ولا سيما في شهر رمضان وليلى الأعياد ، وعود الخلفاء الشعب أن يستضيغوه ويمدوا له الأسمطة ويخرجوا إليه يحيونه ويتلقون منه التحية ، وأصبحوا الواقدون إلى مصر يحسبونها أمّة فرّغت للمواكب والمحاذف والأسمار

ولم يكن قصارى ما في تلك المواكب أنها مظاهر لهو وفراغ تعطل فيها الأعمال وتتسى فيها تكاليف المعيشة . بل هي كانت في حقيقتها معارض للفنون والصناعات ، يسير فيها أصحاب كل فن وصناعة على نظام معروف ، ويتقدم كل طائفة نقشها وأساتذتها يتربّون بمفاخر فنونهم وصناعاتهم ويعلنون عنها ويدلون عليها ، ومن هذه المواكب ما يبقى إلى اليوم في زفة رمضان وزفة الحمل وزفة جبر البحر ، ومن تلك المحاذف ما يبقى في طلة رجب ونصف شعبان وغيرها من ليالي الذكرى للأموات والزيارة للأحياء لا جرم كانت مصر إبان هذه الحضارة ملتقى الرواد والقصد ، ولا جرم تحفل قصور الخلفاء والكتاباء بمن يقصدون رحاب ذوى السلطان في كل زمان ومكان ، وأولهم السياح والشعراء

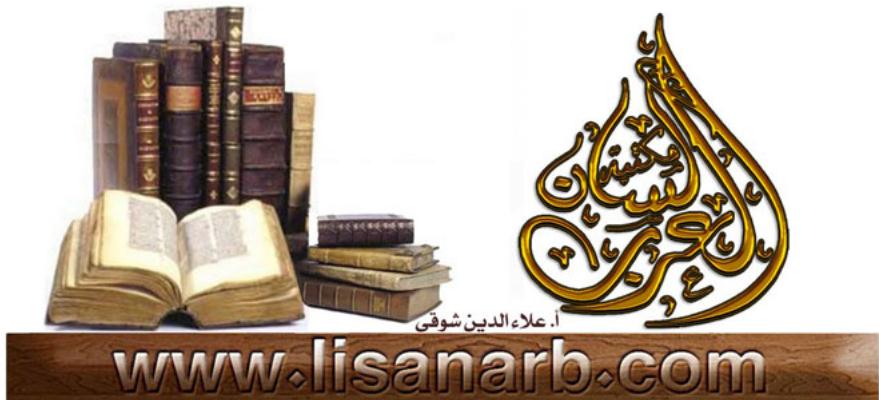
فما من رحلة أنجيه العالم الإسلامي لم يتخد من مصر مقاماً أو مزاراً في تلك الأيام ، وما من قصر من قصور الملك في الشرق والمغرب عمر في ذلك العصر بمثل ما عمرت به القصور الفاطمية من الشعراء والأدباء

· وأوصى الخلفاء والأمراء شعراءهم بالإيجاز لازدحام القالة وكثرة المقال ، وزادوهم في الجباء لكيلا يقال أنه قصد في العطاء لا قصد في الثناء ، فقال أحدهم ابن مفرج يخاطب الخليفة الحافظ :

أمرتا أن نصوغ الملح مختبرا  
 لم لا أمرت ندى كفيك يختصر  
 ومن شعرا العصر من كان على خلاف مذهب الشيعة وكان يجهر  
 بهذه المخالفة كعمارة اليمني الذي قال :  
 مذاهبيم في الجود مذهب سنة  
 وان خالقونى في اعتقاد التشيع  
 وهو الذى بضم نفسه على آثارهم وأوردها مورد الملاك أملأ في  
 نصرتهم واستعادة مجدهم ، فهو أحق الناس بوثائهم ، وقصيدةه التي قيل  
 فيها أنها أبلغ ما نظم في رثاء دولة هي أحق ما نودع به عمرائهم المحجور :  
 لمنى ولهم بنى الآمال قابلية  
 على فجيئتها في أكرم الدول  
 قلمنت مصر فأولتني خلائئها  
 من المكارم ما أربى على الأمل  
 مررت بالقصر والأركان خالية  
 من الوفود وكانت قبلة القبل  
 فقللت عنها بوجهي خوف مستقد  
 من الأعداء ووجه الود لم يمل  
 أسلت من أسفي دمعي غداة خلت  
 رحابكم وغدت مهجورة السبل  
 أبكي على ماتراءت من مكارمكم  
 حال الزمان عليها وهي لم تحل  
 دار الضيافة كانت أنس وافدكم  
 واليوم أوحش من رسم ومن طلل  
 وكسوة الناس في الفصلين قد درست  
 ورث منها جديد عندهم وبلى

وموسم كان في يوم الخليج لكم  
يأتى تجلبكم فيه على الجمل  
وأول العام والعيدين كان لكم  
فيهن من وبل جود ليس بالوشل  
والارض تهتز في يوم العذير كما  
يهتز ماءين قصريكم من الأسل  
والخيل تعرض في وشى وفي شية  
مثل الرئيس في حلى وفي حل  
وما حملتم قرى الاضيف من سعة الا  
طباقي الا على الاكتاف والسبيل  
وما خصتم بغير اهل ملتكم  
حتى عصتم به الاقصى من الملل  
كانت رواتبكم للذمتين وللضـ  
سيف المقيم وللطارى من الرسـ  
ثم انطراز بتيس الذى عظمـ  
منه الصلات لأهل الارض والدول  
باب العجاة هم دنيا وآخرة  
وجهم فهو أصل الدين والعمل  
واله ما زلت عن حبي لم أبدا  
ما أخر لله لى في مدة الأجل  
ولم يؤخر له في الأجل ، فاقتضى أجل الترلة في سنة سبع وستين  
وخمساً واثنتين وأقتضى أجل شاعرها في سنة تسعم وستين وخمساً واثنتين

« قُلْ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمُلْكُ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ  
الْمُلْكَ مَمَنْ تَشَاءُ وَتَعْزِيزُ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْهِي مَنْ تَشَاءُ . بِيَدِكَ  
الْخَيْرُ . إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .



# الفهرس

## فهرس

### عنيقرة الإمام على

صفحة

١١	تقديم
١٥	صفاته
٢٩	مفتاح شخصيته
٣٥	اسلامه
٤٢	عصر الامام
٥٥	اليقنة
٦٩	سياسة
٧٧	حكومته
٧٩	النبي والامام والصحابة
١٣٣	ثقافته
١٤٩	في بيته
١٥٤	صورة مجملة

فہرست

## فهرس

### فاطمة الزهراء والفاتاطيون

صفحة

٢٩٠	.....	تمهيد
		القسم الاول : فاطمة الزهراء :
٢٩٤	.....	ام الزهراء .....
٣٠١	.....	شأتها .....
٣٠٤	.....	زواجها .....
٣١٨	.....	بلغتها .....
٣٢٤	.....	في الحياة .....
٣٣١	.....	وفاتها .....
٣٣٦	.....	شخصية الزهراء .....
٣٤٠	.....	الذرية الفاطمية .....

**القسم الثاني : والفاتحيميون :**

٣٤٦	الفاطميون
٣٥٣	النسب
٣٦٣	الباطنية
٣٧٦	الباطنية الفاطمية
٣٩٤	حسن بن الصباح
٤١١	السرية الباطنية
٤١٦	بناء وهدامون .. ومهدومون
٤٢٧	المعز الدين الله
٤٤١	حضارة مختصرة



مكتبة لسان العرب